بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القــرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : محمد بن حسن بن عقيل موسى كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : الكتاب والسنة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : ((الدكتوراه)) في تخصص : الكتاب والسنة

عنوان الأطروحة : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام جلال الدين السيوطي منهجه ومنزلته بين كتب الإعجاز دراسة تقويم ومقارنة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٣/١/١٤١٧هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ،وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ عبد الستار فتح الله سعيد	الاسم : د. عويد بن عياد المطرفي	الاسم : د. عبد الحي حسين الفرماوي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم

الاسم :

التوقيع :

١/١/٢/٦

• توضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة و أصول الدين
الدراسات العليا الشرعية
قسم الكتاب و السنة

" معترك الأقران في إعجاز القرآن "

للإمام جلال الدين السيوطي
منهجه و منزلته بين كتب الإعجاز

دراسة نقدية و مقارنة

إعداد الطالب
محمد بن حسن بن عقيل موسى

بحث مقدم لنيل درجة " الدكتوراه "
من قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى

إشراف فضيلة الأستاذ الدكتور
عبد الستار فتح الله سعيد
حفظه الله

١٤١٦هـ/١٩٩٦م

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذه دراسة شاملة لكتاب الإمام السيوطي : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) وهي دراسة نقدية ومقارنة ، تقدمت بها إلى قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى للحصول على درجة ((الدكتوراه)) .

وقد ابتدأتها بمقدمة بينت فيها حاجة البشرية لهدي القرآن ، ودليل صدق هذا القرآن ، وهو إعجازه ، والحاجة لإظهار هذا الإعجاز ، ثم بينت سبب اختياري هذا البحث وخطة العمل فيه .

وقد قسمت البحث في هذه الرسالة إلى أربعة أبواب ، الباب الأول بعنوان ((الإعجاز القرآني وأوجه دراسته عند العلماء قبل الإمام السيوطي)) وقد تحدثت في فصله الأول عن مفهوم الإعجاز القرآني ، وتاريخ التدوين فيه ، وفندت شبهات القائلين بـ ((الصرفة)) .

وقد درست في فصله الثاني طرائق التدوين في الإعجاز ماكان منه مبثوثاً في الكتب أو مستقلاً بالتصنيف .

أما الباب الثاني فقد خصصت فصله الأول للحديث عن الإمام السيوطيّ : عصره وحياته وآثاره ، وأما الفصل الثاني فقد كان للحديث عن كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ومنزلته العلمية .

أما الباب الثالث فقد خصصته للحديث عن منهج المؤلف في كتابه ، حيث بينت في الفصل الأول منه وجوه الإعجاز التي ذكرها الإمام السيوطي وعلقت عليها ، أما الفصل الثاني فقد بينت فيه منهج الإمام السيوطيّ في عرض وجوه الإعجاز ، ودرست في الفصل الثالث أهم القضايا العلمية في كتاب ((معترك الأقران)) .

أما الباب الرابع – خاتم الرسالة – فقد قارنت في الفصل الأول منه بين كتاب الإمام السيوطي وكتب المؤلفين السابقين عليه في الإعجاز ، والفصل الثاني خصص للمقارنة بين كتاب الإمام السيوطيّ وكتب من جاء بعده .

وقد ختمت الرسالة بخاتمة تحوي خلاصة البحث وبعض المقترحات ، وعدداً من النتائج ، كان من أهمها :

١- عِظَم تأثير القرآن في قارئيه وسامعيه ودارسيه ، وأن هذا التأثير المعجز هو الذي دفع العلماء لدراسة الإعجاز القرآني ووضع المصنفات فيه .

٢- قد صنفت في القرن الرابع عشر الهجري دراسات مهمة كان لها أثر قويّ في بيان وتقويم جهود المصنفين في الإعجاز عبر القرون ، لكن مازالت الحاجة ماسّة لدراسات أكثر تعمقاً وأوسع تناولاً لظاهرة الإعجاز ونقد ما صنف فيها .

٣- أحاط الإمام السيوطيّ في كتابه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) بأكثر أوجه الإعجاز ، وأتى ببعض الأوجه التي تُعدّ جديدة ، وأبرز بعض الأوجه التي ذكرها مَن قبله في حُلة جديدة .

٤- ذكر الإمام السيوطيّ بعض أنواع من علوم القرآن وأصول الفقه على أنها من أوجه الإعجاز ، ولم يكن لها – بعد الدراسة والبحث – تعلق معقول بالإعجاز .

ثم وضعت في نهاية الرسالة جملة من الفهارس الكاشفة .

هذا والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

الطالب	المشرف : الأستاذ الدكتور	يعتمد : عميد كلية الدعوة وأصول الدين
محمد بن حسن بن عقيل موسى	عبدالستار فتح الله سعيد	الدكتور / عبدالله بن عمر الدميجي
	١٤١٧/٤/٩	

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا للإيمان ، ومنّ علينا بدين الإسلام ، وجعل كتابنا أحسن الكتب المنزَلة، كما جعل رسولنا أعظم الرسل المرسلة ، وأيده بمعجزة القرآن ، الباقيةِ على مر الزمان ، لأنها تخاطب الإنسان في كل مكان ، وتحاور العقول والقلوب في كل آن ، وتتجلى للأسماع والأبصار على تعاقب الليالي والأيام .

أحمده سبحانه أبلغ الحمد وأزكاه ، وأشملَه وأنماه ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، والمُهدى دليلاً للحائرين ، سيدنا محمدٍ خيرِ ولد آدم أجمعين ، صلاة وسلاما كاملين تامين عطرين يليقان بسيد المرسلين ، وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأبرار ، ومن تبعهم من الأخيار ماتعاقب الليل والنهار .

وبعد :

فإن كتاب الله نور وضياء ، وهدى وشفاء ، فتح الله – تعالى – به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وهدى به من الضلالة ، وبصّر به من الجهالة ، جعله إماماً للمتقين ، وحجة على الكافرين والضالين ، من تمسك بأحكامه فله الحسنى وزيادة ، ومن جعله وراء ظهره فقد خسر الريادة ، وفقد السعادة ، فلينتظر عاقبة أمره ، وليحذر من غضب الله ومكره .

ولما كان القرآن كذلك فقد اعتنى به الصحابة والسلف ، وتناقله الناس خلفاً عن سلف ، همة أحدهم حفظ حروفه وإقامة حدوده ، وتفهم معانيه ومعرفة مراميه ، وأقبل عليه العلماء والدارسون ، فاستنبطوا منه شتى العلوم والفنون ، وعظّمه العابدون الزاهدون فأحيوا به ليلهم والناس نائمون ، وشغلهم بالنهار والخلق عنه غافلون ، وعلم قدرَه المجاهدون فانطلقوا به يغزون

ويفتحون ، كي يعرف الناسُ منه مايعرفه المسلمون ، ويزولَ عنهم الظلم الذي أرهقهم به الظالمون ، والغشاوةُ التي نسجها على أبصارهم الجاهلون .

ولما نظر الله إلى قلوب السلف فوجدها متعلقة بالقرآن ، مملوءةً بالإيمان مكن لهم في الأرض وهزم أعداءهم ، وأورثهم الكافرين : أرضَهم وديارَهم وأموالَهم ، فخضعت لهم الدنيا وانقادت ، وسلمت لهم مقاليدها بأمر ربها فرحاً وازدانت ، فصارت مبادىء القرآن هي السائدةَ في العالمين ، واستُبدل حكم الله - تعالى - بحكم الشياطين ، وسعد المسلمون والناس بذلك أزمانا متطاولة ، ثم وسوس لهم الشيطان فتركوا حكم القرآن ، فمضت فيهم سنة الله التي لاتتبدل ، وصار يتحكم فيهم الأقل الأرذل ، وكان الذي خاف الصالحون أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وإنه لارجعة إلى العز والتمكين إلا بتحكيم هذا الكتاب المبين ، ونبذِ قوانين الكفرة والجاهلين ، عسى الله أن يضيء بنا مرة أخرى العالمين ، ويمكنَ لنا في الأرض ويجعلَنا أئمة ويجعلنا الوارثين ، إنه سبحانه أعظم مأمول وأكرم مسؤول .

وإذا كان القرآنُ العظيم في المحل الأقدس ، والمكانِ الأرفع الأطهر عندنا - معشر المسلمين - لِما وقر في قلوبنا من أنه كلام رب العالمين ؛ فإن الكافرين والمعاندين قد لايتبينون له هذه المنزلة ، جحداً منهم أن يكون كلامَ الله - تعالى - وتنزيلَه الأخير ، السالمُ من التحريف والتغيير ؛ لذا فقد جعل الله - تبارك وتعالى - في القرآن دليلاً على صحته ، وبرهاناً على عظمته ، وذلك بما أودعه ، تعالى ، فيه من صنوف الإعجاز الدالِّ على أنه من عنده - سبحانه وتعالى - وأنه لا يُسامى ولا يجارى .

ومع أن الناس في العصور السالفة كانوا أحسن إسلاماً وأعمقَ إيماناً منا - في الجملة - فقد حرص العلماء على بيان الإعجاز القرآني لهم ، وأن هذا

الكتابَ تنزيل من الله العزيز الحكيم ، حتى تمتلىء قلوبهم يقيناً بهذا الكتاب العظيم فيُهدوه إلى العالمين .

ولما كان هذا العصرُ عصرَ إيمان مطلق بالمحسوس ، وإعراضٍ – عند كثير من الناس – عن الغيب ورسالاتِ الرسل كان من الواجب على المسلمين إبرازُ عظمة الإسلام ، وأنه الدين الذي ارتضاه الخالق – سبحانه – لعباده ، وإظهارُ عظمة كتابهم ومافيه من صنوف الإعجاز المبرهن على أنه من عند عليم خبير ، سبحانه وتعالى ، فإذا ظهر للناس أن القرآن معجز وأنه من عند الله قامت عليهم الحجة ، وظهرت لهم المَحَجّة ، فدخل السعداء منهم في دين الله أفواجاً ، واطمأنت نفوسهم لهذا الدين ، ومن هنا تظهر أهمية البحوث الموضوعة لإظهار الإعجاز وبيانِ تفرد هذا الكتاب بالحفظ الإلهي .

وأدلف من هنا إلى بيان **أهمية هذا الموضوع** :

معرفة الإعجاز القرآني ، وإدراك عظمة الكلام الرباني من أهم المعارف وأشرفها ، ومن أجلّ العلوم وأعظمها ، فمن نظر في إعجاز هذا الكتابِ المبين وتضلع من معانيه ظهر له قدرُه ، ووضحت عنده أهميتُه وفضله ، وقديما قيل : شرف العلم يتعلق بشرف المعلوم ، والمعلوم هنا هو كتاب الله – تعالى – وكلامه ، ووحيه وبيانه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي لم يسمع بمثله بشر ، ولايصل إلى عظمة تشريعه مذهب أو قانون .

فإظهار الإعجاز في هذا الكتاب العظيم وبيان العظمة في مبانيه ومعانيه من الأمور الواجبات والمهام المطلوبات في كل زمان ، و في هذا الزمان خاصة ؛ لأمور منها :

أولاً : تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين بهذا الدين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم بهذا الكتاب المبين ، فيحملوه للناس شِرعةً ومنهاجاً ، ودعوةً وبياناً ، فلا تستطيع مناهج الضلال المزخرفة أن تفتنهم عن هذا الحقِ الذي يعلمون جلاله وعظمته ، ولعل هذا هو مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1] .

فليس كإيضاح الإعجاز للناس مثيلٌ في زيادة يقينهم بالله - تعالى - وبأن هذا الكتابَ لابد أن يكون من عنده ، سبحانه وتعالى ؛ وأشهد أني قد عرفتُ من هذا الكتاب العظيم - في نفسي - بعد دراستي لبعض جوانب إعجازه مثلَ هذا الأثرِ الجليل ، وفهمت لماذا اقشعرت لسماع آياته جلودُ الصحابة ثم لانت ، وبكوا عند سماعه وفاضت عبراتهم وسالت ، وتيقنت قلوبهم من صدقه وعظمته ، فبذلوا من أجله النفس والنفيس ، رضي الله عنهم أجمعين.

فنحن - اليوم - في حاجة إلى إظهار هذا الإعجازِ للمسلمين وبيانِه ، حتى يخضعوا لأحكامه ، وينافحوا عن حدوده ، ويرغبوا فيه كما رغب أسلافهم .

ثانياً : إظهار إعجاز القرآن وبيانُ أنه قطعاً كلام الله - تعالى - سببٌ عظيم من أسباب هداية الكافرين وجذبهم لهذا الدين ، والأمثلة على هذا - في عالمنا اليوم - كثيرة ؛ خاصة في مجالات الإعجاز العلميّ و التشريعيّ[2] .

ثالثاً : إظهار الإعجاز القرآني في جوانبه المختلفة - خاصة الإعجاز العلمي والتشريعيّ والبيانيّ - هدايةٌ وتبصرة لهذا الخَلْف من أبناء جلدتنا المنكود ،

١- سورة التوبة : آية ١٢٤ .

٢- انظر - مثلاً - كتاب ((المعجزة القرآنية : الإعجاز العلمي والغيبيّ)) : للدكتور محمد حسن هيتو : ١٤٥-٢١٩ ، وانظر - أيضاً - ((دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)) لموريس بوكاي .

الذين كانوا ضحية الفكر الوافد الكافر فردوا ماجاء به القرآن من شرائعَ وحدود ، تحت دعاوى زائفةٍ لاحصر لها ، فإذا ظهرت لهم أنوار الحق ، وأدركوا الفرق بينه وبين ظلمات قوانين الغرب والشرق ، رجعوا إلى كتاب الله - تعالى - مذعنين راغبين مصدقين .

هذه بعض جوانب أهمية إظهار إعجاز القرآن الكريم في هذا الزمان .

وقد يقول قائل :
ما أهمية تناول الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، ودراسة كتب الأقدمين فيه والحال إن غالب الناس اليوم لايتذوقون اللغة العربية الفصحى ولا يفهمون مراميها وأسرارها ؟

والجواب من ثلاثة جوانب :
أما الجانب الأول فهو أن هذا الموضوع ذو طبيعة تخصصية وعلمية منهجية ، فهو يهم الباحثين بالدرجة الأولى ؛ إذ هم الحريصون على جمع شتات ومتفرقات الموضوع المطروق في أزمنته المختلفة .

وأما الجانب الثاني من الجواب فصحيحٌ أن الناس في زماننا قد ضعفت عندهم ملكة تذوق الفصحى ضعفاً عظيماً ، وأصبحوا لايفهمون أسرار بلاغتها ، ولا يدركون جوانب جمالها - إلا القلة القليلة - لكن إذا عرف أبناء العصر أن أسلافهم ، مالكي أَزِمَّة البلاغة والفصاحة ، قد عجزوا أمام هذا القرآن العظيم ولم يستطيعوا معارضته ، وأدرك أهل زماننا العجز التام الذي كان مستولياً على الأوائل حيال ما جاءهم به النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إذا أدركوا ذلك وعرفوه سلّموا بما سلّم به أسلافهم ، وكانوا لِما عجز عنه أوائلهم أعجز ، ولِما ضعفوا عنه أضعف ، فيعظم يقينهم بهذا الكلام الإلهي المجيد فتصفو نفوسهم من الشبهات ، وترقّ أفئدتهم ويعظم إيمانهم وتصديقهم .

ولا ريب أن إظهار الإعجاز التشريعي والعلمي مما يناسب أهلَ زماننا ، وهم أحوج إليهما من غيرهما ، ولكن مقصودي تعريفهم بما عجز عنه أسلافهم وأنهم هم أعجز إزاءه وأضعف ، فيظهر للناس أن هذا الكتاب العظيم معجز في كل عصر وليس في الزمان الماضي فقط .

الجانب الثالث : قد بقيت في الأمة بقية تمسكت بلغتها ، واطّلعت على أسرار بلاغتها ، وعلمت فضلها وأهميتها ، يسرها الاطّلاع على مثل هذه المباحث اللغوية البيانية ، ويُثلجُ صدرَها كلُّ بحث يكشف عن عظمة القرآن وسمو إعجازه ، وهؤلاء ينقلون إلى الناس ما استشعروه من جلال البيان القرآني ، تأليفا وحديثاً ، ومحاضرة وتدريساً ، فيشيع في الناس علمهم ، وينتفعون بآثارهم ، كما رأينا من بعض الدعاة المعاصرين الآن .

هذا وهناك جوانب أخرى في بيان أهمية تناول هذا الموضوع ستأتي في الفقرة التالية : **سبب اختيار الموضوع :**

كان لاختياري هذا الموضوعَ سببان :
أولهما متعلق بي ، والآخر متعلق بالموضوع وبالكتاب الذي أدرسه :

أما الأول : فقد منّ الله - تبارك وتعالى - عليّ بحفظ القرآن ، ودراسة قراءاته العشر ، ومنّ عليّ - سبحانه - بأن يسر لي الالتحاق بقسم الكتاب والسنة في الدراسات العليا لأنهل من معين القرآن العظيم ، ولما كانت رسالتي في (الماجستير) متعلقة بالقرآن العظيم وقراءاته - أحببت أن تكون رسالتي في (الدكتوراه) متصلة بالقرآن الكريم أيضاً ، لأزداد معرفة به وفهما له ، ورجاء أن أفوز بالخيرية التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :
((خيركم من تعلم القرآن و علّمه))[1] .

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده إلى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه : ٢٣٦/٦ .

أما السبب الآخر : فهو متعلق بالموضوع وبالكتاب ، فلأهمية الموضوع – كما بينت سابقاً – ولأهمية الكتاب اخترت هذا البحث ، وتكمن أهمية الكتاب في الآتي :

أولاً : لم يُدْرس هذا الكتاب : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) دراسة علمية تبين منهج الإمام السيوطيّ في طَرْق موضوع الإعجاز ؛ إذ اشتهرت عند أهل العلم مناهج المتقدمين ممن ألف في الإعجاز كالباقِلاَني والرُّماني والجُرْجاني ، وغيرهم ، رحمهم الله تعالى ، لكن لم يتضح – عند الكثيرين – منهجُ المتأخرين في تأليفهم في الإعجاز ، فأردت توضيح ذلك حتى تظهر جهود المتأخرين في دراسة إعجاز كتاب الله تبارك وتعالى .

ثانياً : كتاب ((معترك الأقران)) كتابٌ جامع مبسوط ، أحاط فيه الإمام السيوطيّ – تقريباً – بما وصل إليه علم المسلمين في إعجاز القرآن حتى زمانه ، فصار من المهم دراسة مثل هذا الكتاب الحاوي لمناهج كثير من المتقدمين والمتأخرين .

ثالثاً : الكتاب مملوء بالأحاديث والآثار مما يعطيه أهمية خاصة بين كتب الإعجاز ويثري مباحثه .

رابعاً : دلّل السيوطيّ – رحمه الله تعالى – على إعجاز القرآن بأمور لم تطرق من قبل إلا قليلا ، أو طرقت بإيجاز واقتضاب فتوسع فيها وأبرزها جلية واضحة .

خامساً : أتى السيوطيّ – رحمه الله تعالى – بعدة وجوه للإعجاز اختلَف في عدّها معجزاً عددٌ من العلماء ، وأتى بوجوه ليست من الإعجاز قطعاً ، فلما صنع

ذلك صار من المهم أن تُدرس تلك الأوجه كلها ، ويظهر تعلقها بالإعجاز القرآني من عدمه .

لهذه الأسبابِ مجتمعةً اخترت هذا الموضوعَ وهذا الكتاب للبحث والدراسة ، راجيا اللهَ أن أنال به الثوابَ والجزاء الحسن في الدنيا والآخرة بفضله ومنّه .

وقد جعلت عنوان بحثي هذا هو :

((معترك الأقران في إعجاز القرآن))
للإمام جلال الدين السيوطي
منهجه ومنزلته بين كتب الإعجاز
دراسة نقدية ومقارنة

خطة البحث وعملي فيه

وقد قسمت البحث فيه إلى : **مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة** :

أما **المقدمة** فتحوي :

١. أهمية الموضوع .

٢. سبب اختياره .

٣. خطة البحث .

٤. عملي في هذا البحث .

و أما **الأبواب** فقد قسمتها إلى فصول تتفرع منها مباحث ومطالب ، وذلك على النحو الآتي :

الباب الأول :

الإعجاز القرآني

وأوجه دراسته عند العلماء قبل الإمام السيوطيّ .

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الإعجاز القرآنيّ مفهوماً وتاريخاً

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : معنى مصطلح الإعجاز القرآنيّ .

المبحث الثاني : نشأة علم الإعجاز وتدوينه وجهود العلماء في دراسته .

المبحث الثالث : القول بـ (الصَرْفة) والرد عليه .

الفصل الثاني : طرائق التدوين في الإعجاز القرآني

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التدوين المبثوث في الكتب :

أ. كتب التفسير .

ب. كتب علوم القرآن .

ج. كتب العقائد .

د. كتب السيرة الشريفة .

المبحث الثاني : التدوين في الكتب المستقلة بالإعجاز .

أ. ((النكت في إعجاز القرآن)) للشيخ أبي الحسن الرمانيّ .

ب. ((إعجاز القرآن)) للقاضي الباقِلاَني .

ج. ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) لفخر الدين الرازي .

د. ((الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) للسيد يحيى بن حمزة العلوي .

الباب الثاني :

الإمام السيوطيّ ودراسة كتابه
((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإمام السيوطي : حياته وآثاره

وفيه تمهيد و مباحث :

المبحث الأول : مولده ، واسمه وكنيته ولقبه .

المبحث الثاني : نشأته وطلبه العلم ، ومشايخه وتلاميذه .

المبحث الثالث : آثاره العلمية في الإعجاز .

المبحث الرابع : منزلته العلمية ، وأقوال العلماء فيه ، وتحقيق ذلك .

المبحث الخامس : اعتزاله الفتيا والتدريس ، ووفاته .

الفصل الثاني : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ونسبته ، ونسخه .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : معنى العنوان وما أثير حوله .

المبحث الثاني : تحقيق نسبة الكتاب إلى الإمام السيوطي .

المبحث الثالث : مخطوطات الكتاب ومطبوعته ، والجهود التي بذلت لخدمته .

الفصل الثالث : محتويات الكتاب ومنزلته العلمية .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مضمون الكتاب وأبحاثه .

المبحث الثاني : منزلة الكتاب العلمية ، وأثره .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : منزلة الكتاب العلمية .

المطلب الثاني : أثر الكتاب .

الباب الثالث

منهج المؤلف في كتابه

(دراسة تفصيلية)

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وجوه الإعجاز التي ذكرها : عرض ومناقشة .

الفصل الثاني : منهجه في عرض وجوه الإعجاز .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : منهجه في تصنيف المادة العلمية وتقسيمها .

المبحث الثاني : منهجه في استعمال المصادر والمراجع ، والاستفادة من أقوال العلماء .

المبحث الثالث : منهجه الاستدلاليّ .

المبحث الرابع : منهجه اللغويّ .

المبحث الخامس : منهجه في تأصيل القضايا الشرعية .

وفيه مطالب :

المطلب الأول : منهجه في العقيدة .

المطلب الثاني : منهجه في التفسير .

المطلب الثالث : منهجه في القراءات .

المطلب الرابع : منهجه في بيان الوقف والابتداء .

المطلب الخامس : منهجه الفقهيّ .

المطلب السادس : منهجه في أصول الفقه .

المبحث السادس : منهجه في ذكر القصص والمواعظ والرقائق .

المبحث السابع : منهجه في ذكر القضايا العلمية المادية .

الفصل الثالث : دراسة أهم القضايا العلمية في ((معترك الأقران)) .

القضية الأولى : قضية الرسم العثماني ، وماجاء عنها في كتاب ((المعترك)) .

القضية الثانية : قضية الفاصلة القرآنية .

القضية الثالثة : قضية الذبيح ، أإسماعيل هو أم إسحاق .

الباب الرابع

المقارنة بين كتاب السيوطيّ وكتب غيره

وفيه فصلان :

الفصل الأول : المقارنة بين كتابه وكتب المؤلفين السابقين عليه .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : المقارنة من حيث المنهج في التأليف .

المبحث الثاني : المقارنة من حيث وجوه الإعجاز وحِكَمه .

المبحث الثالث : المقارنة من حيث الاستدلال .

المبحث الرابع : المقارنة من حيث المصادر والمراجع .

الفصل الثاني : المقارنة بين كتابه وكتب المؤلفين بعده .

وفبه مبحثان :

المبحث الأول : المؤلفات التي سارت على نمط الكتب السابقة .

المبحث الثاني : المؤلفات التي جاءت بأمور جديدة تناسب العصر .

الخاتمة :

وتحوي خلاصة البحث ، والنتائج التي توصلت إليها ، وبعض المقترحات .

الفهارس :

وقد ختمت الرسالة – بفضل الله تعالى – بجملة من الفهارس الكاشفة مع بيان طريقة ترتيب كل فهرس منها ، وهذه الفهارس هي :

١. فهرس الآيات الكريمة .
٢. فهرس القراءات الشاذة .
٣. فهرس الأحاديث الشريفة .
٤. فهرس الآثار .
٥. فهرس وجوه الإعجاز .
٦. فهرس المصطلحات الأصولية .
٧. فهرس المصطلحات العلمية .
٨. فهرس المصطلحات البلاغية .

٩. فهرس الشواهد الشعرية .

١٠. فهرس القبائل .

١١. فهرس الطوائف والأمم .

١٢. فهرس الفرق والجماعات .

١٣. فهرس الأماكن والبلدان .

١٤. فهرس الأعلام .

١٥. فهرس مصادر ومراجع الإمام السيوطي .

١٦. فهرس مصادر ومراجع البحث .

١٧. فهرس الموضوعات .

عملي في هذا البحث

قد كان عملي في هذا البحث - بفضل الله تعالى - على حسَب الخطة الموضوعة لدراسة كتاب الإمام السيوطيّ : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) دراسةً نقدية شاملة لاستخراج منهجه ومقارنته بأهم مناهج السابقين واللاحقين ، مراعياً الآتي :

١. تحدثت عن الإمام السيوطيّ بإيجاز لكثرة ماكتب فيه ، وتوسعت فيما يتعلق بموضوعي فقط .

٢. وثقت النصوص المنقولة من كتاب ((معترك الأقران)) أو غيره من كتب السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في هذا البحث وبينت مواضعها ، وكذلك وثّقت جميع النصوص المنقولة من أي كتاب قديم أو حديث على قدر الوسع والطاقة .

٣. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مع ترقيمها ، والتقيد بالرسم العثمانيّ .

٤. خرجت الأحاديث والآثار التي يرد ذكرها في الرسالة وحكمت عليها .

٥. ضبطت الأماكن والأعلام ومايحتاج إلى ضبط من الكلمات .

٦. ضبطت وشرحت الكلمات المبهمة والمشكلة ، وشرحت المصطلحات التي قد تصعب على القارىء .

٧. ترجمت الأعلام الواردة في الرسالة ، ومنهجي فيها هو الآتي :

أ. الترجمة لكل الأعلام عدا المشهورة منها كالخلفاء الراشدين ومن يماثلهم شهرةً ، وربما اكتفيت في بعض التراجم بذكر الاسم كاملاً ومكان وتاريخ الوفاة .

ب. الأعلام التي لم تبلغ المرتبة المذكورة آنفاً في شهرتها فإني أترجم لكل منها بحسَب الحاجة طولاً وقِصَرا.

ج. الترجمة ستكون في أول موضع يرد ذكر العلم فيه في صلب الرسالة ، ثم إني أترك الإشارة إلى أنه قد سبقت ترجمته محيلاً القارىءَ إلى الفهرس .

٨. زودت الرسالة بجملة من الفهارس الوافية المتعددة - كما جاء في الخطة - التي تخدم البحث وتقربه إلى القراء .

هذا وقد واجهت بعض الصعوبات في البحث تتمثل في الآتي :

أ - لم تكن هناك دراسة لمنهج المتأخرين عامة في الإعجاز ، والسيوطي خاصة ، فكان ابتداء مثل هذه الدراسة فيه بعض الصعوبة .

ب - كِبر حجم الرسالة واحتواؤها على علوم متنوعة كان الإعجاز واحداً منها ، كما سيأتي بيانه في صلب الرسالة .

جـ - ضمّ كتاب ((معترك الأقران)) مباحث متنوعة كثيرة في علمي البلاغة وأصول الفقه ، فكان لزاماً عليّ أن أبذل جهداً في دراسة هذين العلمين - خاصة علمَ البلاغة - وذلك لاستيعاب وفهم المباحث المتعلقة بهما الواردة في الكتاب .

د - في الكتاب عدةُ مسائل تحتاج إلى تحقيق وبيان ، وفيه بعض الشبهات المرسلة بغير تفنيد ، وقد تطلب بيان كلِّ ذلك جهدا كبيراً ، أسأل الله - تعالى - أن يثيب كاتبه وقارئه عليه خير الثواب .

وهناك بعض المصاعب المتعلقة ببعض المباحث الجزئية في الرسالة سيُعرف كيفيةُ تناولها أثناء قراءة البحث .

هذا ولا يسعني إلا شكرُ الله - تعالى - المنعم المتفضل ، ثم شكر المشرف الكريم الأستاذ الدكتور عبدالستار سعيد الذي بذل لي من جهده ووقته ما أرجو أن يكون في صحيفة أعماله يوم يلقى الله - تبارك وتعالى - ولقد نفعني الله بعلمه وخلقه ، ورأيت من صبره وتحمله ، وعلمت من عزمه وفضله ما أسأل الله - تبارك وتعالى - أن يسلكه بذلك كله في سلك العلماء العاملين .

وأشكر كذلك الأستاذين الكريمين الدكتورين المناقشيْن الفاضلين الذين تكبدا مشاقَّ قراءة الرسالة لإرشادي لما حصل فيها من خطأ أوتقصير ، جعل الله ذلك في موازين أعمالهما ، وأجزل لهما الأجر ، وأعظم لهما المثوبة ، آمين .

وأشكر الجامعة العريقة – جامعة أم القرى – على ماتبذله من جهد لخدمة كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، مما يجعلها في مصاف الجامعات الإسلامية الرائدة .

وأشكر – كذلك – قسم الكتاب والسنة على كريم عنايته بكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعلى متابعته طلاّبه بالعناية والإرشاد .

وهذا وقد بذلت غاية جهدي في هذه الرسالة ، فما فيها من خير وصواب فهو من الله تعالى ، ومافيها من خطأ أوتقصير فهو مني ومن الشيطان ، وأستغفر الله منه ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

هذا والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

الباب الأول

الإعجاز القرآني وأوجه دراسته عند العلماء قبل الإمام السيوطيّ

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الإعجاز القرآني مفهوماً وتاريخاً .

الفصل الثاني : طرائق التدوين في الإعجاز القرآني .

الفصل الأول : الإعجاز القرآني مفهوما وتاريخاً .

المبحث الأول : معنى مصطلح الإعجاز القرآنيّ

الكـلام على التعريـف سيكـون منصبًّـا على الإعجــاز والمعجـزة وتحقيـقِ معنـاهما لغــةً واصطلاحـاً ؛ وذلـك لأن الموضـوع في الإعجـاز ، وتحقيـقُ معنـاه ومعنى المعجزة من صلب الموضوع ، وأيضـاً قـد اختلفـت أنظـار العلمـاء في تحديـد تعريف جامع مانع للإعجاز والمعجزة اختلافاً بيناً ، فكان من المهم التوسع في الكلام عليهما .

أما الكلام على القرآن العظيم ، وذِكر تعريفه ، وكلامِ العلماء فيـه فسيكون موجزاً ؛ لوضوحه وشهرته .

وسأتكلم – إن شاء اللـه تعالى – على الإعجــاز في اللغـة والاصطـلاح ، ثـم أُردفه ببيان المعجزة وتفصيل الكلام على حَدّهـا ، وبعـد ذلـك أوجـز الكـلام على تعريف القرآن الكريم ، ثم أذكر معنى مصطلح (الإعجاز القرآني) .

الإعجاز في اللغة :

جاء في ((معجم مقاييس اللغة)) :

((العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يـدل أحدهمـا علـى الضعـف[١] ، والآخـر على مؤخّر الشيء .

فالأول : عَجَـز عـن الشـيء يَعْجِـز عجـزاً فهـو عـاجز أي ضعيـف ... ويقولـون : أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه))[٢] .

١– وهو المراد هنا ، أما الأصل الآخر فقد يستعمل أحياناً ، كما سيأتي في السطور القادمة .

٢– ((معجم مقاييس اللغة)) : ع ج ز .

فالإعجاز – على هذا – هو الفَوْت والسبق[1] بالنظر إلى حال المُعْجِز ، وهو الضعف بالنظر إلى حال العاجز .

وقد يجُمع بين أصلَيْ معنى الإعجاز فيقال :

((العجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عَجُز الأمر أي مؤَخّرِه ... وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة ، قال :
﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾[2] .

وأعجزتُ فلاناً وعَجَّزته وعاجزته : جعلته عاجزاً ، قال :
﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾[3] ، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[4] ، ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾[5]))[6] .

وقال صاحب ((تاج العروس)) :
((أعجزه : صيّره عاجزاً ، أي عن إدراكه واللحوق به))[7] .
والتعجيز : النسبة إلى العَجْز[8] .

فمعاني العجز في اللغة تدور على الضعف والانقطاع وعدمِ القدرة على تحصيل الشيء .

١- ((لسان العرب)) : ع ج ز .
٢- سورة المائدة : آية ٣١ .
٣- سورة التوبة : آية ٢ .
٤- سورة العنكبوت : آية ٢٢ .
٥- سورة سبأ : آية ٥ .
٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصبهانيّ : ع ج ز .
وسيأتي – إن شاء الله تعالى – تفصيل استعمال تصاريف فعل (عجز) في كتاب الله – تعالى – وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي بعض الآثار ، انظر ص ٤٣ ومابعدها .
٧- ((تاج العروس)) : ع ج ز .
٨- ((لسان العرب)) : ع ج ز .

((**والإعجاز** : إفعالٌ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير))[1] .

المعنى الاصطلاحيّ للإعجاز :

((والإعجاز في الكلام هو أن يؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق))[2] ، فيعجز عن الإتيان بمثله كلُّ من يحاوله ، فيصير هذا الكلامُ معجزاً للناس كلهم .

فهذا الذي سُقته هو معنى الإعجاز مطلقاً سواء الإعجاز الوارد بتصاريفه اللغوية في كلام الله تعالى أو الإعجاز الوارد في كلام البشر ، أما معنى الإعجاز القرآني خاصة فسيأتي قريباً ، إن شاء الله تعالى[3] .

والمناسب الآن إيرادُ معنى المعجزة في اللغة والاصطلاح لقوة تعلقها بموضوع البحث ، وسوف أتناول تعريفها بشيء من التفصيل لاختلاف أنظار العلماء في تحديدها ، وضبط شروطها .

١- ((بصائر ذوي التمييز)) : ١/٦٥ .

٢- ((التعريفات)) : ٤٧ .

٣- انظر ص ٥٣ .

المعجزة في اللغة :

المعجزة : اسم فاعل من الإعجاز ، وهي للأنبياء خاصة[1] ، والهاء فيها للمبالغة ، والجمع معجزات[2] .

((واعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها))[3] .

المعجزة في الاصطلاح :

أما المعنى الاصطلاحي للفظ المعجزة ففيه تفصيل ومناقشة قد تطول لكثرة كلام العلماء عليه واختلافهم فيه ، ولكني سآتي بالتعريف الذي ارتضاه الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ثم آتي بما تدعو إليه الحاجة من كلام العلماء عليه وضبطهم له .

وإنما صنعت هذا لشهرة التعريف الذي ارتضاه الإمام السيوطيّ ، ولأن هذا البحثَ إنما وضع لدراسة منهج السيوطيّ في الإعجاز ، فكان الإتيان بالتعريف الذي ارتضاه - وإن كان من كتاب له آخر - أولى من غيره .

هذا وإن التعريف الذي ارتضاه جامع مانع - في تقديري - برغم الاعتراضات التي تُورد عليه والتي لاتؤثر في كونه جامعاً مانعاً كما سيأتي ، إن شاء الله تعالى .

١- كما استقر عليه الاصطلاح في القرون المتأخرة ، وسيأتي تفصيل الكلام على هذا ، إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٤٠ وما بعدها .

٢- ((تاج العروس)) ع ج ز .

٣- ((الشفا)) للقاضي عياض : ١/ ٣٤٩ .

وقد حَدّ الإمام السيوطيّ المعجزة بأنها :

((أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة))[1] .

وقد جرى على هذا التعريف كثير من العلماء[2] .

فأركان التعريف إذاً ثلاثة :

١- خَرْق العادة .

٢- التحدي .

٣- السلامة من المعارضة .

أما الركن الأول – وهو خرق العادة – فالكلام عليه من جوانب :

أحـــدهـــا : معنى خرق العادة ، فالعادة هي ما اعتاده النـاس وألِفـوه ، وخرْقهـا معناه نقض هذه العادة ، ومجيء الأمر بخلاف ما اعتاده الناس فيها .

ثانيـهـــا : المعجزة إحدى الخوارق الستة :

وباقي الخوارق :

الإرهاص[3] : وهو ما يأتي من الدلائل قبل ظهور النبي .

والكرامـة : وهي للأولياء .

١- ((الإتقان)) : ٢/١١٦ ، وسيأتي شرح المراد بالتفصيل ، إن شاء الله تعالى .

٢- نسبه الشيخ عبد الوهاب الشعرانيّ إلى جمهور الأصوليين ، انظر ((اليواقيت والجواهر)) : ١٥٧ .

واعتمده كذلك الشيخ إبراهيم البَيْجُوري في حاشيته : ((تحفة المريد على جوهرة التوحيد)) : ٩١ .

وارتضاه الشيخ القسطلاني في ((المواهب اللدنية)) : ٢/ ٤٩٥ ، وارتضاه غيرهم .

٣- مشتق من رِهْـص الجدار وهو أساسه .

والإرهاص : الإثبات . ((لسان العرب)) : (ر هـ ص) ، فكأن الخوارق التي تظهر قبل بعثة النبي مؤسسة وداعمة لنبوته .

والمعونـــة : وهي لتخليص العوام من الشدائد .

والاستدراج : للفاجر ، ويكون على طبق دعواه كما يحصل للدجال[1] .

والإهانـــة : للفاجر أيضاً ، ولكنها على خلاف دعواه[2] .

أما السحر والشعوذة : فالصحيح أن هذا ليس خارقاً لأنه يُعتاد إذا عُرفت أسبابه وطرقه[3] .

وقد تُخلط المعجزة والكرامة فإن ((السلف - كأحمد[4] وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا[5] معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاصَ الأنبياء بذلك ، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه[6]))[7] .

ولكن الذي استقر عليه الاصطلاح هو أن المعجزة للأنبياء والكرامةَ للأولياء :
قال شيخ الإسلام ابن تيميّة[8] رحمه الله تعالى :

١- أي في ادعائه الألوهية ، وتسخير الله - تعالى - بعضَ مخلوقاته له استدراجاً ، والعياذ بالله .

٢- كما حصل لمسيلِمة لما تفل في بئر فذهب ماؤها ، انظر ((البداية والنهاية)) : ٣٢٧/٤ ، فقد ورد فيها جملة مما جرى له من الإهانة .

٣- انظر ((حجة الله على العالمين)) : ١٢ - ١٣ .

وسيأتي في الصفحة القادمة - إن شاء الله تعالى - بيانُ أنه ليس السحر والشعوذة من الخوارق .

٤- هو إمام أهل السنة والجماعة : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني . ولد سنة ١٦٤ ، وتوفي سنة ٢٤١ ، ودفن ببغداد . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧٧/١١ - ٣٥٨ .

٥- أي المعجزة و الكرامة .

٦- أي اختصاصه بالأنبياء .

٧- ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) : ٤١٩/٥ .

وانظر الفرق بين المعجزة و الكرامة بالتفصيل في ((اليواقيت و الجواهر)) : ١٦١ .

٨- هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، أحد أئمة المسلمين المجتهدين . توفى سنة ٧٢٨ بدمشق مسجوناً . انظر ((الدرر الكامنة)) : ١٥٤/١ - ١٧٠ .

((وإن كان اسم المعجـزة يعم كـلّ خـارق للعـادة في اللغـة وعـرف المتقدمـين ، كالإمـام أحمـد بن حنبل وغيره ، ويسمونها (الآيات) ، لكنْ كثير من المتـأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي ، وجماعهما الأمر الخارق للعادة))[١] .

الجانب الثالث من الكلام على (خرق العادة) هـو :

مدى انضباط هذا الوصف على معجزات الأنبيـاء ؛ بمعنـى : هـل يكفـي أن يقال إن المعجزة هي (أمر خارق للعـادة ، مقـرون بـالتحدي ...) أم لابـد مـن تقييـد الخـارق بقولنـا مثـلاً : أمـر خـارق للعـادة يظهـر علـى يـد نـبي ، مقـرون بالتحدي ... ؟

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه اللـه تعـالى – وجـوب ضبـط الوصـف وتقييده بجريان الخـارق علـى يـد نـبيّ لأن ((الكهانـة والسـحر هـو معتـاد للسـحرة والكُهّان وهو خارق بالنسبة إلى غيرهـم[٢] ، كما أن مايعرفـه أهـل الطب والنجـوم

١- ((مجموع الفتاوي)) : ١١/٣١١ – ٣١٢ .

٢- هنـاك فـروق بين المعجـزة وبين عمـل السحـرة تتلخـص في أن المعجـزة تبقى هي أو أثرهـا بعـد النبي زمانـاً ، والسحر سريع الزوال ، والمعجزة يظهرها اللـه على رؤوس الأشهـاد وعظمـاء البـلاد ، والسحر إنما يروج أمـره على الصغار وضعفاء العقول وجهلة الناس .

أما الفرق بين المعجزة والكهانة فهو أن المعجزة فعل خارق للعادة يقوم مقام تصديق اللـه – تعالى – النبيَّ بالقول ، أما الكهانة فهي كلمات تجري على لسان الكاهن ربما توافق وربما تخالـف ، وهنـاك فـرق أيضـاً في أن النبي لايكـون إلا كامل الخُلق أما الكاهن فيكون مختلَّ العقل ناقص الخلق ، مزوراً – غالباً – وأيضاً فإن الكاهن إذا ادعى النبوة بكهانته ربما قابلـه بدعواهـا كاهن آخر فلا يوجد فرق بينهما ، أما النبي إذا تحدى بمعجزة وقابلـه مدع كـاذب فإنـه لايجـوز أن يظهر على يده معجزة مثل معجزة الصادق فاللـه لايصدق الكاذب .

((اليواقيت والجواهر)) : ١٦١ – ١٦٢ بتصرف .

وقد بين أحـد الباحثين – وهـو الدكتـور مصطفى مسلـم – أن ((السحـر والأعمـال الدقيقـة التي يمارسـهـا بعض أهل الرياضات البدنيـة أو الروحيـة لا يدخـل تحت اسـم الخـارق لأن لكل من تلك الأمور أسـاليبَ ووسائـل يمكـن لأي إنسـان أن يتعلمهـا ويتقنهـا ويمارسهـا ، فـإذا اتبـع الأسبـاب والأساليب المؤديـة إلى نتائجهـا أمكـن بواسطـة الجهد الشخصي والمـران والممارسـة أن يتوصل إلى تلك النتائج ، أما الأمـور الخارقـة فلا تدخـل تحت طاقـة البشر ، ولـيست لهـا أسبـاب تـؤدي إلـيهـا)) : ((مبـاحث في إعجـاز القـرآن)) : ١٥٠ ، وانظـر ((حجـة اللـه على العالمين)) : ١٣ .

والفقه والنحو هو معتاد لنظرائهم وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم))[١] .

وقال – أيضاً – رحمه الله :

((ليس مجرد كونه خارقاً للعادة كافياً لوجهين :

أحدهما : أن كون الشيء معتاداً وغيرَ معتاد أمر نسبيّ إضافيّ ، ليس بوصف مضبوط تتميز به الآية[٢] ، بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء ...

الثاني : أن مجرد ذلك مشترك بين الأنبياء وغيرهم ، وإذا خُصّ ذلك بعدم المعارضة فقد يأتي الرجل بمالايقدر الحاضرون على معارضته ويكون معتاداً لغيرهم كالكهانة والسحر ، وقد يأتي بما لايمكن معارضته وليس بآية لشيء لكونه لم يختصّ بالأنبياء ، وقد يقال في طب أبقراط[٣] ونحوِ سيبويه[٤] أنه لانظير له ... وإذا خص الله طبيباً أونحويًّا أو فقيهاً بما ميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوته وإن كان خارقاً للعادة))[٥] .

ثم إن من اعتراضات شيخ الإسلام ، رحمه الله تعالى ، على هذا الوصف – أي خرقِ العادة– أنه ((وصفٌ لم يَصِفْه القرآن والحديث ، ولا السلف))[٦] .

١– ((النبوات)) : ١٩ – ٢٠ .

٢– أي آية النبي وعلامة صدقه ، وهي المعجزة في الاصطلاح الحادث .

٣– هو بُقْراط – ويقال أبقراط – بن أبراقليس ، من كبار أطباء اليونان ، وتوفي سنة ٤٣٦ قبل الميلاد . له كتب عديدة في الطب . مات وله خمس وتسعون سنة عاش منها صبياً ومتعلماً ١٦ سنة وعالماً ٦٩ سنة . انظر ((نزهة الأرواح وروضة الأفراح)) : ١٩٦ – ٢٠٢ ، و ((الفهرست)) : ٥٧٥ ، ٥٧٧ .

٤– إمام النحو ، حجة العرب ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قَنبرَ ، الفارسيّ ثم البصريّ . طلب الفقه والحديث مدة ، ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل العصر . كان فيه مع فَرْط ذكائه حُبْسةٌ في عبارته وانطلاق في قلمه . وسمي (سيبويه) – وهي كلمة فارسية – لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين . عاش اثنتين وثلاثين سنة وقيل أربعين ، ومات سنة ثمانين ومائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٨ / ٣٥١ – ٣٥٢ .

٥– ((النبوات)) : ٢٣ .

٦– المصدر السابق : ١٩ .

وليس الاعتراض لكونه وصفاً حادثاً ؛ إذ جُلّ أوصاف العلوم حادثة ، لكن الاعتراض لعدم انضباط الحادث ، كما انضبط وصف الآية ونحوها .

وقد جعل ابن تيميّة - رحمه الله - التمسكَ بهذا الوصف سببَ ضلال المعتزلة[١] في هذا الباب إذ ((ظنوا أن مجرد كون الفعل خارقاً للعادة هو الآية على صدق الرسول فلا يجوز ظهور خارق إلا لنبي ، والتزموا - طرداً لهذا - إنكار أن يكون للسحر تأثيرٌ خارج عن العادة[٢] مثل أن يموت ويمرض[٣] بلا مباشرة شيء ، وأنكروا الكِهانة ، وأن تكون الجن تخبر ببعض الغيبيّات ، وأنكروا كرامات الأولياء))[٤] .

ثم يصل شيخ الإسلام إلى الوصف الذي يرتضيه في (خارق العادة) فيقول :

((فالذين سموا هذه الآيات خوارق للعادات وعجائبَ ومعجزاتٍ إذا جعلوا ذلك شرطاً فيها وصفة لازمة لها بحيث لاتكون الآيات إلا كذلك فهذا صحيح ... وأمّا إذا جعلوا ذلك **حدّاً لها وضابطاً** فلا بد أن يقيدوا كلامهم مثل أن يقولوا : خوارق للعادات التي تختص الأنبياء[٥] ، أو يقولوا : خوارق عادات الناس كلهم غير الأنبياء ، فإن آياتهم لابد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم وكلَّ طائفة من الطوائف))[٦]، وهذه الأمم المذكورة يدخل فيها طوائف الجن[٧] .

١- المعتزلة فرقة من فرق الضلال نشأت في أواخر القرن الأول ، ولهم أصول في الاعتقاد يقولون بها منها خلق العباد لأفعالهم ، ومنها نفي رؤية الله في الآخرة ، ومنها نفي الصفات ويسمون ذلك توحيداً ، ومنها ثبوت المنزلة بين المنزلتين لمرتكب الكبيرة وغير ذلك ، انظر في تفصيل أقوالهم : ((لوامع الأنوار البهية)) : ٧٦/١ ومابعدها .

٢- أي خارق للعادة .

٣- أي المسحور .

٤- ((النبوات)) : ١٥٠ .

٥- أي خوارق جارية على يد الأنبياء .

٦- ((النبوات)) : ٣٢٠ .

٧-المصدر السابق : ٣٢٧ .

وخلاصة اعتراض شيخ الإسلام على إطلاق خرق العادة على الآيـة والمعجـزة أنه يجب تقييدها إذا أُطلقت بأنها خرق العادات على يد الأنبياء ، وبأن خرق العادة شرطٌ في كل معجزة ولايصلح أن يكون حَدّاً لها .

ولكني أرى والله أعلم - رداً على الاعـتراض الأول - أنـه لا منافـاة بـين مـا أراده شيخ الإسلام من تقييد ، وبين ما أطلقه مَن حَدّ المعجزة بأنها (أمـر خـارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم مـن المعارضـة) ، وذلـك لأن السـائل عـن حـد معجزة النبي يقال له مثلاً :
معجزة النبي هي أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة .

وإنما وضع العلماء ذلك التعريفَ لبيان معجزات الأنبيـاء لا خـوارق غـيرهم ؛ فذِكر النبي في حد المعجزة لابد منه حقيقة أو حكماً ، والله أعلم .

أما اعتراضه الآخر على مَن حد المعجزة بأنها خرق عـادة فقـط فـإني لم أجـد مَن حَدّ المعجزة بأنها خرق عادة فقط إلا مانسبه شيخ الإسلام إلى المعتزلة[1] ، لكن غالب مَن حَدّ المعجزة أضاف إلى خرق العـادة كونَهـا مقرونـةً بـالتحدي سـالمة مـن المعارضة وتكون على يد نبي أو رسول ، وبهذا يندفع الاعتراض علـى ركـن خَـرق العادة مِن حد المعجزة المذكور في هذا البحث ، والله أعلم .

الركن الثاني من أركان تعريف المعجزة : التحدي :

أي أن يتحدى الرسول الناسَ أن يأتوا بمثل ما أتى به من آيات .
وفي هذا القيدِ كلامٌ طويل ألخصه فيما يأتي :

١- المصدر السابق : ٢٨٢ .

أولاً : اشتراط التحدي ليس عليه دليل .[1]

ثانيـاً : أكثر معجزات رسول اللـه – صلى اللـه عليه وسـلم – كـانت بـلا تحـد ، بل لعله – صلى اللـه عليه وسلم – لم يتحدّ بغير القرآن ، إذ لم ينقل عنه أنـه تحـدى بغيره[2] .

ثالثـاً : قد سمى الله طلبَ الكفار من رسـول اللـه – صلى اللـه عليـه وسـلم – معجزةً تدل على صدقه آيةً[3] و لم يشترط – سبحانه – تحدياً ، فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[5] .[6]

رابعـاً : مما يلزم القائلين بشرط التحدي ((أنّ ما كان يظهر على يـد النبي – صلى اللـه عليه وسلم – في كل وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوته ؛ لأنه لم يكـن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى النـاس بالإتيـان بمثلـه ، بـل لم ينقـل عنـه التحدي إلا في القرآن خاصة[7] ، ولانقل التحدي عن غيره من الأنبياء مثـل موسـى والمسيح وصالح ، ولكن السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم))[8] .

١- ((المواهب اللدنية)) : ٤٩٧/٢ .

٢- ((النبوات)) : ١٧٨ ، و ((المواهب اللدنية)) : ٤٩٨/٢ .

٣- أي سمّاها اللـه تعالى آية .

٤- سورة الإسراء : آية ٥٩ .

٥- سورة الأنعام : آية ١٠٩ .

٦- ((المواهب اللدنية)) : ٤٩٨/٢ .

٧- وذلك لأن اللـه تحداهـم بالقـرآن في قولـه تعالى : ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ البقـرة : ٢٣ ، وفيما سبـق نزولهـا من آيـات التحـدي ، ويقـرر شيـخ الإسـلام أن القـرآن إنما تحداهـم لما قالـوا إنه افتـراه ، ولم يتحدّهـم به ابتـداءً ، انظر ((النبوات)) : ٢٩٣ .

٨- ((النبوات)) : ١٧٧ - ١٧٨ .

هذه خلاصة الأقوال في رد اشتراط التحدي في المعجزة .

لكن قد بين علماء آخرون أن المراد من التحدي أمر آخر غير المتبادر إلى الذهن وهو طلب المعارضة ، فقد قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني[١] ، رحمه الله تعالى :

((المراد بالتحدي هو الدعوى للرسالة[٢] ، وفيما قلنا تنبيه على أنه ليس الشرط الاقتران بالتحدي بمعنى طلب الإتيان بالمثل الذي هو المعنى الحقيقي للتحدي وإنما المراد أنه يكفي دعواه الرسالةَ ، فكل من قيل له : إن كنت رسولاً فأتنا بمعجزة فأظهر الله – تعالى – على يديه معجزاً كان ذلك دليلاً على صدقه نازلاً بمنزلة التصريح بالتحدي))[٣] .

وكذلك بيّن الشيخ إبراهيم البيجوريّ[٤] – رحمه الله تعالى – أن التحدي هو مجرد دعوى الرسالة أو النبوة [٥] .

ويقارب هذا ما قاله إمام الحرمين[٦] رحمه الله تعالى :

١– هو الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراويّ والشعراني الشافعيّ ، محدث ، فقيه ، أصولي . من كبار متصوفة عصره . من كلامه : دوروا مع الشرع حيث دار لامع الكشف فإنه قد يخطيء . توفى سنة ٩٧٣ في القاهرة بعد أن عُمِّر . انظر ((شذرات الذهب)) : ٨/ ٣٧٢ – ٣٧٤ .

٢– ذكر ذلك ابن تيمية لكنه – فيما يبدو من سياق الكلام – لم يرتضه ، انظر ((الجواب الصحيح)) : ٤٢٣/٥ .

٣– ((اليواقيت والجواهر)) : ١٥٧ .

٤– هو الشيخ إبراهيم بن محمد البيجوريّ . ولد سنة ١١٩٨ بـ (بيجور) قريةٍ من قرى مصر . نشأ في حجر والده وقرأ عليه القرآن ، ثم قدم إلى الأزهر لأجل تحصيل العلوم سنة ١٢١٢ ، واشتغل واجتهد حتى صار عمدة في العلوم . وله تآليف عديدة . تولى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٦٣ . توفي في القاهرة سنة ١٢٧٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((حلية البشر)) : ١/٧-١١ .

٥– ((تحفة المريد)) : ٩١ .

٦– هو الشيخ الإمام أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف الجُوينيّ ثم النيسابوريّ ضياء الدين الشافعيّ ، صاحب التصانيف . ولد سنة ٤١٩ . تفقه وشاع ذكره ، ودرس بالمدرسة النظاميّة بنيسابور . وتفقه به أئمة . رجع آخر عمره مذهب السلف في الصفات وأقره . توفي سنة ٤٧٨ بنيسابور . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨/ ٤٦٨ – ٤٧٧ .

((ثم يكفي في التحدي أن يقول : آية صدقي أن يحي الله هذا الميتَ ، وليس من شرط المتحدي أن يقول : هذه آيتي ولا يأتي أحد بمثلها ، فإن الغرض من التحدي ربط الدعوى بالمعجزة وذلك يحصل دون أن يقول : ولا يأتي أحد بمثلها))(١) .

وقوله ((ثم يكفي في التحدي أن يقول : آية صدقي أن يحيي الله هذا الميت)) لايشترط فيه قوله بلسان المقال بل يكفي لسان الحال ؛ إذ أن معظم معجزات الأنبياء لم ينقل عنهم أنهم صرحوا فيها بمثل هذا ، والذي انقدح في أذهان مشاهديها هو أن ذلك آيةٌ على صدق الأنبياء والرسل .

ويمكن تقسيم مايظهر على يد أي نبي من الخوارق المعجزة إلى نوعين :

الأول : مايراد به إثبات الرسالة ، وشرطه التحدي الصريح أو على الوجه الذي ذكرته ، أو التصريحُ بأن هذا الخارقَ المعجز هو دليل الرسالة ؛ كالقرآن العظيم وبعض معجزات الأنبياء للأول ، وهو التحدي ، والثاني كقول نبي الله صالح – عليه الصلاة والسلام :
﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً ﴾(٢) .

النوع الآخر : أن يظهر الخارق على يديه بلا اقتران بدعوى الرسالة ، وهذا لايشترط فيه التحدي ، بل قد لايعلمه الكفار أصلاً فيقع بين المؤمنين فقط كنبع الماء من بين أصابع النبي – صلى الله عليه وسلم – الشريفة ، وغيره .

ويندفع بهذا التقسيمِ الاعتراضُ على اشتراط التحدي في المعجزة ، أما التوجيه السابق للتحدي فإنه على اعتبار أن كل ماجاء به الأنبياء متحدىً به ، والله أعلم .

١- ((الإرشاد)) : ٢٦٥ .

٢- سورة الأعراف : آية ٧٣ .

وبهذا يستقيم – إن شاء الله – قيد التحدي في المعجزة ولا ينخرم باعتراض مَن ذكرتهم ، والله أعلم .

الركن الثالث من أركان تعريف المعجزة : عدم المعارضة :

هي ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة[1] . أو ألا يظهر بين المرسل إليهم ذلك الخارق[2] المعجز على يد غير نبيّ .

ولشيخ الإسلام ابن تيميّة رأيٌ في مسألة المعارضة هذه إذ يصفها بعدم الانضباط ؛ وذلك لأن السحرة والكهان أتوْا بأمور لم تعارَض[3] .

((والعَنْسيّ[4] ومُسَيْلمة[5] لم يعارَضا في مكانهم ووقت إغوائهم[6] ، وإن قال[7] : لايعارَض ألبتة فمن أين يُعلم هذا العدم ؟))[8] .

ولكن ظهر لي – والله أعلم – أنه ليس هناك تناقضٌ بين ما قرره الجمهور وهو اشتراط عدم المعارضة في المعجزة وبين كلام شيخ الإسلام ؛ وذلك لأنه يقرر

١- ((حجة الله على العالمين)) : ١١ .

٢- ((اليواقيت و الجواهر)) : ١٥٧ .

٣- انظر في الفرق بين المعجزة وعمل السحرة والكهان صفحة ٣١ .

٤- عَبْهلة بن كعب بن غوث ، ظهرت دعوته في اليمن سنةَ عشر من الهجرة آخرَ حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتنبأ ، وجرت له معارك صفا له بعدها اليمن بتمامه ، وارتد خلق من أهل اليمن ، ثم قتل بعد أربعة أشهر من خروجه تقريباً وذلك في ربيع الأول سنة ١١ هـ .
انظر ((البداية والنهاية)) : ٦ / ٣٠٧ – ٣١١ ، ٣٤٠ .

٥- مسيلِمة بن حبيب اليماميّ ، وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه بنيحنيفة ، ثم تنبّأ وكان له شأن في أيام الردة حتى قتله المسلمون بعد حروب عظيمة . وكان يدعي أنه يُوحى إليه ، وما أتى به كلام في غاية السخف . انظر ((البداية والنهاية)) : ٦/٣٢٣ – ٣٢٧ ، ٣٤١ – ٣٤٢ .

٦- كذا في الأصل ، والصحيح : في مكانهما ووقت إغوائهما .

٧- أي المشترط للمعارضة .

٨- ((النبوات)) : ٢٨٣ .

أن عدم المعارضة من جملة صفات المعجزة لا أن هذا وحده كاف فيها[1] ، وهذا ما يقرره الجمهور أيضاً .

وبهذا يظهر أنه لاخلاف حقيقيّ في اشتراط عدم المعارضة للمعجز ، والله أعلم .

ومما سبق كله يظهر أن تعريف المعجزة الذي ساقه السيوطيّ جامع مانع ، إن شاء الله تعالى .

شروط المعجزة :

قد اعتبر كثير من المحققين عدة شروط في المعجزة ، منها :

١- أن تكون خارقةً للعادة .

٢- أن تكون على يد الجائي بالنبوة أو الرسالة ، فخرج بذلك الكرامة والمعونة والاستدراج والإهانة[2] .

٣- أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة حقيقة أو حكماً بأن تأخرت بزمن يسير ، وخرج بذلك الإرهاص ؛ وهو ماكان قبل الرسالة والنبوة تأسيساً لها .

٤- موافقتها للدعوى ، وخرج بذلك كما إذا قال : آية صدقي انفلاق البحر فانفلق الجبل .

٥- ألا تكون مكذبة لمدعيها كما إذا قال : آية صدقي نطقُ هذا الجماد فنطق بأنه مفتر كذاب .

١- أي على سبيل الحدّ والتعريف ، وانظر المصدر السابق .

٢- سبق بيان ضوابط هذه المصطلحات الأربعة ، انظر ص ٢٩ ، ٣٠ .

٦- عدم المعارضة .

٧- ألاّ تكون زمن نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها[١] .

إطلاق المعجزة على آيات الأنبياء :

كان السلف من صحابة وتابعين ومن تبعهم من أهل القرون المفضلة يسمون ما جاءت به الأنبياء دلالةً على صدقهم : آياتٍ وبراهين ودلائل ، وذلك اقتفاء لطريقة القرآن في تسميتها كذلك ، ثم نشأ مصطلح المعجزة وفشا استعماله بين الناس[٢] .

فهل هذا المصطلح : (المعجزة) كاف للدلالة على آيات الأنبياء ؟

يرى عدد من الأئمة أنه غير كاف والأولى استعمال المصطلحات القرآنية كالآية والبرهان[٣] ، وذلك للأسباب التالية :

أولاً : لأن اللـه - تعالى - سمّاها كذلك فلمَ نتجاوز التسمية الإلهية لها وهي خير وبركة ؟

ثانياً : الآية والبرهان وما يماثلهما من التسمية القرآنية مطابق لمسماه مطّرد لا ينتقض[٤] ، والآية مستلزمة لصدق النبي فلا يُتصور أن توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن اللـه أرسله[٥] بخلاف مدعي المعجزة كذباً فإن ما يأتي به شاهد على كذبه .

١- ((تحفة المريد على جوهرة التوحيد)) : ٩١ بتصرف .

٢- سيأتي في المبحث القادم - إن شاء اللـه تعالى - بيان ذلك بالتفصيل ، انظر ص ٦٩ وما بعدها .

٣- سيأتي - إن شاء اللـه تعالى - بيان الألفاظ القرآنية الدالّة على معنى الإعجاز بالتفصيل ، انظر ص ٤٧ .

٤- ((النبوات)) : ٢٨٩ .

٥- المصدر السابق : ٢٨٧ .

ثالثاً : ((المعجزة لاتستلزم ثبوت النبوة إلا بشرط ،أما الآيات فهي شهادة بالنبوة وتصديق للمخبر ، فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها ، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله وأوحى إليه كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، وتستلزم أيضاً صدق الإخبار بأنه نبيّ ، فهو إذاقال : إني نبي ، كان صادقاً ، وكذلك كل من أخبر بنبوته فإنه يكون صادقاً))[1] .

((ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آياتٍ وبراهين ، فإن ذلك اسم يدل على مقصودها ، ويختص بها لايقع على غيرها لم يسمها معجزة ولا خرق عادة وإن كان ذلك من بعض صفاتها ، فهي لاتكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة وعَجَزَ الناسُ عن الإتيان بمثلها ، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها ، وهو من لوازمها ، لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعمَّ منه ، وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة هو الحدّ المطابق لها طرداً وعكساً))[2] .

رابعاً : المعجزة قد تطلق على غير آيات الأنبياء :

كان كثير من أهل الكلام لايسمي الخارق معجزةً إلا ماكان للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فقط ، ومن أثبت للأولياء خوارق عادات - وهم الجمهور - سماها كرامات ، والسلف كانوا يسمون ما وقع للأنبياء وما وقع للأولياء من خوارق معجزةً كالإمام أحمد وغيره ، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه به[3] .

١- ((النبوات)) : ٢٩٩ .

٢- المصدر السابق : ٣١٠ - ٣١١ .

وقد سبق الكلام على رأي شيخ الإسلام في كون المعجزة خرقاً للعادة والاكتفاء في حدها بذلك ، انظر ص ٢٩ وما بعدها .

٣- شرح الزرقاني على المواهب : ٨١/٥ ، وكأن القسطلاني نقله عن ((الجواب الصحيح)) : ٤١٩/٥ لشدة تقارب ألفاظ الكتابين ، والله أعلم .

وقد حاول بعض المتكلمين - فيما نقله عنهم الفاسي[1] في شرح ((الدلائل)) - أن يوفقوا بين مصطلحي الآية والمعجزة في تعريف ما جاءت به الرسل من خوارق فقالوا :

((إن ما يظهر على يديه[2] من ذلك مما لا يُتحدى به يسمى آية فقط ودليلاً ، لكن مجموع الآيات في حق الأنبياء معجزة لانضمامه للمعجزة وكثرته))[3] .

لكن الله - تعالى - سمى كل ذلك آيات فبطل ما حاولوه من توفيق ، والله أعلم .

١- هو الشيخ محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي الفهري ، أبو عيسى . مؤرخ محدّث . ولد بفاس سنة ١٠٣٣ . كان لا يأكل إلا من عمل يده بالنسخ ، و لا ينسخ لمن في ماله شبهة . له عدة مصنفات . توفى بفاس سنة ١١٠٩ . انظر ((الأعلام)) : ١١٢/٧ - ١١٣ .

والشرح المذكور هو ((مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات)) ، وهو مطبوع كما في ((الأعلام)) : ١١٣/٧ .

٢- أي الرسول .

٣- ((حجة الله على العالمين)) : ١٢ .

ورود ألفاظ الإعجاز والمعجزة وتصاريفهما في كتاب الله تعالى ، وفي الأحاديث والآثار :

أما مصطلحا : (الإعجاز) و (المعجزة) فلم يأتيا بلفظهما هذا في كتاب الله – تعالى – ولا في أحاديث سيد المرسلين – صلى الله عليه وسلم – بهذا المعنى لهذا القصد ، وإنما وردا لمعانٍ أخرَ قريبةٍ من المعنى المقصود في هذا البحث .

فمما جاء في كتاب الله – تعالى – من تصاريف لمادة (ع ج ز)[١] :

١. ﴿عَجَزْتُ﴾ من قوله تعالى :
﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[٢] ومعنى ﴿أَعَجَزْتُ﴾ – هنا – : أضْعُف إدراكي وعقلي ، وجهلتُ ، وهو استفهام إنكاري[٣] .

٢. ﴿نُعْجِزَ﴾ من قوله تعالى :
﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾[٤]
ومعنى ﴿نُّعْجِزَ﴾ – هنا – نفوت ونغلب ، أي ((نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لانعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب ، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا))[٥] .

٣. ﴿يُعجِزَ﴾ من قوله تعالى :
﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾[٦] ، وهو مضارع أَعْجَزَ .

١– انظر تفصيل ذلك في ((المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)) : ع ج ز .

٢– سورة المائدة : آية ٣١ .

٣– انظر ((البحر المحيط)) : ٤٦٦/٣ .

٤– سورة الجن : آية ١٢ .

٥– ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢٦٩/٨ . وانظر ((روح المعاني)) ١١٠/١٠ .

٦– سورة فاطر : آية ٤٤ .

٤. ﴿ يُعۡجِزُونَ ﴾ من قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴾[١] والمعنى - هنا وفيما قبله - مأخوذ من أعجز : أي غلب وفات ، أي لايفوت اللهَ شيءٌ ولا يغلبه شيءٌ ، سبحانه وتعالى[٢] .

٥. ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ من قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾[٣]

ومعنى ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾ - هنا - ((ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا لأنهم حسبوا ألا بعثَ ولا نشور فيكون ثوابٌ وعقاب))[٤] .

٦. ﴿ مُعۡجِزٖ ﴾ من قوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[٥] ، ومعجز اسم فاعل من أعجز .

٧. ﴿ مُعۡجِزِينَ ﴾ من قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾[٦] .

ومعناه - هنا ((فائتين : أعجزني الشيء فاتني ، أي لايفوتنا عما أردنا بكم))[٧] .

أما استعمال فعل (عجز) وتصاريفه في الأحاديث والآثار فكثير ، وأكتفي بطائفة منها :

١- سورة الأنفال : آية ٥٩ .

٢- ((البحر المحيط)) : ٥١٠/٤ .

٣- سورة الحج : آية ٥١ .

٤- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : ٣٣٤ ، وهناك أقوال في معنى ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾انظرها في ((تاج العروس)) : ع ج ز .

٥- سورة الأحقاف : آية ٣٢ .

٦- سورة الأنعام :آية ١٣٤ .

٧- ((البحر المحيط)) : ٢٢٦/٤ .

١. (عَجَز) ، قال صلى الله عليه وسلم :

((التمسوها[١] في العشر الأواخر ، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يُغلبن على السبع البواقي[٢])) .

ومعنى (عَجَز) – هنا – تأخر عن تحريها والتماسها ، إذ أن من معاني العجز التأخر عن الشيء[٣] .

ويمكن أن يرادف العجز هنا الضعف ، وهو ضد القدرة ، فيكون اجتماعهما في الحديث من باب التفنن والتنوع في الألفاظ ، وذلك لأني لم أجد – بعد البحث – من ذكر بأن (أو) هنا للشك من الرواة ، والله أعلم .

٢. (عَجْز) ، من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – :

((كل شيء بقَدَر حتى العَجْز و الكَيْس))[٤] .

و العجز – هنا – معناه الضعف والانقطاع وعدم القدرة على التصرف في الأمور النازلة[٥] .

٣. (عَجَّز) ، من قول عمر – رضي الله عنه :

((أرأيت أنه لو رعى الجَدْبَةَ وترك الخَصْبَةَ أكنت مُعَجِّزَه ؟ قال : نعم))[٦]

١– أي اطلبوا ليلة القدر .

٢– أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الصيام : باب فضل ليلة القدر ، والحث على طلبها ، وبيان محلها ، وأرجى أوقات طلبها : ٢٤٠/٨ .

٣– انظر ((مفردات ألفاظ القرآن)) : (ع ج ز) ، و ((تاج العروس)) : ع ج ز .

٤– أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب القدر : باب : كل شيء بقدر : ٢٠٤/١٦ .

وقال الإمام النوويّ ، رحمه الله تعالى :

((والكَيْس ضد العجز ، وهو النشاط و الحَذْق بالأمور ، ومعناه أن العاجز قد قُدر عجزه ، والكَيّس قد قُدر كَيْسُه)) : ((شرح صحيح مسلم)) : ٢٠٥/١٦ .

٥– أخذت هذا المعنى من سياق الحديث ، ومن شرح النووي له الوارد في الهامش السابق .

٦– أخرجه الإمام مسلم في كتاب السلام : باب الطاعون والطِيَرة و الكِهانة ونحوها : ٢١١/١٥ .

وهذا مثل ضربه عمر لأبي عبيدة – رضي الله عنهما – حين عاب على عمرَ قراره بعدم دخول الجيش إلى الشام ، وكان على مقربة منها ، حين بلغه أن بها الطاعون ، وانظر القصة والمثل في شرح صحيح مسلم : ٢٠٨/١٤–٢١١.

و (مُعجِّز) اسم فاعل من (عَجَّز) ومعناها - هنا - ناسبه إلى العجز والقصـور ، والعجز المقصود هنا نقيض الحزم[1] .

٤. (أعجز) ومنه : ((فطلبوها فأعجزتهم))[2]

أي لم يقدروا عليهـا ، وأعجـزه الشـيء فاتـه وسبقه ، وأعجزنـي فـلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.

هذه بعض الألفاظ الـواردة في الكتاب والأحاديث والآثار لمادة (ع ج ز) ، وظهـر بهذا أن كلمتي : (الإعجاز) و (المعجزة) لم تستعملا للدلالة على إعجاز كتـاب اللـه - تعـالى - في العصـور الأولى ، وإنمـا اسـتعمل فعـل (ع ج ز) وتصاريفه لدلالة قريبة من موضوع البحث .

١- انظر ((تاج العروس)) : ع ج ز . وشرح صحيح مسلم للإمام النوويّ : ٢١١/١٥ .

٢- أخرجه الإمام مسلم في كتاب النذر : ١٠١/١١ .

وللحديث قصة في المرأة المسلمة التي أسرها المشركون ففرت منهم على العضباء - ناقةِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم - وانظر قصتها في شرح الإمام النووي صحيحَ مسلم : ١١/ ٩٩ - ١٠١ .

ألفاظ دالة على معنى الإعجاز والمعجزة في كتاب الله تعالى :

كان الصدر الأول من السلف يستخدمون الألفاظ القرآنية الدالـةَ علـى معنـى الإعجاز والمعجزة ، وقد جاءت هـذه الألفـاظ في كتـاب اللـه – تبـارك وتعـالى – متنوعةً في أسمائها قريبـةً في معانيهـا الدالـة علـى معنـى الإعجـاز والمعجـزة ؛ وهـذه الألفاظ هي :

آية ، وسلطان ، وبرهان ، وبصيرة ، وبينة .

وهي كلها دالة على معنى (المعجزة) ، وإن كانت تفضلها كما بينـت قبـل هذا [١] .

وسأبين هنا معنى كل لفظ بإيجاز :

١- أما (الآية) فهي في اللغة : العلامة[٢] .

ومعناها في الاصطلاح : العلامة الدالة على عظيم قدرة اللـه تعـالى وصـدقِ المرسَل فيما ادعاه[٣] .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[٤] .

أي معجزة أو علامة على قدرة الله[٥] .

وقال تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾[٦] أي : معجزة[٧] .

١- انظر ص ٤٠ وما بعدها .

٢- ((معجم مقاييس اللغة)) : أ يَ يَ .

٣- انظر في معناها ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٧٣ .

٤- سورة المؤمنون : آية ٥٠ .

٥- ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٧٤ .

٦- سورة طه : آية ٢٢ .

٧- ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٧٤ .

٢- (والسلطان) : الحجة[١] .

قال - تعالى - قاصّاً كلام الكافرين :

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] :

((أيْ خارقٍ نقترحه عليكم))[٣] ، والخارق هو الخارق للعادة ، فالسلطان هنا قريب من معنى المعجزة .

ثم قال تعالى قاصاً كلامَ الرسل :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤] .

ففي الآية الأولى طالب الكفار رسلهم بسلطان - أي بحجة وآية تدل على صدقهم - فلم ينف الرسل أنهم مرسلون لكنهم بينوا أن السلطان إنما يأتي به الله ، تعالى ، إن شاء بإذنه ، وليس لهم يدٌ في هذا .

٣- (البرهان) :

وهو بمعنى (السلطان) وهو الحجة والبينة[٥] ، وقيل هو ((بيان للحجة ... فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لامحالة))[٦] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[٧] .

والبرهان هنا : ((الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشبهة))[٨] .

١- ((معجم مقاييس اللغة)) : سلط .

٢- سورة إبراهيم : آية ١٠ .

٣- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٤٠٢/٤ .

٤- سورة إبراهيم : آية ١١ .

٥- المصدر السابق : ٢٢٢/١ ، وانظر ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٩٦ .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : (ب ر هـ) .

٧- سورة النساء : آية ١٧٤ .

٨- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢ / ٤٣٤ .

و ((الجمهور على أن البرهان هو محمد – صلى اللـه عليه وسلم – وسماه برهاناً لأن منه البرهانَ وهو المعجزة))[١] .

٤- (البصيرة) :

ومعناها قريب من (البرهان) وأصله وضوح الشيء ، ويقال : بَصُرت بالشـيء إذا صرتُ به بصيراً عالماً[٢] .

قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾[٣] :

أي ((دالةً على وحدانية مَن خَلَقَها وصدقِ الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها))[٤] .

وقال تعالى :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ :

والبصائر : الحجج البينات الظاهرات[٥] .

٥- (البينة) :

وهي ((الدلالة الواضحة عقليةً كانت أو محسوسة))[٦] .

قال تعالى قاصّاً خبرَ رسوله صالحٍ – عليه الصلاة والسلام –:

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[٧] :

أي ((جاءتكم حجة من اللـه على صدق ما جئتكم به))[٨] .

١- ((البحر المحيط)) : ٣ / ٤٠٥ .

٢- ((معجم مقاييس اللغة)) : (ب ص ر) بتصرف .

٣- سورة الإسراء : آية ٥٩ .

٤- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٥ / ٨٩ .

٥- ((البحر المحيط)) : ٤ / ١٩٦ . والآية من سورة الأنعام : ١٠٤ .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : (ب ي ن) .

٧- سورة الأعراف : آية ٧٣ .

٨- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٣ / ٤٣٦ .

هذه هي الألفاظ القرآنية التي أوردتها مقاربةً لمصطلح (المعجزة) من حيث المعنى والقصد ، وهي التي درج السلف على استعمالها قبل ظهور مصطلح (المعجزة) .

ظهور مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة)

لما لم يأت في مصادر الحديث والسيرة لفظُ (الإعجاز) و (المعجزة) - فيما بحثت فيه ووقفت عليه - فإنه يصلح أن يوصف حال الكافرين إزاء القرآن العظيم بـ (الانقطاع) وهو الذي عُبّر عنه بعد ذلك بـ (العجز) وعُبر عن مسببه بـ (المعجزة) .

فإذا كان الأمر كذلك فمتى ظهر مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) ؟

ظهر مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) في القرن الثالث الهجري ، على ما علمتُه ، وشاع استعمال هذين المصطلحين بعد ذلك ليؤديا معنى الكلمات القرآنية - التي بينتها سابقاً [1] - مع أنها أدق وأبلغ .

وسيأتي - إن شاء الله تعالى - بالتفصيل وقت بدء استعمال هذين المصطلحين وشيوعهما عند العلماء بعد الصدر الأول ، وذلك في الصفحات القادمة .

هذا ما تيسر من الكلام على الإعجاز وعلى المعجزة وشروطها وتسميتها ، وقد أطنبت في الكلام عليهما لأهمية مباحثهما ولعظيم تعلقهما بالإعجاز القرآنيّ موضوعِ البحث ، ولئن طال هذا المبحث قليلاً فقد حوى كثيراً مما تفرق في بطون الكتب مما رأيت أهمية جمعه وإثباته هاهنا ، والله الموفق .

١- انظر ص ٤٧ وما بعدها .

تعريف القرآن الكريم :

أما القرآن ، فيقال : (قرآن) ، و (قُرَان) بغير همز من باب التخفيف[١] ، وهو ((اسم غير مشتق من شيء بل هو اسم خاص بكلام الله ، وقيل مشتق من القَرْي وهو الجمع ، ومنه : قَرَيْتُ الماء في الحوض أي جمعته))[٢] .

((والقرآن في الأصل مصدر[٣] نحو كُفران ورجحان ... وقد خُصّ بالكتاب المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - فصار له كالعَلم ... وقال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً[٤] لثمرة كتبه[٥] بل لجمعه ثمرةَ جميع العلوم))[٦] .

وقال صاحب ((المناهل)) :

((هو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ... ثم نُقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق))[٧] .

ثم ضعّف سائر ما قيل فيه من أقوال بقوله :

١- ((البرهان في علوم القرآن)) : ١/٢٧٩ .

٢- المصدر السابق : ١/٢٧٨ .

٣- أي مرادف للقراءة .

٤- كأنه لحظ المعنى اللغوي .

٥- أي كتب الله تعالى .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : ٤١٤ .

٧- ((مناهل العرفان)) : ١ / ٧ .

((أما القول بأنه وصفٌ من القَرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن ، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، أو أنه مرتجل موضوع من أول الأمر علَماً على الكلام المعجز المنزل غيرُ مهموز ولا مجردٌ من (أل) ، فكل أولئك لايظهر له وجه وجيه ، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلفة ، ولا من بُعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة .

وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز ، وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته (أل) بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف))[1] .

ورأيه قريب مما ذهب إليه الراغب والزركشيّ رحمهم الله تعالى .

والمعنى الاصطلاحيّ للقرآن هو :

((الكلام المعجز ، المنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته)) .

وقال صاحب المناهل معلقاً على هذا التعريف :
((ولايخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكرُ بعض تلك الأوصاف ويكون جامعاً مانعاً ، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان فيناسبه الإطناب))[2] .

١- المصدر السابق ، والأصل المقصود - هنا - هو المصدر ، كما بين الزرقاني في تعريفه للقرآن ، و ((العلم المنقول مما يقبل ((أل)) قد يلاحظ أصله فتدخل عليه ((أل)) ، وأكثر وقوع ذلك في المنقول عن صفة كـ ((حارث ، وقاسم)) ... وقد تقع في المنقول عن مصدر كـ ((فضل)) ...)) : ((معجم النحو)) : ٥٠ .
٢- ((مناهل العرفان)) : ١٢/١ .

معنى إعجاز القرآن

((إعجازالقرآن مركب إضافي ، معناه بحسَب أصل اللغة : إثبات القرآن عجزَ الخلق عن الإتيان بما تحداهم به ، فهو من إضافة المصدر لفاعله ، والمفعولُ وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به ، والتقدير : إعجاز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به)) [1] .

فهذا تعريف عامّ لإعجاز القرآن لايتعلق بإثبات وجه من وجوه الإعجاز ولانفيه .

وهناك بعض التعاريف التي قَصَرت الإعجاز على وجه أو أكثر من وجوهه فمنها :

((إعجاز القرآن : ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ماهو الرأي الصحيح لا الإخبار عن المغيَّبات ، ولاعدم التناقض والاختلاف ، ولا الأسلوب الخاصّ ، ولا صرف العقول عن المعارضة ...))[2] .

والتعريف الأول أولى لخلوه مما يمكن ردُّه أو التطويلُ بمناقشته .

ومن المناسب – هنا – إيرادُ الآيات الكريمة التي تحدت الكافرين أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم أو بمثل شيء منه :

١- ((مناهل العرفان)) : ٢/٢٢٧ .

٢- ((الكليات)) : ١٤٩ .

الآيات الكريمة التي تحدت الكافرين وأعجزتهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل شيء منه

لما كان القرآن العظيم من التأثير والوضوح في الذروة السامقة والمكان الأرفع ، ولما كانت آياته العظام لايشبهها شيءٌ من كلام البشر ولا يدانيها شيء ، لما كان شأن القرآن كذلك كان من المسلمات البدهيات أن يتأثر الناس به وينقادوا لأحكامه طائعين ، ولكن فئة الكافرين أبت إلا أن تصم آذانها عن سماع الحق ، وتغضَّ أبصارها عن رؤية أثره في المؤمنين الصادقين فأعلنت كفرها ، وادعت أن هذا الحقَّ المبين هومن نسج النبي – صلى الله عليه وسلم – وما هو إلا أساطير الأولين ، وهو سحر ، إلى آخر مارموا به هذا الكتاب العظيم ، وأبوا أن يذعنوا أنه من عند الله .

ولما اتهمت قريش رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – باختراع هذا الكتاب ونفت نسبته الإلهية صار من لازم هذا أنه جهد بشريّ يستطاع أن يُؤتى بمثله ، فليس بمعجز لمن رام معارضته .

ولما كان هذا شأنَ الجاحدين النورَ المبين أنزل الله – تبارك وتعالى – آياتٍ كريمات تطلب من الكافرين – على وجه التحدي – أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم أو ببعضه ، وقد نزلت هذه الآيات – مكيُّها ومدنيها – على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في أزمنة متباعدة زيادةً في تحدي الكافرين ، وإمهالاً لهم وتبكيتاً فعجزوا عن المعارضة عجزاً تاماً ، لكنهم عاندوا عناداًسُجل عليهم بمداد الخزي والعار في سجلات التاريخ وصحائفه .

وقد تدرجت هذه الآيات الكريمة بالكافرين ، فطالبتهم بالإتيان بمثل القرآن العظيم ، ثم طولبوا بعشر سور مثله ، ثم طولبوا بسورة مثله ، ثم طولبوا بسورة

من مثله[1] ، فتنزل الطلب الإلهي من الأكثر إلى الأقل ، مبالغةً في الإعذار ، وإمعاناً في الإعجاز ، ((ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول : ائتني بمثله ، ائتني بنصفه ، ائتني بربعه ، ائتني بمسألة منه ، فإن هذا هو النهاية في التحدي))[2] .

وهذه الآيات هي ، حسب ترتيب نزولها[3] :

١- قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾[4] .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾[5] .

١- الفرق بين ﴿سُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ و ﴿سُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ أن المثلية تعني تمام المطابقة ، أمّا ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ فتعني مطابقة جزئية في أحد وجوه تفوق سور القرآن فصاحة وبلاغة و إيجازاً ونظماً إلى آخر وجوه الحسن في سوره ، فتحداهم القرآن في آية البقرة – وهي آية التحدي الأخيرة – أن يأتوا بمثلية ناقصة في مطابقتها ، ولا شيء دون هذا في التحدي .

وفي كتب التفسير كلام طويل في ﴿مِن﴾ من قوله تعالى ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ هل هي تبعيضية أو بيانية أو ابتدائية ، وفيها كلام في مرجع الضمير من قوله تعالى ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ أعلى ﴿عَبۡدِنَا﴾ أم على (ما) من قوله تعالى ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا﴾ ، وما اخترته من عَود الضمير على القرآن هو المناسب للسياق ، وعليه أكثر المفسرين .

وانظر في ذلك كله ((روح المعاني)) : ١٩٢/١ – ١٩٥ ، و ((البحر المحيط)) : ١٠٤/١ – ١٠٥ .

٢- ((مفاتيح الغيب)) : ٢/ ١٢٨ .

٣- هذا الترتيب هو الترتيب المناسب للتحدي وهو الذي أميل إليه وإن لم يكن عليه دليل نقلي ، كما أن باقي الأقوال في الترتيب ليس عليها دليل أيضاً ، وفي المسألة خلاف ، لكن تعقيب الله – تعالى – آية البقرة بقوله : ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ هذا التعقيب مشعر أن هذه الآيةَ هي الآية الأخيرة في التحدي ، حيث لم تُعقّب باقي آيات التحدي بمثل هذا التعقيب القاطع لآمال من يريد المعارضة ؛ حيث إنه ليس وراء طلب المثلية الناقصة في سورة واحدة شيءٌ ، والله أعلم .

وانظر ((الطراز)) : ٣٦٩/٣ – ٣٧٠ ، و ((الإتقان)) : ١١٧/٢ ، و ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٢٠ – ٢٣ ، و ((البيان في إعجاز القرآن)) : ٦٧-٧٠ ، و ((الإعجاز القرآني : وجوهه وأسراره)) : ٨-١١ .

٤- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٥- سورة الطور : آية ٣٤ .

٢- ثم قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] .

٣- ثم قال جل شأنه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2] .

٤- ثم قال عز وجل :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3] .

فالآيات الكريمات السابقات نصت على تحدي الكافرين ، والمعروف أنهم لم يستطيعوا - هم وأعوانهم من الشياطين - الإتيانَ بمثل شيء من القرآن ، ودليل ذلك النصُّ القرآني الذي تلا التحدي الأخير :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾[4] .

فإن هذا نفيٌ عامٌّ ، وقد تحقق كل ذلك ، فلم يستطيع أحد الإتيان بمثله ، ولن يستطيعه أحد في المستقبل بحول الله وقوته .

ولبعض المعاصرين[5] - حفظه الله تعالى - كلام جيد تحت عنوان : ((من إيحاءات آيات التحدي)) قال فيه :

١- سورة هود : آية ١٣ .

٢- سورة يونس : آية ٣٨ .

٣- سورة البقرة : آية ٢٣ .

٤- سورة البقرة : ٢٤ .

٥- هو الدكتور صلاح الخالدي .

١- ((توزعت هذه الآياتُ في القرآن المكي والمدنيّ ، وفي ذلك استمرارٌ للتحدي ، فحيثما وُجد كافر يطعن في مصدر القرآن فيوجه له التحدي لمعارضته)) .

٢- ((كان يسبق آيةَ التحدي إشارةٌ إلى شك الكافرين في القرآن)) .

٣- ((كان يتبع آيةَ التحدي إشارةٌ إلى مصدر القرآن)) .

٤- ((جَزْم القرآن بعجزهم عند دعوتهم للمعارضة : ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ ... وتحقق هذا الجزمِ فعلاً بعد ذلك دليلٌ على مصدر القرآن فلو كان من كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما جزم هذا الجزمَ)) .

٥- ((كلمة ﴿مِثْلِهِ﴾ وردت في كل آيات التحدي فليس المطلوب الإتيانَ بنفس القرآن ، لأنه كلام الله ، ولكنّ المطلوب الإتيان بمثله ، والمثلية ليست المثليةَ في معانيه وأخباره وعلومه وأحكامه[1] ولكنها المثلية في جمله ومفرداته وكلماته ، المثلية في أسلوبه وفصاحته وبلاغته))[2] .

تلك كانت نبذةً يسيرة في الكلام على آيات التحدي في كتاب الله ، تبارك وتعالى ، ختمت بها الحديث على هذا المبحث مبحثِ الإعجاز مفهوماً وتاريخاً .

١- هذا بناء على رأيه بأن الإعجاز في القرآن إنما هو الإعجاز البياني فقط ، وقد بث رأيه هذا في صفحات من كتابه ، انظر الصفحات : ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٣٩ وغيرها .

٢- قد أتى الدكتور باثني عشر إيحاءً اخترت منها ما أثبته هاهنا ، وانظر ((البيان في إعجاز القرآن)) : ٦٥ - ٦٧ .

المبحث الثاني

نشأة علم الإعجاز وتدوينه ، وجهود العلماء في دراسته .

نشأة علم الإعجاز وسببه :

إن الإعجاز القرآني قد نشأ منذ نزول الكتاب الشريف على قلب الرسول العظيم محمدٍ – صلى الله عليه وسلم – فقد ظهر عجز العرب الخُلّص عن الإتيان بمثله أو مايقاربه ، مع معاينتهم عظيمَ تأثيره فيهم ، وهدايتَه عظماءهم وضعافهم ، ومع ماقرع أسماعهم من تحدي الله – سبحانه وتعالى – لهم أن يأتوا بمثل هذا الكتابِ أو بعشر سور منه أو بسورة واحدة مثله[1] ، ولكن أنّى للمخلوق العاجز الضعيف أن يأتي بمثل كلام الله الخالقِ العظيم ؟

لكنّ هذا الشعورَ بالعجز عن مضاهاة كلام الله – تبارك وتعالى – ظلّ مستولياً على القلوب والأذهان بدون ترجمته إلى دراسات فاحصة تقرره وتقعّده ، شأنه شأن سائر العلوم الإسلامية في الصدر الأول .

ويقرر بعض المعاصرين أنه : ((قد مضى عصر النبوة وعصرُ الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية وشطرٌ كبير من دولة العباسيين دون أن يحاول أحد التعرضَ لقضية الإعجاز ودلائله ، ولم يكن ذلك عن تقصير في حق القرآن ... إنما كان إعظاماً لأمر القرآن ، وتهيباً لمقامه ، وصوناً لذاته أن يكون غرضاً للآراء والأهواء ، ومجالاً للجدل والخلاف)) [٢] .

لكن اتساع رقعة الإسلام ودخول كثير من غير العرب في هذا الدين جعل من الضروريّ ابتداءَ مثل هذه الدراسة وأن يصبح : ((النظر في القرآن نظراً متعمقاً

١- سبَق تفصيل ذكر هذه الآيات ، انظر ص ٥٤ ومابعدها .

٢- ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)) للدكتور عبد الفتاح لاشين : ٤٢٥ .

وأضيف إلى ذلك أيضاً أن القوم كانوا – لشدة نقاء فطرهم ، وقوة سليقتهم ، و بلاغتهم و فصاحتهم – في غنى عن التكلف لإثبات أمر الإعجاز في القرآن فهم يشعرون به ، بل هو مسيطر على أفئدتهم وجوارحهم .

فاحصاً دارساً ، مقلباً وجوهَ الرأي ، أمراً لامناص منه للعلماء وأصحاب الرأي ، بين مختلف المذاهب والطوائف))[1] .

وكان ((إعجاز القرآن مسألة من تلك المسائل التي ثار حولها النقاش والجدل بين العلماء))[2] .

وهذا كلام جيد أضيف إليه أن هناك سبباً مهماً حدا بالعلماء أن يفتحوا باب الكلام عن إعجاز القرآن على مِصراعيه ، وهو ما أحدثته ضلالات بعض المعتزلة من فهم خاطيء لإعجاز القرآن الكريم[3] ، والله أعلم .

ويرى باحث آخر أن :

((العرب الذين عاشوا لايخالطون غيرهم إلى آخر عهد الأمويين[4] بدأوا يخرجون عن عزلتهم ، وأخذت تغزوهم ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام فبدأوا يتصلون فكرياً واجتماعياً بغيرهم ، وكان ذلك نتيجةً حتمية أملاها عليهم التوسعُ في الفتوحات ، ودخول غير العرب فيما دخل فيه العرب أنفسهم ، مع ماهذه الشعوب الجديدة على فكر الإسلام والمسلمين مِن ثقافات قديمة))[5] .

ثم ذكر أن الإسلام أخذ يتعرض لحركات طعن وتشكيكٍ من أصحاب هذه الديانات القديمة وجهوا فيها همهم إلى كتاب المسلمين المقدس[6] .

١- ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)) : ٤٢٦ .

٢- المصدر السابق : ٤٢٧ .

٣- وذلك نحو كلام النظَّام وغيره في الإعجاز بـ (الصَّرفة) كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في المبحث القادم .

٤- قد اختلط المسلمون بغيرهم من الأعاجم كالفرس والروم ابتداءً من عهد الفتوح الأولى لبلاد الفرس والشام ومصر و غيرها من البلاد التي كانت بأيدي الروم ، ولكن إذا قيل إن الترجمة لعلوم الأوائل واختلاط الثقافات بين الشعوب هو الذي أراده الباحث ، إذا قيل هذا فهو أقرب ، والله أعلم .

٥- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) للدكتور عبد الرؤوف مخلوف : ٢٨ .

٦- المصدر السابق : ٣٠ .

ثمّ نقل كلاماً جامعاً لابن قُتَيْبَةَ[1] – رحمه الله تعالى – يبين فيه سبب تأليف كتابه الجليل : ((تأويل مشكل القرآن)) قال فيه :

((فقد اعترض بالطعن ملحدون ، ولَغَوْا فيه وهجروا[2] ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاءَ تأويله بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظرٍ مدخول[3] ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعَدَلوه عن سبله ، ثم قَضَوْا[4] عليه بالتناقض والاستحالة واللحنِ وفساد النظم والاختلاف ، وأدلَوْا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغَمْرَ[5] والحدث الغِرّ[6] ، وعرضت[7] بالشبه في القلوب وقدحت بالشكوك في الصدور))[8] .

ثم قال الباحث نفسه :

((وكان لابد لهذه الحركةِ الزائفة التي ظهرت على أيدي الملحدة من حركة معارضة يقوم بها رجال من المسلمين ، تتصدّي لتيار الزَّيغ ، وتناوئ أفكار الزائغين ، وتقيم للدين صرحاً من الفكر يُبعد كل زيف))[9] .

١- هو العلامة الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبة الدِينَوَريّ الكاتب . نزل بغداد ، وصنف وجمع ، وبَعُد صيته وكان ثقة ديناً فاضلاً . وكان رأساً في علم اللسان العربيّ والأخبار وأيام الناس . مات ببغداد فجأة سنة ٢٧٦ رحمه الله . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٢٩٦ – ٣٠٢ ، و ((الأعلام)) : ٤ / ١٣٧ .

٢- أي قالوا هُجْراً ، والهُجْر هو القبيح من الكلام . ((لسان العرب)) : (هـ ج ر) .

٣- الدَّخَل : العيب والفساد . المصدر السابق : (دخل) .

٤- أي حكموا .

٥- الغَمْر والغُمْر هو الذي لم يجرب الأمور ، وهو الجاهل : ((لسان العرب)) : (غ م ر) .

٦- الغِرّ : الشاب الذي لا تجربة له . المصدر السابق : (غ ر ر) .

٧- في ((تأويل مشكل القرآن)) المطبوع : واعترضت ، انظر ص ٢٢ .

٨- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٣٠ – ٣١ نقلاً عن ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة : ص ٢٢ ، باختلاف يسير عما في المطبوع .

٩- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ص ٣١ .

والباحث قد ذكر في كتابه أن المتكلمين الذين تكلموا في (الصرفة) و (الإعجاز النظميّ) قد أخذوا ذلك من آراء الفرس والهنود في بعض كتبهم التي يدعون قداستها ، ولم يذكر الباحث دليلاً ملموساً على هذا . انظر كتابه : ٢٨ – ٣٥ ، وكذلك صنع أبو زهرة – رحمه الله تعالى – في كتابه ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٧٦ .

وكانت هذه الحركةُ المعارضة هي ابتـداءَ التصنيـف في علـوم القـرآن الكريـم عامة ، وعلم إعجاز القرآن العظيم خاصة .

ومن القواعد المقررة أن كل علم ابتُدئ بالتصنيف فيـه والبحـث، فـإن مسـائله تكون متناثرة مبثوثة في كتب شتى ، ثم يتعاقب على هذا العلمِ علماءُ أفذاذ ينقحون مسـائله ، ويحـررون مباحثـه ، ويجمعـون متفرقاتِـه في قواعـدَ منضبطـةٍ تجمـع تلـك المسائل والمباحث في مصنَّف مستقل .

هذه هي القاعدة في العلوم جميعها إلا ماشذ وانفـرد - وهـو القليـل النـادر - فبدأ قوياً فتيّاً منذ نشأته ، وذلك كعلم العَرُوض[1] .

وعلم إعجاز القرآن قد مرّ بالأطوار الـتي مـرت بهـا العلـوم ، وسـلك دربهـا وحذا حذوها ؛ إذ كان الكلام فيه مفرقاً في كتب متنوعة مثل كتب السيرة - وكان الحديث فيها عن انقطـاع الكـافرين أمـام القـرآن الكريـم - وبعـض كتـب التفسـير بالمأثور[2] التي ورد فيها شيءٌ قريب مما ورد في السيرة ، ثم إنه نشأت بعض الأقوال في الإعجاز خاصة من قِبَل متكلمة المعتزلة ، كما سيأتي بالتفصيل قريباً إن شاء اللـه تعالى .[3]

ثم إن تلك الأقوال قد ردّها علماء وقبِلها آخرون ، وانتشر الكلام فيها .

١- العَروض هو ((علم يُبحث فيه عن أحـوال الأوزان المعتبرة ، وميزانِ الشعرِ يُعرف بـه مكسـوره من موزونـه ، كما أن النحو معيار الكلام ؛ به يُعرف مُعربه من ملحونـه ... ويُعزى اختراعه إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ بعـد أن استعرض مارُوي من الشعر ... واختلفوا في سبب تسميته بعلم العَروض فمن قائل لأن الشعر يُعرض عليـه ، أو لأن العَروض بمعنى الناحية ؛ والعَروض ناحية من نواحي العلم والشعر ...)) :
((المعجم المفصل في الأدب)) : د . محمد التونجي : ٢/٦٢٢ - ٦٢٣ .
٢- مثل تفسير ابن جرير الطبريّ كما سيأتي قريباً - إن شاء اللـه تعالى - انظر ص ٦٧ ، ٦٨ .
٣- وأعني القول بـ (الصَّرفة) : انظر ص ٩٢ وما بعدها .

ثم استقل بهذه المسألة – مسألة إعجاز القرآن – عددٌ من التصانيف في أواخر القرن الثالث – فيما وصلنا وتناهى إلينا علمه – حتى هذا القرن .

وكان الكلام على الإعجاز في القرون الثلاثة الأولى يغلب عليه استعمال المصطلحات القرآنية ، كالآية والبرهان ، على العكس من حال القرون التالية فقد غلب عليها استعمال مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) .

وسوف أورد – إن شاء الله تعالى – ما وجدته من الكلام على المعاني القريبة من مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) في القرون الثلاثة الأولى[1] ، ثم أحاول أن أثبت من تكلم في (الإعجاز) و (المعجزة) بهذين اللفظين في القرن الثالث[2] .

وسوف أثبت ، بإذن الله تعالى ، ما وصلنا من أسماء مصنفاتٍ في الإعجاز – المطبوعِ منها والمخطوط والمفقود – على قدر الوسع والطاقة منذ نهاية القرن الثالث حتى آخر القرن الثالث عشر الهجري وذلك في آخر المبحث ، والله الموفق[3] .

١- وإنما لم أفعل ذلك في القرون التي بعد القرن الثالث لشيوع الكلام على الإعجاز ، واستعمالِ مصطلح (معجزة) و (إعجاز) فيها .

٢- انظر الهامش السابق .

٣- انظر ص ٧٩ ومابعدها .

الكلام على الإعجاز في القرنين الأول والثاني

لم يرد مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) إلا في القرن الثالث الهجري - فيما وصل إلينا من كلام الأئمة - لكن معنى (الإعجاز) و (المعجزة) كان معروفاً منذ أيامِ رسول اللـه ، صلى اللـه عليه وسلم .

فالكفار عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن العظيم أو بمثل بعضه ، وانقطعوا بعد أن تحداهم اللـه زماناً طويلاً فلم يصنعوا شيئاً ، ثم إن الكافرين كانوا يتحيرون حال سماع القرآن العظيم ويعجزون عن وصفه ، ويقرون - بلسان الحال أو المقال - أنه لا مثيل له ولا يستطاع ، وهذا كله عين العجز .

فهذا الوليد بن المغيرة[1] يسمع القرآن يُتلى فيقول فيه قولته المشهورة المنبئة عن عجز القوم حياله :

((واللـه إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطـلاوة[2] ، وإنه لمثمر أعلاه[3] ،

١- الوليد بن المغيرة بن عبد اللـه بن عمر بن مخزوم ، أبو عبد شمس . مات كافراً بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة ودفن بالحَجون . ((الكامل في التاريخ)) : ٢ / ٤٨ .

٢- الطَّلاوة والطُّلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق : ((لسان العرب)) : طلى .

٣- الكلام مستعار من حال النخلة ؛ إذ أعلاها مثمر وله حلاوة ، وأسفلها ثابت راسخ - أو كثير الماء على حسب روايتي : (مُغْدِق) و (عَذْق) - وفي قوله (لمثمر أعلاه) إشارة إلى غزارة نفعه ، وزيادة رَفعه بكريم فوائده وعميم عوائده . انظر ((شرح الشفا)) للقاري : ١ / ٥٥١ ، و ((الروض الأنف)) : ٢ / ٢١ .

مُغْدِق[1] أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلا ، وإنه ليحطم ما تحته))[2] .

فلو أنصف القوم أنفسَهم لأسلموا ولكنها الغشاوةُ التي على أبصارهم والختم الذي على قلوبهم .

ومما يدل – أيضاً – على أثر إعجاز القرآن في نفوس المشركين أن أباجهل[3] والملأ من قريش قالوا :
((لقد انتشر علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلّمه ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة[4] : لقد سمعت بقول السحرة والكِهانة والشعر ، وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفى عليّ إن كان ذلك ، فأتاه فلما أتاه قال له عتبة :

١- الغَدَق : المطر الكثير العام ، والماء الكثير ، وأغدق المطر يُغدق إغداقاً فهو مُغْدق ((لسان العرب)) : غَدَق .
وقال القاري : ((اسم فاعل من الغَدَق – بفتحتين – وهو كثرة الماء ؛ تلويحاً بغزارة معانيه في قوالب مبانيه)) :
((شرح الشفا)) : ١ / ٥٥١ .
ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام : ((لمغْدِق)) ؛ لأن الكلام مستعار من حال النخلة إذ أعلاها مثمر وله حلاوة وأسفلها ثابت راسخ : انظر ((الروض الأنف)) : ٢ / ٢١ .
٢- الحديث ثابت صحيح ، وقد أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) : ١٩٨/٢ وبوب للحديث وأمثاله بقوله : باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لايشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان . وذكر أن له أربع روايات أخرى ، وأن ذلك ((يؤكد بعضه بعضاً)) .
وقد أخرجه الحاكم أيضاً في ((المستدرك)) وقال : ((هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاريّ ولم يخرجاه)) ، ووافقه الإمام الذهبيّ . انظر ((المستدرك)) : ٥٥٠/٢-٥٥١ .
٣- عمرو بن هشام بن المغيرة المخزوميّ . عدو الله ورسوله . قتل يوم بدر كافراً في السنة الثانية من الهجرة .
((التبيين في أنساب القرشيين)) : ٣١٦ .
٤- عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من سادات قريش وأشرافها وذوي أحكامها ، وكان أمية بن أبي الصلت يتوهم أنه يكون نبيَّ هذه الأمة . قتل يوم بدر كافراً في السنة الثانية من الهجرة . المصدر السابق : ١٨٦ .

يا محمد أنت خير أم هاشم[١] ؟ أنت خير أم عبد المطلب[٢] ؟ أنت خير أم عبد الله[٣] ؟ فلم يجبه .

قال : فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا مابقيت ، وإن كان بك الباءة[٤] زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعَقِبك من بعدك ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – ساكت لا يتكلم ، فلما فرغ قال رسول الله عليه وسلم :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فقرأ حتى بلغ ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[٥] فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه ...))[٦] .

١– واسمه عمرو ، وهاشم لقب له لَهشْمه الثريدَ لقومه . وكان من سادة قريش . المصدر السابق : ٣٦ ، ١٤٩ .

٢– واسمه شيبة لشيبة – ظاهرة في ذؤابته – وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً حمله إلى مكة – في قصة جرت لشيبة – وقد غيرته الشمس فقال أهل مكة : هذا عبد المطلب . كان من سادة قريش . توفي ولرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثمان سنين . المصدر السابق : ٣٧ .

٣– هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفي شاباً وآمنة حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم . المصدر السابق : ٣٨ ، ٧٧-٧٨ .

٤– الباءة : النكاح ، وسمي كذلك لأن الرجل يتبوأ من أهله أي يستمكن من أهله كما يتبوأ من داره . ((لسان العرب)) : ب و أ .

٥– سورة فصلت : ١ – ١٣ .

٦– أخرج الرواية البيهقي في ((دلائل النبوة)) باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله – تعالى – من الإعجاز وأنه لايشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان : ٢ / ٢٠٢ – ٢٠٤ .

وأخرجها عبد بن حميد في مسنده عن ابن أبي شيبة ، وهي مقاربة لرواية البيهقي غير أن فيها : ((... فقالوا : ماوراءك ؟ فقال : ماتركت شيئاً أرى أن تكلمونه (كذا في المطبوع من منتخب مسند عبد بن حميد) إلا قد كلمته. قالوا : فهل أجابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والذي نصبها بَنِيَّةً (أي الكعبة) ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ قالوا : ويلك ، يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة)) :

((المنتخب من مسند عبد بن حميد)) : ٣٣٧ – ٣٣٨ .

وقوله : ((مافهمت شيئاً)) أي أنه سمع كلاماً لا عهد له به لا أنه لم يفهم مفرداته .

وقال محققا الكتاب : ((إسناده ضعيف لضعف الأجلح)) ، انظر ص ٣٣٧ . =

وفي رواية أخرى ((... فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد فيها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد؟ قال : سمعت ، قال : فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قطٌّ ، والله ماهو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة . يا معشر قريش : أطيعوني واجعلوها بي ، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأٌ ، فإن تصبه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعدَ الناس به ، قالوا : سحرك - والله - يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم ...))(١) .

= والأجلح هو ابن عبد الله ، قال الحافظ:

((صدوق ، شيعيّ ، من السابعة . مات سنة ٤٥ . بخ ٤)) : ((التقريب)) : ٩٦ .

وهو من رجال البخاريّ - رحمهم الله تعالى - كما ذكر الحافظ ابن حجر في ((التقريب)) : ٩٦ ، فقول المحققيْن : إسناده ضعيف لضعف الأجلح لاوجه له ، والله أعلم ، فإسناد هذه الرواية حسن .

وأما ابن أبي شيبة - الذي روى عنه عبد بن حميد - فقد روى الحديثَ بسنده عن علي بن مُسْهِر عن الأجلح عن الذّيّال بن حَرْملة عن جابر رضي الله عنه .

علي بن مسهر : ثقة كما في ((التقريب)) : ٤٠٥ .

والذّيّال بن حرْملة : وثقه ابن حبان ، انظر ((تعجيل المنفعة)) : ١٢٢ ، و ((المصنف)) : ٧ / ٣٣٠ - ٣٣١ .

١- هذه الرواية أخرجها البيهقي أيضاً كسابقتها في ((دلائل النبوة)) في الباب نفسه : باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله - تعالى - من الإعجاز ... ٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وهي رواية مرسلة إذ قال فيها محمد بن كعب : حُدّثت أن عتبة بن ربيعة ..... و محمد بن كعب هو القُرَظيّ ، وهو أحد التابعين الفضلاء الثقات ، انظر ((التقريب)) : ٥٠٤ ومرسل التابعي من أقسام الضعيف إلا بشروط اشترطها بعض الأئمة لاتنطبق على هذا المرسل ، لكن هذه الرواية عُضدت بالرواية السابقة .

كانت تلك الروايات عن حال مشركي قريش إزاء القرآن العظيم جزءاً من روايات كثيرة أوردها كتاب السيرة في كتبهم ، وهي توضح مدى تأثير القرآن عليهم وإعجازه لهم وعجزهم عنه .

((وإنه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقترن بثلاثة أمور :

أولها : إعجابهم بعلوّه عن أن يصل إليه أحد من البشر ...

ثانيها : أنهم كانوا مع شركهم ... ينجذبون إليه ويريدون أن يسمعوه استطابة لما فيه من لفظ ذي نغم يجذب وعبارات مشرقة ونظم منفرد ...

ثالثها : أن أشدهم عناداً كان أقربهم إيماناً إذا قرأ القرآن صغى قلبه إلى الإيمان ... وقرأه عمر بن الخطاب فانخلع قلبه من الشرك وطغيانه إلى الإيمان))[1] .

أما كلام أهل القرن الأول والثاني في الإعجاز القرآني فقد ورد شذراتٍ متفرقة في كتب التفسير عند الكلام على بعض آيات التحدي في كتاب الله تعالى ، فقد قال قتادة[2] – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[3] ، فقال :

((لاتقدرون على ذلك ولا تطيقونه))[4] .

١- ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٧٣ - ٧٤ .

٢- هو الشيخ قَتادة بن دِعامة بن قتادة ، أبو الخطاب السَّدُوسيّ ، البصري الضرير الأكمه [وهو من وُلد أعمى] ، حافظ عصره ، قدوة المفسرين والمحدثين ، ولد سنة ٦٠ . وكان من أوعية العلم ، وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع ، لأنه مدلس معروف بذلك ، وكان يُرمى بالقدر ، ومع هذا ما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه . توفي سنة ثماني عشرة ومائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٥/٢٦٩-٢٨٣ .

٣- سورة البقرة : آية ٢٤ .

٤- والأثر أخرجه ابن جرير – رحمه الله تعالى – في ((جامع البيان)) : ١/٣٧٩ ، قال :
((حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد عن سعيد ، عن قتادة))
وبشر بن معاذ هو العَقَديّ : صدوق كما في ((التقريب)) : ١٢٤ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : ثقة معروف ، كما في تعليقه على ((جامع البيان)) : ١/٢٩٧ .
=

وقال ابن جُرَيج(١) – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٢) فقال :

((يقول : لو برزت الجنّ وأعانهم الإنس فتظاهروا لم يأتوا بمثل هذا القرآن))(٣) .

تلك كانت بعض معاني الإعجاز في القرآن العظيم في القرنين – الأول والثاني ، ولم تكن بالقوم – أهلِ القرون الأولى – حاجةٌ للإفاضة في الحديث على إعجاز القرآن وكونهِ آيةً وبرهاناً وذلك لوضوح هذا المعنى في عقولهم وقلوبهم ، ولندرة من يماري فيه ويثير الشبهات حوله .

= ويزيد هو ابن زُرَيع : ثقة ثبت ، كما في ((التقريب)) : ٦٠١ .

وسعيد هو ابن أبي عَرُوبة : ثقة حافظ كما في ((التقريب)) : ٢٣٩ .

فالأثر إسناده إلى قتادة صحيح ، والله أعلم .

١- الشيخ الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، القرشيّ الأموي المكيّ ، مولى أمية بن خالد . أول من دون العلم بمكة . وهو ثقة حافظ صاحب عبادة وتهجد . عاش سبعين سنة وتوفي سنة خمسين ومائة . وسنه ومولده ووفاته هو والإمام أبو حنيفة واحد .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٦/٣٢٥-٣٣٦ .

٢- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٣- ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)) : ١٥٩/١٥ طبعة البابي الحلبي .

وأما رجال إسناد هذا الأثر فقد قال ابن جرير :

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين ، ثني الحجاج ، عن ابن جُرَيج .

القاسم = القاسم بن الحسن ، وقال الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله : ((أما القاسم بن الحسن شيخ الطبري فلم أجد له ترجمة)) ، وذكر أن هذا الإسناد : القاسم عن الحسين يدور عند الطبري كثيراً في التفسير والتاريخ . انظر ((تفسير الطبري)) : ٥٠٧/٧ .

الحسين = الحسين بن داود و يلقب بـ (سُنيد) ، قال الحافظ : ((ضُعف مع إمامته ومعرفته ... مات سنة ست وعشرين)) أي ومائتين ، انظر ((التقريب)) : ٢٥٧ .

الحجاج = الحجاج بن محمد المِصِّيصي ، أبو محمد ، ثقة ثبت ، اختلط قبل موته لما قدم بغداد سنة ست ومائتين ، روى عنه الجماعة . انظر ((التقريب)) : ١٥٣ .

ابن جُريج= عبد الملك بن عبد العزيز بن جُريج : ثقة فاضل ، كان يدلس ويرسل . روى عنه الجماعة . ((التقريب)) : ٣٦٣ . وإسناد هذا الأثر ضعيف لجهالة شيخ الطبريّ ، والله أعلم .

قد كان الحديث عن الإعجاز إذاً في القرنين الأول والثاني تأريخاً محضاً لموقف كفار العرب من القرآن وإعجازه ، أو تفسيراً لآيات الإعجاز في كتاب الله تبارك وتعالى .

وقد كانت الألفاظ القرآنية - كالآية والحجة - هي المستعملة في ذلك العهد ، للدلالة على ماسمي بعد ذلك (الإعجاز) و (المعجزة) .

الكلام على الإعجاز في القرن الثالث الهجري[١]

بدأ استعمال مصطلحي (الإعجاز) و (المعجزة) من القرن الثالث الهجريّ ، ولكنه لا يُعلم - على وجه القطع أو التخمين - من الذي بدأ استعماله ، ومتى ؟

لكن بالرغم من ظهور مصطلحي (الإعجاز) و (المعجزة) فقد استمر استعمال الألفاظ القرآنية فاشياً بين العلماء وذلك نحو (الآية) و (البرهان) و (الحجة) إلخ ...

ولذلك فإني سأورد جميع من تكلم في الإعجاز في هذا القرن[٢] - مستغرقاً من تناهى إلى علمي منهم - سواء أأوردوا كلمة (معجزة) و (إعجاز) أم لم يوردوهما ، وسوف أبين - إن شاء الله - مَن الذي جاء بمصطلح (الإعجاز) أو (المعجزة) منهم ، على الوجه التالي :

١- قد اعتمدت في تأريخ كلام المصنفين في الإعجاز على سني وفاتهم ؛ إذ هي ضابط محدد ، بخلاف سنة التأليف ، أو وقت الكلام على الإعجاز ؛ إذ غالب ذلك مظنون أو مجهول .

٢- سأرتب أسماءهم على حسب وفياتهم ، أو طبقاتهم إن لم تعلم سنة الوفاة ، فإن لم يُعلم هذا ولا ذاك فإني أورد الأسماء في المكان الذي يغلب على ظني أنه الأليق به ، والله أعلم .

١- إبراهيم النظّام[١]

وهو ممن صرح بلفظ (المعجزة) و (العجز) ، فقد قال :

إن ((الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم))[٢] .

وقال أيضاً :

((إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي - عليه السلام - ولا دلالةً على صدقه في دعواه النبوة ...))[٣] .

٢- عيسى المزدار[٤]

١- أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام البصري المعتزلي المتكلم . تكلم في القدر ، وانفرد بمسائل مخزية ، وله كتب كثيرة . كفره جماعة . مات سنة بضع و عشرين و مائتين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٥٤١/١٠ .

هذا و لم يبين الإمام الذهبي من كفره . وقال صاحب ((الفَرق بين الفِرق)) : ١١٤ إن ((أكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام)) و أخذ في ذكر من كفره كالجُبّائيّ و أبي الهذيل .

و لم أجد في كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) إلا ثناءً بالغاً عليه وعلى ذكائه مع أن الكتاب مجموع من أقوال ثلاثةٍ من أئمة الاعتزال ، انظر ((طبقات المعتزلة)) : ٧٠-٧١ ، ٢٦٤ - ٢٦٥ .

بل إن شيخ المعتزلة البغداديين أبا الحسين الخياط قد دافع عن النظام و أنكر مانسب إليه من القول بالصرفة لكنه لم يأت بدليل يؤيد ماذهب إليه من نفي هذا القول عن النظّام ، انظر ((الانتصار)) : ٢٨-٢٩ .

٢- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ .

٣- ((الفَرق بين الفِرق)) : ١٢٨ ، وسيأتي الرد على مذهبه (الصرفة) مفصلاً في المبحث القادم - إن شاء الله تعالى - انظر ص ٩٢ ومابعدها .

٤- أبو موسى ، عيسى بن صُبيح المزدار البصري ، من كبار المعتزلة أصحاب التصانيف الغزيرة . تزهد وتعبد وتفرد بمسائل ممقوتة . مات سنة ست وعشرين ومائتين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٥٤٨/١٠ ، وكتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧٤ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ .

وقد ضُبط لقبه - كما جاء في ((السير)) - (المردار) ، بإهمال الراءين ، و (المرداز) بإعجام الراء الثانية على قول آخر ، ولكن المعتمد هو (المزدار) بإعجام الراء الأولى وإهمال الثانية ، وذلك لأن محقق ((طبقات المعتزلة)) ذكر أن كاتب نسخة ((شرح عيون المسائل)) للحاكم الجُشَمي (لوحة : ٥٨) -- وهي جزء من كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) ، إذ هو في الحقيقة ثلاث كتب مجموعة في كتاب - قد ضبط لقبه بالزاي فوضع فوقها نقطة ، وفوق الراء (أي الثانية) علامة إهمال . انظر ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٢٧٧ .

=

لم يصرح بلفظ (المعجزة) وإنما قال :

((إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة))[1] .

فالقرآن إذاً – في اعتقاده – غير معجز في ألفاظه و بلاغته .

٣- هشام الفُوَطيّ[2] :

٤- عباد بن سليمان[3] :

وإنما كان المحكي عنهما من الأقوال في الإعجاز إشارةٌ أشار إليها الشيخ أبو الحسن الأشعري[4] – رحمه الله تعالى – حيث قال :

((والمعتزلة على نقيض قوله هذا[5] إلا هشاماً الفُوَطيّ وعباد بن سليمان ، أما سائرهم فهم على أن تأليف القرآن ونظمه معجز ، محالٌ وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه عَلَم لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم)) .[6]

= وقد تحرف لقبه إلى ((مِدرار)) في ((لسان الميزان)) : ٤/٤٦٠ . وقد ضُبط اسم أبيه في ((السير)) و((لسان الميزان)) بفتح الصاد ، بينما جاء الاسم مصغراً : (صُبيح) في كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٢٧٧ . أما ضبط الميم من (المزدار) فلم أجده .

١- ((الملل و النحل)) : ١/ ٦٩ .

٢- هشام بن عمرو الفُوَطيّ المعتزليّ الكوفيّ مولى بني شيبان ، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال ، وله أقوال مستشنعة ، وقد جعله صاحب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) من الطبقة السادسة منهم :

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠/٥٤٧ ، و ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧١ ، ٢٧١ .

والواو من لقبه (الفُوَطي) محركة في ((السير)) و ((طبقات المعتزلة)) . وقد زعم ابن النديم أن الواو واجبة التسكين في العربية ، ولم يأت بسبب هذا الوجوب ، انظر ((الفهرست)) : ٣٥٥ .

٣- أبو سهل عباد بن سليمان البصري المعتزلي ، من أصحاب هشام الفُوَطيّ ، وقد خالف عباد المعتزلة في أشياء اخترعها لنفسه . وكان حاذقا في علم الكلام وله مصنفات. انظر ((سير أعلام النبلاء)) :١٠/٥٥١ – ٥٥٢ .

٤- هو الشيخ الإمام العلامة ، إمام المتكلمين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعريّ اليمانيّ البصري ولد سنة ٢٦٠ ، وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم ، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه بعد أن كان من المقدَّمين فيه . له تصانيف حسنة تقضي له بسعة العلم . مات ببغداد سنة ٣٢٤ :

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٥/٨٥ – ٩٠ .

٥- أي قول النظّام بالصَّرفة .

٦- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ .

ويفهم من كلام الإمام الأشعريّ أن هشاماً وعباداً يقولان بـ (الصّرفة) وأن القرآن غير معجز في ذاته ، بل نص على أنهما قالا ذلك الإمام الباقلاني[1] .

٥- الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى :

قد ذكر الإمام أحمد لفظ (المعجزة) كما بين شيخ الإسلام ابن تيميّة - رحمه الله تعالى - بقوله :

((والسلف - كأحمدَ وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا[2] معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات ...))[3] .

وقال ابن تيميّة أيضاً في مكان آخر :

((وإن كان اسم المعجزة يعم كلَّ خارق للعادة في اللغة ، وفي عرف المتقدمين كأحمدَ بنِ حنبل وغيره...))[4] .

وكلام شيخ الإسلام هذا يفهم منه شيوع استعمال (المعجزة) عند السلف زمان الإمام أحمد - في القرن الثالث - لكني لم أجد إلا ما أوردته هاهنا ، والله أعلم .

٦- علي بن رَبَن الطبريّ[5] ، رحمه الله تعالى :

مؤلف كتاب ((الدين والدولة)) ، ولم يصرح فيه بلفظ (المعجزة) و (الإعجاز)[6] وإنما ذكر فيه لفظ آيات ، وبراهين ، ودلائل .

١- ((إعجاز القرآن)) : ٦٥ .

٢- أي المعجزات والكرامات ، كما هو مفهوم من سياق النص قبله .

٣- ((الجواب الصحيح)) : ٤١٩/٥ .

٤- ((مجموع الفتاوي)) : ٣١١/١١ - ٣١٢ .

٥- كان من كتاب مدينة مرو ، وله همة رفيعة ، وعلم بالإنجيل والطب ، ثم أسلم على يد المعتصم فقربه وظهر فضلُه ، وأدخله المتوكل في جملة ندمائه ، وكان بموضع من الأدب ، ولد في حدود سنة ١٩٢ ، وتوفي بعد سنة ٢٤٠ بقليل كما ذكرت ذلك محققة كتاب ((الفهرست)) :
انظر ((الفهرست)) : ٥٩٠ ، و ((تاريخ حكماء الإسلام)) : ٢٢ - ٢٣ .

٦- قد تصرف الأستاذ نعيم الحمصي في حكاية كلام علي الطبريّ في سبب تحوله من النصرانية إلى الإسلام فغيّر كلمة آيات إلى معجزات ، ولم يذكر ذلك الطبري في كتابه ، و قد تصفحت الكتاب كله فلم أجد أن الطبريّ =

والكتاب مصنف - في معظمه - لإثبات نبوة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من التوراة والإنجيل ، وذكرِ المعجزات التي كانت تظهر على يديه - صلى الله عليه وسلم - وليس فيه ما يخص هذا المبحثَ إلا الباب السادس وهو ((في أمية النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن الكتاب الذي أنزله الله عليه وأنطقه به آية للنبوة)) ، وذكر في هذا البابِ مباحث منها مبحث تحدي القرآن الكافرين بأن يأتوا بمثله فما استطاعوا[1] .

٧- الجاحظ[2] ، رحمه الله تعالى :

الجاحظ ممن صرّح بلفظ (الإعجاز) و (المعجزة) في أكثر من مكان في كتبه ، والجاحظ علم من أعلام الأدب العربيّ ، وسِمةٌ بارزة من سماته ، كتب في جوانبَ متعددةٍ اجتماعية ، وتربوية ، وعلمية ، وكانت له مشاركة في الكتابة في إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه الفريد ، على الرغم من منحاه الاعتزاليّ الواضح في قوله بخلق القرآن[3] .

هذا وقد وصلت إلينا رسالة له في باب إعجاز القرآن وهي رسالة ((حجج النبوّة)) ، وهي رسالة جيدة إلا أنها غير كاملة ؛ إذ فيها بتر واضح في آخرها[4] .

= استعمل كلمة (إعجاز) و (معجزة) و إنما ذكر لفظ (آية) ونحوها ، انظر ((الدين والدولة)) : ٥٠ - ٥١ ، وانظر ((فكرة إعجاز القرآن)) للأستاذ الحمصي صفحة ٥٧ ، وعندما قرأت مقدمة الأستاذ الحمصي لكتابه مرة أخرى وجدته يذكر أن علي بن رَبَن الطبريّ لم يذكر في كتابه كلمة (معجزة) ، انظر ص ٧ من المقدمة ، ولا أدري أنسي الأستاذ عندما عرض كلام الطبري في ثنايا الكتاب أم أنه تصرف في كلام الطبري معتمداً أنه بين في مقدمة كتابه أن الطبري لم يورد كلمة معجزة ، والله أعلم .

١- انظر ((الدين و الدولة)) : ٥٠ - ٥٦ .

٢- هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصريّ المعتزليّ ، العلامة المتبحر ذو الفنون ، صاحب التصانيف . كان ماجناً ، قليل الدين ، له نوادر ، وهو من بحور العلم . توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بعد أن عُمِّر طويلاً . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١١/٥٢٦ - ٥٣٠ .

٣- انظر ((مجموع رسائل الجاحظ)) للأستاذ عبد السلام هارون : ٣ / ٢٨٣ .

٤- المصدر السابق : ٣ / ٢٢٣ .

وهي من الرسائل التي أوقفنا عليها الشيخ عبيد الله بن حسان[1] فيما اختاره من رسائل الجاحظ .

وللجاحظ كتاب آخر في نظم القرآن العظيم لكنه فُقد من كتبه فلم يصلنا ، وقد أخبر الجاحظ عنه بقوله :

((كتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي ، وبلغتُ منه أقصى ما يمكن لمثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعّان فلم أدع فيه مسألة لرافضيّ[2] ولا لحديثيّ[3] ، ولا لحَشْويّ[4] ، ولا لكافر مباد ، ولا منافق مقموع ، ولا لأصحاب النظّام ، ولمن نَجَم[5] بعد النظّام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة ، فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك ، وأتيت على معنى صفتك أتاني كتابك تذكر أنك لم تردِ الاحتجاج لنظم القرآن ، وإنما أردت ...))[6] .

١- لم يعثر له الأستاذ عبد السلام هارون على ترجمة لكنه رجح أن يكون عاش في القرن الرابع أو الخامس ، انظر المصدر السابق : ١٣/٣ .

٢- فرقة من الشيعة رفضت زيد بن علي بن الحسين لما أبى أن يتبرأ من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما ، فسُمّوا رافضة وانقسموا إلى ثلاثة أقسام . انظر ذلك في ((لوامع الأنوار البهية)) : ٨٥/١ .

٣- أي منسوب إلى الحديث فهو من أهل الحديث ، وكان بينهم وبين المعتزلة نُفرة وخصام .

٤- ((كل طائفة قالت قولاً تخالف به الجمهور و العامة يُنسب إلى قول الحَشْويّة ، أي الذين هم حَشْوٌ في الناس ليسوا من المتأهلين عندهم ، فالمعتزلة تسمي من أثبت القدر حَشْوياً ، والجهمية يسمون مثبتة الصفات حَشْوية ...)) : ((مجموع الفتاوي)) : ١٧٦/١٢ .

((والذي يعيب بعض أهل الحديث وأهل الجماعة بحَشْو القول إنما يعيبهم بقلة المعرفة أو بقلة الفهم ...)) : أي في ظنه الفاسد ، انظر ((مجموع الفتاوي)) : ٢٣/٤ .

((وأول من ابتدع الذم بها المعتزلة)) : ((مجموع الفتاوي)) : ١٤٦/٤ .

((والمعتزلة ينفون العلو والصفات ويسمون من أثبت ذلك مجسماً حَشْوياً)) :

((درء تعارض العقل والنقل)) : ٧ / ٤٣٢ .

((والحشْو من الكلام : الفضل الذي لايُعتمد عليه ، وكذلك هو من الناس ، وحُشوة الناس : رُذلتهم)) :

((لسان العرب)) : حشا .

٥- ظَهَرَ ، انظر ((لسان العرب)) : ن ج م .

٦- مقدمة رسالة ((خَلْق القرآن)) للجاحظ ، وهي رسالة نصر فيها مذهبه البدعي الاعتزاليّ بالقولِ بخلق القرآن . وهي ضمن ((مجموع رسائل الجاحظ)) : ٢٨٣/٣ - ٣٠٠ .

و لم يعجب ذلك الكتابُ الباقِلّانيّ[1] حتى أنه قال فيه :

((وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، و لم يكشف عمّا يلتبس في أكثر هذا المعنى))[2] .

أما كتاب ((حجج النبوّة)) :

فقدصدّره الجاحظ بمقدمة طويلة بيّن فيها مراده من كتابه ، وهو جمع حجج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي المعجزات التي جرت على يديه ، صلى الله عليه وسلم ، في مكان واحد حتى تكون أدعى للحفظ والتفهّم ، وأهدى لمن عَمِي عن الطريق القويم[3] ، ثم ذكر - بعد تشعب كثير واستطراد[4] - كيفية مجيء أخبار معجزات رسولنا ، صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنها قد خرجت مخرج التواتر ، وأنها قد نُقلت لنا النقلَ الذي لا يخالجه شك ولا يخالطه ريب .

ثم دلف من ذلك إلى ذكر بعض الدلائل على نبوته - صلى الله عليه وسلم -[5] وانتهى إلى معجزة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، العظمى ، وهي القرآن ، فبيّن أن العرب كانوا أفصح الناس على هذه البسيطة وأملكَهم لناصية البيان ولكنهم - مع هذا - لم يستطيعوا أن يعارضوا شيئاً من كلام الله تبارك وتعالى مع أنه تحداهم ودعاهم إلى هذا مُدداً متطاولة ، فكان مما قاله :

١- هو الشيخ الإمام العلامة أوحد المتكلمين القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد البصري ثم البغدادي ، ابن الباقِلّانيّ ، صاحب التصانيف . كان يضرب المثل بفهمه وذكائه. وكان ثقة إماماً بارعاً . غالب قواعده على السنة . صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرّامية ، وانتصر لطريقة الأشعريّ . مات سنة ثلاث وأربع مائة ، وكانت جنازته مشهودة. انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/١٩٠-١٩٣ .

٢- ((إعجاز القرآن)) للباقلاني : ٦ .

٣- ((مجموع الرسائل)) : ٣/٢٣٤-٢٣٦ .

٤- المصدر السابق : ٣/٢٣٦-٢٦٦ .

٥- المصدر السابق : ٣/٢٦٦ .

إن ((التقريع لهم بالعجز كان فاشياً ، وأن عجزهم كان ظاهراً ، ولو لم يكن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – تحداهم بالنظر والتأليف ، ولم يكن أيضاً أزاح علتهم حتى قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[1] وعارضوني بالكذب[2] ، لقد كان في تفصيله له وتركيبه ، وتقديمه له واحتجاجه ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مساويه .

ولو لم يكن تحدّاهم من كل ماقلنا ، وقرّعهم بالعجز عمّا وصفنا ... لكان ذلك سبباً موجباً لمعارضته ومغالبته وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم هو سيدَ عملهم والمئونةُ فيه أخفّ عليهم ، وقد بذلوا النفوس والأموال .

وكيف ضاع منهم[3] وسقط على جماعتهم نيفاً وعشرين سنة ، مع كثرة عددهم وشدة عقولهم ، واجتماع كلمتهم ، وهذا أمر جليل الرأي ظاهر التدبير))[4] .

ثم ذكر في آخر رسالته فصلاً ((في ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها))[5] ذكر فيه :

أن كل نبيّ جاء قومه بآية معجزة من جنس ماكانوا بارعين فيه بل هم أقدر الناس عليه ، كمعجزة موسى – عليه الصلاة والسلام – وكالذي جاء به عيسى – عليه الصلاة والسلام – من إحياء الموتى وإبراء الأكمه[6] ، وأن الأمر كان

١– سورة هود : آية ١٣ .

٢– أي ولو لم يقل لهم عارضوني ولو بالكذب .

٣– أي كيف فاتتهم المعارضة .

٤– المصدر السابق : ٣/٢٧٦–٢٧٧ .

٥– المصدر السابق : ٣/٢٧٧ .

٦– هو الذي يولد أعمى ، انظر ((لسان العرب)) : ك م هـ . وانظر في مناسبة معجزات الأنبياء لعلوم أهل عصرهم ((أعلام النبوة)) : ٧٦–٧٧. هذا وقد كان بنو إسرائيل قد أغرقوا في الماديات فجاءهم عيسى – عليه الصلاة والسلام – بمعجزات تلفتهم إلى الجانب الروحي الإيمانيّ ، وتهذب عظيم اتجاههم إلى المادية .

كذلك ((دهرَ محمد - صلى الله عليه وسلم - كان أغلبُ الأمور عليهم ، وأحسنها عندهم ، وأجلها في صدورهم حسنَ البيان ونظمَ ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به ، فحين استحكمت لفهمهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثرت شعراؤهم ، وفاق الناسَ خطباؤهم بعثه الله - عزّ وجل - فتحداهم بما كانوا لايشكون أنهم يقدرون على أكثر منه فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينتقصهم على نَقْصهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط[١] مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات))[٢] .

والجاحظ - بهذه الرسالة ، التي وصلنا جزء منها - هو أول باحث في الإعجاز ، على ما علمناه ، وجعله موضوعاً خاصاً للنظر والدرس ، أما الذين جاؤوا قبل الجاحظ فلم يكن البحث في الإعجاز عندهم قائماً على هذا الوجه[٣] ، إنما كان نتفاً متفرقة ، أو آراء ينقصها التمحيص والتدقيق .

((وهناك دراسات اتجهت اتجاهاًمباشراً للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله في القرآن ، فلم يكن من همها شيء إلا أن تكشف النقاب عن هذا السر المحجب ... فقد كان الجاحظ - فيما نرى - أول من نظر هذه النظرةَ في كتاب الله وحاول أن يجعلها موضوعاً من موضوعات رسائله))[٤] .

١- وذلك لقوة إعجاز هذا الكتاب العظيم ، ولاستمرار قيام معجزته وعدم اندثارها حتى تقوم الساعة .

٢- ((مجموع الرسائل)) : ٣/٢٧٩-٢٨٠ .

٣- انظر ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : ١٥٣ .

٤- المصدر السابق : ١٤٨ .

٨- ابن الراونديّ[١] :

قد ذُكر عن هذا الرجل كلام كثير في معارضة القرآن والطعن فيه - والعياذ بالله تعالى - وأنه ألف كتاباً سماه ((الدامغ)) وكتاب ((الزمرّدة)) وكتاب ((الفريد)) طعن فيها على نظم القرآن وإعجازه .

واجتمع هو وأبو علي الجبائي[٢] ، فقال ابن الراونديّ :
يا أبا عليّ : أما تسمع مني معارضتي للقرآن ونقضي له ؟ فقال له أبو علي : أنا عارف بمجاري علومك وعلومِ أهل دهرك ، ولكن أُحاكمك إلى نفسك ، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلازماً ونظماً كنظمه وحلاوة كحلاوته ؟ قال : لاوالله ، قال : قد كفيتني ، فانصرف حيث شئت[٣] .

ولولا أني ألزمت نفسي بذكر كل من تكلم في الإعجاز في القرن الثالث لما سقت أخبار هذا المعارض الهالك الذي أراد نقض الإعجاز وإبطالَه ، قبحه الله .

هذا ما وجدته وأثبتّه في الكلام على الإعجاز في القرن الثالث ، ويتبين منه أن مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) أخذ في الانتشار واستعمله العلماء باتساع في ذلك القرن وما بعده .

١- أحمد بن يحي بن إسحاق ، من أهل مَرْو الرُّوْذ . سكن بغداد ، وكان من متكلمي المعتزلة ، ثم فارقهم وصار ملحداً زنديقاً . ويقال إن أباه كان يهودياً فأسلم . عاش أكثر من ثمانين سنة وهلك سنة ٢٩٨ .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٨/٢٣٢-٢٣٨ .

٢- محمد بن عبد الوهّاب البصريّ ، شيخ المعتزلة و صاحب التصانيف . كان - على بدعته - متوسعاً في العلوم ، سيال الذهن. له كتاب ((النقض على ابن الراونديّ)) . عاش ثمانياً وستين سنة ، وتوفي سنة ٣٠٣ ، رحمه الله . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤/١٨٣-١٨٤ .

٣- ((الوافي بالوفيات)) : ٨/٢٣٨ ، وانظر أخباره مفصلة في ((الوافي بالوفيات)) : ٨ / ٢٣٢ - ٢٣٨ .

ذكر المصنفات في الإعجاز منذ القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر :

بعد ذكري لمن تكلم على الإعجاز في القرون الثلاثة الأولى ، كان من المناسب الإحاطةُ بالمصنفات في الإعجاز التي صُنفت ابتداءً من القرن الثالث ، إذ لا يُعرف تصنيفٌ في الإعجاز قبل ذلك القرن ، لذلك فإني سأورد كلَّ ما تناهى إلى علمي من مصنفات الأئمة المستقلة بالإعجاز من القرن الثالث ، حتى القرن الرابع عشر الهجريّ المبارك[1] ، سواء ما طبع منها ، أو ما كان مخطوطاً ، أو يغلب على الظن فقده ، وسوف أشير - على حسب الوسع والطاقة - إلى كل ذلك .

هذا وإني سأورد كلَّ ما أقدّر - من موضوعه أوعنوانه - أن له تعلقاً بالإعجاز . وسوف أرتب المصنفات في القرن الواحد حسب الترتيب الزمني لوفاة مصنفيها ، فإن لم أتمكن من معرفة تواريخ وفاتهم فإني أجتهد في ترتيبها حسَب السياق التي وردت تلك المصنفات فيه ، والله الموفق :

المصنفات في الإعجاز في القرن الثالث[2]

١- ((حجج النبوة)) للجاحظ ، رحمه الله تعالى ، وهي رسالة في معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنها معجزة القرآن وإنما أتيت بها - هنا - وهي لم

١- سأتخير من كتب القرن الرابع عشر بعضَها ، انظر ص : ٨٩ ، ٩٠ .

٢- استفدت من عدة كتب في حصر كتب الإعجاز وهي ((الفهرست)) لابن النديم ، و ((كشف الظنون)) لحاجي خليفة ، و ((فكرة إعجاز القرآن)) لنعيم الحمصي ، و ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) لعلي إسحاق شواخ ، وغيرها .

تستقل بالإعجاز القرآنيّ لأن مافيها من معجزات النبي – صلى اللـه عليه وسلم – هو كالممهد لذكر الإعجاز القرآني"[1] .

٢- ((نظم القرآن)) للجاحظ وهو كتاب مفقود[2] .

المصنفات في الإعجاز في القرن الرابع

١- ((إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)) لمحمد بن زيد الواسطي"[3] ، رحمه اللـه تعالى.

وهو كتاب مفقود[4] .

٢- ((نظم القرآن)) لأبي بكر السِّجِسْتاني"[5] ، رحمه اللـه تعالى .

وهو كتاب مفقود – فيما علمت – واللـه أعلم .

١- قد سبق الكلام عليها ، انظر ص ٧٣ ، ٧٥ .

٢- أشار إليه في مقدمة كتابه ((خلق القرآن)) و قد سبق الكلام عليه ، انظر ص ٧٤ .

٣- أبو عبد اللـه محمد بن زيد الواسطيّ المعتزليّ . من كبار المتكلمين في بغداد . أخذ عن الجُبّائيّ المعتزليّ ، و إليه كان ينتمي . كان كثير الأصحاب و مسموع الكلمة . توفي سنة ٣٠٦ . انظر ((الفهرست)) : ٣٦٧ .

٤- سيأتي ذكر أن الجُرجاني شرح هذا الكتاب شرحين ، انظر ص ٨٤ .

٥- أبو بكر عبداللـه بن سليمان بن الأشعث ، الإمام العلاّمة الحافظ ، شيخ بغداد ، صاحب التصانيف .كان من بحور العلم بحيث إن بعضهم فضله على أبيه الإمام أبي داود صاحب السنن . ولد بسِجِسْتان سنة ثلاثين ومائتين. وطلب الحديث حتى صار حافظاً بارعاً .كان قد اتهم بمالاحجة فيه بيّنة ، وهو حجة فيما ينقله من الأحاديث . مات سنة ٣١٦ ، وعاش سبعاً وثمانين سنة .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣/٢٢١- ٢٣٧ .

٣- ((نظم القرآن)) لأبي زيد البلخيّ[١] ، رحمه الله تعالى .

وقد ذكره أبو حيان[٢] التوحيديّ بقوله :

((أما أنا فلم أر في القرآن كتاباً أبعد مرمىً ، ولا أشرف معانيَ من كتاب لأبي زيد البلخيّ ، وكان فاضلاً يذهب رأي الفلاسفة ، ولكنه تكلم في القرآن بكلام دقيق لطيف ، وأخرج سرائر ودقائقَ ، وسماه ((نظم القرآن)) ، ولم يأت على جميع المعاني المطلوبة منه))[٣] .

وهذا الكتاب مفقود أيضاً ، والله أعلم .

٤- ((نظم القرآن)) لابن الإخشيد[٤] ، رحمه الله تعالى .

وكتابه لا أدري عنه شيئاً ، وأرجح أنه مفقود ، والله أعلم .

١- أحمد بن سهل البلخيّ ، صاحب التصانيف . كان فاضلاً في علوم كثيرة ، وكان يسلك طريق الفلاسفة ، وكان يُتّهم في دينه . سلك طريق الإمامية ثم عدل عنه وصار في سلك المعتزلة وهو داهية ، واسع الكلام في رسائله . مات سنة ٣٢٢ عن بضع وثمانين سنة . انظر ((لسان الميزان)) : ١/١٩٥ - ١٩٦ . وقد ذكر أبو حيان أنه مات في سنيٍّ نيف وثلاثين وثلاثمائة . انظر ((البصائر والذخائر)) : ٨/٦٦ .

وقد أفادني معرفة الكتابين السابقين لأبي بكر السجستانيّ و أبي زيد البلخيّ كتاب ((مباحث في إعجاز القرآن)) : ٤١ وهو للدكتور مصطفى مسلم . والكتابان مذكوران في ترجمة كل منهما ، انظر ((لسان الميزان)) : ١ /١٩٥ و ((الفهرست)) : ٢٦٦، ٤٨٩ .

٢- علي بن محمد بن العباس ، أبو حيان التوحيديّ . شيرازيّ ، وقيل نيسابوريّ . اختلف الناس فيه اختلافاً بيناً فمن قائل إنه زنديق ومن موثق . طلبه الوزير المهلبيّ ليقتله فهرب منه ومات في الاستتار . كان متأدباً ، متصوفاً ، متفنناً في علوم كثيرة ، واسع الدراية والرواية . توفى في حدود الثمانين والثلاث مائة . انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٢٢/٣٩-٤١ ، و ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/١١٩-١٢٣ ، وقد نبزه الذهبي بقوله : الضال الملحد .

٣- ((البصائر والذخائر)) : ٨/٦٦ .

٤- أبو بكر أحمد بن علي . من زهاد المعتزلة و فضلائهم . منزله في سوق العطش [وسوق العطش ببغداد ، كما جاء في ((معجم البلدان)) : ٣/٣٨٤] ، له معرفة بالعربية والفقه وله فيه عدة كتب . كانت له ضيعة يصرف أكثر مايُحمل إليه منها على العلم وأهله . توفى سنة ٣٢٦ . انظر ((الفهرست)) : ٣٦٨ . وقد ذكر ابن النديم كتابه هذا في ((الفهرست)) : ٨٢ .

وهناك كتابان لم يُذكر تاريخُ وفاة مصنِفَيْهما ، وأرجح بقرائن ورود الأسماء في ((الفهرست)) أنهما ممن أدرك أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، وهذان الكتابان هما :

٥- ((إعجاز القرآن)) للباهليّ[١] ، رحمه الله تعالى .

٦- ((نظم القرآن)) لأبي علي الحسن بن علي بن نصر[٢] ، رحمه الله تعالى .
والكتابان لاأعرف عنهما شيئاً ، وأرجح أنهما مفقودان ، والله أعلم .

٧- ((النكت في إعجاز القرآن)) للرمانيّ[٣] ، رحمه الله تعالى .
وكتابه مطبوع متداول سيأتي الحديث عنه بالتفصيل ، إن شاء الله تعالى[٤] .

٨- ((بيان إعجاز القرآن)) للخطّابيّ[٥] ، رحمه الله تعالى .
والكتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام على جوانبَ فيه ، إن شاء الله تعالى[٦] .

١- أبو عمر محمد بن عمر بن سعيد الباهليّ البصري ، من باهلة . مولده بالبصرة ومنشؤه بها ، كان متكلماً على مذهب البصريين ، وكان قاضياً يحضر مجلسه المتكلمون . وكان حسن القَصِّ يُبكي الناسَ لحسن قصصه ورقة عبارته . انظر ((الفهرست)) : ٣٦٥ . و قد ذكر ابن النديم كتابه هذا في ترجمته نفسها .

٢- لم أعثر له على ترجمة ، وقد ذكر كتابه ابن النديم في ((الفهرست)) : ٨٢ .

٣- هو الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى الرمانيّ . علامة من أوعية العلم - على بدعته - صنف في التفسير ، واللغة والنحو ، والكلام والاعتزال ، وله نحو من مائة مصنف . وكان يتشيّع .
مات ببغداد سنة ٣٨٤ عن ٨٨ سنة ، رحمه الله تعالى ، انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٦/ ٥٣٣-٥٣٤ .

٤- انظر ص ١٧٦ ومابعدها .

٥- هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ اللغويّ أبو سليمان حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم البُسْتيّ الخطابيّ ، صاحب التصانيف . ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة . رحل في الحديث و قراءة العلوم ، وفي شيوخه كثرة . توفي ببُست سنة ٣٨٨ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/ ٢٣-٢٨ .

٦- انظر ص ٦٢٤ ، ٦٣٧ .

٩- ((إعجاز القرآن)) لابن أبي زيد النفزاويّ القيروانيّ[١] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مفقود ، فيما علمت ، واللـه أعلم .

المصنفات في الإعجاز في القرن الخامس الهجريّ

١- ((إعجاز القرآن)) للباقِلاّنيّ ، رحمه اللـه تعالى .
والكتاب مشهور مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عايه ، إن شاء اللـه تعالى[٢] .

٢- ((الكلام في وجوه إعجاز القرآن)) للشيخ المفيد[٣] .
والكتاب مفقود ، فيما أرى ، واللـه أعلم .

٣- ((إعجاز القرآن)) للقاضي عبد الجبار[٤] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء اللـه تعالى [٥] .

١- هو الإمام العلامة القدوة الفقيه ، عالم أهل المغرب ، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي ، ويقال له : مالك الصغير . كان أحد من برّز في العلم والعمل ، وحاز رئاسة الدين والدنيا ، ورُحل إليه من الأقطار ، وكثُر الآخذون عنه ، وصنف تصانيف . وكان ذا بر وإحسان وإيثار وإنفاق على الطلبة. توفي سنة ٣٨٩ رحمه اللـه تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/ ١٠-١٣ . وقد ذكر الذهبي - رحمه اللـه تعالى - كتابه ((إعجاز القرآن)) في ترجمته .
وقد استفدت معرفة هذا الكتاب من ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٤٦/١ .

٢- انظر ص ١٨٥ ومابعدها .

٣- محمد بن محمد بن النعمان البغدادي ، عالم الرافضة ، صاحب التصانيف ، ويعرف بـ (ابن المعلّم) . كان صاحب فنون و بحوث وكلام ، واعتزال. متزهد ، متعبد. له أكثر من مائتي مصنف . عاش ستا وسبعين سنة ومات سنة ثلاث عشرة وأربع مائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٣٤٤/١٧-٣٤٥ .
وقد ذُكر كتابه هذا في ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٦٣/١ .

٤- هو الشيخ العلامة المتكلم أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبّار الأسد آباذيّ المعتزليّ ، صاحب التصانيف . كان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع والمعتزلة في الأصول ، وله في ذلك مصنفات . ولي قضاء القضاة بالريّ ومات بها سنة ٤١٥ من أبناء التسعين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٤٤/١٧-٢٤٥ .

٥- انظر ص ٦٠٩ وما بعدها .

٤- كتاب في الإعجاز لايعرف عنوانه ، للشريف المرتضى[١] .
وهو كتاب مفقود[٢] .

٥- ((بيان إعجاز القرآن)) : لمكي القيسي[٣] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مفقود[٤] .

٦- ((دلائل الإعجاز)) للجُرْجانيّ[٥] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مطبوع مشهور متداول .[٦]

٧- ((الرسالة الشافية في الإعجاز)) للجُرجـاني أيضـاً ، وهـي مطبوعـة مشـهورة متداولة[٧] .
وقد شرح الجُرجانيّ كتاب الواسطيّ[٨] في شرحين : كبير وصغير ، واسم الكبير : ((المعتضد)) ، وكلاهما مفقود[٩] .

١- هو علي بن الحسين بن موسى العلوي الحسينيّ المتكلم الرافضيّ المعتزليّ ، صاحب التصانيف . له مشاركة قوية في العلوم ، وهو المتهم بوضع كتاب ((نهج البلاغة)) . مات سنة ٤٣٦ عن ٨١ سنة .
انظر ((ميزان الاعتدال)) : ١٢٤/٣ .
٢- ذكر له هذا الكتابَ الأستاذ نعيم الحمصيّ نقلاً عن عبد العليم الهنديّ ، وذكر أنه مفقود .
انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٦٩ .
٣- أبو محمد مكي بن أبي طالب بن محمد القيسيّ القيروانيّ القرطبيّ ، المقرئ ، اللغويّ ، الفقيه ، الأديب ، المفسر ، صاحب التصانيف ، إمام القرآن في وقته . ولد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بالقيروان ، وارتحل إلى مصر والحجاز والأندلس ، التي استقر فيها خطيباً في جامع قرطبة حتى وفاته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، كان خيِّراً ، متديناً ، مشهوراً بالصلاح وإجابة الدعوة ، وله ثمانون تصنيفاً . انظر ((غاية النهاية)) : ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .
٤- ذكر ذلك الأستاذ أحمد حسن فرحات في كتابه : ((مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن)) : ١٣٣ ، وقد دُللت على هذا الكتاب : ((بيان إعجاز القرآن)) من كتاب الأستاذ أحمد حسن فرحات .
٥- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ، أبو بكر الجُرجانيّ ، شيخ العربية . كان شافعياً ، أشعرياً ، عالماً ، ذا نسك ودين . وكان آية في النحو . توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، رحمه اللـه تعالى .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٤٣٢ - ٤٣٣ .
٦- حققه الشيخ محمود شاكر - حفظه اللـه تعالى - تحقيقاً ممتازاً ، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة .
٧- وهي مطبوعة بتحقيق الأستاذ محمود شاكر أيضاً .
٨- انظر ص : ٨٠ .
٩- انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٦١ ، و ((كشف الظنون)) : ١٢٠/١ .

المصنفات في الإعجاز في القرن السادس الهجريّ

لم يصل إلينا شيءٌ من مصنفات القرن السادس ، ولم يشتهر من كتب الإعجاز كتابٌ معروف ، ومن مفقود كتب ذلك القرن :

١ - ((التنبيه على إعجاز القرآن)) للخوارزمي الحنفي[١] ، رحمه الله تعالى .

٢ - وهناك مصنف مفقود في إعجاز القرآن - لايُعرف عنوانه - وهو للشيخ عبد الواحد الرُّوْياني[٢] ، رحمه الله تعالى .

١- محمد بن أبي القاسم بن بايجوك ، الأستاذ أبو الفضل الخوارزميّ النحوي ، صاحب التصانيف .
تتلمذ للزمخشري وجلس بعده في حلقته ، وشهر اسمه وبعد صيته . توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٤/٣٤٠ ، وفيه ذكر كتابه باسم ((إعجاز القرآن)) .
وقد استفدت معرفة كتابه هذا من ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١/١٥٥ .

٢- القاضي العلامة فخر الإسلام شيخ الشافعية ، أبوالمحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد الرُّوْيانيّ ، الطبريّ ، الشافعيّ . من أهل رُوْيان من نواحي طبرستان . ولد سنة خمس عشرة وأربعمائة ، وارتحل في طلب الحديث والفقه وبرع فيه ومهر ، وناظر وصنف التصانيف الباهرة . وكان ذاجاه عريض ، وحِشْمة وافرة ، وقَبول تام .
قتلته الإسماعلية في جامع آمل بعد فراغه من الإملاء سنة إحدى عشرة وخمسمائة .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٩ /٢٦٠ - ٢٦٢ .
وقد ذكر حاجي خليفة أن له مصنفاً في إعجاز القرآن ، انظر ((كشف الظنون)) : ١ / ١٢٠ .
وقد دُللت على مصنّفه هذا من كتاب الأستاذ نعيم الحمصي : ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٤٥٩ .

المصنفات في الإعجاز في القرن السابع

١- ((نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز)) لفخر الدين الرازي[١] ، رحمه الله تعالى .

وسيأتي الكلام على كتابه هذا[٢] - إن شاء الله تعالى - والكتاب مطبوع متداول .

٢- ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) لكمال الدين الزَّمْلَكانيّ[٣] ، رحمه الله تعالى .

والكتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام على جوانب من الكتاب ، إن شاء الله تعالى[٤] .

٣- ((التبيان في علم البيان المُطلع على إعجاز القرآن)) للزَمْلَكانيّ أيضاً .
والكتاب مطبوع[٥] .

١- محمد بن عمر بن الحسن التيميّ البكريّ ، الإمام فخر الدين الرازي ، ابن خطيب الريّ ، إمام المتكلمين . ولد سنة ٥٤٣ ، واشتغل على والده وغيره ، وانتشر اسمه وبعد صيته ، وقصد من الأرض لطلب العلم . وكانت له يد طُولى في الوعظ باللسان العربيّ والفارسيّ . اشتهرت مصنفاته في الآفاق توفي بهَراة سنة ٦٠٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٨١/٨ -٩٦ .

٢- انظر ص ١٩٣ ومابعدها .

٣- هو الشيخ عبدالواحد بن عبدالكريم بن خلف ، كمال الدين ، أبو المكارم ابن خطيب زَمْلَكا . كان عالماً متميزاً في علوم عدة ، ولي القضاء ودرس . وكانت له معرفة تامة بالمعاني والبيان ، وله شعر حسن . توفى بدمشق سنة ٦٥١ . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٣١٦/٨ .

٤- انظر ص ٦٣٠ ، ٦٤٦ .

٥- قد حققه الدكتور أحمد مطلوب وطبع في بغداد سنة ١٣٨٣ . وقد خلط الأستاذ الحمصي بين المصنف وبين حفيده فجعل هذا الكتاب من تصنيف الحفيد : محمد بن علي بن عبدالواحد المتوفى سنة ٧٢٧ ، انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) :١١٢ ، وهذا خطأ ، انظر لتصحيحه مقدمة د. أحمد مطلوب لكتاب ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ١٨-٢٤ .

٤- ((البرهان في إعجاز القرآن)) لابن أبي الإصبع [١] ، رحمه اللـه تعالى .
والكتاب مخطوط[٢] .

٥- ((الإعجاز)) لابن سراقة[٣] ، رحمه اللـه تعالى .
والكتاب مفقود فيما علمت ، واللـه أعلم .
وسيأتي الكلام على بعض الجوانب من هذا الكتاب ، إن شاء اللـه تعالى .[٤]

١- عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العَدْواني البغدادي ثم المصريّ ، الشاعر المشهور ، الإمام في الأدب . شعره رائق . عاش نيفاً وستين سنة ، وتوفي بمصر سنة ٦٥٤ .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ١٩ / ٧ - ١٣ .

٢- للكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة ((تشستر بتي)) في المملكة المتحدة برقم ٤٢٥٥، كما في ((الأعلام)) : ٣٠/٤.

٣- هناك اثنان من العلماء كل منهما يلقب بـ (ابن سُراقة) :
أحدهما :
محمد بن يحي بن سُراقة العامريّ ، وقد توفي سنة ٤١٠ ، كما في ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٢١١/٤ .
الآخـر :
محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الشاطبيّ ، وقد توفي سنة ٦٦٢ ، كما في ((حسن المحاضرة)) للسيوطي : ١ /٣٨١ .
وقد نسب الكتابَ لابن سُراقة - محمد بن محمد - حاجي خليفة ولم يذكر عنوان الكتاب و إنما قال في معرض ذكره لمن صنف في الإعجاز :
((وابن سراقة من حيث الأعداد ذكر فيه من واحد إلى ألوف)) : انظر ((كشف الظنون)) : ١ / ١٢٠ .
وقد ذكره باسمه الصريح : محمـد بن محمـد بن إبراهيـم في الجـزء الثاني : ١٣٩٤ ، و نسب إليـه الكتـاب وسمّاه : كتاب الأعـداد . وتابعه على ذلك صاحب كتاب ((هديـة العارفين)) : ١٢٧/٢-١٢٨ ، أما الأستاذ الحمصي فقد ذكر أن محمد بن يحي - المتوفّى سنة ٤١٠ - هو الذي صنف الكتاب و لا أدري مستنده في هذا ، انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٨٠ .
أما محمد بن محمد بن إبراهيم فهو شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة . ولد سنة ٥٩٢ ، وكان أحـد الأئمـة المشهورين بغزارة العلم ، وله مصنفات . توفي سنة ٦٦٢ . انظر ((شذرات الذهب)) : ٣١٠/٥-٣١١ .

٤- انظر ص ٣٣٨ .

المصنفات في إعجاز القرآن في القرن الثامن

لم يصل إلينا من أسماء الكتب المؤلفة في الإعجاز سوى كتاب :

((الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) للإمام يحيى بن حمزة العلويّ[١] .

والكتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى[٢] .

المصنفات في إعجاز القرآن في القرن التاسع[٣]

((كفاية الألمعي في شرح قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي ﴾[٤] في إعجاز القرآن)) لشمس الدين ابن الجزريّ[٥] .

١- هو الشيخ الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن علي العلويّ ، من أولاد علي بن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما . ولد بصنعاء سنة ٦٦٩ ، واشتغل بالمعارف وهو صبيّ فأخذ في جميع أنواعها على أكابر علماء الديار اليمنية . فاق أقرانه ، و صنف التصانيف الحافلة في جميع الفنون حتى قيل إنها بلغت مائة مجلد . و هو من أكابرأئمة الزيدية بالديار اليمنية . و قد تولى إمامة بلاد اليمن وكان من الأئمة العادلين . مات سنة ٧٤٥ في ذِمَار . وقد جعل الشوكانيّ وفاته سنة ٧٠٥ ، والصحيح ماذكره صاحب ((الأعلام)) أنه توفي سنة ٧٤٥ ؛ لأنه دعا إلى نفسه عقب وفاة المهديّ محمد بن مطهر سنة ٧٢٩ . انظر ((البدر الطالع)) : ٢/٣٣١-٣٣٣ ، و ((الأعلام)) : ١٤٣/٨ .

٢- انظر ص ٢٠٢ ومابعدها ، وصفحة ٦٤٩ ، ٦٥٥ .

٣- أورد صاحب ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٥٣/١ كتاباً على أنه من كتب الإعجاز ، واسمه ((تبصير الرحمن و تيسير المنان ببعض مايشير إلى إعجاز القرآن)) من مؤلفات المخدوم المهائمي و أشار إلى أنه مطبوع . وبالرجوع إلى ترجمته في ((نزهة الخواطر)) : ٣/٨٠-٨١ ، ذكر أن له ((مصنفاتٍ كثيرة منها ((تبصير الرحمن وتيسير المنان في تفسير القرآن)) ومن خصائصه أنه تصدى فيه لربط الآيات بعضها ببعض وقد أجاد في ذلك)) فظهر أنه ليس مستقلاً بالإعجاز ، والله أعلم .

٤- سورة هود : آية ٤٤ .

٥- الإمام العلامة محمد بن محمد بن محمد ، شمس الدين أبو الخير الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي المقرئ ، ويعرف بـ (ابن الجزريّ) نسبة لجزيرة ابن عمر قرب الموصل . ولد سنة ٧٥١ بدمشق ، واشتد اعتناؤه بالقراءات . دخل القاهرة وجرت له فيها حوادث سافر على أثرها إلى بلاد الروم (الدولة العثمانية) ثم إلى شيراز حيث توفي بها سنة ٨٣٣ . انظر ((الضوء اللامع)) : ٩ / ٢٥٥ - ٢٦٠ .

والكتاب مطبوع ، تكلم فيه مصنفه عن الأوجه البلاغية الإعجازية في الآية المذكورة ، ثم أفرد فصلاً خاصاً لمباحث الإعجاز ختم به الكتاب .

المصنفات في إعجاز القرآن في القرن العاشر

((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للإمام السيوطي ، وهو موضوع الرسالة .

ثم إني لا أعرف كتابا ثانياً في الإعجاز في ذلك القرن ، والله أعلم .

توقف التصنيف المستقل بالإعجاز قرابة أربعة قرون :

ثم إنه بعد القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر لم يصنف كتاب مستقل بإعجاز القرآن الكريم – فيما علمته ، والله أعلم – إنما جاءت آراء العلماء في الإعجاز مبثوثة في كتب التفسير على الأغلب .

المصنفات في إعجاز القرآن الكريم في القرن الرابع عشر

كثرت المصنفات في الإعجاز القرآني في القرن الرابع عشر ، ولا عجب في هذا؛ إذِ القرن الفائت قرن النهضة والصحوة لافي التصنيف فقط بل في كل مناحي الحياة العلمية والفكرية والثقافية ، ولعل السبب في هذا – بعد فضل الله تبارك وتعالى – هو أن الكفار لما استوطنوا بلادنا ، وطعنوا في ديننا وقرآننا هبّ علماء المسلمين يدفعون هذه المطاعن ويردون عليها ، فنشطت حركة التصنيف في شتى

الجوانب ، وقد حاز التصنيف في إعجاز القرآن على جانب كبير من تلك الجهود المباركة .

ولكثرة الكتب المصنفة في الإعجاز ولسهولة معرفتها والاطلاع عليها فإني أتخير منها بعضها مما علمت أنه قوي في مادته ، جيد في عرضها وتقديمها ، فمن تلك الكتب :

١- ((إعجاز القرآن)) للرافعي[١] :

وهو كتاب مشهور مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى[٢] .

٢- ((النبأ العظيم)) للدكتور محمدعبد الله دراز[٣] :

الكتاب مطبوع مشهور متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى[٤] .

٣- ((فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق)) للأستاذ نعيم الحمصي[٥] :

وهو كتاب جيد ، تكلم فيه مصنفه عن كثير من كتب الإعجاز ، وقد استفدت منه في مواضعَ بينتها ، وسأتكلم عليه بإيجاز في آخر الباب الرابع[٦] .

١- مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي . عالم بالأدب ، من كبار الكتاب ، و شاعر . أصله من طرابلس الشام ، و مولده في (بَهْتِيم) بمصر سنة ١٢٩٨ . أصيب بصمم ، وشعره فيه جفاف ، ونثره من الطراز الأول . توفي في (طنطا) سنة ١٣٥٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((الأعلام)) : ٢٣٥/٧ .

٢- انظر ص ٦٧٢ وما بعدها .

٣- محمد بن عبد الله دِرَاز . عالم ، محقق ، مصري ، أزهري . كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. له عدة كتب ، توفي - رحمه الله تعالى - سنة ١٣٧٧ . انظر ((الأعلام)) : ٢٤٦/٦ .

٤- انظر ص ٦٩٠ وما بعدها .

٥- هو من المعاصرين من أهل الشام .

٦- انظر ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

٤- ((الإعجاز في دراسات السابقين)) لعبد الكريم الخطيب[١] :

وهو كتاب جيد في بابه يشبه كتاب ((فكرة إعجاز القرآن)) في بحثه في عدد من كتب إعجاز القرآن المبثوثة في القرون الماضية ، وقد استفدت منه في مواضعَ بينتها ، وسأتكلم عليه - إن شاء الله تعالى - بإيجاز في آخر الباب الرابع[٢] .

٥- ((المعجزة الخالدة)) للدكتور حسن ضياء الدين عِتْر[٣] .

٦- ((البيان في إعجاز القرآن)) للدكتور صلاح الخالدي[٤] .

هذه بعضٌ من كتب الإعجاز في القرن الرابع عشر ، ولا يعني هذا أنه ليس هناك كتب جيدة في الإعجاز غيرها ولكن هذا مارأيت أنه الأجود والأحسن ، والله أعلم .

١- هو من المعاصرين من أهل مصر ، توفي بالقاهرة منذ سنوات قليلة ، وقد ألف عدة كتب جيدة ، رحمه الله تعالى .

٢- انظر ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

٣- هو من المعاصرين من أهل الشام ، وهو الآن أستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٤- هو من المعاصرين من أهل الأردن .

المبحث الثالث

القول بـ (الصّرفة) والرد عليه

تقاربت أقوال أئمـة أهـل السـنة في الإعجـاز فجـاءت أقوالهـم متسـقة يكمـل بعضها بعضاً ، فلم يشذَّ أحد منها – إلا القليل – عن أن وجه الإعجاز الصحيح في كتاب اللـه – تبارك وتعـالى – يـدور حـول الإعجـاز بنظمـه ، وفصاحـة ألفاظـه ، وبلاغة معانيه .

هذا هو الإطار العام للإعجاز الذي اتفق عليه أئمة أهل السنة[1] ، فلم ينكـره أحـد منهـم – فيمـا علمتـه – إلا القلـة القليلـة – الـتي يوهـم كلامهـا القـول بـ (الصَّرْفة) ، وسأبين ذلك قريباً ، إن شاء اللـه تعالى .

هذا وقد أضاف بعض الأئمة عدداً من وجوه الإعجاز اختلفت فيهـا الأنظـار – كما سـيأتي إن شـاء اللـه تعـالى[2] – لكـن تلـك الأوجـه كـانت تقريـراً لمفهـوم الإعجاز المتفق عليه ، أو أنها مفاهيم أخرى للإعجاز تزيـد مـن تعميقـه في القلـوب والأذهان ، مثل الإعجاز بأخبار الغيب ، والإعجاز بالتشريع ونحو ذلك .

المخالفون لأهل السنة :

أما من خالف فجاء في إعجاز القرآن بقول شاذ فهم فرقٌ من غير أهل السـنة مثل : بعض المعتزلة ، وبعض الشيعة الإمامية ، وبعض الفلاسفة ، وعـدد قليـل مـن علماء أهل السنة ، يُوهم كلامهم ذلك . وكان الـذي شذ فيـه هـؤلاء هـو قولهـم بـــ (الصَّرْفة) .

١– ذكر القاضي عياض – رحمه الله تعالى – أن هذا المفهوم للإعجاز هو الذي عليه الجمهور و الحذاق ، وهو الصحيح في نفسه ، انظر ((المحرر الوجيز)) : ٣٨/١ .

٢– انظر ذلك في الفصل القادم : طرائق التدوين في الإعجاز القرآنيّ : ص ١٢٠ ومابعدها .

وسأذكر – إن شاء الله تعالى – معنى (الصَّرفة) في اللغة والاصطلاح ، ومن تناهى إلى علمي ممن قال بهذا القولِ من المعتزلة ، والإمامية ، ومن وافقهم من أهلِ السنة ممن يُوهم كلامه القولَ بـ (الصَّرْفة) ، ثم أورد الردود التي رُدّ بها على هذا المذهب الفاسد : (الصَّرْفة) .

(الصَّرْفة) في اللغة والاصطلاح

معاني (الصَّرْفة) في اللغة تدور على صَرْف الشيء عن وجهه إلى جهة أُخرى ، فتصريف الرياح : جعلها جنوباً وشمالاً ، والصيرفيّ : المحتال المتقلب في أموره ، والصَّرْف : التقلب والحيلة ، ومعناه – أيضاً – أن تصرف إنساناً عن وجه يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك[1] .

و(الصَّرْفة) في الاصطلاح هي :

((صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير مُعَجَّزَةٍ عنها إلا أن العائق[2] من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات))[3] .

فكأن القوم الذين تحداهم الله – تعالى – بالقرآن تحولت هممهم ، وصُرفت عن معارضته بغير إرادتهم ، بل رغماً عنهم ، مع قدرتهم الذاتية على ذلك ، أو أنهم سُلبوا العلوم التي يعرفونها من أنفسهم ، على تفصيل سيأتي قريباً ، إن شاء الله تعالى .

فمعنى (الصَّرفة) – على هذا – أن الله ، تعالى ، لم يمكن الناسَ من إنشاء مثل هذا القرآنِ ، وأن نظم القرآن غير معجز في ذاته ، وإنما عجز القوم عن تأليف

١- لسان العرب : (ص ر ف) .

٢- أي الصارف .

٣- ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٢ .

مثله لأن الله ، تعالى ، صرف قُدَرهم وأفكارهم عن هذا ، فالإعجاز إذاً – عند القائلين بـ (الصَّرْفة) – تأثير خارجيّ لا يرجع إلى ذات اللفظ القرآنيّ .

وقد قرر الإمام يحيى بن حمزة العلوي هذا المعنى وذكر تفسيراتٍ ثلاثةً لـ (الصَّرفة) لاتخرج عنها ، ولحُسْنها وقوتها فإني أوردها لما فيهامن تكملة مهمة لمعنى (الصّرفة) ، فقد قال رحمه الله تعالى :

((واعلم أن قول أهل (الصَّرْفة) يمكن أن يكون له تفسيراتٌ ثلاثة لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضحه :

التفسير الأول : أن يريدوا بـ (الصَّرفة) أن الله تعالى سلب دواعيَهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز ، والاستنزالِ عن المراتب العالية[1] ، والتكليف بالانقياد والخضوع ، ومخالفة الأهواء .

التفسير الثاني : أن يريدوا بـ (الصَّرْفة) أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لابد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه ، ثم إن سَلْب العلوم يمكن تنزيله على وجهين :

أحدهما أن يقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار لكن الله – تعالى – أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم .

وثانيهما أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أن الله تعالى صرف دواعيَهم عن تجديدها[2] مخافة أن تحصل المعارضة .

١– أي لو دخل الكافرون المتحدَّوْن في الإسلام .

٢– أي استئنافها و ابتدائها في عقولهم ، وعبر بالتجديد فكأن القوم أدخلوا جديداً على علومهم السابقة .

التفسير الثالث : أن يراد بـ (الصَّرْفة) أن الله – تعالى – منعهم بالإلجاء على جهة القَسْر عن المعارضة مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك ، فلأجل هذا لم تحصل المعارضة[1] .

وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن إلا أن الله – تعالى – منعهم بما ذكرناه))[2] ، وهذا قد سبقت الإشارة إلى عدم صحته .

ذكر من قال بـ (الصَّرفة)

أولاً : القائلون بـ (الصَّرفة) من المعتزلة[3] :

كان عدد من أئمة الاعتزال قد تكلموا في إعجاز القرآن ونسبوا عجز العرب عن معارضته البيانية إلى (الصَّرفة) التي صُرفوا بها .

ومن أبرز من تكلم في (الصَّرفة) منهم :

١– النظّام ، حيث قال :

((الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم))[4] .

وقال أيضاً :

((إن نظم القرآن وحسنَ تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي – عليه السلام – ولا دلالةً على صدقه في دعواه النبوة ، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من

١– الفرق بين التفسير الثالث و الأول أن القوم – في التفسير الأول – كانوا قد سُلبوا الداعيَ إلى المعارضة مع توفره في حقهم للتحدي الحاصل لهم ، أما في التفسير الثالث فإن القوم يملكون دواعي المعارضة ولكن الله منعهم وسلب قواهم عن ذلك . أما التفسير الثاني فإنه يذكر العلوم اللازمة للمعارضة سواء توفرت الدواعي عليها أم لا.

٢– ((الطراز)) : ٣/٣٩١–٣٩٢ .

٣– وإنما بدأت بهم وثنيت بأهل السنة لأن المعتزلة هم أول من أسس هذا القول ونصره .

٤– ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ ، و((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧٠ .

الإخبار عن الغيوب ، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف[1] ، وفي هذا عناد منه لقول الله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]))[3] .

والملحوظ – هنا – أن النظّام لم ينف إعجاز القرآن الكريم في ذاته ، وإنما حصره في الإخبار بالغيوب التي لايُستطاع الإتيان بمثلها ، أما النظم والأسلوب فكان الإعجاز فيهما – عنده – بـ (الصّرفة) ، وقد داخله الخطأ من تقرير قدرة العباد على معارضة النظم والأسلوب ، وهو في هذا مكابر ، متحدٍّ لما ذكره الله تعالى من استحالة الإتيان بمثله .

٢- وقد جاء معاصره عيسى بن صُبَيح المزدار بأقبح من هذا حين قال :
((إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظماً وبلاغة))[4] .

أي بدون تقييد ذلك بـ (الصَّرْفة) كما فعل النظام ، و لم يُعرف عنه القول بـ (الصَّرْفة) صراحةً ، وإنما أتيت به لاحتمال كلامه لهذا المذهب ، والله أعلم .

١- أي لولا أن الله صرفهم عن هذا – في اعتقاده – كما هو مفهوم من النص السابق من ((مقالات الإسلاميين)) .

٢- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٣- ((الفرق بين الفرق)) : ١٢٨ .

٤- ((الملل و النحل)) : ٦٩/١ .

٣،٤- هشام الفُوَطي وعبّاد بن سليمان :

وقد وافق النظّامَ والمزدارَ على إنكار إعجاز القرآن بنظمه وأنّ العباد قادرون على مثله وافقهما هشامٌ الفُوَطيّ وعبّاد بن سليمان ، قال الأشعريّ :

((قالت المعتزلة إلا النظّام وهشاماً الفُوَطيّ وعبّاد بن سليمان : تأليف القرآن ونظُمه معجز محال وقوعُه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه عَلَمٌ لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم))[1] .

فهشام وعبّاد لايريانِ أن القرآن معجز بنظمه ، ولازم هذا أنهما يقولان بـ (الصَّرفة) ، بل نص على قولهما ذلك الباقلاني[2] .

٥- الجاحظ :

أُثر عنه القول بـ (الصَّرفة) حيث قال :

((ومثل ذلك[3] ما رَفع من أوهام العرب ، وصَرَف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنظمه ، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة[4] لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساءِ وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال .

١- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ .

٢- ((إعجاز القرآن)) : ٦٥ .

٣- كان الجاحظ يتكلم قبل هذا على أن الله ينسي بعض خلقه أشياء كثيرة حكمةً منه ، ورحمةً لهم أو نقمة . انظر ((الحيوان)) : ٤/٨٦-٨٨ .

٤- أي بأدنى شبهة على أنه صالح لمعارضة القرآن لكونه مثلَه أو قريباً منه في فصاحته وبلاغته .

فقد رأيتَ أصحاب مسيلِمة ... إنما تعلقوا بما ألَّف لهم مسيلِمة من ذلك الكلامِ الذي يعلم كلٌّ من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضَه وتعاطى أن يُقارنه ، فكان لله ذلك التدبيرُ[1] الذي لا يبلغه العبادُ ولو اجتمعوا له))[2] .

ولكن قد أُثِر عن الجاحظ كلام كثير يفيد عجز العرب عن معارضته لقوة نظمه وبلاغته وليس لـ (الصَّرفة) ، ومن أبرز ما قاله في هذا هو ما جاء في آخر رسالته : ((حججِ النبوة)) :

((فصل في ذكر امتناعهم عن معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها)) ذكر فيه بوضوح أن عجز العرب عن معارضة القرآن ثابت ، ((ولم يزل الله – تعالى – يقرعهم بعجزهم وينتقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قطُّ مع سائر ماجاء به من الآيات وضروب البرهانات))[3] .

وقال أيضاً : ((وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صِدقٌ نَظْمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد))[4] .

وقد قال الخياط المعتزليّ[5] :

١- أي في عدم المعارضة بشيء مثل القرآن أو قريب منه ، إنما عورض بمثل كلام مسيلِمة المسروقِ أسلوبُه من الأسلوب القرآنيّ .

٢- ((الحيوان)) : ٤/٨٩ .

٣- ((مجموع الرسائل)) : ٣/٢٧٩-٢٨٠ .

٤- ((الحيوان)) : ٤/٩٠ .

٥- هو أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان شيخ المعتزلة البغداديين ، له الذكاء المفرط والتصانيف المهذبة ، وكان قد طلب الحديث . له جلالة عجيبة عند المعتزلة وقد صنف عدة كتب . لا يعرف له تاريخ وفاة ، وقد صُنف في الطبقة الثامنة من المعتزلة وهي في حدود أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤/٢٢٠ ، و ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٢٩٦-٢٩٧ .

((لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك مابلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى نبوته غير كتاب الجاحظ))[١] .

فإذا عُلم هذا كله فإنه لا يبعد - عندي - أن الجاحظ كان يرى الإعجاز بالنظم والتأليف وبـ (الصَّرْفة) أيضاً ، جمعاً بين كلامه - وذلك كما صنع الرمانيّ بعده[٢] - وإن كنت أرى أن هذا الجمعَ جمعٌ بين متناقضَيْن ؛ إذ كيف يُجمع بين القول بـ (الصَّرفة) التى من لوازم القول بها أن القرآن يمكن معارضته ، كيف يمكن الجمع بينها وبين القول بإعجاز القرآن الذاتي وذلك في نظمه وبلاغته مما لايمكن معه المعارضة ، هذا لايستقيم في تقديري ، والله أعلم .

وقد حاول جمعٌ من الباحثين التوفيق بين قول الجاحظ بالإعجاز في النظم والبلاغة وبين قوله بالإعجاز بـ (الصَّرْفة) ، ولعلهم أخذوا ذلك من قول الجاحظ آنفاً :

((وصرف نفوسهم عن المعارضة **بعد** أن تحداهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنظمه))

فكان مما قالوه في ذلك :

((فالقرآن معجز عند الجاحظ لنظمه ثم لأن العرب حاولوا معارضته فعجزوا مع أن الكلام سيد عملهم .

وأما عن (الصَّرفة) فهي وجه من وجوه إعجاز القرآن ولكن تأتي مرتبتها بعدمرتبة التحدي والتجربة والفشل ثم الاعتراف بالعجز ، وهنا يأتي لطف الله بالناس من أن يطمع في القرآن طامعٌ ويتكلفه ويَشْغب بما سُمح له فيتعلق به البسطاء

١- ((الانتصار)) : ١١١ .

٢- هذا الجمع بين الإعجاز بالنظم والصَّرفة استفدته من كتاب ((المعجزة الخالدة)) : ١٧٨ ، وانظر رأي الرماني في ص ١٧٧ من هذه الرسالة .

وتكثر المحاكمة وتنتشر البلبلة بين الناس ... فالعدل الإلهيّ الذي منح حرية الإرادة للإنسان وإمكانَ القدرة ثم هيأ للعقل أن يفكر ويجرب معارضة القرآن حتى إذا فشل اعترف بالعجز ، قد صرف أوهام من يريدون أن يتكلفوه حتى لايتعلق الناس بذُبالات المُمَخْرِقين[١] ويختلط الأمر))[٢] .

فخلاصة كلامه الذي فهمه من كلام الجاحظ أن القرآن معجز بنظمه حتى إذا تأكد الناس من هذا صرف الله قُدَرَهم عن المعارضة حسماً للقيل والقال .

((وهذا شيء بعيد تماماً عن (الصَّرفة) التي كان يقول بها أستاذه النظّام والتي لم يرضها الجاحظ بل بذل جهده في الدفاع عن النظم القرآنيّ وبيان أنه معجز ، وفي هذا هدم لآراء النظّام))[٣] .

وهذا جُهدٌ مشكور في توجيه كلام الجاحظ والجمع بين قوله بـ (الصَّرفة) وقوله بإعجاز القرآن في نظمه وبلاغته ، ولكنّ صورة التناقض بين القولين لم تغادر كلام الجاحظ بعد ؛ إذِ الجمع بين (الصَّرفة) والقول بإعجاز الذاتي على النحو المذكور آنفاً لايساعده واقع تاريخيّ ، فنقرُّ لهم بما حاولوه من الجمع ؛ إذ من قال بأن العرب قد صُرفوا عن المعارضة بعد أن يئسوا منها - وذلك حسب التوجيه السابق - ومتى صُرفوا عنها ؟ أَقَبْلَ وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم بعدها ، فإن كان ذلك في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - بطل التحدي بالمعارضة ولم يقل بهذا أحدٌ ، وإن كان بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - لِمَ يُحرم من جاء بعدُ من المعارضة لعجز من كان قبله عنها ؟ هذا والحال أن الخطاب القرآنيّ الذي

١- مَخْرق : أظهر الخَرَق - الحُمق - توصُّلا إلى حيلة : مَوّه ، فهو مُمَخْرِق ، وقال الجوهري : مولّدة : ((معجم متن اللغة)) : مخرق . أما الذبالة فهي الفتيلة وانظر ((معجم متن اللغة)) : ذبل .

٢- ((إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة)) : ٢٠٢ ، ويقاربه ماجاء في ((الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره)) : ٦٢ .

٣- ((الإعجاز القرآنيّ وجوهه وأسراره)) : ٦٢ .

يتحدى الناس أن يأتوا بمثل هذا الكلام العظيم باق في الناس إلى يوم القيامة ، محكمٌ لم ينسخه شيء .

الحاصل أن كلام الجاحظ فيه بعض تناقض لايرفعه من حاول توجيهه ، ولا عجب إذاً أن تساءل أحد الباحثين متعجباً من اجتماع النقيضين : (الصَّرفةِ) والإعجاز بالنظم والبلاغة :

((هل قال بالأول حين كان لايزال متأثراً بآراء أستاذه النظَّامِ ، وبالثاني حين استقلّ بنفسه ، أو إنه جمع الرأيين معاً ؟ لاندري ... وأنا أستبعد أن يكون الجاحظ قد قال بالرأيين معاً في وقت واحد لما نعرفه عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة ، فإن الرأيين متناقضان))[١] .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن القولين الآنفين للجاحظ :
((ولا شك أن هذه من إحدى مغالطات الجاحظ وخِلابته[٢] ، بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان))[٣] .

وقال الرافعيّ ، رحمه الله تعالى :
((أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها ، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه ، غير أن الرجل كثير الاضطراب ... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بـ (الصَّرفة) وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها...))[٤] .

١- ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٥٦ - ٥٧ .
٢- الخِلابة : الخداع . ((لسان العرب)) : خ ل ب .
٣- ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : ٣٦٩ .
٤- ((إعجاز القرآن)) للرافعي : ١٤٧ .

ورأي الرافعي هذا هو الذي أميل إليه وأنصره ، وهو أن الجاحظ قال بالقولين معاً ، كما صنع الرمانيّ من بعده ، حيث جعل (الصَّرفة) وجهاً من سبعة أوجه للإعجاز[1] .

أما لماذا صنع الجاحظ ذلك ؟ أإيماءً لمذهبه ومغالطةً منه كما ذكر الأستاذ الخطيب ، أم لشيء آخر ارتآه ؟ فالله أعلم .

٦- الرُّمّانيّ :

وذلك في كتابه ((النكت في إعجاز القرآن)) حيث ذكر سبعة أوجه للإعجاز منها (الصَّرفة)[2] ، وسيأتي الكلام على أوجه الإعجاز عنده ، إن شاء الله تعالى[3] .

٧- أبو إسحاق النصيبيّ[4] :

ولم أر من نسب إليه القول بـ (الصَّرفة) سوى الإمام يحيى بن حمزة العلوي[5] .

١- انظر ص ١٧٧ من هذه الرسالة .

٢- انظر صفحة ١١٠ من ذلك الكتاب المذكور .

٣- انظر ص ١٧٧ ومابعدها .

٤- جاءت ترجمته في كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) شذراتٍ متفرقةً حيث ذُكر أنه ((يرجع إلى فضل غزير ، قرأ على الشيخ أبي عبد الله)) ، وذُكر أيضا أن الشريف المرتضى قرأ عليه .
انظر ((فضل الاعتزال)) : ٣٧٨ ، ٣٨٣ على التوالي . ولم أستطع معرفة اسمه أو تاريخ وفاته .

٥- ((الطراز)) : ٣٩١/٣ .

ثانياً : أقوال تُوهم القول بـ (الصَّرفة) منسوبة إلى بعض أهل السنة :

لابد أن يُعلم ابتداءً أنه لم يشتهر عن أكثرهم هذا القول ، ولكني وجدته في كتبهم أو في كتب أهل العلم الذين نقلوا عنهم هذه الأقوال فصار لزاماً علي ذكرُهم ثم توجيه أقوالهم إن وجدت إلى ذلك سبيلاً صحيحاً :

١- الشيخ أبو الحسن الأشعري :

نسبه إلى القول بـ (الصَّرفة) القاضي عياض[١] - رحمهما الله تعالى - حيث قال :

((وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه ، فأكثرهم يقول إنه ما[٢] جَمع في قوة جزالته ، ونصاعة ألفاظه ... لا يصح أن يكون في مقدور البشر ... وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدرهم الله عليه ، ولكن لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا ، وعجّزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابه))[٣] .

وقال الخفاجيّ [٤] ، رحمه الله تعالى :

١- هو الشيخ الإمام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليَحْصُبي الأندلسيّ ثم السبتيّ المالكيّ . ولد سنة ٤٧٦ ، واستبحر من العلوم ، وجمع وألّف ، و اشتهر اسمه في الآفاق ، و له شعر حسن . و هو إمام الحديث في وقته ، وأعرف الناس بعلومه ، وبالنحو واللغة ، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم . توفي شهيداً مقتولاً بمرّاكُش سنة ٥٤٤ ؛ وذلك لإنكاره عصمةَ ابن تُومرت أمير الموحدين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٠/٢١٢-٢١٨ .

٢- في ((الشفا)) المطبوع في ((المكتبة السلفية)) بشرح الخفاجي : ((مما)) ، وهو أقرب إلى المعنى المراد ، وقد قدّر الخفاجيّ الكلام بالآتي : ((أي لايمكنهم القدرة على مثله لِما جمعه مما لاتطيقه قدرتهم)) : انظر ((نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض)) : ٢ / ٥٠٣ .

٣- ((الشفا)) : ٣٧٣/١ .

٤- هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين الخفاجيّ المصري الحنفيّ ، صاحب التصانيف السائرة ، وأحد أفراد الدنيا . أخذ عن عدد من مشايخ عصره ، وأخذ الطب عن داود الأنطاكيّ ، وقد ارتحل إلى القسطنطينية وأخذ عن فضلائها ومشايخها . توفي بمصر سنة ١٠٦٩ وقد أناف على التسعين .
انظر ((خلاصة الأثر)) : ١ / ٣٣١-٣٤٣ .

((نُقل[1] عن الأشعريّ إلا أنه لم يشتهر عنه))[2] .

ثم ذكر أن من الناس من قال إنه يحتمل أن يكون رجلاً آخر غيرَ أبي الحسن ، وقيل إن كلام القاضي قد دخله وهم ما ، وقيل غير ذلك[3] .

وأنا أميل إلى أنه قد يكون قال ذلك عندما كان معتزلياً – حيث إنه قضى معظم عمره في الاعتزال – ثم رجع عن ذلك مع جملة مارجع عنه من آراء المعتزلة ومعتقداتهم ، وإذا ثبت ذلك القول عنه بعد رجوعه إلى السنة فإن الشيخ أبا الحسن أجلُّ من أن يقول بـ (الصَّرْفة) على وجهها المعروف ، لكنه من منهجي ذكرُ جميع من نُسب إليه القول بـ (الصَّرفة) على وجه الاستقصاء ، ولهذا ذكرته هاهنا .

وممن نسب إليه القول بـ (الصّرفة) من أهل السنة :

٢- الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايينيّ[4] رحمه الله تعالى :

جاء في ((شرح المواقف)) ما يأتي :

((و قيل : إعجازه بـ (الصَّرفة) ، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة لكن الله صرفهم عن معارضته ، واختلف في كيفية الصّرف فقال الأستاذ أبو إسحاق – منا[5] – والنظّام ، من المعتزلة : صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها ؛ وذلك بأن صرف دواعيَهم إليها مع كونهم مجبولين عليها

١- أي القول بالصَّرفة .

٢- ((نسيم الرياض)) : ٢/٥٠٤ .

٣- انظر هذه الأقوال في المصدر السابق .

٤- الإمام العلامة الأوحد ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايينيّ الأصولي الشافعيّ ، أحد مجتهدي عصره وصاحب المصنفات الباهرة . ارتحل في الحديث و سمع من مشايخ ، و أملى مجالس في الحديث . كان من المجتهدين في العبادة ، المبالغين في الورع . بُني له بنيسابور مدرسة عظيمة ودرّس فيها . توفي سنة ٤١٨ بنيسابور . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/٣٥٣-٣٥٦ .

٥- أي من أهل السنة .

خصوصاً ، عند توافر الأسباب الداعية في حقهم كالتقريع بالعجز ، والاستنزال عن الرياسات ، والتكليف بالانقياد ...))[1] .

٣- وممن قد يفهم من كلامه القولُ بـ (الصَّرفة) الإمام الماورديّ [2] :

قد فصّل في كتابه : ((أعلام النبوة)) أوجه الإعجاز في كتاب الله - تبارك وتعالى - فذكر عشرين وجهاً كان آخرها القول بـ (الصَّرْفة) حيث قال :

((الوجه العشرون من إعجازه : (الصَّرفة) عن معارضته ، واختَلف من قال بها: هل صُرفوا عن القدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم ؟ على قولين :

أحدهما : أنهم صُرفوا عن القدرة ، ولو قدروا لعارضوا .

والقول الثاني : أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم ، و (الصَّرفة) إعجاز على القولين معاً في قول من نفاها وأثبتها))[3] [4] .

ومن الممكن أن يقال - هنا - إن الإمام الماورديّ إنما حكى ذينك القولين عن غيره ، ولم يُرِد بحكايته لهما إثبات (الصرفة) ، لكنه لـمّا سكت عن تقرير المذهب الحق وردِّ المذهب الباطل فقد أوردته هاهنا التزاماً مني بذكر من قال كلاماً يُوهم (الصرفة) ، والله أعلم .

١- ((شرح المواقف)) مع حاشيته للسيالكوتي وحسن حلبي : ٢ / ٤٢١ .

٢- هو الشيخ الإمام علي بن محمد بن حبيب الماورديّ الشافعيّ ، أقضى القضاة ، صاحب التصانيف . ولي القضاء ببلدان شتىّ ، ثم سكن بغداد . تبحّر في مذهب الشافعي . توفي سنة ٤٥٠ وقد بلغ ستا وثمانين سنة. انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٦٤ - ٦٨ .

٣- (الصَّرفة) معجزة في قول من نفاها لأن ذلك النفيَ ينتج عنه أن القرآن معجز في ذاته ، ومن أثبت (الصَّرفة) فإن صَرْف الله العربَ عن معارضة القرآن دالٌّ على النبوة وأن القرآن من عند الله .

٤- ((أعلام النبوة)) : ٩٥ .

ومن قد يُفهم من كلامه القول بـ (الصَّرفة) :

٤- الإمام ابن حَزْم الظاهريّ[١] :

لم يُشتهر عنه القول بـ (الصَّرفة) ولكني وجدت من كلامه في الإعجاز أنه يقول :

((لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله – تعالى – معجز ، لكن لما قاله الله[٢] – تعالى – وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته ، وهذا برهان كافٍ لا يُحتاج إلى غيره ، والحمد لله))[٣] .

فجملة : ((أصاره معجزاً ومنع من مماثلته)) قد يفهم منها أنه يقول بـ (الصَّرْفة) .

ويمكن أن يوجه قول ابن حزم : ((أصاره معجزاً)) بأن الكلماتِ القرآنيةَ هي نفسها الكلمات التي يتداولها العرب تقريباً ، لكن لما تكلم الله – تعالى – بها أصارها معجزة في أسلوب نظمها وبلاغتها ، وعلى هذا – أيضاً – يتنزل قول ابن حزم : ((ومنع من مماثلته)) أي منع الله – تعالى – أن يماثل كلام أحد القرآن ؛ لكنّ هذا المنع لم يكن بسبب (الصَّرفة) وإنما كان لبلوغ هذا الكلام

١- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسيّ الأصل ثم الأندلسيّ القرطبيّ . ولد سنة ٣٨٤ بقرطبة ، وسمع فيها وغيرها ، وحدث عن طائفة كبيرة ، ورزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيّالاً ، وكتباً نفيسة كثيرة .
وكان ينهض بعلوم جمّة ، ويجيد النقل ويحسن النظم و النثر ، و كان حافظاً للحديث وفقهه . توفي سنة ٤٥٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ١٨٤ – ٢١٢ .

٢- أي القرآن .

٣- ((الفِصَل في الملل و الأهواء و النحل)) : ٣ / ٢٩ .

المنزلـةَ التي ليس بعدها منزلة ، واللـه أعلم[١] .

وممن قد يُفهم من كلامه القول بـ (الصَّرفة) أيضاً :

٥- **الحافظ البيهقيّ**[٢] ، رحمه اللـه تعالى ؛ إذ ذكر في كتابه ((الاعتقاد)) أوجهاً خمسة من وجوه الإعجاز في القرآن قال بها أهل العلم ممن سبقه ، وذكر (الصَّرفة) وجهاً خامساً فقال :

((ومنهم من قال : إعجازه في أن اللـه أعجـز النـاس عـن الإتيـان بمثلـه ، وصـرف الهمم عن معارضته مـع وقـوع التحـدي وتوفـر الدواعـي إليـه ، لتكـون آيـة للنبـوة وعلامة لصدقه في دعواه))[٣] .

ثم إنه نصر هذا الرأي وقوّاه وذهب إليه بقوله :

((وأمّا (الصَّرْفة) والتعجيز مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله فإنما يُعلم ذلـك بعدم المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة إليه ، وذلك مالا يجـوز أن يشـك فيـه عاقل من أنهم لوكانوا قادرين عليـه لبـادروا إليـه مـع حرصهـم علـى إبطـال دعوتـه ونقض كلمته ...

١- قال الأستاذ أبوزهرة رحمه اللـه تعالى مفسراً قولَ ابن حزم بـ (الصَّرْفة) :

((وإن ذلك الكلام يبدو بادىء الرأي غريباً من ابن حزم ، ولكن المتأمل فيه يجده سائراً على مذهبـه في نفي الرأي ، والحكمِ بظاهر القول من غير تعليل ، فالاتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته التي عَلَت عن طاقة العرب والتي جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال يُعد تعليلاً ، وهو من باب الرأي الذي ينفيه والتعليل الذي يجافيه)) . انظر ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٧٩ .

وهذا التوجيه يبدو مقبولاً إلا أني أرى أنه لا يمكن لمن كان في مكانة ابن حزم إنكارُ الإعجـاز البياني ، إنما قُصـارى أمـره أنـــه يـرى الإعجـاز بـ (الصرفة) وجهاً من الوجـوه المعتـبرة ، كما رأى ذلك الجاحـظ والرماني من قبل ، هذا إن لم يتوجّه ما ذكرته من التعليل في الصفحة السابقة،واللـه أعلم .

٢- هو الشيخ الإمام العلامة أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ الخراسانيّ البيهقي . ولد سنة ٣٨٤ ، و سمع من طائفة كثيرة ، وبورك في علمه وتصانيفه ، وله عدد من المصنفات النافعة . كان ورعاً ، زاهداً ، قانعاً . وكان أهلاً للاجتهاد . توفي سنة ٤٥٨ ، ودفن بـ (بَيْهق) من أعمال نيسابور .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ١٦٣ - ١٧٠ .

٣- ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ .

وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء فجعل يتلوى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء ، فلا يشك شاكٌّ أنه عاجز عن شربه ، أو ممنوع لسبب يعوق عنه ، وأنه لم يتركه اختياراً مع توفر الدواعي له ، وشدة الحاجة منه إليه))[1] .

وكلامه من قوله : ((وسبيل هذا ...)) إلى آخر ما قاله قد يوهم إرادته (الصَّرفة) ، ولكن قد ظهر لي أنه حكى القولين جميعاً ولم يخرج بشيء فصل فيهما ، فلا يُعلم – على التحقيق – مذهبُه في هذه المسألة ، فيُحمل أمره فيها على قول سائر أئمة أهل السنة في هذه المسألة ، وهو أن الإعجاز بـ (الصَّرفة) باطلٌ ، والله أعلم .

وارتضاؤه القولَ بإعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته والقولَ بالصَّرفة – إن ثبت ذلك – هو مذهب الجاحظ والرُّمّاني من قبله ، وهو الذي رأيت أن فيه تناقضاً واضحاً بينته في موضعه[2] ، والله أعلم .

ومن قد يفهم من كلامه القول بـ (الصَّرفة) :

٦ – الراغب الأصبهاني[3] ، حيث قال :

((إن الإعجاز في القرآن على وجهين :

١- ((الاعتقاد)) : ٢٦٦ .

٢- انظر ص ٩٩-١٠٢ .

٣- العلامة الماهر ، المحقق الباهر ، أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضّل الأصبهاني ، الملقب بـ (الراغب) ، صاحب التصانيف . كان من أذكياء المتكلمين . سكن بغداد واشتهر . توفي سنة ٥٠٢ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ١٢٠ – ١٢١ ، و ((الأعلام)) : ٢ / ٢٥٥ .
والشيعة يعتقدون أنه منهم ، ويُنسب أيضاً إلى الاعتزال لكن الأصح – إن شاء الله تعالى – أنه من أهل السنة ، انظر كلام د . أحمد حسن فرحات على هذه المسألة في مقدمة تحقيقه لرسالة ((مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة)) : ١٣-١٦.

أحدهما : إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني بصرف الناس عن معارضته))[1] .

ثم قال بعد كلامٍ عن الإعجاز البياني :

((وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهرٌ أيضاً **إذا اعتُبر**[2] ، وذلك أنه مامن صناعة ولافِعلة من الأفعال محمودةً كانت أو مذمومة إلا بينها وبين قوم مناسبات خفية ، واتفاقات إلهية ، بدلالة أن الواحد يُؤْثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها ، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر ... فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجّزهم عن الإتيان بمثله ، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته لم يَخْفَ[3] على ذي لُبٍّ أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك .

وأي إعجاز أعظم من أن تكون طاقة البلغاء مخيّرةً في الظاهر أن يعارضوه ، ومجبرةً في الباطن عن ذلك[4] ...))[5] .

٦ – وممن يُنسب إليه القول بـ (الصّرفة) من أهل السنة :

٧ – ابن كمال باشا[6] :

١- ((مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة)) : ١٠٤ .

٢- كلامه هذا يدل على أنه لاينتحل (الصَّرفة) مذهباً إنما يقول بها على سبيل التنزل ، وسيأتي شرح هذا التنزل في الصفحة القادمة .

٣- ((لم يخف)) وما بعدها جواب ((فلمّا رُئي)) .

٤- أي مصروفة .

٥- ((مقدمة جامع التفاسير)) : ١٠٨ - ١٠٩ .

٦- أحمد بن سليمان بن كمال باشا ، العلامة ، أحد علماء الدولة العثمانية .
اشتغل بالعلم وهو شاب ، ثم تنقل في الوظائف كالتدريس وقضاء العسكر . وكان من العلماء الذين صرفوا جميع أوقاتهم إلى العلم يشتغل به ليلاً و نهاراً ، وصنف رسائل كثيرة قرابة المائة ، وله عدة كتب .
توفي سنة ٩٤٠ . انظر ((الكواكب السائرة)) : ٢ / ١٠٧ - ١٠٨ .

قد نسب إليه هذا القولَ الأستاذُ نعيم الحمصيّ[1]، ونقل كلامه ملخّصاً وبالمعنى فلم يتضح لي رأي ابن كمال باشا في هذه المسألة حيث إن الكلام الذي ساقه الأستاذ نعيم عنه لايكفي للحكم عليه بأنه يقول بـ (الصرفة) .

إنصاف وتعليل :

لعل من نُسب إليه القول بـ (الصَّرفة) من أهل السنة - ممن لم يتضح مرادهم منها كالأشعريّ والإسفرايينّ - ارتضوها وجهاً من وجوه الإعجاز على سبيل التنزّل مع الخصم[2] ، ومن باب الاحتمالات العقلية لا على سبيل الوقوع ، فقد : ((قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في (الصَّرفة) فقال :

إن كان القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا هي في قواهم معارضته فقد حصل المدَّعى ، وهو المطلوب .

وإن كان في إمكانهم معارضتُه بمثله و لم يفعلوا مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة - وإن لم تكن مرضيّةً ، لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا - إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلةِ والمنافحةِ عن الحق ، وبهذه الطريقةِ أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر ، و ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾))[3] .

١- ((فكرة إعجاز القرآن)) : ١٦٤ - ١٦٦ .

وقد نقل المصنف كلام ابن كمال باشا من رسائله : ج ١ / ٣١ ، ولم أقف إلا على جزء من رسائله ليس فيه رسالة عن القرآن .

٢- ونحو هذا ماصنعه الراغب الأصفهاني مما نقلته عنه آنفا .

٣- ((الإعجاز القرآني : وجوهه و أسراره)) : ٥٥ ، نقلاً عن ابن كثير رحمه الله تعالى ، ولم أعثر على نص ابن كثير ، ولم يبين صاحبُ الكتاب المصدر الذي استقى منه ذلك النص .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية كلاماً يقارب كلام الإمام ابن كثير ، انظر ((الجواب الصحيح)) : ٥ / ٤٢٩ - ٤٣٢ .

وإنما قلت ذلك لأني لم أقف على كلام الأشعري والإسفراييني وابن كمال باشا لأعلم كيف انتحلوا (الصَّرفة) وقالوا بها ، إن ثبت عنهم ذلك ، والله أعلم .

ثالثاً : القائلون بـ (الصَّرفة) من الإمامية والرافضة :

١- الشريف المرتضى[١] :

قد نُقل عنه أنه يقول بـ (الصَّرفة) ، لكني لم أجد نص كلامه[٢] .

٢- ابن سنان الخفاجي[٣] :

قد صرح ابن سنان بالقول بـ (الصَّرفة) حيث قال :

((متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه ... وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة))[٤] .

قاتله الله ما أجهله بقدر هذا الكلام العظيم ، وما أجرأه عليه .

١- يلاحظ أن الإمامية يشتركون مع المعتزلة في عدد من أصول عقائدهم ، فالشريف المرتضى - مثلاً - إمامي معتزليّ . انظر ترجمته ص ٨٣ .

٢- ممن ذكر هذا القول عنه ، يحيى بن حمزة العلويّ في كتابه ((الطراز)) : ٣ / ٣٩١ ، والآلوسيّ في ((روح المعاني)) : ١ / ٢٨ .

٣- أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ ، الشاعر الأديب . كان يرى رأي الشيعة الإمامية . قتل مسموماً سنة ٤٦٦ بقلعة عَزاز من أعمال حلب . انظر ((فوات الوفيات)) : ٢ / ٢٢٠ - ٢٢٤ .

٤- ((سر الفصاحة)) : ٩٩ - ١٠٠ .

رابعاً : ومن قال بـ (الصّرفة) من الفلاسفة : نصير الدين الطوسيّ[1] حيث قال :

((إعجاز القرآن على قول قدماء المتكلمين وبعض المُحْدَثين : في فصاحته ، وعلى قول بعض المتأخرين : في صرف عقول الفصحاء القادرين على المعارضة عن إيراد المعارضة .

قالوا[2] : كل أهل صناعة اختلفوا في تجويد تلك الصناعة فلا محالة يكون فيهم واحد لا يبلغ غيره شأوه ، وعجز الباقون عن معارضته ، ولا يكون ذلك معجزاً له لأن ذلك لا يكون خرقاً للعادة ، لكن صرف عقول أقرانه القادرين على معارضته يكون خرقاً فذلك هو المعجز))[3] .

ونَقْله لرأي القائلين بـ (الصرفة) من غير تفنيد دالٌّ على أنه قابلٌ بها غير معارض لها ، والله أعلم .

١- محمد بن محمد بن الحسن ، نصير الدين أبو عبدالله الطوسيّ الفيلسوف ، صاحب علوم متنوعة . ولد سنة ٥٩٧ بطوس . كان رأساً في علم الأوائل ، وكان ذا حُرمة وافرة عند هولاكو فابتنى بمدينة مراغة مكتبة عظيمة وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى احتمع فيها زيادة عن أربع مائة ألف مجلد . وكان سمحاً حليماً ، حسن العشرة غزير الفضائل ، داهية . له تصانيف كثيرة في أنواع من العلوم وله شعر بالعربية والفارسية . توفي ببغداد سنة ٦٧٢ . انظر ((الوافي بالوفيات)) : ١ / ١٧٩ - ١٨٣ .

٢- أي المتأخرون القائلون بـ (الصَّرفة) .

٣- نقلت هذا النص من كتاب ((فكرة إعجاز القرآن)) : ١٠٩ الذي نقله مصنفه من كتاب ((تلخيص المحصّل)) للطوسيّ: ١٥١ الذي لخص به ((محصل أفكار المتقدمين)) للفخر الرازي ، وانظر ((فوات الوفيات)) : ١/ ١٨١ .

الرد على القائلين بـ (الصَّرْفة)

قد اشتغل العلماء منذ ظهور هذا المذهب بالرد عليه في مصنفاتهم - في الإعجاز وغيرها من العلوم كالعقائد - مع ضعف حجة القائلين بـ (الصَّرْفة) .

وما صنع العلماء المحققون هذه الردود إلا لأنهم أرادوا دفع فتنة القول المزخرف بالباطل الذي سرى وذاع ، وتعلقت به قلوب وعقول ، فكان لابد من الرد وتفنيد هذا القول .

والرد على (الصَّرْفة) والقائلين بها يتلخص في الآتي :

أولاً : القرآن لفظاً ومعنى هو دليل الإعجاز والتحدي ، فالقول بـ (الصَّرفة) يعني أنه ليس في القرآن ذاته فضيلةٌ في التفوق والامتياز ، وهذا باطل بنصوص القرآن التي تحدت العرب أن يأتوا بمثله ، ثم بإجماع الأمة على أن الإعجاز ذاتي في القرآن غير منفك عنه :

قال الإمام القرطبيّ[1] رحمه الله تعالى :
((إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز[2] ، فلو قلنا إن المنع و (الصَّرْفة) هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً، وذلك خلاف الإجماع،

١- هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاريّ الخزرجيّ القرطبيّ . إمام متفنن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطّلاعه ووفور فضله . توفي سنة إحدى و سبعين و ستمائة في صعيد مصر .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٢ / ١٢٢ - ١٢٣.

٢- يعني القرطبي بالإعجاز هنا ما كان شائعاً بين السلف من ألفاظ قرآنية دالة على الإعجاز مثل الآية و الحجة و البرهان إلخ ...

وإذا كان كذلك عُلم أن نفس القرآن هو المعجز؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ؛ إذ لم يوجد كلام قطُّ على هذا الوجه ، فلمّا لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع و (الصَّرْفة) لم يكن معجزاً))[1] .

٢- ((لو كانت المعارضة ممكنة - و إنما منع منها (الصَّرفة) - لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه))[2] .

وهذا يخالف ما ثبت أنه كان للقرآن تأثير عظيم على سامعيه مسلمين وكفاراً ، وأن النبي محمداً - صلى الله عليه وسلم - جاءهم بما لاقِبَل لهم به أبداً ، وأنهم قد أذعنوا لهذه الحقيقة ، على أنهم عربٌ خُلَّص ملكوا ناصية البيان ، وتصرفوا في الكلام كيف شاءوا ، وقد ثبت في التاريخ عجزهم عن معارضة القرآن وأنهم لاقبل لهم به .

ومن الأمثلة التاريخية على هذا ما جاء في حديث أبي ذر[3] - رضي الله عنه - الطويل مِن وصفٍ للقرآن :

((... فقال أُنيس[4] : إن لي حاجةً بمكة فاكفني ، فانطلق أُنيس حتى أتى مكة ، فراث عليَّ[5] ثم جاء ، فقلت : ما صنعت ، قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون :

١- ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١ / ٧٥ .

٢- ((إعجاز القرآن)) للباقِلاّنيّ : ٣٠ .

٣- هو جندب بن جنادة بن سَكن - على المشهور من اسمه - ، رضي الله عنه ، من المقربين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومناقبه كثيرة . توفي بالرَّبَذَة - موضع خارج المدينة - سنة اثنتين و ثلاثين و قيل إحدى وثلاثين رضي الله عنه . انظر ((الإصابة)) ٤ /٦٣ - ٦٥ .

٤- أُنيس بن جنادة ، أخو أبي ذر ، رضي الله عنهما ، أسلم هو وأمه بعد أن دعاهما أبو ذر للإسلام . المصدر السابق : ١/٨٨ .

٥- أي أبطأ ، انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ١٦ / ٢٨ .

شاعر ، كاهن ، ساحر - وكان أُنيس أحد الشعراء - قال أُنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء[1] الشعر فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ...))[2] .

وهذه شهادة من رجل كافر لم يكن قد أسلم بعدُ ، وهي غاية في الدلالة على تميز القرآن الذاتي عن كلام العرب .

ومن الأمثلة على أثر القرآن في النفوس ، وأنه أثر ذاتي لا مدخل لـ (الصَّرْفة) فيه ، ماذكره ابن عبّاس رضي الله عنهما ((أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكأنما رَقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال : ياعم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً . قال : لم ؟ قال ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتَعَرَّض[3] لما قِبَله ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له قال : وماذا أقول ؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن . والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوةً ، وإن عليه لطَلاوةً ، وإنه لمثمر أعلاه ، مُغْدِق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلا ، وإنه ليَحْطِم ما تحته[4] .

قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحرٌ يُؤثر ، يَأثِره[5] عن غيره ، فنزلت :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا .... ﴾[6] .

١- أي طرقه و أنواعه ، المصدر السابق .

٢- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب فضائل الصحابة : فضل أبي ذر رضي الله عنه : ٢٨/١٦ .

٣- أصلها (لتتعرّض) وحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

٤- قد شرحت هذا الحديث و خرجته بالتفصيل ، وهو صحيح ، انظر ص ٦٣ ، ٦٤ .

٥- أثر الحديث يأ ثُر ه و يأثِره : ذكره عن غيره : ((لسان العرب)) : (أثر) .

وقال ابن كثير ، رحمه الله تعالى :

((أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قَبْله ويحكيه عنهم)) : ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢٩٢/٨ .

٦- سورة المدثر : آية ١١ - ٣٠ .

والمثال الثالث على أثر القرآن العظيم في قلوب وعقول سامعيه أن جُبَير بن مُطْعِم[١] – رضي الله عنه – جاء إلى المدينة وهو كافر ليسعى في فكاك بعض الأسرى ، فقال :

((سمعت النبيّ – صلى الله عليه وسلم – يقرأ في المغرب بالطور ، وذلك أوّلَ ما وقر[٢] الإيمان في قلبي))[٣] .

وفي رواية قال :

((سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[٤] كاد قلبي أن يطير))[٥] .

وكل هذه الروايات وغيرها تثبت أنه ليس الإعجاز بـ (الصَّرْفة) إنما هو بتأثير القرآن نفسِه على القلوب والعقول ، وإدراك السامعين أنهم لا يستطيعون معارضته .

٣ – يلزم من قولهم بـ (الصَّرْفة) أن ((يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نُقِصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها ، وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وتُحدوا إلى معارضة القرآن قاصرةً عمّا سُمِع

١– هو جُبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفليّ . كان من أكابر قريش و علماء النسب . أسلم بين الحديبية والفتح ، ومات في خلافة معاوية سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ، رضي الله عنه . انظر ((الإصابة)) : ٢٢٧/١ .

٢– أي سكن وثبت : ((لسان العرب)) : و ق ر .

٣– أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي : باب شهود الملائكة بدراً : ١١٠/٥ .

٤– سورة الطور : الآيات : ٣٥ – ٣٧ .

٥– أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير : تفسير سورة الطور : ١٧٥/٦ .

منهم من قبل ذلك القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم ...))[1] .

ولما لم يكن الأمرُ كما وُصف ، وكان القوم الذين بُعث فيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يزالوا في الذِّروة من الفصاحة والبيان دلَّ ذلك على فساد ما ادُّعي من حدوث (الصَّرفة) فيهم ، ونقصانِ قُدَرهم ، ونزول مراتبهم في الفصاحة والبيان بعد بعثة عظيم الشان ، صلى الله عليه وسلم .

٤ – ((و مما يلزمهم[2] – على أصل المقالة – أنه كان ينبغي إن كانت العرب مُنعت منزلةً من الفصاحة قد كانوا عليها أن يعرفوا ذلك من أنفسهم ... ولو عرفوه لكان يكون قد جاء منهم ذكر ذلك ، ولكانوا قد قالوا للنبيّ ، صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به ، ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه ...))[3] .

فلمّا لم يُرْوَ ذلك ، ولم يُنقل أنهم تحدثوا في مجالسهم بهذا – مع أن الدواعي على نقله متوافرة – دلّ على فساد ما ادعاه القائل بـ (الصَّرْفة) .

٥ – لو كان الله – تعالى – أنساهم الكلام البليغ الذي يمكن أن يعارضوا به القرآن فلم يعودوا ذاكرين له بعد نزول القرآن ، لو أن الله أنساهم هذا في مدّة يسيرة لدلّ ((على نقصان عقلهم ، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدّة عمره فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئاً من تلك اللغة لكان ذلك دليلاً على فساد عقله و تغيّره ، والمعلوم من حال العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدي

١- ((الرسالة الشافية)) : ١٤٦ .

٢- أي القائلين بـ (الصَّرْفة) .

٣- المصدر السابق : ١٤٨ .

بالقرآن ، وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل[1] ، فبطل ماعوّل عليه أهل الصَّرفة))[2] .

٦ - سلبُ قُدرِ العرب على المعارضة ((يجريهم مُجرى الموتى فلا يجدي اجتماعهم قوةً وظهوراً على المعارضة ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾[3]))[4] .

٧ - قد حصلت فعلاً محاولات للمعارضة كما صنع مُسَيلِمة وغيره ، فهذا يرد على من يقول بـ (الصَّرْفة) وأن العرب لم يستطيعوا المعارضة[5] .

تلك كانت بعضَ الردود على مذهب (الصَّرْفة) والقائلين به .

على أن (الصَّرْفة) لم تكن شراً محضاً على المسلمين فإنه ((مهما يكن من بطلان هذه الفكرة فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين ، المنزل من عند الحكيم قرآناً عربياً ، فكان هذا الباطل سبباً في خير كثير ... وإن أكثر ما كتب الأولون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن ومحاولة لبيان إعجازه ، وإن أول ما كتب في إعجاز

١- بل كانوا أشدّ من سابقهم وأحدّ ؛ نظراً للعداوة الطارئة عليهم والتحدي المستمر لهم ، ولذلك قال الله - تعالى - فيهم بعد نزول القرآن الكريم :

﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ سورة الزخرف : آية ٥٨ .

وقال جل وعز :

﴿ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ سورة الأحزاب : آية ١٩ .

٢- ((الطراز)) : ٣/٣٩٤ - ٣٩٥ .

٣- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٤- ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ٥٤ .

٥- ((المعجزة الخالدة)) : ١٧٠ - ١٧١ .

القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذي جاء فيه القـول بـ (الصَّرْفـة) بـين نفـي وإثبات ...))[٦] .

بهذا تنتهي مباحث هذا الفصل الذي أعدّه مقدمة لاغنى عنهـا لفهـم المبـاحث الآتية في الفصول القادمة ، إن شاء اللـه تعالى .

٦- ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٨٢ .

الفصل الثاني :
طرائق التدوين في الإعجاز القرآني

المبحث الأول : التدوين المبثوث في الكتب

تمهيـــد

حرص العلماء على تناول موضوع الإعجاز ، وذهـب كـلٌّ منهم مذهباً في تقريره والكلامِ عليه يوافق منحاه وتخصصه العلميّ .

فالمفسرون – مثلاً – طرقوا الإعجاز في مكانين من كتبهم :

الأول : في مقدمات الكتب الممهداتِ للتفسير ، وكثيرٌ من المفسرين صنعوا هذا(1) .

الآخر : عند تفسير الآيات الواردة في هذا الشأن ، وذلك كقوله تعالى :
﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(2) .

أما كتب علوم القرآن فقد كثر في أغلبها الحديثُ عن إعجاز القرآن العظيم ، وتعريفِهِ ، وبيانِ وجه المعجز منه وغير ذلك مما جاء فيها من مباحث هذا النوع ، مع مافيها من الحديث عن الأنواع الأخرى من علوم القرآن .

وأما كتب العقائد فقد كان مصنفوها على ثلاثة أقسام :

١– وذلك كصنيع الإمام الطبري في مقدمة تفسيره : ((جامع البيان)) ١ / ٨ – ١٢ ، وكصنيع الإمامين ابن عطية والقرطبي ، رحمهما الله تعالى ، وسيأتي الكلام على تفسير ابن عطية بالتفصيل ، أما القرطبي فقد أورد مقدمة طويلة في بداية كتابه ضمنها مباحث كثيرة منها مبحث الإعجاز في القرآن ، انظر ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١ / ٦٩ – ٧٨ .

٢– سورة البقرة : آية ٢٣ .
وإنما بدأت بها وهي آخر آية نزلت في تحدي الكافرين بإعجاز القرآن لأنها الأُولى ذكراً في المصحف الشريف ، وغالب المفسرين يتكلمون على الإعجاز عند تفسيرها .

الأول : مصنفون لايزيدون في تصنيفهم عن ذكر الآيات والأحاديث والآثار في أبواب العقائد ، وقد يورد بعضهم بعض كلامِ سلف الأمة وأئمتها ، وإن تكلموا في كتاب الله – تعالى – فإنما يكون الكلام في الرد على من قال بخلق القرآن[1] من المعتزلة وغيرهم ، وهؤلاء المصنفون على هذه الطريقة لم يتطرقوا في كتبهم هذه إلى الإعجاز ، لأنه لم يكن هذا المبحثُ متداولاً شهيراً في زمانهم .

ومن المصنفات على هذه الطريقة كتاب ((السنة)) للخلال[2] ، وكتاب ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم)) لأبي القاسم اللالْكائي[3] ، وغيرهما من الكتب .

أما القسم الثاني فهم الذين شحنوا مصنفاتِهم بالرد على المعتزلة وغيرِها من الفرق الضالة ، لكنّ تلك الردودَ كانت بالأسلوب الكلاميّ نفسِه الذي استعمله وبرع فيه المعتزلةُ خصوصاً ، فكان من البدهيِّ أن تكون مثل هذه المصنفاتِ الرادّة على هذه الفرقةِ مشحونةً بالكلام على القرآن العظيم من حيث كونه غيرَ مخلوق ، ومن حيث إعجازه ، وغير ذلك من المباحث المتعلقة بالقرآن العظيم .

١- هذه قضية فلسفية تسربت إلى المسلمين من آثار الفلسفات الأجنبية ، وكانت الجهمية ومن بعدهم المعتزلة هم الذين قالوا بها ورفعوا لواءها وفرضوها على الناس بقوة السلطان ، فتصدى لهم الإمام أحمد وأئمة أفذاذ آخرون نصر الله – تعالى – بهم الدين ، ثم انقشعت هذه الفتنة في عهدالخليفة المتوكل . انظر في قضية خلق القرآن : ((لوامع الأنوار البهية)) : ١ /١٦١وما بعدها ، وانظر قصة الفتنة بالقول بخلق القرآن ((سير أعلام النبلاء)) : ١١ / ٢٣٢ وما بعدها .

٢- الإمام العلامة ، الحافظ الفقيه ، شيخ الحنابلة وعالمهم ، أبوبكر أحمد بن محمد بن هارون البغداديّ الخلاّل . ولد سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وأخذ الفقه عن خلق كثير من أصحاب الإمام أحمد ، ورحل كثيراً ، وكتب عن الكبار والصغار ، وصنف عدة كتب ، وكان له الفضل في تدوين علم الإمام أحمد . توفي سنة ٣١١ عن سبع وسبعين سنة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٢٩٧ – ٢٩٨ .
وكتاب الخلال هذا مطبوع .

٣- الإمام الحافظ المفتي ، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور ، الطبري الرازي ، الشافعي اللالْكائيّ ، مفيدُ بغداد في وقته . له مصنفات قليلة ، وكان صاحب فهم وحفظ . توفي بـ (الدِّينَوَر) سنة ٤١٨ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٤١٩ – ٤٢٠ ، وكتابه هذا مطبوع متداول .

ومن المصنفات على هذه الطريقة كتابُ ((الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهلُ به)) للإمام أبي بكر الباقلانيّ ، رحمه الله تعالى ، وكتاب ((أصول الدين)) لعبد القاهر البغدادي[1] .

ولئن اختلفت الأنظار في تقويم ماصنعه هؤلاء الأئمةُ الرادون على الفرق الضالة من حيث استعمالهم لعلم الكلام ، وتوسعُهم وتوغلهم فيه ، وعدمُ نهجهم سبيلَ السلف في الاكتفاء بإيراد الأدلة القرآنيةِ والأحاديث والآثار في معرض ردهم على الضالين ، أقول : لئن اختلفت الأنظار في تقويم صنيعهم هذا فإن ما يعنينا في هذا البحثِ هو تقويم ماذكره هؤلاء الأئمةُ في مصنفاتهم عن الإعجاز ، وبيانُ جهدهم الذي بذلوه في هذا الباب .

ومن الأئمة مَن جمع بين الطريقتين فأورد في كتابه عدداً وافراً من الأحاديث والآثار مازجاً إياها بالكلام على المباحث العقدية بالأسلوب الكلاميّ غير الغالي .

ومن هؤلاء الإمام ابن خزيمة[2] - رحمه الله تعالى - في كتابه : ((التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل))،والإمام البيهقيّ - رحمه الله تعالى - في كتابه ((الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد)) ، وغيرهما .

١- العلامة البارع ، المتفنن الأستاذ عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، أبومنصور ، نزيل خرسان . صاحب تصانيف بديعة ، وأحد أعلام الشافعية . كان يُدرس في سبعة عشر فناً ، ويُضرب به المثل . توفي بـ ((إسفرايين)) سنة ٤٢٩ بعد أن شاخ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٥٧٢ - ٥٧٣ .

وكتابه هذا مطبوع .

٢- الحافظ الحجة الفقيه ، شيخ الإسلام ، إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خُزيمة ، أبوبكر السُّلمي النيسابوري الشافعي ، صاحب التصانيف . ولد سنة ٢٢٣ ، وعُني في حداثته بالحديث والفقه حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان توفي سنة ٣١١ ، وعاش تسعاً وثمانين سنة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٣٦٥ - ٣٨٢ .

وكتاب ابن خزيمة هذا مطبوع متداول .

وقد تناول عدد من المصنفين في السيرة الشريفة المطهرة مبحث الإعجاز في مصنفاتهم ، وذلك من باب إثبات نبوة النبيّ الأعظم – صلى الله عليه وسلم – أو من باب ذكر المعجزات التي ظهرت على يديه الشريفتين ، صلى الله عليه وسلم .

فإذا عُلم هذا فإني سأختار – بحول الله وقوته – كتاباً في كل علم من العلوم المذكورة وهي :

التفسير ، وعلوم القرآن ، والعقيدة ، والسيرة الشريفة .

وأتحدث عن جوانب الإعجاز التي ذكرها المصنف في كتابه الذي اخترته مبيناً محاسنَها ، ناقداً ما يحتاج النقد منها .

وسأراعي ، إن شاء الله تعالى ، في اختياري هذه الكتبَ – هنا وفي كل فصول الرسالة – أن تكون جامعة ، عميقةَ البحث بحيث تمثل غالب الكتب الأخرى المشهورة التي تحدثت عن الإعجاز في كتاب الله – سبحانه وتعالى – .

وسوف أتوسع في ذكر بعض أوجه الإعجاز التي أتى بها الأئمة في كتبهم المختارة ، وأناقش ما إذا كانت من الإعجاز أَوْ لا ، لسببين :

١ – أن هذه الأوجهَ تذكر لأول مرة في هذه الرسالة فكان من المناسب التوسعُ في بيانها .

٢ – إذا قُوّمت هذه الأوجه تقويماً دقيقاً فستكون أساساً لإحالة جميع أوجه إعجاز القرآن المماثلة لها والمذكورة في هذه الرسالة إليها .

ثم إني إذا ذكرت الوجه وناقشته أول وروده في الرسالة فإني لاأناقشه مرة أخرى عند وروده في مكان آخر ، وإنما أكتفي بالإشارة إليه بإيجاز مع الإحالة على مناقشة الموضع الأول ، إلا إذا كان في إعادة المناقشة أو الإضافة إلى ما جاء في أول موضع فائدةٌ معتبرة .

الكتب المختارة من كل علم

والكتب المختارة هي :

١ - ((**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**)) للإمام عبد الحقّ بن عطية الأندلسيّ ، رحمه الله تعالى[1] .

٢ - ((**البرهان في علوم القرآن**)) للإمام بدر الدين الزركشيّ[2] ، رحمه الله تعالى .

٣ - ((**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**)) للإمام البيهقيّ ، رحمه الله تعالى .

٤ - ((**الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**)) للقاضي عياض ، رحمه الله تعالى .

وأتحدث - إن شاء الله تعالى - عن كل منها بالترتيب :

١- الإمام العلامة ، شيخ المفسرين ، عبدالحق بن غالب بن عطية الغرناطيّ . كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية ، ذكياً فطناً ، من أوعية العلم ، ولد سنة ثمانين وأربعمائة ، وتوفي في ((لُورْقة)) - من الأندلس - سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٩/٥٨٧-٥٨٨ .

٢- هو الشيخ محمد بن بهادُر بن عبد الله التركيّ الأصل ، المصريّ ، بدر الدين الزركشيّ . ولد سنة ٧٤٥ ، وعُني بالاشتغال من صغره فحفظ كتباً . أخذ عنه عدة مشايخ ، وكان منقطعاً لايتردد إلى أحد .
توفي بالقاهرة سنة ٧٩٤ . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٤ / ١٧ - ١٨ .

أولا : التفسير

((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز))

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

هذا الكتاب مهم من حيث إنه كتاب لمصنف أندلسيّ ، يمثل مدرسة تراثية عظيمة ، تكمل ما كان في المشرق من جهود علمية وثقافية ضخمة في ذلك العصر .

وهومن جانب آخر قد عرض للإعجاز القرآني بطريقة مناسبة ليس فيها تطويل ممل ولا قِصَر مخل .

وقد تحدث الإمام ابن عطية عن الإعجاز في موضعين من كتابه :

أولا : في المقدمة : التي حوت علوماً من القرآن منها إعجازُه .

والموضع الآخر : في سياق آيات التحدي للكافرين بأن يأتوا بمثل هذا الكتابِ العظيم .

أمّا المقدمة فقد أورد فيها ثلاثة أوجه للإعجاز ، ارتضى منها واحداً ورد الوجهين الباقيين[١] ، وهذه الأوجه الثلاثة هي :

(١) - ((التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك ما لا يُطاق، وفيه وقع عجزها))[٢] .

١- انظر ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ - ٤٠ .

٢- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ .

(٢) – ((التحدي وقع بما في كتاب الله – تعالى – من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة)) .

(٣) – ((التحدي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه[١] ، وتوالي فصاحة ألفاظه))[٢] .

وقد ارتضى الوجه الأخير ورجّحه ، وذكر أنه هو ((الذي عليه الجمهور والحذاق ، وهو الصحيح في نفسه))[٣] .

ودلل على صحة هذا الوجه بأن ((الله – تعالى – قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كلّه علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تَلِيَ الأُولى ، وتُبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورةً أن بشراً لم يكن قطُّ محيطاً))[٤] .

والحق أن هذا الوجه الذي ارتضاه هو الوجه الذي أطبق عليه سائر من تكلم في

١- أي ببلاغته ؛ إذ هي العلم المتعلق بالمعاني .

٢- المصدر السابق .

٣- المصدر السابق ، وقد نصر الإمام ابن عطية هذا القولَ أيضاً في ثنايا كتابه ، انظر : ١ / ١٤٤ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٨ – ٣٩ .

وقد ذكر كلاماً حول هذا في كتابه ((المحرر الوجيز)) نفسه : ٩ / ٤٥ – ٤٦ عند تفسير قوله تعالى في سورة يونس ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ... ﴾ الآية : ٣٨ .

الإعجاز القرآني ، لم يشذّ عنه إلا من لاوزن لرأيه - علمياً - ولا قيمة كالنظّام وأمثاله ، كما بينت ذلك في موضع سابق[1] .

وقد أشار ابن عطية - رحمه الله تعالى - إلى البلاغة بقوله : ((وصحة معانيه)) ، فاجتمعت بذلك أوجه الإعجاز التي أطبق عليها أكثر من تكلم في الإعجاز وهي :

جودة النظم ، والطبقة العليا من البلاغة ، والفصاحة .

أما الوجهان اللذان ردّهما وهما :

وقوع التحدي بالكلام القديم ، والتحدي بالغيوب ، فإنه لم يبين الوجه الأول ، ولم يتوسع في الرد عليه .

وأما الوجه الآخر فقد توسع في الرد عليه في ثنايا كتابه .

واكتفى بالرد عليهما في المقدمة بقوله :

((وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما[2] من تقررت الشريعة ونبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - في نفسه ، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يُتحدّى فيما يَبين له بينه وبين نفسه عجزه عنه))[3] .

ولعل عدم توسعه في الرد إنما كان اعتماداً منه على سلوك سبيل الإيجاز في كل ماأورده من أبحاث في مقدمته ، ومنها مبحث الإعجاز .

١- انظر ص ٩٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- ((فيهما)) - هنا - بمعنى (عنهما) ، أو لعل اللفظة قد حرفت .

٣- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ .

بيان الوجه الأول وردّه

وهذا الوجه هو الذي أخبر عنه بقوله :

((التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك مالايطاق وفيه وقع عجزها)) .

ولأن الشيخ - رحمه الله - قد أوجز القول فيه إيجازاً ، فإني أوضحه وأذكر الرد عليه فيما يلي :

إن مقتضى عبارات السلف في كلام الله - تعالى - أنه صفة ذات وصفة فعل معاً ، فالله متكلم بما شاء متى شاء سبحانه ، وكلامه قائم بنفسه ، سبحانه وتعالى[1] ، أما من خالف في هذا فانقسم إلى أقسام منها مايتعلق بكلام الإمام ابن عطية - هنا - وهو بيانٌ لمذهب قوم قالوا إن كلام الله تعالى صفة ذات فقط ، فالقرآن - عندهم - كلام الله تعالى ، لكنه معنىً قديمٌ قائم بذاته سبحانه فقط ، والله - تعالى - يخلق في العبد إدراكاً يدرك به ذلك الكلامَ القديم الذي تكلم الله به في الأزل ، والقرآن الذي بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله - تعالى - القديم القائم بذاته لا كلامُ الله نفسه ، لأن الله - عندهم - لايتكلم بحرف وصوت[2] ، وإنما كان الذي دعاهم إلى هذا القول هو تنزيه الله عن أن يكون متكلماً بعد أن لم يكن كذلك .

ومذهب السلف أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا أن كلام الله تعالى - من حيث هو - حادثٌ[3] .

١- انظر في هذا ((مجموع الفتاوى)) : ١٢ / ١٣٢ - ١٣٣ .

٢- انظر ((مجموع الفتاوى)) : ١٢ / ١٢٠ ، ٢٤٣ .

٣- المصدر السابق : ١٢ / ١٧٣ .

((والصواب الذي عليه سلف الأمة ... هـو أن القـرآن جميعَـه كـلام اللـه : حروفَه ومعانيَه ، ليس شيءٌ من ذلك كلاماً لغيره ، ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى[1] ولا لمجرد الحرف بل لمجموعهما))[2] .

وتوضيح الوجه الذي أورده الإمام ابن عطية - رحمه اللـه تعالى - هو : أنه لما كان القرآن كلامَ اللـه - تعالى - لكنه معنى قائم بذات البـاري - سبحانه - معبر عنه بالعبارات والألفاظ ، لما كان كذلك فيستحيل إذاً معرفةُ ما قام بذاتـه سبحانه ، ولما كان مُتحدىً به أيضاً فإن المخاطبين كُلفوا مالايطيقون من التحـدي ، إذ لاقبـل لهم بمعرفة الكلام المتحدّى به حقيقةً ، فصار بذلك معجزاً لهم .

فإذا عُلم ما قدمته أولاً من أن سبيل السلف يخالف هـذا الـذي قـرروه مـن أن كلام اللـه - القرآنَ - معنـى قـائمٌ في ذاتـه عُـبر عنـه بألفـاظ ، إذا علـم هـذا بطـل الاستدلال بذلك الوجه الذي أورده الإمام ابن عطية على الإعجاز .

وقول ابن عطية رحمه اللـه تعالى عن هذا الوجه أنه يرى العجز فيه ((مـن قـد تقررت الشريعة ونبوة محمد - صلى اللـه عليه وسلم - في نفسه ، وأمـا مـن هـو في ظلمة كفره فإنما يُتحدى فيما يَبين له بينه وبين نفسه عجزهُ عنه))[3] قوله هـذا فيـه ملاحظتان :

الأولـى : أنه يرى هذا المذهب ويعتقده ، وقد ذكرت أن مذهب السلف خلافه .

١- أي كما هو قول القائلين بأنه معنى قائم بنفس اللـه فقط وليس صفة فعل .

٢- ((مجموع الفتاوى)) : ١٢ / ٢٤٤ .

٣- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ .

الأخرى : أن هذا الرد – الذي رد به الإمام ابن عطية ذلك الوجهَ المذكورَ – صالحٌ ؛ وذلك لأنّ هذه المعانيَ المذكورة من الإعجاز دقيقة لا يقتنع بها إلا من كان مؤمناً عالماً بها ، وذلك كله تنزلاً معه فيما ذهب إليه في ذلك الوجه ، وإلا فإني قد ذكرت أن مذهب السلف خلافه ، والله أعلم .

بيان الوجه الآخر :

أما الوجه الآخر ، وهو الإعجاز بأخبار الغيب ، فإنه رده بجوابين :

جواب في المقدمة ، وقد ذكرته قبلُ عند تقرير رد الوجه الأول : وهو أنه لايرى العجز في هذا إلا من تقررت الشريعة ونبوةُ محمد – صلى الله عليه وسلم – في نفسه .

وجواب آخر في ثنايا الكتاب .

أما الجواب الأول : فلا أتفق معه فيما ذهب إليه ؛ إذ أن أخبار الغيب في القرآن يتبين لكل مسلم عجزُه عن أن يأتي بمثلها ، فلا أدري وجهاً لكلامه هذا ، والله أعلم .

أما الجواب الآخر :

فقد ذكره في ثنايا الكتاب ، إذ جاء به في أثناء تفسيره قوله تعالى :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] :

فقال رحمه الله تعالى :

١- سورة البقرة : آية ٢٣ .

((واختلف المتأولون على من يعود الضمير في قوله ﴿ مِثْلِهِ ﴾ ، فقال جمهور العلماء : هو عائد على القرآن[1] ، ثم اختلفوا ، فقال الأكثر : من مثل نظمه ورصفه وفصاحة معانيه التي يعرفونها ، ولا يعجزهم إلا التأليف[2] الذي خُصّ به القرآن ، وبه وقع الإعجاز على قول حذّاق أهل النظر .

وقال بعضهم : مِن مثله في غيوبه وصدقه وقِدَمه ، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقِدم ، والأول أبين))[3] .

وقال عند قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[4] :

((والتحدى في هذه الآيةِ وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن : إحداهما : النظم والرصف والإيجاز والجزالة ... والأخرى : المعاني من الغيب لما مضى ولما يُستقبل . وحين تحداهم بعشر مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده .[5]

قال القاضي أبو محمد[6] :

هكذا قول جماعة من المتكلمين ، وفيه - عندي - نظر ، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب رداً على قولهم : ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ ؟ وما وقع التحدي في الآيتين هذه

١- والقول الآخر هو عَوْده على النبي - صلى الله عليه وسلم - وانظر في هذا : ((البحر المحيط)) : ١ / ١٠٤ - ١٠٥ ، و((روح المعاني)) : ١ / ١٩٤ - ١٩٥ .

٢- أي النظم .

٣- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ١٤٣ - ١٤٤ .

٤- سورة يونس : آية ٣٨ .

٥- لأنه تحداهم في قوله ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ بأن يأتوا بمثلها في النظم والرصف والجزالة لاالأخبار الصادقة لأن قوله : ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ يعني هاتوا مثلها ولو كان مافيها كذباً لكنها تشابهها في الجزالة والنظم .

٦- أي ابن عطية نفسه رحمه الله .

وآية العشر السور إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق ، وما أُلزموا قطٌّ إتياناً بغيب ، لأن التحدي بالإعلام بالغيوب[1] كقوله :

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾[2] ... ونحو ذلك من غيوب القرآن فبيّن أن البشر مقصر عن ذلك))[3] .

وعلى هذا فإن الإعجاز عند ابن عطية إنما هو بالنظم والرَّصْف والجزالة والفصاحة ، أما أخبار الغيب فإنه لايرى الإعجاز بها .

ويبدو لي – مما نقلته عن ابن عطية آنفاً – أن الإمام لم يردَّ أخبار الغيب على أنها وجهٌ من أوجه الإعجاز إلا إذا ادُّعي انفرادها بالدلالة على الإعجاز ، أما إذا عُدّت وجهاً من أوجه الإعجاز مع البلاغة والنظم فإني لا أجد من كلامه رداً لها ولا قبولاً .

ولا أعلم أحداً ممن تكلم في الإعجاز ارتضى أخبار الغيب في القرآن على أنها وجهُ الإعجاز الوحيد إلا ما جرى من النظّام حيث قال :

((الأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثه فيهم))[4] .

١- قوله : ((بالإعلام بالغيوب)) خبر أن .

٢- سورة الروم : آية ٣ .

٣- المصدر السابق : ٩ / ٤٤ -٤٦ .

٤- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ ، و ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧٠ .

تفصيل القول في الإعجاز بأخبار الغيوب :

أخبار الغيب في القرآن الكريم تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١- الغيب الماضي ، وهو قصُّ أخبار المتقدمين على الوجه الذي لايكاد يعرفه أحد وإن عرفه فليس كتفصيل القرآنِ الكلامَ عليه ، قال تعالى بعد تفصيل قصة نوح عليه الصلاة والسلام :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[1] .

٢- الغيب المستقبل ، وهو منقسم إلى قسمين :

أ - غيب قريب موعود بتحققه وقد تحقق ، كغلبة الروم الفرسَ ، وفتحِ المسلمين مكةَ ، والإخبارِ بموت أبي لهب[2] كافراً .

ب - وغيب بعيد لم يتحقق بعد ، وذلك نحو بعض أشراط الساعة كالدابة ، والدخان ، والكوارث الكونية يوم القيامة .

٣ - والغيب الحاضر كالحديث عن الأشياء التي غُيِّبت عن أبصارنا كالدار الآخرة وما فيها من جنة ونار وملائكة إلخ ...

أو الإخبارِ عن ضمائر الناس كاليهود حيث أخبر القرآن عنهم أنهم لايتمنون الموت : ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ ، ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾[3] .

١- سورة هود : آية ٤٩ .

٢- هو عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم . عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفي بعد بدر بليال بقرحة قاتلة كالطاعون ، وكان قد اغتمّ لما أصاب قومه . انظر ((التبيين في أنساب القرشيين)) : ٧٦ ، و ((سيرة ابن هشام)) : ١ / ٦٤٦ - ٦٤٧ .

٣- سورة البقرة : آية ٩٥ ، وسورة الجمعة : آية ٧ .

وقد أورد عدد من الأئمة أخبار الغيب في القرآن وجهاً أو وجوهاً من أوجه الإعجاز[1] ، ورد ذلك آخرون[2] .

وقد كنت أميل إلى عدم قبول أخبار الغيب في القرآن على أنها من أوجه الإعجاز وإنما هي دلائل على صدق هذا الكتاب العظيم ، وأنه من عند الله تعالى – قطعاً – وقد جنحتُ إلى هذا الرأي لأسباب هي :

١- ليست كلُّ آيات القرآن العظيم تحوي أخبارَ الغيب ، وقد أعجز الله الخلقَ بالقرآن كله قليلِه وكثيره[3] .

٢ – كثير ممن سمع بأخبار الغيب المستقبلة مات قبل أن تقع هذه الأخبارُ وتتحقق ، وأعني بتلك الأخبارِ أخبارَ الغيب القريب الذي تحقق زمان النبي – صلى الله عليه وسلم – وأخبارَ الغيب المستقبل البعيد التي لم تتحقق حتى الآن ، فكيف يقع الإعجاز بالتحدي بشيء لم يتأكد وقوعه ، ولم يره المعاند الجاحد بعد ، فينقطعَ دونه ويعجزَ ، وإنما يقع التحدي بأمر يقع أمام أنظار الجاحدين ويُلقى على أسماعهم ، لاعلى أمر موعود بتحققه ؟ لم يروه ولن يدركه كثير منهم فيعرفوا صدقه من كذبه .

١- كالحافظ البيهقي في ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ ، والقاضي عياض في ((الشفا)) : ١ / ٣٧٥ ، والإمام الباقلاني في كتابه ((إعجاز القرآن)) : ٣٥ ، وآخرين .

وإنما قلت (وجوهاً) باعتبار ماينقسم إليه الإعجاز بالأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة كما سبق تفصيله .

٢- وممن رده الإمام ابن عطية في ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ ، ١٤٣ - ١٤٤ ،

والإمام الزركشيّ في ((البرهان)) : ٢ / ٩٥ - ٩٦ ، والإمام يحيى بن حمزة العلوي في ((الطراز)) : ٣ / ٣٩٨ ، وآخرون .

ولعل معظم الذين ردوه إنما صنعوا ذلك حين القول بتفرده وجهاً للإعجاز ، أما حين اشتراكه مع غيره فإن مقتضى كلامهم قبوله ، وانظر الصفحات : ١٣١ - ١٣٣ ، ١٤٠ - ١٤١ ، ٢٠٥ .

٣- انظر ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ٩٦ .

٣ – لم يصلنا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – تحداهم بأن يأتوا بمثل أخبار الغيب في القرآن ، ولا أعجزهم بها .

لتلك الأسبابِ مجتمعةً لم أكن أعتقد أن أخبار الغيب في القرآن العظيم تعد من أوجه إعجازه .

لكني رأيت كلاماً مفيداً للإمام الخطّابي يجمع بين الرأيين (المثبت والنافي) حيث قال :

((وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ... ولا يُشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزةً بنفسها))[١] .

وقد ذكر الإمام الزركشي – رحمه الله تعالى – كلاماً مشابهاً ، حيث قال عن الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة :

((ورُد هذا القول بأنه يستلزم أن الآياتِ التي لاخبر فيها بذلك لا إعجاز فيها وهو باطل ، فقد جعل الله كل سورة معجزةً بنفسها))[٢] .

ثم قال عن الإعجاز بقصص الغيب المتقدمة ، وهو الشاهد هنا :

((وهو مردود بما سبق[٣] ، نعم هذا والذي قبله من أنواع الإعجاز إلا أنه منحصر فيه))[٤] .

١– ((بيان إعجاز القرآن)) : ضمن ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ٢٣ – ٢٤ .

٢– ((البرهان)) : ٢/٩٦ .

٣– أي مردود بما رُدت به دعوى الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة .

٤– المصدر السابق .

أي أن الإعجاز ثابت فقط في الآيات المخبرة عن الغيوب لا فيما سواها من آيات تخلو من أخبار الغيب ؛ إذ الإعجاز فيها متحقق بشيء آخر .

إذاً الإعجاز بأخبار الغيب إعجاز جزئي لا كليّ ؛ إذ ليس واقعاً في كل آية في كتاب الله – تعالى – وقد تخلو بعض السور القصار منه ، فصار الإعجاز خاصاً بالآيات التي وردت فيها أخبار الغيب فقط ، والآيات التي تخلو من أخبار الغيب فإن وجه الإعجاز فيها قائم من جهة البلاغة والفصاحة والنظم .

أما الإجابة على ما أوردته من أسباب آنفاً لعدم اعتدادي – **أولاً** – بأخبار الغيب المستقبلة وجهاً من أوجه الإعجاز فقد أجبت على **الأول** منها بأن الإعجاز فيها ليس إعجازاً كلياً وإنما ينحصر في آيات الغيوب فقط .

وأما الثاني وهو عدم إدراك كثير من المعاندين الجاحدين تحققَ أخبار الغيب ، وموتهم قبل وقوعه ، فالإجابة عليه تكون بأن الإعجاز قائم بأخبار الغيب الماضية والحاضرة ، وهذا كاف للتصديق بالمستقبلة منها والإيمان بأنها معجزة ، وينضم إلى ذلك أنواع الإعجاز المتفق عليها في القرآن كالإعجاز بنظم القرآن وفصاحة ألفاظه وجزالة معانيه ، وينضم إلى ذلك أيضاً مارآه الجاحدون المنكرون من معجزات حسية كثيرة جرت على يديه الشريفتين – صلى الله عليه وسلم – فمن لم يُسلّم بذلك كله فإنه لن يسلم بإعجاز الأخبار الغيبية المستقبلة حتى لو أدركها ورآها ، فأخبار الغيب المستقبلة معجزة بدليل خارجي لاذاتي ، والله أعلم .

وأمّا الثالث – وهو أنه لم يصلنا أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تحداهم بهذه الأخبار الغيبية – فيمكن ردُّه بأن الله – تعالى قال :

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾[1] .

فالمثلية المطلوبة كما أنها تقتضي المشابهة لنظمه وأسلوبه فهي تقتضي المشابهة لغيوبه أيضاً ، فأخبار الغيب إذاً متحدىً بها ، وهي معجزة .

وبهذا التفصيل لأخبار الغيب ينتهي الكلام على أوجه الإعجاز عند الإمام ابن عطية الذي ارتضى منها الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم كما مرّ .

١- سورة الطور : آية ٣٤ .

ثانياً : علوم القرآن

((البرهان في علوم القرآن))

للإمام بدر الدين الزركشيّ ، رحمه الله تعالى

كتاب ((البرهان)) للإمام الزركشيّ كتاب جليل القدر ، حيث إنّه مؤلَّف واسع ، متنوع المباحث في علوم القرآن ، فلم يؤلف قبله مثلُه – فيما نعلم – ضمنه المصنف أنواعاً كثيرة من علوم القرآن بضبط وتحرير وتحقيق ، ذكر منها ((معرفة إعجازه)) وهو النوع الثامن والثلاثون من الأنواع التي ذكرها في كتابه[1] .

وقد جاءت مباحث الإعجاز عند الزركشيّ – رحمه الله – حافلةً بالفصول والمسائل ، متنوعةً في طَرْقها هذا الموضوعَ المهم ؛ فقد ابتدأ بمقدمة ذكر فيها أهمية معرفة علم الإعجاز القرآنيّ ، وبعضَ من صنف فيه من الأئمة ، ثم ذكر آيات التحدي في كتاب الله – تبارك وتعالى – وناقش بعض كلام الأئمة فيها .

ثم ذكر وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وهي :

١ – ((إحداها : وهو قول النظّام :

إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمرٌ خارجيّ فصار كسائر المعجزات ، وهو قول فاسد ...))[2] ثم شرع في رده[3] .

١– ((البرهان)) : ٢ / ٩٠ – ١٢٤ .

٢– ((البرهان)) : ٢ / ٩٣ – ٩٤ .

٣– سبق بيان عُوار مذهب من قال بـ (الصَّرفة) ، انظر ص ١١٣ .

٢ - ((وجه الإعجاز راجع إلى التـأليف الخـاصّ بـه لامطلـق التـأليف ، وهـو بـأن اعتدلت مفرادته تركيباً وزنةً ، وعلت مزكباته معنىً))[١] .

وهذا راجع إلى الإعجاز النظميّ والبلاغـيّ ، وقولـه : ((لامطلـق التـأليف)) أي مجرد صف الحروف لتكون كلمات فإن هذا يحسنه كل متكلم عاقل .

٣ - ((مافيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة)) .

وقد ردّ هذا الوجه بقوله :

((ورُدّ هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التي لاخبر فيها بذلك لاإعجاز فيها ، وهـو باطل ، فقد جعل اللـه كل سورة معجزة بنفسها))[٢] .

وقد بينت - في موضع سابق - أن الإعجاز هنا إعجاز جزئيّ لاكلي ، بمعنـى أنه موجود في كثير من الآيات لا كلها[٣] .

٤ - ((ما تضمـنّ مـن إخبـاره عـن قصـص الأولـين وسـائر المتقدمـين حكايةَ مـن شاهدها وحضرها))[٤] .

وقد علق على هذا بقوله :

((وهو مردود بما سبق [٥] ، نعم هذا والذي قبله مـن أنـواع الإعجـاز إلا أنـه غـير منحصر فيه)) .

أي أن الإعجاز ثابت فقط في الآيات المخبرة عن الغيوب لا فيمـا سـواها مـن آيات ، كما سبق بيانه[٦] .

١- المصدر السابق : ٢ / ٩٥ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ٩٥ - ٩٦ .

٣- انظر ص ١٣٤ ومابعدها .

٤- ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ٩٦ .

٥- أي بما رُدّ به الوجه السابق .

٦- انظر ص ١٣٤وما بعدها .

٥ - ((إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[١] ... وكإخباره عن اليهود أنهم لايتمنون الموت أبداً))[٢] .

ثم انه لم يتكلم على هذا الوجه قَبولاً أو ردّاً ، وهذا الوجه حُكمه حكم الوجهين السابقين عليه ، والله أعلم ، باعتباره إخباراً عن الغيب الحاضر وقت النزول فتجتمع بهذه الوجوهِ الثلاثة الأزمنةُ الثلاثة ، وقد أحسن من جعلها جميعاً وجهاً واحداً وهو الإخبار بالغيب مطلقاً سواء كان الغيب الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

٦- ((السادس ، وصححه ابن عطية وقال :
إنه الذي عليه الجمهور والحُذاق ، وهو الصحيح في نفسه ، أن التحدي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ...))[٣] .

وهذا الوجه لامِرية في إعجازه ، وهو شامل للوجه الثاني المذكور سابقاً .

٧- ((وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب))[٤] .

وقد ذكر أنه قريب من الوجه السابق ، وهو كما قال ، رحمه الله تعالى ، إلا أن الوجه السابق أعم منه حيث أشار فيه إلى الإعجاز النظميّ .

١- سورة آل عمران : آية ١٢٢ .
٢- ((البرهان)) : ٢ / ٩٦ .
٣- المصدر السابق : ٢ / ٩٧ - ٩٨ .
٤- المصدر السابق : ٢ / ٩٨ .

وفي هذا الوجه زيادة احتياط باشتراطه – نصاً – السلامة من العيوب ، بخلاف السابق فإنه يتضمن ذلك فقط .

٨- ((مافيه من النظم والتأليف والترصيف ، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم ...))(١) .

ولم يتعقب الزركشيُّ – رحمه الله – هذا القولَ الذي نسبه لبعض الأئمة ، والحق أن هذا القول لايخرج عن الوجهين الثاني والسادس ؛ إذ الوجه الثاني يشمل الإعجاز النظميّ ، والوجه السادس ذكر فيه الإعجاز بالنظم أيضاً .

٩ – ((أنه شيء لا يمكن التعبير عنه)) .

ونقل الأقوال التي تذهب إلى أن ((الإعجاز يُدركَ ولا يمكن وصفه)) ، وأنه ((ليس في طاقة البشر الإحاطةُ بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه))(٢) .

وهذا الوجه ليس وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز ، وذلك لأن الإعجاز دليل الرسالة ، ولا يمكن أن ينبني الدليل على مطلق الإدراك من غير تحديد لشيء معين يُعرف به وجهُ الإعجاز ، ولكن يمكن أن يكون ما ذكره أثراً من آثار الإعجاز أو لازماً من لوازمه ؛ وذلك كالروعة والدهشة الحاصلةِ لسامعه الفاهم لمعانيه .

١٠ – ((إن الإعجاز فيه من حيث استمرّت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه استمراراً لاتوجد له فترة(٣) ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومَن تكلم بلغتهم لا تستمرّ الفصاحة والبلاغة في جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرِض الفَتَرات(٤) الإنسانية فتقطع طيب الكلام ورونقه

١- ((البرهان)) : ٢ / ٩٨ – ١٠٠ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ١٠٠ .

٣،٤- الفترة: الانقطاع والضعف ، انظر ((لسان العرب)) : ف ت ر ..

فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ...))[١] .

وقد نسَب هذا القول لحازم[٢] في ((منهاج البلغاء))[٣] .

وهذا الوجه داخل في الوجه السادس المذكور آنفاً وهو أن الإعجاز وقع ((بنظمه ، وصحة معانيه **وتوالي فصاحة ألفاظه**))[٤] لكن هذا الوجه وقع فيه تفصيل ما أوجز ذكره في الوجه السادس .

وقد ذكر الزركشيّ نفسه – رحمه الله تعالى – أن هذا القولَ قريب مما ذكره ابن عطية ، الذي هو صاحب القول السادس المذكور آنفاً .

١١ – ((القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُضمناً أصحَّ المعاني من توحيد الله وتنزيهه في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ... وأمر بمعروف ونهي عن المنكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجرٍ عن مساويها ...))[٥] .

وقد نسب هذا الوجه للخطّابي[٦] في تقرير طويل لايسعني الإتيان به لطوله ، وذاك هو خلاصته .

١- ((البرهان)) : ٢ / ١٠١ .

٢- أبو الحسن حازم بن محمد القُرطاجَنّي . ولد سنة ٦٠٨ ، نحويّ ، ناظم ، ناثر ، وله عدة تصانيف . ارتحل من الأندلس واستقر في بلاد المغرب ، وتوفي في سنة ٦٨٤ بتونس . انظر ((نفح الطيب)) : ٣ / ٣٤٠ – ٣٤٥ .

٣- هذا النص الذي نقله الزركشيّ لحازم هو من القسم الأول المفقود لكتاب ((منهاج البُلغاء)) لحازم ، انظر ((منهاج البلغاء)) : ٣٨٩- ٣٩٠ مع صفحة ٩٣ – ٩٥ من الكتاب نفسه .

٤- ((البرهان)) : ٩٧/٢ .

٥- المصدر السابق : ١٠٣/٢ .

٦- كلام الخطّابيّ هذا هو في كتابه : ((بيان إعجاز القرآن)) ضمن ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) ص : ٢٧ .

وهذا الوجه لا أرى فرقاً كبيراً بينه وبين الوجه السادس الذي قرّر فيه أن الإعجاز إنما ((وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه))[1] ، فالكلام في الوجهين : السادس والحادي عشر متشابه إلا أن الوجه الحادي عشر وقع فيه تفصيل وإيضاح لما أُوجز ذكرُه في الوجه السادس .

١٢ - ((وهو قول أهل التحقيق : أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال ، لا بكل واحد على انفراده ، فإنه جمع كلّه[2] فلا معنى لنسبته[3] إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مما لم يسبق))[4] .

ولا أدري كيف يستقيم هذا القول وفي الأوجه المذكورة آنفاً القولُ بـ (الصَّرفة) ، وفيها ماردّه الشيخ نفسه مثل الوجهين الثالث والرابع ، إلا إذا قصد الشيخ ((بجميع ماسبق من الأقوال)) الأقوالَ المقبولة فقط ، وهذا وجه صحيحٌ إذاً ، يجمع الأقوال المتفرقة ، ويقوي معنى الإعجاز لاجتماع المعاني فيه ، والله أعلم .

ثم إن الشيخ الزركشيّ - رحمه الله تعالى - عاد إلى ذكر خمسة أوجه عدّها من الإعجاز ، وهي :

١٣- ((الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعِهم))[5] .

١- ((البرهان)) : ٢ / ٩٧ .

٢- أي هذا الوجه جمع جميع الأوجه السابقة .

٣- أي الإعجاز .

٤- ((البرهان)) : ٢ / ١٠٦ .

٥- المصدر السابق : ٢ / ١٠٦ .

وهذا الوجه أثر من آثار الإعجاز، وليس هو إعجازاً ، كالناظر لشيء متقن الصَّنعة فإنه يُعجب به ويدهش من جماله وإتقانه ، فليس هذا الإعجاب والدهشة هو ذاتَ الإتقان فيه وإنما هو أثر من آثار الإتقان ، والإتقان هو ما فيه من إحكام الصَّنعة ودقتها ، وليراجع الكلام على الوجه التاسع .

١٤ - ((أنه لم يزل غضاً طرياً في أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين))[١] .

وهذا الوجه - عندي - كسابقه أيضاً ؛ إذ لم يكن القرآن كذلك إلا لأنه معجز في نظمه ، فصيح في ألفاظه ، جَزلٌ في معانيه ، وما يلحق السامعين لهذا الكلام العظيم إنما هو أثر لذلك النظم العالي والبلاغة المتناهية في الحسن ، والله أعلم .

١٥ - ((ومنها ماينتشر فيه عند تلاوته من إنزال الله إيّاه في صورة كلام هو مخاطبةٌ من الله لرسوله تارةً ومخاطبة أخرى لخلقه ، لافي صورة كلام يستمليه مِن نفسه مَن قد قذف في قلبه وأوحى إليه ما شاء أن يلقيه إلى عباده على لسانه ، فهو يأتي بالمعاني التي أُلهمها بألفاظه التي يكسوها إياه ، كما يشاهد من الكتب المتقدمة))[٢] .

كلام الزركشيّ هنا يلفّه الغموض لكثرة إتيانه بالضمائر التي يصعب معرفة مرجعها ، ولكني فهمت من كلامه أنه يريد أن يفرّق بين القرآن العظيم وبين غيره من الكتب المتقدمة بأن القرآن كلام الله لفظاً ومعنى بينما سائر الكتب السماوية ليست كذلك بل المعنى من الله واللفظ من الموحَى إليه ، ولكن يُعكّر على مذهبه هذا بأنه - إذا قصد هذا المعنى - لم يورد دليلاً على قوله هذا خاصة أن الله ،

١- المصدر السابق : ٢ / ١٠٧ .

٢- المصدر السابق .

تعالى ، آتى نبيه موسى – عليه الصلاة والسلام – التوراةَ في ألواح قال عنها سبحانه

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[1] .

فكلام الله إذاً كُتب في ألواح فهو لفظاً ومعنى من الله تعالى .

ولعله يقصد تراجم هذه الكتب التي قرأها باللغة العربية ؛ فإن ألفاظها – أحياناً – تكون ركيكة يبدو عليها أنها من أساليب البشر ، والمعنى الأول أقرب إلى لفظه المذكور ، والله أعلم .

وعلى كل حال فهذا الوجه ليس من الإعجاز – بهذا المعنى الذي فهمتُه – بل هو خصوصية خَصّ الله ، تعالى ، بها هذا الكتاب العظيم ، إن ثبت أنه منفرد بأنه لفظاً ومعنى من الله ، والله أعلم .

١٦ – ((ومنها جمعه بين صفتيِ الجزالةِ والعذوبة ، وهما كالمتضادين لايجتمعان – غالباً – في كلام البشر ؛ لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة ... وذلك من أغظم وجوه البلاغة والإعجاز))[2] .

وهذا الوجه داخل في الوجه السادس ولكنه أدخلُ منه في تفصيل بعض نواحي البلاغة والفصاحة في القرآن العظيم ، والله أعلم .

١٧ – ((ومنها جعلُه آخرَ الكتب ، غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه ، كما قال تعالى :

١– سورة الأعراف : آية ١٤٥ .

٢– المصدر السابق .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾)) [١] .

وهذا ليس إلا خصوصيةٌ خُصّ بها هذا الكتابُ العظيم ، وليس هو من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

ثم إن الزركشي – رحمه الله تعالى – عقد مباحث متنوعة في الإعجاز

فمنها : بيان قدر المعجز من القرآن[٢] .

ومنها : بيان ترتيب نزول آيات التحدي[٣] .

ومنها : أن التحدي وقع للإنس دون الجن[٤] .

ومنها : أن الإعجاز القرآني معلوم ضرورةً[٥] .

ومنها : الحكمة في تنزيه النبي – صلى الله عليه وسلم _ عن الشعر[٦] .

ومنها : تنزيه الله القرآنَ عن أن يكون شعراً[٧] .

ولم يذكر الزركشيّ – رحمه الله تعالى – الصلةَ بين المبحثين الأخيرين وبين الإعجاز ، وبينهما نوع تعلّق ، إذِ الشعر أروع وأجمل كلام العرب ، ومع ذلك جاء القرآن الكريم على لون جديد من الكلام يفوق الشعر والنثر جميعا ، وهذا هو معنى الإعجاز .

ومنها قوله :

((مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافاتُ المقامات وذكرٌ في كل موضع مايلائمه ، ووضع الألفاظ في كل موضعٍ مايليق به ، وإن كانت مترادفة ، حتى لو أُبدل واحدٌ

١- ((البرهان)) : ٢ / ١٠٧ ، والآية من سورة النمل : ٧٦ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ١٠٨ - ١٠٩ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ١١٠ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ١١١ .

٥- المصدر السابق : ٢ / ١١١ - ١١٢ .

٦- المصدر السابق : ٢ / ١١٢ - ١١٣ ، والمعنى : تنزيه النبي – صلى الله عليه وسلم – عن إنشاء الشعر .

٧- المصدر السابق : ٢ / ١١٣ - ١١٧ .

منها بالآخر ذهبت تلك الطّلاوة[1] ، وفاتت تلك الحلاوة ، فمن ذلك أن لفظ ﴿ ٱلْأَرْض ﴾ لم ترد في التنزيل إلاّ مفردةً ، ولما أُريد الإتيانُ بها مجموعةً قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[2] تفادياً مِن جمعها ...))[3] .

ومن المباحث في الإعجاز ما ذكره من : اشتمال القرآن على أعلى أنواع الإعجاز ، حيث ذكر أن في القرآن من الألفاظ ماهو فصيح ، وفيه ماهو أفصح[4] ، وكلاهما يبلغ الغاية العليا في بابه .

وبهذا ختم الزركشيّ مباحث الإعجاز ، وهي مباحث جليلة القدر ، كأن الزركشيّ ، رحمه الله تعالى ، انفرد بإيرادها من بين كتب علوم القرآن - فيما أعلم - والله أعلم .

وهو قد أورد سبعة عشر وجهاً للإعجاز تتلخص في الآتي :

١ - الإعجاز بـ (الصَّرفة) ، وقد ردّه .

٢ - الإعجاز النظمي والبلاغيّ .

٣ - الإعجاز بأخبار الغيب .

٤ - أَمرٌ لايستطاع التعبير عنه .

٥ - الإعجاز بجميع ما سبق .

٦ - الروعة والتأثير في القلوب .

١- الطَّلاوة والطُّلاوة : الحسن والبهجة والقَبول والرونق : ((لسان العرب)) : (ط ل ى) .

٢- سورة الطلاق : آية ١٢ .

٣- ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ١١٨ - ١٢٠ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ١٢١ - ١٢٤ .

ونلحظ في هذه الأوجه أنه ليس فيها شيء جديد لم يقل به إمام متقدم ، وإنما كلها مستفادة عن غيره ممن سبقه ، لكنه فصّل في بعضها ، وساق معها مباحث متنوعة عن الإعجاز .

ثالثا : العقيدة

((الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث))

للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ رحمه الله تعالى[1]

أورد الحافظ البيهقيُّ – رحمه الله تعالى – في كتابه هذا عدداً كبيراً من المباحث العقديّة ، وساق فيها جملة وافرة من الأحاديث والآثار عن النبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة ، رضي الله عنهم ، والتابعين الكرام .

ومن تلك المباحث المتعددةِ مبحثُ ((القول في إثبات نبوة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم))[2]، فذكر فيه دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم وما أجرى الله على يديه من المعجزات الواضحات المفحِمات ، ومن تلك الدلائل ((فيما جاء به من عند الله – سبحانه – من القرآن العظيم أنه تحدى الخلق بما في القرآن من الإعجاز ، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة مثله فنَكلوا[3] عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه))[4] .

وقد ذكر الحافظ في مبحث الإعجاز جملةً من الوجوه التي كان بها القرآن معجزاً – وذلك على ما تناهى إلى علمه من كلام أهل العلم قبله في الإعجاز – فذكر أن منها :

١ – الإعجازَ من جهة البلاغة وحسن اللفظ دون النظم .

١- مر ذكر الفقرة (أولاً) ص : ١٢٦ و (ثانياً) ص : ١٣٩ .

٢- ((الاعتقاد)) : ٢٥٥ – ٣٠٦ .

٣- نَكَل : نَكَص وتراجع : (لسان العرب)) : ن ك ل .

٤- ((الاعتقاد)) : ٢٥٨ – ٢٥٩ .

٢ – الإعجاز في النظم دون اللفظ[1] .

٣ – الإعجاز بالإخبار عن الحوادث والإنذار عن الكوائن في مستقبل الزمان .

٤ – الإعجاز بـ (الصَّرفة) ، ونص كلامه فيها :

((ومنهم من قال : إعجازه في أن اللـه أعجز الناس عن الإتيان بمثله ، وصَرَف الهمم عن معارضته ، مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آيةً للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه)) .

٥ – الإعجاز بجميع ما تقدم[2] .

هذا وإنه لم ينسب قولاً من تلك الأقوال الخمسة المتقدمة لأحد ، ولم يَعْزُها لمصدر إنما أرسلها إرسالاً .

ثمّ إنه لم يرتضِ الوجه الأولَ الذي يفصل بين الألفاظ وبين النظم الذي ينظمها في سلك فريد ، فقال :

((لا معنى لقول مَن زعم أن الإعجاز في لفظه ؛ لأن الألفاظ مستعملة في كلام العرب ومتداولةٌ في خطابها ؛ لأن[3] البلاغة ليست في أعيان الأسماء ومفردِ الألفاظ وحَسْبُ دون أن تكون هذه الأوضاع معتبرة بمحالها ومواضعها المصرَّفةِ إليها والمستعملة فيها[4]))[5] .

١– حكى الحافظ البيهقي – رحمه اللـه تعالى – كلام أهل العلم في الإعجاز ولذلك جاء بالقولين الأولَين مفصولين وحقهما أن يجمع بينهما ؛ لشدة تلازمهما .

٢– ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ .

٣– كذا في المطبوع ، والوجه : (ولأنّ) بزيادة الواو .

٤– أي أن النظم الذي تُنْظَمُه هذه الألفاظ وطريقة إيرادها في جمل متناسقة معجزٌ أيضاً .

٥– المصدر السابق .

ثم مثل لذلك بكلام الإمام الخطابي قائلاً :

((قال الشيخ أبو سليمان[1] – رحمه الله :

وبيان ذلك أن العرب قد تعرف لفظ ((الصَّدْعُ))[2] في لغتها وتتكلم به في خطابها ثم إنك لا تجده مستعملاً لهم في مثل قوله : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[3] ...))[4] .

– **أمّا الوجه الثاني** وهو الإعجاز بالنظم دون اللفظ فقد نصره قائلاً :

((وأما إعجازه من جهة النظم فالمعجز منه نظم جنس الكلام الذي باين به القرآنُ سائرَ أصناف الكلام التي تكلمت بها العرب))[5] .

ثم إنه أطنب في هذا ، ولكنه لم يبين كيف يكون الإعجاز في النظم فقط دون اللفظ على ما ذكره في هذا الوجه ، إلا أن يكون من البدهيّ عنده أن الألفاظ المجردة عن النظم هي من جنس الألفاظ الواقعةِ في كلام العرب إنما المدار على طريقة اختيارها ونظمها وسبكها ، فلعلّ هذا هو الذي جعله يترك الحديث عن اللفظ والعلاقة بينه وبين النظم ، والله أعلم .

ثم انه في هذا الوجه ساق الفرق بين الفواصل في الآيات الكريمة وبين

١– هو الخطّابي كما ورد في مواضعَ من كتاب البيهقي بقوله : أبو سليمان الخطابيّ .

٢– الصَّدْع هو الشَّق في الشيء الصلب كالزجاجة ونحوها ، وقوله تعالى ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ أي شُقّ جماعاتهم بالتوحيد ، أو معناه اجهر بما تؤمر : مِن صَدَع بالأمر إذا جاهر به ، وقيل معناه : افصل بالأمر ، وهو مستعار من صَدْع الأجسام وقيل غير ذلك ، انظر تفصيل هذا في ((تاج العروس)) : صدع .

٣– سورة الحجر : آية ٩٤ .

٤– ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ .

٥– المصدر السابق .

السَّجْع[1] ، ونفى أن يكون في القرآن العظيم سَجْعٌ .

والحق – في تقديري ، والله أعلم – أن السجع موجود في القرآن الكريم لكنه سجع غير متكلف ، سلس ، جميلٌ وقوعُه على السمع ، ولوقوعه في القرآن ضوابط ، وقد بين كلّ ذلك ابن سنان الخفاجيّ بقوله :

((بعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج[2] في الكلام ، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً ، وحجةُ من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتَعمُّل واستكراه ، فأذهب طلاوة الكلام ، وأزال ماءه ، وحجة من يختاره أنه مناسبةُ بين الألفاظ يُحسّنها ، ويُظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد في كتاب الله تعالى ، وكلامِ النبي – صلى الله عليه وسلم – والفصيحِ من كلام العرب ... والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد في نفسه ...

وأما الفواصل التي في القرآن فإنهم سمَّوْها فواصل و لم يسموها أسجاعاً وفرّقوا فقالوا : إن السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها ، وقال علي بن عيسى الرمانيّ :

إن الفواصل بلاغة والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعاني ، والفواصل تتبع المعاني ، وهذا غير صحيح ، والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يُقال : إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول ...

١- السجع هو ((تواطؤ الفاصلتين ، أي توافقهما من النثر على حرف واحد ، وهو معنى قول صاحب ((المفتاح)) : هو في النثر كالقافية في الشعر)) وله أنواع وأقسام ، انظر في ذلك كله ((شرح التلخيص)) : ٦٧٨ وما بعدها .

٢- ((الازدواج هو : تجانس اللفظين المجاورين ، نحو :من جَدّ وَجَدَ ، ومن لَجَّ وَلَجَ)) : ((جواهر البلاغة)) : ٤٠٤ .

والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعاً ، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لايكون سجعاً ، وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ، ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين - أعني المتماثل والمتقارب - من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني ، وبالضد من ذلك ، حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدالُّ على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض .

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ماهو من القسم المحمود لعلوّه في الفصاحة ، وقد وردت فواصله متماثلةً ومتقاربة ...

فأمّا قول الرمانيّ إن السجع عيب ، والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط ... وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصلَ ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رغبةٌ في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام ، والمرويِ عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ، فأمّا الحقيقة فما ذكرناه))[1] .

أما الوجه الثالث - وهو الإخبار عن الكوائن المستقبلة - فقد ارتضاه وساق له من الشواهد الشيءَ الكثير ، ساقها كلها بأسانيدَ منه إلى منتهاها كما هي طريقته في جلّ ما أورده في كتابه .

١- ((سر الفصاحة)) : ١٧١ - ١٧٤ بتصرف .

هذا وقد سقت بعض كلام ابن سنان على طوله لأهمية هذا الموضوع ، واختلاف العلماء فيه ، وقد أورد السيوطيّ رحمه الله تعالى في ((المعترك)) الكلام على السّجْع في القرآن لكنه لم يخرج بشيء فصّل فيه وإنما اكتفى بإيراد القولين بدون ترجيح ، انظر((معترك الأقران)) : ١ / ٣١ - ٣٢ .

وقد بينت رأيي في الإعجاز بأخبار الغيب سابقاً ، وذكرت أنه إعجاز جزئي لا كليّ بمعنى أنه ليس منتشراً في كل آيات القرآن[1] .

- **أما الوجه الرابع** - وهو الإعجاز بـ (الصَّرفة) - فقد سقت كلامه نصاً خوفاً من اللبس ، أو أن أتهم بأني أُقوّل الرجل ما لم يقله ، وذلك لأنه كان واضحاً بأنه يقول بـ (الصَّرفة)[2] وزاد ذلك توضيحاً بقوله شارحاً المراد منها :

((وأما الصرفة والتعجيز - مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله - فإنما يُعلم ذلك بعدم المعارضة مع توفّر الدواعي وشدّة الحاجة إليه ، وذلك ما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنهم لو كانوا قادرين عليه لبادروا إليه مع حرصهم على إبطال دعوته ونقض كلمته ...

وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء ، فجعل يتلوّى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء ، فلا يشك شاكٌّ أنه عاجز عن شربه ، أو ممنوع لسبب يعوقه عنه وأنه لم يتركه اختياراً مع توفر الدواعي له ، وشدّة الحاجة منه إليه))[3] .

وكلامه من قوله : ((وسبيل هذا ...)) إلى آخر ما أورده واضح في إرادته الصَّرفةَ ، إلا أن يقال إنه ذكر القولين معاً : الإعجاز البلاغي والإعجاز

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢- وذلك حين قال في الوجه الرابع الذي سُقتهُ آنفا :

((ومنهم من قال : إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله ، وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آيةً للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه)) : ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ . ثم انه لم يردّ هذا الكلامَ بل صدقه كما في النقل عنه في متن هذه الصفحة .

٣- ((الاعتقاد)) : ٢٦٦ .

بـ (الصَّرفة) ثم لم يرجح أحدهما ، وقد فصّلت في ذكر مذهب الإمام البيهقـيّ في هذه المسألة في موضع سابق [1] والله أعلم .

و (الصَّرفة) مذهب باطل توسعت في رده قبل هذا[2] .

– **أما الوجه الخامس وهو أنـه قـد وقـع الإعجـاز** بالأوجـه الأربعـة السـابقة كلهـا فسبيل الرد عليه هو مانوقش به كل وجه مـن الأوجـه الأربعـة السـابقة ؛ إذِ الوجـه الأول لم يرتضه هو نفســه ، والوجـه الثـاني لم أرتضِـهِ علـى إطلاقـه – كمـا بينـت ذلك[3] – والوجه الثالث مقبول بشرط اعتباره جزئياً كما بينت سابقاً[4] ، والوجـه الرابع – وهو (الصَّرفة) – مردود .

هذا ما تيسر من الكلام على كتاب ((الاعتقاد والهدايـة إلى سـبيل الرشـاد)) وبيان ما فيه من مباحث الإعجاز .

١– انظر ص ١٠٧ – ١٠٨ من هذه الرسالة .

٢– انظر ص ١١٣ وما بعدها .

٣– انظر ص ١٤٩ .

٤– انظر ص ١٥١ .

رابعاً : السيرة الشريفة

((الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى اللـه عليه وسلم))

للقاضي عياض ، رحمه اللـه تعالى

هذا الكتاب جليل ، عظيـم القـدر ، متنـوع المبـاحث ، قسـمه مصنفـه إلى أربعة أقسام ، في كل قسم منها أبواب وفصول .

وقد جعل القسم الأول لبيان تعظيم اللـه - تعالى - لقدر هذا النبي العظيـم ، صلى اللـه عليه وسلم .

وبيّن في القسم الثاني ما يجـب علينـا مـن حقـوق تجاهـه ، صلـى اللـه عليـه وسلم .

أما القسم الثالث فكان لما يستحيل في حقه - صلى اللـه عليـه وسـلم - ومـا يجوز عليه شرعاً ، وما يمتنع ويصحّ من الأمور البشرية أن يضاف إليه .

وختم ببيان حكم من سبه أو تنقصه ، صلى اللـه عليه وسلم[1] .

وقد أورد مباحث الإعجاز والمعجـزات الـتي جـرت علـى يديـه الشـريفتين - صلـى اللـه عليـه وسـلم - في القسـم الأول المذكـور آنفـاً في البـاب الرابـع منـه ، وهو :

١- انظر ((الشفا)) : ١ / ٨ - ١٢ ، فقد لخص القاضي فيها ذكر تلك الأبواب .

((فيما أظهره الله – تعالى – على يديه من المعجزات ، وشرفه به من الخصائص والكرامات[1])) [2] .

وقد أورد في هذا البابِ الشريف تسعةً وعشرين فصلاً صدرها بالحديث عن تأثيره – صلى الله عليه وسلم _ فيمن خالطه وعرفه ، أو رآه بداهةً .

ثم شرع في ذكر مباحث الإعجاز المتنوعة،وبدأ الحديث عن المعجزات بالمعجزة العظمى : القرآنِ الكريم ؛ فخصه بفصل وافٍ شافٍ[3] ذكر فيه أربعة عشر وجهاً من أوجه الإعجاز ارتضى منها أربعاً ، وبين أن الباقي بعضه ملحق ببعض أوجه الإعجاز ، وبعضه لايعد من الإعجاز .

أما الأوجه التي ارتضاها فهي :

الوجه الأول :

((حسن تأليفه ، والتئامُ كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغتُه الخارقةُ عادةَ العرب))[4] .

وقد جاء بأدلّة وآثارٍ كثيرة تدل على تأثر العرب بما سمعوه من القرآن العظيم ، وعجزِهم عن الإتيان بمثله بعد التحدي والتقريع .

١- يريد بالكرامات ما أكرمه الله تعالى به من المعاني الدالة على نبوته ، وليس المراد المصطلح الخاص بخوارق العادات التي يكرم الله بها الأولياء .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٤١ – ٥٣٣ .

٣- المصدر السابق : ١ / ٣٥٨ – ٣٩٦ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٥٨ – ٣٦٩ .

وهذا الوجه متفق عليه عند كل من كتب في الإعجاز وقرّره إلا عند قلة قليلة ممن شذ كالنظّام وأمثاله .

الوجه الثاني :

((صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها))[1] .

ثم إنه نعى على من جعل الإعجاز بالبلاغة والأسلوب وجهاً واحداً من وجوه الإعجاز جامعاً بين الاثنين ، وإنما يَذهب هو إلى أن ((الإعجاز بكل واحد من النوعين : الإيجاز والبلاغة بذاتها ، أو الأسلوب الغريب بذاته ، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق ... وذهب بعض المحققين المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب ، وأتى على ذلك بقول تمجُّه[2] الأسماع ، وتنفر منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه ... ومن تفنن في علوم البلاغة ... لم يخفَ عليه ما قلناه))[3] .

والقاضي عياضٌ مصيبٌ فيما فعله من فصل البلاغة عن الأسلوب ؛ إذِ البلاغة مختصة بالمعاني بينما الأسلوب خاص بالألفاظ والتراكيب ؛ إذِ الأسلوب هو : ((الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه))[4] .

١- المصدر السابق : ١/ ٣٦٩ - ٣٧٤ .

٢- جاء في ((لسان العرب)) : (م ج ج) : ((مجّ الشراب والشيءَ من فيه يَمُجُّه مجّاً ، ومجّ به : رماه ... ومجّ بريقه يَمُجُّه إذا لفظه)) .

٣- ((الشفا)) : ١/ ٣٧٥ - ٣٧٩ .

٤- ((مناهل العرفان)) ٢ /١٩٩ .

وأسلوب القرآن الكريم هو ((طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه))[1] .

والقرآن ذو أسلوب متفرد متفنن في إيراد المعاني[2] فلذلك فإن هناك نوعَ تلازم بين الأسلوب والبلاغة ولكنهما شيئان منفصلان .

والأسلوب - بهذا التعريف - هو نوع من الإعجاز منفصل عن الإعجاز البلاغيّ .

الوجه الثالث :

((ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات ، وما لم يكن و لم يقع فوُجد كما ورد ، وعلى الوجه الذي أخبر به))[3] .

قد ذكرت رأيي الذي أرتضيه في هذا الباب - باب الإعجاز بأخبار الغيب - في مكان غير هذا وخلاصته أنه إعجاز جزئي وليس كلياً ، فليُنظر ، والله أعلم[4] .

١- المصدر السابق .

٢- مثل الخبر والإنشاء ، والتأكيد ، والاستدلال ، وضرب المثل ، إلخ ...

وانظر مبحث أسلوب القرآن الكريم في ((مناهل العرفان)) : ٢ / ١٩٨ - ٢٢٦ ، ففيه تفصيل واسع في أساليب القرآن .

٣-((الشفا)) : ١ /٣٧٥ - ٣٧٩ .

٤- انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

الوجه الرابع :

((ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ؛ والأمم البائدة والشرائع الداثرة[1] مما كان لايعلم منه القصةَ الواحدة إلا الفذُّ[2] من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، فيورده النبي – صلى الله عليه وسلم – على وجهه ، ويأتي به على نصه))[3] .

وحكم هذا الوجه حكم سابقه .

تلك كانت أوجهاً أربعة ارتضاها ووصفها بقوله :

((هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها))[4] .

ثم إنه أورد وجوهاً في إعجاز القرآن وصفها بأنها بينة[5]، وبأن هذه الوجوه كلها – عدا الأربعة الأولى التي ارتضاها – ووجوهاً أُخَر أضرب عن ذكرها ((أكثرها داخل في باب بلاغته ، فلا يجب أن يُعّد فناً منفرداً في إعجازه إلا في باب تفصيل فنون البلاغة ، وكذلك كثير مما قدمنا ذكره عنهم[6] يُعدّ في خواصه وفضائله ، لاإعجازه .

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا فليعتمد عليها ، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لاتنقضي))[7] .

١-القديمة الدارسة ، انظر ((لسان العرب)) : د ث ر .

٢-الفَرْد ، ((لسان العرب)) : ف ذ ذ .

٣- ((الشفا)) : ١ / ٣٧٩ - ٣٨٢ .

٤- المصدر السابق : ١/ ٣٨٢ .

٥- المصدر السابق .

٦- سأذكر هذه الأوجه كلها إن شاء الله ، والضمير في (عنهم) يعود على المتكلمين على وجوه الإعجاز .

٧- المصدر السابق : ١ / ٣٩٦ .

وقد أتى القاضي عياضٌ - رحمه الله تعالى - بعشرة أوجه مما قيل إنه من أوجه الإعجاز عدا الأربعة الأولى ، وهذه الأوجه العشرة هي :

١ - التحدي الواقع للكافرين في قضايا خاصة ((وإعلامهم أنهم لايفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود :

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ... ﴾[1] .

قال أبو إسحاق الزجّاج[2] :

في هذه الآيةِ أعظمُ حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة لأنه قال : ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ﴾ وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً ، فلم يتمنَّه واحد منهم))[3] .

وهذا الوجه داخل في الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة التي سبق الحديث عنها[4] .

٢ - ((الروعة التي تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعَهم عند سماعه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته ...))[5] .

وقد ذكر فيه أخبار من تأثر بالقرآن ممن ظلّ على كفره أو أذعن فأسلم .

١- سورة البقرة : الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ .

٢- هو الشيخ الإمام ، نحويّ زمانه ، أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن السَّريّ الزجاج البغداديّ ، مصنف كتاب معاني القرآن ، وله تآليف جمة ، لِزم المُبَرِّد فكان يعطيه من عمل الزُّجاج كل يوم درهماً فنصحه وعلّمه . توفي سنة ٣١١ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٣٦٠ .

٣- ((الشفا)) : ١ / ٣٨٢ - ٣٨٤ . و قد تصرف القاضي قليلاً في كلام الزجاج - رحمهما الله تعالى - وانظر نصّ كلامه في ((معاني القرآن و إعرابه)) : ١ / ١٧٦ - ١٧٧ .

٤- انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٥- ((الشفا)) : ١ / ٣٨٤ - ٣٨٨ .

وهذا الوجه هو أثر الإعجاز نفسه كما سبق بيان ذلك[1] .

٣ - تكفلُ اللـه بحفظه إلى آخر الزمان[2] .

وهو - كما قال- بيانٌ بكفالة اللـه بحفظه حيث لم يَكِل ذلك إلى البشر كما حـدث في الكتب السابقة التي حُرفت ، وليس من وجوه الإعجاز ، إذ لم يَصِلنا أنـه تُحـدي أحدٌ أو أُعجز بالطلب منه أن يغير شيئاً من هذا الكتاب العزيز ، واللـه أعلم ، إنما غاية مايقال في هذا الوجهِ هو أن هذا التكفلَ بالحفظ خصوصية خص اللـــه - تعـالى - بها هذا الكتابَ المبارك .

٤ - ((قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه ، بل الإكباب علـى تلاوتـه يزيـده حـلاوة ، وترديده يوجب له محبة ...))[3] .

ويمكن - عندي - أن يكون هــذا الوجــهُ أثــراً من آثـــار الوجــه الثانـــي : ((الروعـة التي تلحـق قلوب سامعيـه ...)) حيث إن تلـك الروعـة والهيبـة تحمـل القارىء على ترداد مايقرؤه فليس هو الإعجازَ إذاً ، واللـه أعلم .

٥ - ((جمعه لعلوم ومعارفَ لم تُعهـد العـرب عامّـة ولا محمـد - صلـى اللـه عليـه وسـلم - قبـل نبوتـه خاصـة بمعرفتهـا ولا القيـام بهـا ، ولا يحيـط بهـــا أحــد مــن الأمم ...))[4] .

١- انظر ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٢- ((الشفا)) : ١ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٣- المصدر السابق : ٣٨٩/١ - ٣٩٠ .

٤- المصدر السابق : ١/ ٣٩٠ .

وهذه العلوم والفنون التي تحدث عنها القاضي - رحمه الله تعالى - تُعرف اليوم بـ ((الإعجاز العلميّ)) في القرآن العظيم .

وهذا الإعجاز حكمه حكم الإعجاز بأخبار الغيب الذي سبق الحديث عنه[1] فهو إعجاز جزئيّ موجود في كثير من الآيات ولكنه ليس في كلها ، وبهذا الاعتبار يمكن عدُّه من وجوه الإعجاز .

٦ - ((جمعه فيه بين الدليل ومدلوله ؛ وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته ، وأثناءَ هذه البلاغة أمرُه ونهيه ، ووعده ووعيده فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد وسورة منفردة))[2] .

ومعنى هذا أن القرآن منفرد عن باقي الكلام ؛ لأن سائر الكلام يُساق معه عدد من الأدلة النقلية أو العقلية أو كليهما معاً لإقناع السامع بمراد المتكلم وصحة كلامه ، بينما كان كلام الله معجزاً لأن الكلماتِ نفسَها تحوي أدلةَ صدقها بما فيها من بلاغة وإيجاز ومعان عالية تقتضي كلها كمال الإعجاز الذي هو أعظم الأدلة على أن هذا كلامُ الرحمن سبحانه .

ولأمثّل على هذا فإني أذكر أن موسى - عليه الصلاة والسلام - جاء قومه بالتوراة ، وجاء بالدليل على صحتها وهو العصا وغيرها من الآيات البينات ؛ أي أن التوراة - فقط - لم تكن كافية للتدليل على صحة رسالة موسى فجيء معها بما يعضدها ويدل على صحتها ، أما القرآن فقد جمع الله له بين كونه حجةً بينة واضحة على صحته وبين كونه كتاباً هادياً للبشر ومرشداً لهم .

وهذا الوجه - وهو الجمع بين الدليل والمدلول عليه ، أو الحجة والمحتجِّ له - هو وجه متفرد بالإعجاز على هذا الاعتبار ، بل هو من أعظم وجوه الإعجاز .

١- انظر ص ١٣٤ ومابعدها من هذه الرسالة .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٩٤ .

وهذا الرأي في إعجاز القرآن إنما هو للإمام الخطابي ، انظر ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٨ .

والفارق بينه وبين الوجه الأول – وهو ((حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب)) – الفارق بينهما أن الوجه الأول يرسخ في الأذهان كون القرآن معجزاً في نفسه ، أي يتضمن الدليل والحجةَ على صحته ، بينما هذا الوجه الأخير يبين أن القرآن يتضمن الهداية والإرشاد أيضاً ، فليس هو كتاباً معجزاً في ألفاظه وبلاغته فقط بل في معانيه وهدايته أيضاً ، وهذا هو مراد القاضي بـ (المدلول) ، وذلك في قوله ((جمعه فيه بين الدليل ومدلوله ... وأثناءَ هذه البلاغةِ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ...)) .

٧ – ((ومنها أَنْ جعله في حَيِّز المنظوم الذي لم يُعهَـد ، ولم يكن في حَيِّز المنثور ؛ لأن المنظوم أسهل على النفوس وأوعى للقلوب وأَسْمحُ في الآذان ، وأحلى على الأفهام ، فالناس إليه أميل ، والأهواءُ إليه أسرع))[1] .

وهذا الوجه المذكور فيه تنبيهان :

الأول : أن هذا الوجه داخل في الوجه الثاني الذي ارتضاه القاضي عياض – رحمه الله تعالى – وهو ((صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ...))[2] لكنّ هذا الوجه فيه تفصيل وتعليل لذا أتى به منفرداً ، وحقه الاندراج في الوجه الثاني .

التنبيه الآخَر :

أن القاضي عياضاً – رحمه الله تعالى – جعل القرآن في حَيِّز المنظوم ونفى أن يكون من المنثور ، وليس هناك دليل على هذا ؛ بل جاء كتاب الله – تبارك

١- المصدر السابق : ١ / ٣٩٤ .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٩٤ – ٣٩٥ .

وتعالى - بأسلوب خارج عن أن يكون نظماً خالصاً أو نثراً خالصاً بل هو قسم ثالث قائم بنفسه ، متفرد برأسه ، فلا يصحّ - في تقديري - وصفه بأنه منظوم ، ولو قُيد ذلك النظمُ بأنه نظم لم تعهده العرب ؛ وذلك لافتقار هذا الكلام إلى الدليل ، والله تعالى أعلم .

((قال الجاحظ : سمّى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كتابهم على الجُمَل والتفصيل ، سمّى جملته قرآناً كما سمّوْا ديواناً ، وبعضَه سورةً كقصيدة ، وبعضَها آية كالبيت ، وآخرَها فاصلةً كقافية))[1] .

وقد وجّه الشيخ الخفاجيُّ - رحمه الله تعالى - كلام القاضي عياضٍ توجيهاً حسناً مستفيداً من قول القاضي ((المنظوم الذي لم يُعهد)) ، فقال :

((المنظوم الذي لم يُعهد)) : أي المؤلَّفُ الواقع على طريقة لا تشابه شيئاً من كلامهم المنظومِ لا شعراً ولا خطبة ولا رسالة مع كونه واضحَ الدلالة بلسانهم ، وهذا إنما يعرفه من له معرفة بكلام العرب نظمِه ونثره وسجعه ...)) .

ثم قال موجهاً كلامَ القاضي : ((و لم يكن في حَيّز المنثور)) :

((أي لم يُشْبه أقسام منثورهم من السجع الملتزَم فيه حروفٌ كحروف رَوي الشعر[2] ، ولا خطابةٍ ، لمقاطع فصول الخطب ومواضع استراحاتها ، لا لاشتماله على الفواصل كما تُوُهّم)) .

١- ((الإتقان)): ١ / ٥٠ .

٢- الرويّ : حرف القافية ، وهو الذي تُبنى عليه القصيدة ، فيقال قصيدة ميمية وسينية مثلاً ، وكل حروف العربية تصلح أن تكون رَوِيًّا إلا الألف والياء والواو الزوائد في أواخر الكلم في بعض الأحوال ، وانظر تفصيل هذا في ((لسان العرب)) : (روي) .

ثم قال موجهاً كلام القاضي : ((لأن المنظوم أسهل على النفوس)) :

((أي الكلام المتنسقَ نظمُه وتأليفه على نهج واحد والمفضَّل عليه المنثورُ[١] بالمعنى السابق))[٢] .

٨ - ((ومنها تيسيره - تعالى - حفظَه لمتعلميه ، وتقريبُه على متحفظيه ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾[٣] ، وسائر الأمم لا يحفظ كتبَها الواحدُ منهم ، فكيف الجمّاءُ[٤] على مرور السنين عليهم ، والقرآن ميسر حفظُه للغلمان في أقرب مدة))[٥] .

وهذا الحفظ خصوصية خُصَّ بها هذا الكتاب العظيم ، كاختصاصه بعدم التغيير والتحريف ، فليس هو من الإعجاز ، والله أعلم .

٩ - ((ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضاً وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها ... وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي ... ووعد ووعيد ... وترغيب وترهيب ... دون خلل يتخلل فصوله ، والكلام الفصيح إذا اعْتَوَره[٦] مثلُ هذا ضعفت قوته ، ولانت جزالته ، وقَلّ رونقه))[٧] .

١- كذا في المطبوع ، والسياق يقتضي (على المنثور) ، والله أعلم .

٢- ((نسيم الرياض)) ٢ / ٥٤٠ .

٣- سورة القمر : آية ١٧.

٤- هو يريد العدد الكثير الجمّ ولكني لم أجد في ((لسان العرب)) إلا: الجَمّاء : هي الشاة التي لا قرن لها ، والجَمّاء موضع بالمدينة ، أما بمعنى الكثير فهو الجَمُّ ، والجَمَمُ ، والجِمام ، والجُمُوم ولعل الجمّاء مؤنث الجمّ ، والله أعلم .

٥- ((الشفا)) : ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

٦- اعتَوَرْت الشيء : تداولتُه ، انظر ((لسان العرب)) : ع و ر .
والمقصود - هنا - أصابه وجرى عليه .

٧- ((الشفا)) : ١ / ٣٩٥ .

وهذا الوجه داخل في الوجه الأول الذي ارتضاه القاضي عياض – رحمه الله تعال – بقوله فيه :

((حسن تأليفه والتئام كَلِمه))[1] .

وبقوله فيه أيضاً :

((ثم هو[2] في سرد القصص الطوال ، وأخبارِ القرون السوالف – التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ، ويذهب ماء البيان – آيةٌ لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض ، والتئام سرده ، وتناصف وجوهه[3]))[4] .

فذاك الكلام الوارد في الوجه الأول يكاد يتطابق مع هذا الكلام المسرود في هذا الوجه ، والله أعلم .

١٠ – ((ومنه الجملة الكثيرة[5] التي انطوت على الكلمات القليلة))[6] .

وهذا الوجه أيضاً قد ذكره في الوجه الأول – الذي ارتضاه – عند كلامه على الآيات القرآنية من حيث ((إيجاز ألفاظها ، وكثرة معانيها ، وديباجة عبارتها ، وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها ، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة ، وفصولا جمّة ، وعلوماً زواخر ، مُلِئت الدواوينُ من بعض ما استُفيد منها ، وكُثرت المقالات في المستنبطات عنها)) [7] .

١- المصدر السابق : ١ / ٣٥٨ .

٢- أي القرآن .

٣- عرف المحقق ذلك بقوله : ((تناصف : تفاعل ، من النصَفة والإنصاف ، يقال : أعضاؤه متناصفة حسناً : أي لاينقص حسن بعضها عن بعض)) ، انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٦٨ ، هامش (١٢) .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٦٨ .

٥- أي الكثيرة المعاني ؛ كما بين المحقق ، انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٩٦ ، هامش (٣) .

٦-((الشفا)) : ٣٩٦/١ .

٧- المصدر السابق : ١/ ٣٦٨ .

فالذي أراه أن هذا الوجه الأخير لا ينفصل أو يختلف عن كلام القاضي الذي أورده في الوجه الأول الذي ارتضاه من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

ثم ختم القاضي عياض – رحمه الله تعالى – الحديث عن الإعجاز بقوله :

((وهذا كله ، وكثيرٌ مما ذكرنا أنه في إعجاز القرآن ، إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها ؛ إذ أكثرها في باب بلاغته ، فلا يجب أن يُعدّ فناً منفرداً في إعجازه إلا في باب تفصيل فنون البلاغة ، وكذلك كثير مما قدمنا عنهم يُعدّ[1] في خواصه وفضائله لا إعجازه .

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذَكَرْنا[2] ، فليُعتمد عليها ، وما بعدها[3] من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي))[4] .

وخلاصة ما أورده من أوجه الإعجاز الأربعة عشر هي :

١ – الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم .

٢ – الإعجاز بالأسلوب .

٣ – الإعجاز بأخبار الغيب .

٤ – الروعة والتأثير .

٥ – الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٦ – جَمْع القرآن بين الدليل والمدلول .

١– هذه الكلمة خبر لقوله في أول كلامه : ((وهذا كله)) .

٢– سبق تبيان هذه الوجوه الأربعة وما أراه فيها ، انظر ص ١٥٨ وما بعدها .

٣– أي الأوجه العشرة التي بعد الأربعة التي ارتضاها .

٤– ((الشفا)) : ١ / ٣٩٦

وقوله إن الأوجه العشرة كلها من خواص القرآن وعجائبه لا من إعجازه ليس على إطلاقه فقد بينت أن أكثرها مقبول بمفرده أو أنه يدخل في الوجهين الأوّلين من الأوجه التي ارتضاها القاضي ، رحمه الله تعالى ، والله أعلم .

وإن كان لي مأخذ عِلميّ على ماأورده القاضي - رحمه الله تعالى - من مباحث الإعجاز فهو أنه ذكر (الصَّرفة) على أنها مذهبٌ لبعض أهل السنَّة ثم لم يفنّد هذا الرأي و لم يبيّن عُواره[1] حيث قال :

((وقد اختلف أئمة أهل السنّة في وجه عجزهم عنه ، فأكثرهم يقول إنه ما[2] جُمع في قوة جزالته ، ونصاعة ألفاظه ، وحسن نظمه وإيجازه ، وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر ، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى ، وقلب العصا ، وتسبيح الحصى .

وذهب الشيخ أبو الحسن[3] إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، و يُقْدرهم الله عليه ، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا وعجّزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابه ، وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت))[4] .

ومقصوده بالرأي الذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعري وبعض أصحابه من أهل السنة هو (الصَّرفة) ، كما بينت ذلك بالتفصيل فيما سبق[5] .

وقد ذكر القاضي - رحمه الله تعالى - في موضع قبل هذا (الصَّرفةَ) حيث قال :

١- سبق الكلام على مذهب القائلين بالصرفة ، انظر ص ١١٣ ومابعدها .

٢- في ((الشفا)) المطبوع في ((المكتبة السلفية)) بشرح الخفاجي : ((مما)) ، وهو أقرب إلى المعنى المراد ، وقد قدّر الخفاجيّ الكلام بالآتي : ((أي لايمكنهم القدرة على مثله لِما جمعه مما لاتطيقه قدرتهم)) : انظر ((نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض)) : ٥٠٣/٢ .

٣- يقصد أبا الحسن الأشعريّ ، وقد سبقت ترجمته .

٤- ((الشفا)) : ١ / ٣٧٣ .

٥- انظر ص ١٠٣ وما بعدها .

((اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها ، وهي على ضربين :

ضربٌ هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه ، فتعجيزهم عنه فِعْلٌ لله دَلَّ على صدق نبيه كصرفهم عن تمني الموت ، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم[1] ونحوه .

وضربٌ هو خارج عن قدرتهم فلم يقدروا على الإتيان بمثله كإحياء الموتى ...))[2] .

وكلام القاضي - رحمه الله تعالى - يُفهم منه تجويز مذهب القائلين بـ (الصَّرفة) وإن كان يميل إلى المذهب الآخر كما يظهر من قوله :

((على رأي بعضهم)) ، ((وقد اختلف أئمة أهل السنة فأكثرهم يقول ... وذهب الشيخ أبو الحسن إلى ...)) .

وقد قال القاضي عَقِب ذكره لمذهب الفريقين :

((وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت))[3] ، والله أعلم .

أما نسبته القولَ بـ (الصَّرفة) للشيخ أبي الحسن الأشعريّ فإني لم أجد أحداً نسبها إليه في كتب العقائد أو غيرها من المراجع المشهورة .

١- وهي (الصَّرفة) كما لا يخفى .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .

٣- سبق شرح هذا الكلام ، وأنه يُشبه التنزّل ، انظر ص ١١٠ وما بعدها .

وقد قال الخفاجي :

((نُقل عن الأشعري إلاأنه لم يشتهر عنه))[1] .

ثم ذكر أن من الناس من قال إنه يحتمل أن يكون رجلاً آخر غيرَ أبي الحسن ، وقيل في توجيه نسبة هذا الرأي إلى أبي الحسن الأشعريّ غيرُ هذا[2] .

وبهذا يتم الكلام على الكتب المختارة – في العلوم الأربعة : التفسير ، وعلوم القرآن ، والعقيدة ، والسيرة – التي تحدثت عن الإعجاز ضمناً فكان جزءاً من مباحثها الكثيرة .

ولما كان الكلام على الإعجاز فيها ليس مستقلاً فإن طَرْقه كان على عجالة وفي إيجاز قد لا يُتمكن معه من معرفة الجوانب التفصيلية في الإعجاز والوجهِ المرضيّ منها ، ولكن يُطلب هذا من الكتب المستقلة بالإعجاز ، وهذا هو موضوع المبحث التالي ، إن شاء الله تعالى .

ويمكن اختصار أوجه الإعجاز التي جاءت في تلك الكتب المختارة في الآتي :

١ – البلاغة والفصاحة والنظم .

٢ – الروعة والتأثير في القلوب .

٣ – أمرٌ لايستطاع التعبير عنه .

٤ – أخبار الغيب .

٥ – الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٦ – جَمْع القرآن بين الدليل والمدلول .

٧ – التحدي وقع بالكلام القديم وفيه وقع الإعجاز .

٨ – (الصَّرفة) .

٩ – الإعجاز بأوجه مجتمعة منها المقبول والغير المقبول كـ (الصَّرفة) .

١– انظر ((نسيم الرياض)) ٢ / ٥٠٤ .

٢– المصدر السابق ، وانظر ص ١٠٣ وما بعدها من هذه الرسالة فقد سبق الكلام على هذه القضية .

المبحث الثاني :

التدوين في الكتب المستقلة بالإعجاز

تمهيـــــد

الكتب التي صُنّفت في بيان إعجاز القرآن العظيم واستقلت بهذا الموضوع هي كتب متفاوتة في أهميتها وكيفية تناولها للإعجاز ؛ إذ أن بعضها جاء بجديد محـدّد في هذا الموضوع ، وكثير منها كانت مباحثه تكـراراً لمـا سبق ذكـره في كتـب أخـرى متقدمة فلم يأت بجديد .

وقد سبق أن أوردت جميع الكتب التي تناهى إلى علمي أنها صُنفت في إعجاز القرآن العظيم مستقلة به[1] ، وقد بينت أن أول كتاب وصل إلينا وفيه بيان لجوانبَ من إعجاز القرآن هو ((حجج النبوة)) للجاحظ - رحمه اللـه تعالى - وقد ذكرت أنه مبتور غير كامل[2] .

ثم أخذَت كتب الإعجاز القرآني تتوالى وتنتشر بعد انتهاء القرن الثالث الهجـريّ إلى قرننا هذا .

وسوف أتكلم في هذا المبحثِ - إن شاء اللـه تعالى - على أربعـة كتـب مـن القرون : الرابع والخامس والسابع والثامن على التوالي .

١- انظر ص ٧٩ وما بعدها .

٢- انظر ص ٧٣ .

وإنما لم آت بتصنيف في القرن السادس لأنه لم يصلنا من مؤلفات ذلك القرن شيءٌ .

أما القرن التاسع فلم يصلنا منه إلا مصنفُ ابن الجزريّ[١] ، وهو مختصر ، مخصص – في معظمه – لبحث البلاغة في آية واحدة فقط ، مع بعض مباحث في الإعجاز ختم بها ابن الجزريّ كتابه ، فلما كان الكتاب كذلك فإني لم أختره .

وأما القرن العاشر فلا أعرف أنه وصلنا من مصنفاته كتابٌ غير كتاب الإمام السيوطي ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) موضوعِ الرسالة .

وأما القرون من الحادي عشر إلى الثالث عشر فلم يصلنا أنه صُنف فيها كتاب مستقل بالإعجاز[٢] ، والله أعلم .

أما القرن الرابع عشر فسيأتي الحديث عن أبرز المصنفات في الإعجاز فيه في الباب الرابع ، إن شاء الله تعالى[٣] .

وقد اخترت أربعة كتب استقلت بالكلام على الإعجاز ، وكان سبب اختياري لها دون غيرها أني اعتقد أن كلاًّ منها قد أتى بجديد متميز عن غيره ، ماعدا كتاب ((نهاية الإيجاز)) للرازي ؛ و إنما اخترته لأنه أفضل ما وصل إلينا من مصنفات ذلك القرن[٤] .

أما الكتب المختارة فهي :

١ – ((النكت في إعجاز القرآن)) للشيخ الرمانيّ (ت ٣٨٤) رحمه الله تعالى .

١– وهو كتاب ((كفاية الألمعي في شرح قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي ﴾ في إعجاز القرآن)) .

٢– انظر ص ٨٩ .

٣– انظر ص ٦٦٧ وما بعدها .

٤– انظر ص ٨٦ ، ٨٧ .

٢ - ((إعجاز القرآن)) للإمام الباقِلانيّ (ت ٤٠٣) رحمه اللـه تعالى .

٣ - ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) لفخـر الديـن الـرازي (ت ٦٠٦) رحمـه اللـه تعالى .

٤ - ((الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجـاز)) للسـيد يحيـى بـن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥) رحمه اللـه تعالى .

وسوف أتكلم عليها - على الترتيب السابق - كلاماً موجزاً يتبين بـه الملامـح العامّة للكتاب ، ذاكراً وجوهَ الإعجاز التي ارتضاها مصنفو تلك الكتب ، نـاقداً مـا يحتاج إلى النقد منها ، إن شاء اللـه تعالى .

١ - ((النكت في إعجاز القرآن))[١]

للشيخ أبي الحسن علي بن عيسى الرمانيّ المعتزليّ (ت ٣٨٤)

المؤلّف رسالة موجزة[٢] في الإعجاز ، هي أولى المصنفات التي وصلتنا كاملة في هذا الباب ، وهي ((أول دراسة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسعَ وأشمل وأعمق))[٣].

وقد استفاد من مباحث هذه الرسالة عددٌمن المصنفين بعد الرمانيّ كالباقِلاَنيّ الذي نقل قسماً كبيراً منها في كتابه : ((إعجاز القرآن))[٤] .

وقد قسم المصنّف رسالته هذه إلى مقدمة وأحدَ عشر باباً :

أما المقدمة فقد اختصرها غاية الاختصار وسرد فيها سبعة أوجه للإعجاز منها البلاغة التي خصها بعشرة أبواب من الرسالة ، وطَرَق أوجه الإعجاز الستة الباقية طرقاً خفيفاً في الباب الحادي عشر .

وكان للمباحث البلاغية في رسالته ((أكبر الأثر في تاريخ البحوث البلاغية على مرّ الأزمان ، كما كانت مصدراً يستقي منه كل العلماء الذين أتوا بعده ، وعُنُوا بالبلاغية العربية عامّة وبلاغات القرآن خاصة))[٥] .

١- الكتاب مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن هي ((بيان إعجاز القرآن)) للإمام الخطابيّ، و ((الرسالة الشافية)) للإمام الجُرجانيّ ، بالإضافة إلى كتاب ((النكت)) الذي يحتل الصفحات : ٧٥ - ١١٣ من المجموع .

٢- كان السبب في وَجازتها أن سائلاً مجهولاً طلب منه ذكر أوجه الإعجاز دون تطويل بذكر الأدلة فاستجاب له ، انظر ((النكت)) : ٧٥ .

٣- ((بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ)) : ١١٢ .

٤- انظر ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ١٦٤ - ١٦٦ .

٥- ((المباحث البلاغية)) : ١١٣ - ١١٤ .

وجوه الإعجاز عند الشيخ الرمّانيّ :

ذكر الرمانيّ في رسالته الموجزة سبعة أوجه للإعجاز ، هي :

١ - ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة[١] .

٢ - التحدي للكافّة[٢] .

٣ - الصَّرفة[٣] .

٤ - البلاغة[٤] .

٥ - الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة[٥] .

٦ - نقض العادة[٦] .

٧ - قياسه بكل معجزة[٧] .

أمّا الوجه الأول - وهو ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة - فالمقصود منه عجز العرب عن المعارضة[٨]، ولا يصح - في تقديري - أن يُجعل العجز عن المعارضة وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ لِما فيه من الدَّوْر[٩] ؛ ولأن العجز دليل الإعجاز ، وليس هو الإعجاز .

١- ص ١٠٩ .

٢- ص ١١٠ .

٣- ص ١١٠ .

٤- ص ٧٥ - ١٠٩ .

٥- ص ١١٠ - ١١١ .

٦- ص ١١١ .

٧- ص ١١١ - ١١٣ .

٨- وإنما قلت ذلك لئلا يتداخل هذا الوجه مع الوجه الثالث وهو (الصَّرفة) .

٩- الدَّوْر هو ((توقف الشيء على مايتوقف عليه ... كما يتوقف (أ) على (ب) ، و (ب) على (ج) ، و (ج) على (أ))) : ((التعريفات)) : ١٤٠ .

والوجه الثاني – وهو التحدي للكافّة – ليس وجهاً من أوجه الإعجاز بقدر ماهو داعية إلى الإعجاز ؛ إذ أنّه – أي التحدي – هو السبيل الذي أغرى الله به البشر كافّة لأن يعارضوا القرآن فانقطعوا و لم يستطيعوا .

الوجه الثالث :

(الصَّرفة) ، وقد سبق بيانها ، وردها وإبطالُها[1] .

الوجه الرابع :

البلاغة ، فقد قسمها إلى عشرة أقسام هي :

١ – الإيجاز[2] .

٢ – التشبيه[3] .

٣ – الاستعارة[4] .

٤ – التلاؤم ، ويعني بها عدم تنافر الحروف[5] .

١- انظر ص ١١٣ وما بعدها .

٢- ((الإيجاز هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلّ منها ، وافيةٍ بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح ، كقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ : [سورة الأعراف : آية ١٩٩] ، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها)) وللإيجاز أقسام ، وانظر في ذلك: ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٢ وما بعدها ، وانظر ((النكت)) : ٧٦ – ٨٠ .

وإنما عدلت عن تعريفات المصنف إلى تعريفات المتأخرين لأنها أقعد وأدلّ على المراد ، وأما إتياني بالتعاريف من كتاب ((جواهر البلاغة)) دون ((المفتاح)) وشروحه لأن مافي ((الجواهر)) أوضح مما في غيره وأسهل تناولاً .

٣- التشبيه هو ((عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم)) : ((جواهر البلاغة)) : ٢٤٧ . وانظر ((النكت)) : ٨٠ – ٨٥ .

٤- الاستعارة هي ((استعمال اللفظ في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصليّ ، والاستعارة ليست إلاتشبيهاً مختصراً ولكنها أبلغ منه ، كقولك رأيت أسداً في المدرسة ، فأصل هذه الاستعارة : رأيت رجلاً شجاعاً كالأسد في المدرسة فحذفت المشبّه وحذفت الأداة وحذفت وجه التشبيه وألحقته بقرينة المدرسة لتدل على أنك تريد بالأسد شجاعاً)) : ((جواهر البلاغة)) : ٣٠٣ – ٣٠٤ . وانظر ((النكت)) : ٨٥ – ٩٤ .

٥- التلاؤم = عدم تنافر الحروف . والتنافر وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج)) وينقسم إلى قسمين ، وانظر كل ذلك في ((جواهر البلاغة)) : ٨ ، وانظر ((النكت)) : ٩٤ – ٩٧ .

٥ – الفواصل[١] .

٦ – التجانس ، و يعني بها المشاكلة[٢] والازدواج[٣] .

٧ – التصريف :

ويعني به تصريف المعنى في المعاني المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصُرف في معنى مالك ، وملك ، وذي الملكوت ، والمليك ، وفي معنى التمليك ... ، وضرب مثلا على هذا قصة موسى – عليه الصلاة والسلام – حيث ذكرت في عدة سور لوجوه من الحكمة : منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ، ومنها تمكين العبرة والموعظة ، ...[٤]

٨ – التضمين :

((وتضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له[٥] باسم أو صفة ... وكلُّ آية فلم تخل من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك

١– الفاصلة ((كلمةُ آخر الآية)) : ((البرهان)) : ١ / ٥٣ . ((وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر – جَلَّ كتاب الله عز وجل – واحدتها فاصلة)) : ((لسان العرب)) : (ف ص ل) .
وانظر ((النكت)) : ٩٧ – ٩٩ .

٢–المشاكلة هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ... نحو قوله تعالى : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي أهملهم ، ذكر الإهمال هنا بلفظ النسيان لوقوعه في صحبته)) : ((جواهر البلاغة)) : ٣٧٥ . و قال ابن كثير : ((أي عاملهم معاملة مَن نسيهم)) : ((تفسير القرآن العظيم)) :٤ / ١١٣ .

٣– والازدواج هو ((تجانس اللفظين المجاورين نحو : من جدّ وجد)) : ((جواهر البلاغة)) : ٤٠٤ .
ومثل له الرمانيّ بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ سورة التوبة آية : ١٢٧ ، وانظر مقصود الرمانيّ من هذا القسم في ((النكت)) : ٩٩ _ ١٠٠ .

٤– انظر ((النكت)) : ١٠١ – ١٠٢ .

٥– أي من غير ذكر لذلك المعنى المضمّن ، وسيوضح كلامه بمثال .

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به ، والتعظيم لله بذكره ، وأنه أدب من آداب الدين ، وشعار للمسلمين ...))[1] .

٩ – المبالغة[2] .

١٠ – البيان :

ويعني به علم البيان المعروف الذي هو ((أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض ، في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى)) ، وله أقسام معروفة[3] .

لكن الكلام على البيان في كتابه جاء على هيئة مباحث أولية ، وأمثلة لم تكتمل أقسامها بعدُ[4]، وذلك لتقدم زمان الرماني ، وعدمِ اكتمال تقاسيم ذلك العلم .

هذا وقد جاءت مباحثه البلاغية في هذه الرسالة قويةً ، وفي بعضها جِدّةٌ وابتكار ، ولكنّ التقسيم الذي استقرّ بعد ذلك لعلم البلاغة[5] لم يكن واضحاً في رسالته ؛ حيث إنه قد حصر البلاغة في الوجوه العشرة التي ذكرها ولم يزد عليها ، إما لأ نّه لم يطلع على ما سواها ، أوأنه ذكر مايرى أنه الأهمّ ، والله أعلم [6] .

الوجه الخامس : الإخبار عن الغيوب :

١– المصدر السابق : ١٠٢ – ١٠٤ ، وهو غير التضمين المشهور في علم البلاغة ، وهو أن يضمن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير ، وانظر ((جواهر البلاغة)) : ٤١٦ .

٢– ((هي أن يدعي المتكلم لوصفٍ بلوغَه في الشدة أو الضعف حدّاً مستبعداً أو مستحيلاً)) ولها أنواع ، وانظر ((جواهر البلاغة)) : ٣٨٠ .

٣– انظر ((جواهر البلاغة)) : ٢٤٤ وما بعدها من أبحاث التشبيه ، والمجاز ، والكناية .

٤– ((النكت)) : ١٠٦ – ١٠٩ .

٥– وهي البيان والمعاني والبديع .

٦– انظر – في هذا الموضوع بالتفصيل – كتاب الدكتور محمد محمد أبو موسى :((الإعجاز البلاغيّ)) : ٨٥ – ١٥٣ ، وكتاب الدكتور أحمد العمريّ : ((المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني)) : ١١٥ – ١٤٩ . وانظر فصل ((تعليقات من جاءوا بعد الرمانيّ على آرائه البلاغية واقتباسهم من تلك الآراء)) في كتاب ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ص ١٦٤ وما بعدها .

وقد سبق أن ذكرت أن الإعجاز فيها إعجاز جزئيّ لا كليّ ، بمعنى أنه ليس في كل آيات القرآن العظيم [1] .

الوجه السادس : نقض العادة :

ويعني الرمانيّ به أن القرآن قد أتى نظمه على طريقة مفردة خارجةٍ عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق كل منزلة [2] .

وهذا الوجه هو ما يعرف بـ (الإعجاز النظمي) ، وقد أفرده الشيخ عن أوجه البلاغة التي تكلم عليها في كتابه ، وعادة المتكلمين في بلاغة القرآن بعده – كالباقلانيّ [3] – أن يجعلوا هذا الوجهَ مع البلاغة فيصير وجهاً واحداً ، ولكن إفراده – كما صنع الرمانيُّ – أمرٌ حسن لايعاب عليه بل هو يبرز هذا الوجهَ ويظهره ، وهذا عينُ صنيع عبد القاهر الجرجانيّ في كتاب ((دلائل الإعجاز)) ؛ إذ تفنن في الكلام على نظم القرآن وقعّد له قواعد .

الوجه السابع : قياسه بكل معجزة ، ويوضح مراده بقوله :

((وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ؛ إذ كان سبيل فلق البحر و قلبِ العصا حيّةً وما جرى هذا المَجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز ، إذا[4] خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة))[5] .

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- ((النكت في إعجاز القرآن)) : ١١٠ .

٣- انظر ((إعجاز القرآن)) : ص ٣٥ وما بعدها .

٤- لعلها (إذ) فالمعنى يستقيم بها نوع استقامة .

٥- ((النكت في إعجاز القرآن)) : ١١١ .

وقد فُسّر كلامه هذا بأنه ((مادام الناس قد عجزوا عن أن يأتوا بما أتى موسى من قلب العصا حيّةً وفلقِ البحر فإنهم قد عجزوا أيضاً عن أن يأتوا بمثل هـذا القـرآنِ الذي أنزل على محمد – صلى اللـه عليه وسلم – بعد أن تُحُدوا إليه ، فكان السـبيل واحداً بالنسبة لما جاء به موسى وما جاء به محمد وهو العجز ؛ لأن كليهما قد أتـى بما هو خارج عن العادة))[1] .

وهذا الوجه – على هـذا التفسـير – ليـس وجهـاً مستقلاً بالإعجـاز بـل هـو المعجزة ذاتها التي يبحث لها عن وجه إعجازها ، فكلامه منصبٌّ على قياس المعجـزة القرآنية بكل معجزة سابقة في أن القرآن نقض عـادة البشـر وعجـزوا عـن معارضتـه فهو المعجزة ذاتها ، فلا يصح أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، واللـه أعلم .

تلك كانت أوجهَ الإعجاز الـتي أتـى بهـا في رسـالته ، و يمكـن اختصارهـا في ثلاثة أوجه قيل بأنها من أوجه الإعجاز أما عداها فلا ، وهذه الأوجه هي :

١ – الإعجاز البلاغي والنظميّ .

٢ – الإعجاز بأخبار الغيب .

٣ – الإعجاز بـ (الصَّرفة) .

و يلاحظ على رسالته ما يلي :

١ – كان طَرْقه لأوجه الإعجاز طرقاً خفيفاً عـدا الوجـه البلاغـيّ ، ممـا يـدل علـى تبحره في جانب البلاغة واهتمامِه بها ، وكأن هذا الوجه هو أُسُّ الإعجـاز القرآنـي عنده .

١- ((تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية)) : ٢٧١ – ٢٧٢ .

وانظر كذلك ((الإعجاز البلاغي)) : ٨٦ .

٢ - أسلوبه في هذه الرسالة - على وجازتها - يجمع بين السلاسة والقوة ، وعبارته متينة سليمة ممتعة ، وقد فصّل عدد من النقاد رسالته تفصيلاً دللوا فيه على مافي أسلوبه من جمال ، ومافي معانيه من جِدّة وابتكار[١] .

٣ - جرى في تقسيمه رسالتَه على طريقة القدماء ؛ إذ لم يقدم بمقدمة تظهر معها أهمية الموضوع ، ولم يذكر من طَرَقه قبله ، كما أن الرسالة قد خُتمت بدون تصريح أو تلويح بالخاتمة[٢] ، فإما أن يكون الكلام قد انتهى ولم يُختم بما يدل على ذلك - كما هي طريقة بعض المصنفين القدامى الذين يتركون ختم الكتاب للطلاب الرواةِ عنهم .

أو أن هذه الرسالة كانت ضمن مجموع له فشرع في نهايتها برسالة أخرى فلم ير ضرورةً لذكر خاتمةٍ لرسالته هذه .

أو أن الرسالة فيها بعض النقص كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين لها[٣] ، وإن لم يشتهر هذا النقص بين الباحثين .

٤ - لم يَرِد في رسالته أيُّ حديث أو أثرٍ يدعم به ما ذكره من مباحثَ ، والمصنف جرى على طريقة المعتزلة الذين يقلُّ عندهم الاهتمامُ بالأحاديث والآثار ، ولعل لوجازة الرسالة مدخلاً في هذا ، والله أعلم .

٥ - كانت رسالته موجزةً تحتاج في كثير من جوانبها إلى زيادة بسط وشرح حتى فيما أطنب فيه منها وهو الإعجاز البلاغيّ .

١- انظر - مثلاً - ((الإعجاز القرآنيّ : وجوهه وأسراره)) : ٧٩ - ٩٩ .

٢- فيما عدا ماذكر في هامش ص ١١٣ وهو - فيما يظهر - من صنع بعض تلاميذه ، والله أعلم .

٣- هو الدكتور محمد أبو موسى في كتابه ((الإعجاز البلاغي)) : ٨٥ ، حيث يدلل على نقص في الرسالة واضطراب وتصحيف ، ولكنه لم يذكر أن آخرها مبتور ، ولعله كذلك ، والله أعلم .

ولما كانت رسالته من أوائل الرسائل في الإعجاز كان من شـأنها الإيجـاز ؛ إذِ العلوم والفنون تنشأ مجملةً أو قليلةَ المباحث ، ثـم تنمـو علـى يـد العلمـاء اللاحقـين ويعظم شأنها .

هذا ما تيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب الإمام الرمانيّ .

٢ – ((إعجاز القرآن))

للقاضي الباقِلانيّ (ت ٤٠٣) رحمه اللـه تعالى .

هـذا الكتـاب عظيـم الخطـر ، شـريف المبـاحث ، سـلس العبـارة ، متـين الأسلوب ، قويّ الحجة ، كيف لا ومصنفه معروف بقوة الحجة والذكاء ونصاعة البيان .

وهو أول كتاب – جامع في بابه[١] – يصنفه إمامٌ مـن أئمـة أهـل السـنة فيمـا أعلم[٢] ، واللـه أعلم .

والمصنَّف ((أثر جليل يدل على حِذْق المتكلمين للبيان فضلاً عن حِذقهم لعلم الكلام ...))[٣] .

و ((لعلّ أكبر جهد قام به مؤلّف لبيان إعجاز القرآن هـو جهـد البـاقِلاَنيّ في كتابه ((إعجاز القرآن))[٤] .

والكتاب ذو فصول كثيرة ، بدأه المصنف – رحمه الله تعالى – ببيان شـرف هذا الكتابِ العظيم ، وبيانِ أن نبـوة محمـد – صلى اللـه عليـه وسـلم –معجزتهـا القرآن ، وأهميةِ الكشف عن وجوه إعجازه[٥] .

١– بلغ حجم الكتاب قرابة خمسمائة صفحة .

٢– و ذلك لصغر حجم رسالة الإمام الخطّابيّ – رحمه اللـه تعالى – ولقلة مباحثها .

٣– ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٥٣٢ .

٤– المصدر السابق : ٥٣٠ .

٥– انظر ص ٨ .

ثم ذكر أن القرآن معجز للجن و الإنس معاً[1] .

ثم ذكر القول بـ (الصَّرفة) ورد عليه رداً مجملاً[2] .

ثم ذكر وجوه الإعجاز في كتاب الله تعالى - على مايراه ويقدره - ذكراً مجملاً ، ثم كرّ عليها بالتفصيل بعد ذلك[3] .

ثم ذكر فصولاً متنوعة تتعلق بإعجاز الكتاب العظيم ، مثل قدر المعجز من القرآن ، وهل يُعلم الإعجازُ بالضرورة ، إلى غير ذلك من مباحثَ كثيرة[4] .

وجوه إعجاز القرآن العظيم عند الباقِلاَنيّ :

ذكر الإمام الباقِلاني في كتابه ثلاثة وجوه للإعجاز[5] ، وبيّن أن ذلك هو المعتمد عند أصحابه وغيرهم ، وهذه الوجوه هي :

١ - الإخبار عن الغيوب .

٢ - معرفة كتب المتقدمين ، وأقاصيصهم ، وأنبائهم وسِيَرهم .

٣ - أن القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجزُ الخلق عنه .

١- انظر ص ١٨ ، ٣٨ وما بعدها .

٢- انظر ص ٢٩ وما بعدها .

٣- انظر ص ٣٣ وما بعدها .

٤- انظر ص ٢٨٦ وما بعدها .

٥- انظر ((إعجاز القرآن)) : ٣٣ وما بعدها .

وقد أجمل ذكر الوجهين الأوَّلَيْن ، وأورد بعض الأدلة التي تؤيد ماذهب إليه فيهما .

ثم إنه فصّل الوجه الثالث في عشرة أوجه هي :

١ – مخالفة نظم القرآن لجميع كلام العرب ؛ فليس هو شعراً ولانثراً مسجوعاً أو غير مسجوع[١] .

٢ – كثرة آيات القرآن وطولها مع التناسب في البلاغة والحِكَم الكثيرة ، أمّا كلام البشر فإن المعدود منه بليغاً إنما هو كلمات معدودة وألفاظ قليلة[٢] .

٣– عدم التفاوت في النظم ، والمنزلةُ العليا في التأليف والرصف مع اختلاف الأغراض التي يتناولها القرآن ، بينما يختلف كلام البشر اختلافاً بيّناً بحسَب الغرض المتناوَل وسبكِ الكلام من شعر أو نثر[٣] .

٤ – نظم القرآن يجمع بين الوجوه الكثيرة فيجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباينَ كالمتناسب ، بينما يتفاوت كلام الفصحاء تفاوتاً بيناً في ضم وجمع الكلام المتنافر[٤] .

٥ – نظم القرآن فاق في بلاغته كلام الجن كما فاق كلام الإنس[٥] .

١– ((إعجاز القرآن)) : ٣٥.

٢– المصدر السابق : ٣٦ .

٣– المصدر السابق : ٣٦ – ٣٨ .

٤– المصدر السابق : ٣٨ .

٥– المصدر السابق : ٣٨ – ٤١ .

٦ - القرآن يشبه كلام العرب في الشكل ، ويخالفه في المضمون إلى الحد المعجز ، قال الباقِلّاني :

((الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارةِ والتصريح ... ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجودةٌ في القرآن ، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتادِ بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة))[١] .

٧ - إحكام الألفاظ وقوة المعاني ، وسريان ذلك حتى في المواضع العقدية والتشريعية ، قال الباقِلّاني :

((المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ويمتنع ...))[٢] .

٨ - كلمات القرآن دُرر كلها ، ليس فيها كلمة نافرة ، قال الباقِلّانيّ :

((الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ... فتتشوّق إليها النفوس ... كالدرة التي تُرى في سلك من خرز ... وأنت ترى الكلمة من القرآن يُتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غُرّة جميعه ، وواسطة عِقده ...)) [٣] .

٩ - حروف كلمات القرآن هي عين حروف كلام العرب لكن النظم معجز ، قال الباقِلّانيّ :

١- ((إعجاز القرآن)) : ٤٢ .

٢- المصدر السابق .

٣- المصدر السابق : ٤٢ - ٤٤ .

((الحروف التي بُني عليها كلام العرب تسعةٌ وعشرون حرفاً ... وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم ... أربعةَ عشرَ حرفاً ... ليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم ...))[١] .

ثم تكلم على هذه الأحرف وبعض صفاتها ليخلص إلى أن الذي نظم هذه الأحرف هذا النظمَ المعجز على صفاتها التي هي عليها في كتاب الله - تبارك وتعالى - لا يجوز أن يكون غير الله ، تعالى [٢] .

١٠ - الكلام القرآني ((خارج عن الوحشيّ المستكرَه ، والغريب المستنكَر ، ومن الصَّنعة المتكلفة)) .

وهو مع قربه إلى الأفهام ((ممتنع المطلب ، عسيرُ المتناوَل)) [٣] ، غيرُ مقدور عليه بوجه من الوجوه[٤] .

والناظر في هذه التقسيمات العشرة للوجه الثالث للإعجاز يلحظ أن بعضها متداخل في البعض الآخر ومندرج فيه ؛ وذلك في التقسيم الثاني والثالث والرابع ، ويلحظ - أيضاً - أن واحداً منها متعلق بوجه ما بالإعجاز لكنه ليس هو الإعجاز ، وذلك هو الوجه الخامس .

مناقشة الأوجه التي أوردها الإمام الباقِلانيّ :

١- يشير الباقلاني إلى قضية حروف أوائل السور مثل ﴿ ألم ﴾ ؛ حيث إن بعض العلماء ذكر أنّ القرآن مؤلف من مثل هذه الأحرف التي يتداولونها في كلامهم لكنهم عاجزون عن مثله .

٢- المصدر السابق : ٤٤ - ٤٦ .

٣- أي عسير المتناوَل على من يروم معارضته ، لاعلى من يطلب هدايته .

٤- ((إعجاز القرآن)) : ٤٦ .

أما الوجه الأول وهو الإعجاز بأخبار الغيب فقد فصلت الكلام عليه في مكان غير هذا ، وخلاصته أن الإعجاز – هنا – جزئي في الآيات الواردة بالغيوب فقط وليس كلياً [1] .

وأما الوجه الثاني وهو معرفة كتب المتقدمين وأقاصيصهم وسيرهم ، فهو مندرج في الوجه السابق ، وقد تكلمت عليه سابقاً كذلك ، وبينت أنه من قسم الإعجاز بأخبار الغيب ؛ إذ سير المتقدمين وأقاصيصهم مما غُيب عن العرب بل عن أكثر البشر [2] .

ولعل عدّ الباقلانيّ له وجهاً مستقلاً إنما كان باعتبار أن الوجه الأول عنده هو الإعجاز بأخبار الغيب المستقبل فقط ، كما تدل على ذلك الآيات التي ساقها الإمام الباقلانيّ في بيان ذلك الوجه[3] .

وهذا الوجه الثاني قد قصر الإعجاز فيه على الإخبار بالغيب الماضي فقط .

والوجهان يرجعان إلى وجه واحد وهو الإعجاز بأخبار الغيب مطلقاً .

وأما الوجه الثالث ، وهو أن هذا الكتاب الكريمَ بديع النظم ، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه ، فإن هذا الوجه قد أجمع عليه من تكلم في الإعجاز من الأولين والآخرين إلا من شذّ كالنَّظَّام وأمثاله .

أما تفصيل ما ذكره من معانٍ عشرةٍ لما ذهب إليه في هذا الوجه فقد ناقش كثير من علماء البلاغة ونقد النصوص الباقلانيّ فيما ذهب إليه في هذا الوجه من مذاهب ، وما أتى به من آراء جديدة ، وأفكار مؤسسة على قواعدَ قويمةٍ ، وليس من طريقتي أن أذكر ذلك كلّه لما فيه من خروج على موضوع البحث ، ولكني أذكر مانُقد فيه مجملاً لما فيه من الاستفادة وتحقيق المطلوب :

١،٢ – انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٣- انظر ((إعجاز القرآن)) :٤٨ – ٤٩ .

أوّلاً : أُخذ على الباقِلاّني أنه بالغ في تسفيه شعر العرب مبالغــة عظيمـة[1] ، ففـي سبيل أن يبيّن للناس عظمة نظم القرآن وبلاغته حاول أن يهدم أجمل ما عند العـرب من شعر ، وهو أمر قد تكلف في إثباته بما لا وجه له ولا مدخل في قضية الإعجاز ، بل إن عكْس ذلك - في تقديري - هــو الصحيـح ؛ أي أنـه لـو أبـرز مـافي قصـائد العرب من جمال و بلاغة ثم أثبت بعـد ذلـك عجـز العـرب عـن أن يـأتوا بمثـل هـذا القرآنِ لكان أليقَ وأعظمَ دلالة على سموّ هذا الكتاب العظيم .

وربما حمله على ذلك ما ذكره من أنّ بعض الجهّال ((جعــل يَعْدِلـه[2] ببعـض الأشـعار ، ويـوازن بينـه وبـين غـيره مـن الكـلام ، ولا يرضـى بذلـك حتـى يُفضلـه عليه))[3] .

ولا شك أن ما وقع من خلل فيما ذكره من القصائد إنما هــو خلـل بشـريّ لا تنتفي منه قصيدة ولا يخلو منه كلام بشـر ، ولا يسـتقيم للبـاقلاني ، في تقديـري ، ماصنعه من موازنة أجود شعر العرب - في ظنه - بمـا في القـرآن مـن بلاغـة وسمـوّ، وذلك لاتفاق العقلاء وأهلِ الرأي أنه لا سبيل إلى بلوغ شعر واحد من الشعراء مبلغ القرآن أو قريباً منه حتى يوازَن بينه وبين الشعر .

١- انظر ((إعجاز القرآن)) للباقِلانيّ : ١٥٨ - ١٨٣ ، و انظر - كذلك في الرد على مذهب الباقلانيّ هذا - مقدمة الأستاذ أحمد صقر لكتاب الباقلاني ، و ((المباحث البلاغية)) : ٢١٦ ، و ((الإعجاز البلاغي)) : ٢٨٤ - ٣٥٤ ، و ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٣٧٣ - ٤٢٨ وهو أجود الكتب نقداً لمذهـب الباقـلانيّ - فيما رأيت من الكتب - لولا أنه شانه بذكر أن القضايا الأخلاقية لاشأن لها بجودة الشعـر وأن الدين بمعزل عن الشعر . انظر : ٣٩٤ - ٤٠١ .

٢- أي القرآن .

٣- ((إعجاز القرآن)) : ٥ .

وللأستاذ محمود شاكر كلام دقيق في هذا الباب يتلخص أن الباقِلَّاني عندما نقد الشعر الجاهلي ممثلاً في معلقة امرئ القيس[1] قد افتتح باباً لنقد الشعر الجاهلي برمّته نقداً تجاوز حدوده إلى التشكيك بصدق وروده تاريخياً وإلى أنه مختلق مهلهل[2] .

ثانياً : أُخذ على الباقلانيّ أن كتابه فيه حشو كثير وتطويل ، وفيه استكثار من الأمثلة والشواهد ، وقد ردّ بعض النقاد هذا الاعتراضَ وبينوا وجهة الباقِلَّاني فيما ذهب إليه[3] .

وقد أخذ بعض النقّاد على الباقلاني مآخذ في نواحٍ متخصصة يكفي الإحالة عليها إذ لا مجال لذكرها في هذا المبحث المختصر[4] .

هذا ماتيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب الإمام الباقِلَّانيّ.

١- هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكنديّ . أشهر شعراء العرب ، يماني الأصل وولد بنجد أو باليمن . اشتهر بلقبه واختلف في اسمه على أقوال . كان أبوه ملكاً فقتله بنو أسد فجدّ حتى أخذ بثأره ، ثم جرت له حوادث حتى مات بأنقرة سنة ٨٠ قبل الهجرة تقريباً . ويعرف بـ (الملك الضِلّيل) لاضطراب أمره طولَ حياته .
انظر ((الأعلام)) : ٢ / ١١ - ١٢ .

٢- انظر بحثه الطويل في مقدمته لكتاب الأستاذ مالك بن نبي : ((الظاهرة القرآنية)) : ٣٢ - ٥٠ .

٣- انظر ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٥٢٨ - ٥٢٩ .

٤- المرجع السابق : ١٨٩ - ٢٠٨ .

٣ - ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز))[١]

للإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦) رحمه الله تعالى

هذا كتاب متوسط الحجم ، ألّفه الشيخ - رحمه الله تعالى - اختصاراً وتهذيباً وجمعاً لكتابي الجُرجاني - رحمه الله تعالى - : ((دلائل البلاغة)) و ((أسرار الإعجاز)) ؛ لأن الشيخ الجرجاني فيما يصفه الرازي - قد : ((أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب ، وأطنب في الكلام كلَّ الإطناب))[٢] هذا بعد أن أقرّ الإمام الرازي للشيخ الجرجاني بالفضل والسبق والأستاذيّة .

وقد أحسن الرازي - رحمه الله تعالى - تقسيم كتابه ، ووفى بما أراده من تهذيب كتابي الجرجاني - رحمه الله تعالى - أحسن الوفاء ؛ فقد رتب كتابه هذا على مقدمة وجملتين وخاتمة :

أما المقدمة فتحوي فصلين في إعجاز القرآن رجّح فيها أن إعجازه إنما كان بسبب فصاحته ، وأثنى على علم الفصاحة وشرفِه .

ثم أورد في الجملة الأولى ((مفردات الكلام))[٣]، ورتبها على مقدمة وقسمين ، وكل منها تحوي أبواباً وفصولاً متعددة[٤] .

١- بلغ حجم الكتاب قرابة ثلاثمائة صفحة .

٢- ((نهاية الإيجاز)) : ٥١ ، و لعلّ صنيع الإمام عبد القاهر في إهماله الفصول والأبواب يعود إلى أنه كان مؤسساً ومفصلاً لنظريته في الإعجاز بالنظم فلم يراع التقسيم إلى أبواب وفصول حيث إن كلامه جاء متصلاً في الرسالة مسهَباً .

٣- يعني بها حكم الألفاظ المنفردة عن الجمل في فصاحتها ودلالتها على المعنى .

٤- انظر ((نهاية الإيجاز)): ص ٦٠ وما بعدها .

ثم أورد في الجملة الأخرى ((النظم)) - وهي متممة للجملة الأولى : ((مفردات الكلام)) - وقسمها كذلك إلى أبواب وفصول متعددة[١] .

ثم ختم الكتاب **بخاتمة** تشمل أربعة فصول هي :

وجه الإعجاز في سورة الكوثر ، الحكمة من إنزال المتشابهات ، والجواب عن بعض شبهات الملحدين واستغرق ذلك الفصلين الثالث والرابع[٢] .

وجوه الإعجاز التي ذكرها الإمام الرازي

ذكر الإمام الرازي في كتابه خمسة أوجه للإعجاز ، ردّ الأربعة الأولى منها وقَبِل خامسها ، وهذه الأوجه على ترتيب الرد والقبول هي :

١ - (الصَّرفة)[٣] .

٢ - الأسلوب[٤] .

٣ - خلوّه من الاختلاف والتناقض[٥] .

٤ - أخبار الغيب[٦] .

٥ - الفصاحة[٧] .

١- انظر ((نهاية الإيجاز)) : ص ١٩٢ ومابعدها .

٢- المصدر السابق : ص ٢٦٩ ومابعدها .

٣- المصدر السابق : ٥٥ - ٥٦ .

٤- المصدر السابق : ٥٦ - ٥٧ .

٥- المصدر السابق : ٥٧ .

٦- المصدر السابق .

٧- المصدر السابق : ٥٨ .

أما (**الصَّرفة**) فقد ردّها بثلاثة ردود لا تخرج عما ذكرته من الردود عليها[1] .

وأما الأسلوب فقد ذكر ((أن من الناس من جعل الإعجاز في أن أسلوبه مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل))[2] ثم أبطله وجهاً للإعجاز من خمسة أوجه فقال :

١ - ((لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً))[3] .

والشيخ الإمام نقل الكلام من الإعجاز الذاتي في الأسلوب القرآني إلى ابتداء الأسلوب ، ولم يقل أحد بذلك ، فيبقى الأسلوب معجزاً ، وقضية الابتداء غير واردة ، فالكلام هنا على إعجاز الأسلوب ذاته لاعلى ابتدائه .

٢ - ((إن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله)) .

وهذا الذي ردّه الإمام الرازي هو عين الإعجاز المراد ؛ إذ أن العرب لم يأتوا بأسلوب كأسلوب القرآن وأعياهم هذا وأعجزهم .

بل إن هذا القولَ مدخلٌ مهم للقائلين بـ (الصَّرفة) ، ومستندٌ لهم في إثباتهم صرفَ الله - تبارك وتعالى - الناسَ عن الإتيان بمثل كلامه ؛ حيث إن أسلوب هذا الكلام في متناول الناس - كما ذكر الرازي - ولم يأتوا بمثله .

١- انظر ص ١١٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- قد سبق الحديث عن الأسلوب ، انظر ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

٣- أي كما أن المبتدئ لأسلوب الشعر لم يكن قد أتى بأمر إعجازيّ صح أن يقال الشيء نفسه عن أسلوب القرآن .

وأقول : على التسليم بما فرضه الإمام الرازي من استطاعة الناس معارضةَ أي أسلوب فإن هذا في كلام البشر ممكن ، لكن في كلام الله – عز وجلّ – لم يستطع أحد بعد التحدي المستمر أن يأتي بشيء مثله ، فكان في هذا العجزِ سرُّ الإعجاز .

٣ – ((يلزم أن الذي تعاطاه مسيلِمةُ من الحماقة ... في أعلى مراتب الفصاحة)) ويُسلّم هذا إن قيل إن الإعجاز هو الابتداء بأسلوب جديد ولو كان في مثل حماقة أسلوب مسيلِمةَ .

٤ – ((لما فاضلنا بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [(١)] وبين قولهم : ((القتل أنفى للقتل)) لم تكن المفاضلة بسبب الوزن ، والإعجاز إنما يتعلق بما به ظهرت الفضيلة)) .

و لم أتبين مقصوده من كلامه هذا ، وهو كسابقه كلام يتعلق بشيء مفترض غير موجود في الدعوى .

٥ – ((إن وصف بعضِ العرب القرآنَ بأن له لحلاوةً وإن عليه لطَلاوةً[(٢)] لايليق بالأسلوب)) .

ولا أدري لِم قال هذا مع أن الأسلوب هو من أعظم ما يأسر السامع ؛ كما يتبدّى من شعر الحماسة والفخرعند العرب ونحوِهما .

١– سورة البقرة : آية ١٧٩ .

٢– الرونق والبهجة والحُسن ، ((لسان العرب)) : طَلَى ، وقد سبق بياني لهذا الأثر وتخريجي له ، انظر ص ٦٣ ، ٦٤ .

من الردود التي ذكرها الشيخ في نقض الإعجاز بالأسلوب يتضح الآتي :

أولاً : إن الأسلوب قد سبق لي ذكر تعريفه بأنه ((الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كتابه واختيار كلماته)) و ((أسلوب القرآن هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه))[1] .

فإما أن الأسلوب عند الإمام الرازي له تعريف آخر لم أهتدِ له بسبب أنه لم يبينه ، أو أنه يريد ما نقلته من تعريف الأسلوب ، وأنا أستبعد الآخَرَ لأنه يتنافى مع أكثر ما أورده من ردود على الإعجاز بالأسلوب .

ثانياً : إن الإمام اختصر في بعض الردود إلى درجة أنه انبهم عليّ الأمر ؛ فلم أتبين الوجهَ الذي ردّ به ، وكان ذلك في الردين الرابع والخامس .

أما ردُّه الوجهَ الثالث وهو : خلوّه من الاختلاف والتناقض فقد علله بقوله :

((وهو أيضاً باطل ؛ لأن التحدي كما وقع بالقرآن كله فقد وقع بالسورة ، وقد يوجد في خطبهم ما مقداره مقدار سورة الكوثر ولا يكون فيه اختلاف وتناقض))[2].

وهذا الرد فيه الآتي :

١ - ليست سور القرآن المختلفة كالخطب ذات الأغراض المختلفة ؛ فسور القرآن وحدة واحدة متصلة في عدم الاختلاف والتناقض بينها ، وليست كحال الخطب التي لا تقاس كل واحدة منها إلى الأخرى ولاتُقرن بها فيحكمَ عليها حكمَ المجموع .

١- ((مناهل العرفان)) : ٢ / ١٩٩ .

٢- ((نهاية الإيجاز)) : ٥٧ .

فسورة الكوثر – مثلاً – قد خلت من التناقض لافي ذاتها فقط ولكن في ذاتها وفي علاقتها بالسور الأخرى ، فأخبار الغيب فيها – مثلاً – لم تتناقض أو تختلف مع مئات من آيات الغيب في القرآن .

٢ – القرآن قد نزل في ثلاث وعشرين سنة ، وكان بهذا الإتقان العظيم ، وعدمِ الاختلاف والتناقض بين سوره ، أفيوجد ما يقارب هذا من كلام العرب فيتكلم أحدهم عشرين سنة أو أقل أو أكثر ومن ثم يُحكم على كلامه – بعد جمعه – بأنه خال من التناقض ؟

أما حكم هذا الوجه فالذي أراه أنه خصوصية خَصّ الله بها هذا الكتابَ العظيم وشرفه على سائر الكلام ، وفيه وجهُ إعجاز باعتبار مجموع سور القرآن الكريم لا على انفرادها ؛ إذ أن القرآن تنزل في أزمنة طويلة ، وقد تشعّب ما تناوله ، مع كِبر حجمه ، كل هذا مع عدم التناقض والاختلاف ، فهذا إعجاز بلا شك .

وأما الوجه الرابع – وهو أخبار الغيب – فقد رده بأن ((التحدي قد وقع بكل سورة ، والإخبار عن الغيوب لم يوجد في كل سورة))[١] .

وقد توسعت في الكلام على هذا الوجه في موضع سابق ، وذكرت أن الإعجاز بأخبار الغيب في بعض سور القرآن هو إعجاز جزئي وليس كلياً[٢] .

١– المصدر السابق .

٢– انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

الوجه المختار عند الإمام الرازي

ثم إنه اختار الفصاحة وجهاً للإعجاز ، وأخذ في إثبات ما ذهب إليه فاستغرق ذلك باقي الكتاب وهو القسم الأعظم منه[1] .

والمتأمل لما أراده الإمام من إطلاقه الفصاحة يعلم أنه إنما أراد بها الفصاحة والبلاغة والنظم ، وليس الفصاحةَ بالمعنى الاصطلاحي التي تتعلق بجمال الألفاظ وسلاستها فحسْبُ ، كيف لا والكتاب إنما هو اختصار لكتابي الجرجاني المؤصّلِ لنظرية النظم ، والمخصص لها جلَّ مباحث كتابيه .

وبهذا يُعلم خطأ من نقد الإمام الرازي فيما ذهب إليه من وجه الإعجاز بالفصاحة بأنه ((لا يصح أن يكون وجه إعجاز القرآن في الفصاحة وحدها بل في الفصاحة و المعنى معاً ...))[2] .

منهج المصنف في كتابه

و يلحظ على منهج المصنف في كتابه هذا مايلي :

أولاً :

قد قسم المصنف كتابه هذا تقسيماً حسناً ؛ فإنه قد ابتدأه ببداية واضحة ، وختمه كذلك بخاتمة واضحة ، وقد ذكر فيه سبب التصنيف ، كما أسلفت ، ومهّد لكتابه بذكر مقدمة عن الإعجاز وأوجهه والوجه المختار عنده ، ثم شرع في التصنيف مراعياً حسنَ التقسيم والتبويب .

١- من صفحة ٥٨ - ٢٦٧ .

٢- وهذا النقد هو من محقق الكتاب الدكتور أحمد السقّا ، انظر ص ٥٨ .

ثانيـــاً :

أوجز المصنف بيان أوجه الإعجاز إيجازاً فاته معه أن يذكر كل وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء قبله أو أن يتوسع في ذكر الأوجه التي أوردها ، وفاته بهذا الإيجاز - أيضاً - أن ينقض ما لم يرتضه وجهاً للإعجاز نقضاً مسهباً واضحاً ، ولعلّ ذلك بسبب أن حديثه عن الإعجاز جاء من زيادته على كتابي عبد القاهر فلم يُفِضْ فيه ، والله أعلم .

ثالثـــاً :

جعل المصنف الحديث عن الإعجاز مدخلاً للحديث عن الفصاحة والبلاغة والنظم ، ولو عكس القضية لكان أولى - في تقديري - أو لو أنه ربط مباحث الكتاب بوجه الإعجاز الذي اختاره ربطاً يجعل تلك المباحث دالّةً على الإعجاز القرآني موصلة له ، وليس كما صنع من الحديث عن الإعجاز بكلمات معدودة ثم الاستغراق في ذكر الفصاحة والبلاغة والنظم ، ولعلّ التزامه بما جاء في كتابي الجرجاني أدّى إلى صنيعه هذا ، والله أعلم .

رابعاً :

بسبب منهج الرازي - وهو الجمع بين كتابي الجرجاني ملخصيْن مرتبيْنِ - فقد خرج كتابه متوسط الحجم سلس العبارة ، وساعده حسن التقسيم مع الاختصار والتهذيب على تجاوز ما في كتابي عبد القاهر من طول مع بعض تشويش بسبب استطراد المباحث وطول الفقرات ، مع ما كان عليه الشيخ الجرجاني من طول نفَس في ضرب الأمثلة وتبيانها .

والحق أن كتاب عبد القاهر : ((دلائل الإعجاز)) ما كان لِيُفهم حق الفهم لولا أن الله قيض الشيخ محمود شاكر ليحققه تحقيقاً رائعاً تمثل - في بعض جوانبه -

في تقسيم الفِقَر وتوضيحها ، ووضع عناوين مناسبة تساعد على الاسترسال في القراءة دون صعوبة كبيرة وباستيعاب أكثر .

هذا ماتيسر من الكلام على كتاب ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) للإمام الرازي .

٤ – **كتاب : ((الطّراز[١] المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) .**

للسيّد يحيى بن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥) رحمه الله تعالى .

هذا الكتاب ضخم كبير[٢] ، حشد فيه مصنفه علوم البلاغة و الفصاحة ، وطوّل الكلام عليهما إلى الغاية بحيث استغرق ذلك جُلّ أجزاء الكتاب الثلاثة ، ثم أتى في نهاية الجزء الثالث على مبحث إعجاز القرآن موجِزاً الكلامَ عليه إيجازاً لا يخلّ بالمقصود .

وكأن الشيخ – رحمه الله تعالى – أتى بعلوم البلاغة والفصاحة مُطنِباً فيها غاية الإطناب ، من أجل أن يمهد الحديث عن الإعجاز ، فإذا ذكر مذهب القائلين بأن إعجاز القرآن في فصاحته كان قد تكلم على الفصاحة بما لا يحتمل الإعادة والتبيان ، وكذا في ذكره لمذهب القائلين بأن الإعجاز في بلاغته إلخ ...[٣] .

وقد أورد الشيخ – رحمه الله – في كتابه عشرةً من أوجه الإعجاز ، هي :

١ – (الصَّرفة)[٤] .

٢ – الأسلوب[٥] .

٣ – خلوه عن المناقضة[٦] .

١– الطِّراز هو ماينسج من الثياب للسلطان ، وهو الجيد من كل شيء ، انظر ((لسان العرب)) : طِ ر ز .

٢– طبع الكتاب في ثلاثة أجزاء كبيرة فيها قرابة ألف وثلاثمائة صفحة تقريباً .

٣– انظر ((الطّراز)) : ١ / ٧ ، ٣/ ٣٦٦ – ٣٦٧ .

٤– ((الطـرّاز)) : ٣ / ٣٩١ – ٣٩٥ .

٥– المصدر السابق : ٣ / ٣٩٥ – ٣٩٧ .

٦– المصدر السابق : ٣ / ٣٩٧ – ٣٩٨ .

٤ – اشتماله على الأخبار الغيبية[١] .

٥ – الفصاحة[٢] .

٦ – اشتماله على الحقائق ، وتضمنه للأسرار والدقائق[٣] .

٧ – البلاغة[٤] .

٨ – النظم[٥] .

٩ – مجموع الأوجه الثمانية السابقة[٦] .

١٠ – تضمنه المزايا الظاهرة ، والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سوره ، وفي مبادئ الآيات وفواصلها[٧] .

ولْيُعلمْ أن الشيخ – رحمه الله تعالى – إنما أورد تلك الأوجهَ العشرةَ للإعجاز على أن كلاًّ منها هو الوجه المعجز فقط دون ضمائم أخرى ، وعلى هذا فإنه قد قبل من تلك الأوجهِ عاشرَها فارتضاه وردّ الباقيَ كلَّه[٨] .

وهأنذا أورد تلك الأوجه مبيناً ماأراه في كلامه عليها من نقص أو خلل ، ثم أبين الوجهَ الذي اختاره للإعجاز ، فإنه أورد تلك الأوجه العشرة حكايةً عن غيره ممن اختارها وذهب إليها :

١– المصدر السابق : ٣ / ٣٩٨ .

٢– المصدر السابق : ٣ / ٣٩٨ – ٣٩٩ .

٣– المصدر السابق : ٣ / ٤٠٠ – ٤٠١ .

٤– المصدر السابق : ٣ / ٤٠١ – ٤٠٢ .

٥– المصدر السابق : ٣ / ٤٠٢ – ٤٠٣ .

٦– المصدر السابق : ٣ / ٤٠٣ .

٧– المصدر السابق : ٣ / ٤٠٣ – ٤٠٤ .

٨– لم ينص الشيخ على هذا وإنما فهمته من إشارات كلامه .

الوجه الأول : (الصَّرفة) :

قد ردّها كثير مـن المصنفـين قبلـه ولكـن الشـيخ - رحمـه اللـه تعـالى - أتـى بمذاهبها على وجه الاستقصاء ، وكرّ عليها بإيجاز وسلاسة[1] [2] .

ثانياً : الأسلوب :

أي أن أسلوب القـرآن[3] مخـالف لأسـاليب كـلام العـرب كلـه ، ولمـا كـان كذلك صار هو الوجهَ في إعجازه.

ولما حكى الشيخ هذا المذهبَ في الإعجـاز أبطلـه باعتبـار أنـه وجـه الإعجـاز المتفرد لا على أنه معجز بالإضافة إلى أوجـه الإعجـاز الأخـرى ، ولذلـك صـح لـه إبطالُه لهذا الوجه .

ثالثاً : خلوّه عن المناقضة :

والمعنى المراد ظاهر ، وقد رده الشيخ بأمور ثلاثة :

١ - قد يكون في الرسائل والخطب والشعر ما هو خال عن المناقضة أيضاً وهو بقدر سورة من القرآن فيكون إذاً معجزاً ، وهذا باطل .

وقد يستقيم هذا الرد للشيخ لو كانت سورة الكوثر - مثلاً - وحدة منفصلـة علاقتها بالقرآن كعلاقة قصيدة مع قصائدَ أخرى ، ولكن القـرآن وحـدة واحـدة ، وقد فصلت الكلام على هذا في موضع سابق[4] .

١- ((الطراز)) : ٣ / ٣٩١ - ٣٩٥ .

٢- قد سبق بيان بعض ماذهب إليه الشيخ فيها ، انظر ص ٩٤ ، ٩٥ .

٣- سبق الكلام على أسلوب القرآن ، انظر ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

٤- انظر ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

٢ – تعجب العرب كان من فصاحته وبلاغته لامن خلوه من المناقضة .

وأقول : لو كان فيه تناقضٌ لما تعجب العرب من بلاغته ، والله أعلم .

٣ – السلامة من المناقضة ليست من خوارق العادات ، ومن حق المعجز أن يكون خارقاً للعادة .

وأقول إن سلامته من المناقضة مع طوله ، وتشعب مايطرقه ، وطولِ زمان نزوله لهو خارق للعادة .

رابعاً : اشتماله على الأمور الغيبية :

وقد رده الشيخ بأمرين :

١ – التحدي واقع بجميع القرآن ، ومعلومٌ أن الحكم والآداب والأمثال ليس فيها غيب ، فيلزم ألا تكون تلك الآيات معجزة ، وهذا محال .

٢ – لو كان التحدي بأخبار الغيب لقالت العرب : إنا متمكنون من معارضة القرآن ولكنه اشتمل على مالا يمكننا معرفتُه من الأمور الغيبية ، فلما لم يقولوا ذلك دلّ على بطلان هذه المقالة .

ومن المعلوم أن الشيخ إنما أبطل هذا الوجهَ لأن قائله انفرد به وجهاً للإعجاز ، ولذلك ذكر الشيخ أن آيات الحكم والأمثال عندما تخلو من الغيب فإنها لا تكون معجزة حيث لا وجه آخر للإعجاز عند المنفرد بأخبار الغيب مذهباً في الإعجاز .

خامساً : الفصاحة :

بمعنى خلو ألفاظه من التعقيد ، وقد أبطل الشيخ هذا الوجهَ بسبب أن الذاهب إليه إنما اختاره وجهاً للإعجاز متفرداً ، ولم يضم معه غيره ، لذلك رَد عليه بأن أكثر كلام الناس خال من التعقيد في نثرهم وشعرهم وخطبهم فيلزم على هذا كونها معجزة ، ولم يقل بهذا أحد .

سادساً : اشتماله على الحقائق وتضمنه للأسرار والدقائق :

وهو يشبه ما يسمى اليوم بـ (الإعجاز العلميّ) و (الإعجاز التشريعيّ) .

و قد رده الشيخ بأمرين :

١ - هذه خَصْلة مشتركة بين القرآن وكثير من كتب علوم الإسلام فإنه لازالت هذه الكُتب يُجتنى منها الفوائد وفيها أسرار ودقائق .

٢ - كثير من الحقائق لا يستقل العقل بإدراكها فهي من الأمور الغيبية ، وقد سبق له إبطال الإعجاز بأخبار الغيب .

وأنا أوافقه على إبطال هذا الوجهِ لو كان القائل به لا يَعُدُّ غيره معجزاً ، أما إن عدّه معجزاً مع غيره مثل الفصاحة والبلاغة والنظم لكان يصح أن يكون هذا الوجه من الإعجاز الجزئي الذي هو في كثير من آيات القرآن الكريم ، وليس في كلها ، ويكون حاله كحال الإعجاز بأخبار الغيب التي سبق لي الكلام عليها[1] .

١- انظر ص ١٣٤ و ما بعدها من هذه الرسالة ، وانظر - أيضاً - ص ١٦٣ - ١٦٤ .

أما الشيء الذي لا أوافقه عليه أبداً هو أنه جعل القرآن مشتركاً مع غيره من الكتب الإسلامية في ورود الحقائق والأسرار والدقائق ، فكم بين الثرى والثُريّا ، والشيخ قد أُتي - في تقديري - من جهة أنه قاس كلام القرآن في الحقائق والأسرار والدقائق على كلام البشر ، ولو قال بأصل الاشتراك لكان له بعضُ وجهٍ في هذا أما أن يقول بالاشتراك المطلق فهذا مما لايسلّم له أبداً .

وكذلك يمكن أن يقال - قياساً على كلام الشيخ - إن بلاغة القرآن غير معجزة - أيضاً - ؛ لأن للعرب خطباً وأشعاراً بليغة كما أن القرآن بليغ ، نعم هي بليغة كما أن القرآن بليغ ولكن شتان بين طبقة البلاغة في الجانبين ، وإنما كان اشتراكهما من جهة أصل البلاغة وليس في استوائها فيهما .

وكذلك يمكن ردّ ما ذهب إليه الشيخ بأنه قد يشترك مع القرآن نصٌّ أو كتاب ببيان بعض الحقائق والدقائق ولكن هذا الاشتراك لايعدو أن يكون كاشتراك البشر في صفة العلم مع الباري ، سبحانه وتعالى ، فكما أنه لا مقارنة بين العِلمين مطلقاً فكذلك لا مقارنة بين ما جاء به القرآن من الدقائق والحقائق على وجه يقينيّ قطعي معجز ، وما فُتح به على بعض البشر من بعض الحقائق ، والله أعلم .

سابعاً : البلاغة :

وقد فصَّل في هذا الوجه قائلاً :

((إن أرادوا بما ذكروه أنه صار فصيحاً بالإضافة إلى ألفاظه ، وبليغاً بالإضافة إلى معانيه ، ومختصاً بالنظم الباهر فهذا جيد لا غبار عليه ... وإن أرادوا أنه بليغ بالإضافة إلى معانيه دون ألفاظه فهو خطأ))(1) .

وما قاله لا مزيد عليه ، والله أعلم .

١- ((الطراز)) : ٣ / ٤٠١ - ٤٠٢ .

ثامناً : النظم :

وقد فصل في هذا الوجه كسابقه حيث قال :

((إن عنيتم به أن نظمه هو المعجز من غير أن يكون بليغاً في معانيه ولا فصيحاً في ألفاظه فهو خطأ ، فإن الإعجاز شامل له بالإضافة إلى كلا الأمرين جميعاً ، وإن عنيتم أنه مختص بالبلاغة والفصاحة خلا أن اختصاصه بالنظم أعجبُ وأدخلُ فلهذا كان الوجهَ في إعجازه فهذا خطأ ... وأيضاً فإنا نقول :

هل يكون النظم وجهاً في الإعجاز مع ضم البلاغة والفصاحة إليه أو يكون وجهاً من دونهما ، فإن قالوا بالأول فهو جيد ولكن لِم قصروه على النظم وحده ولم يضموهما إليه ؟[1] .

وإن قالوا : إنه يكون منفرداً بالإعجاز من دونهما فهذا خطأ أيضاً ؛ فإن نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزاً بحال))[2] .

وكلامه جيد لا مزيد عليه .

تاسعاً : وجه إعجازه إنما هو مجموع ما سبق من الأوجه :

وقد رُد هذا الوجه بأن الأوجه السابقة فيها (الصَّرفة) ، والإعجاز بأخبار الغيب ، وغيرهما مما ردّه الشيخ ولم يقبله .

عاشراً : ما تضمنه من المزايا الظاهرة ، والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة ، وفي مبادي الآيات وفواصِلها .

وقد ارتضى هذا الوجهَ وقبله .

١- أي لِم قالوا بالإعجاز بالنظم فقط ولَم يقولوا : وجه الإعجاز بالنظم والبلاغة والفصاحة .

٢- ((الطراز)) : ٣ / ٤٠٢ - ٤٠٣ .

وهذا الوجه داخل في وجوه الإعجاز ، لكن ليس هو المتفردَ بالإعجاز كما ذهب إليه الشيخ ، خاصة أن هذا الكلام ينطبق على السورة الكاملة ذات الفاتحة والخاتمة والمقاصد التي بينهما ، وهذا لاينطبق على إعجاز القرآن المطلق الذي يتقرر بجملة من الآيات ولو في وسط سورة ما ، أو في فاتحتها و لم تنزل بعد خاتمتها، مثل سورة الأعراف وهى من السبع الطوال فلو نظرنا فيها إلى قصة آدم وحدها لكانت كافية في تقرير الإعجاز والتحدي لكنها لاتكون مثالاً موافقاً لِما ذكره الشيخ .

وجه الإعجاز المختار

اختار السيد يحيى بن حمزة العلويّ وجهاً يضم البلاغة والفصاحة وحسن النظم وبيّنه بقوله :

((والذي نختاره من ذلك ما عول عليه الجهابذةُ من أهل هذه الصناعة ... فإنهم عولوا في ذلك على خواصّ ثلاثة هي الوجه في الإعجاز :

الخاصة الأولى : الفصاحة في ألفاظه على معنى أنها بريئة عن التعقيد والثّقل ، خفيفة على الألسنة ...

الخاصة الثانية : البلاغة في المعاني ...

الخاصة الثالثة : جودة النظم وحسن السياق ...))[1] .

١- ((الطراز)) : ٣ / ٤٠٤ - ٤٠٥ .

إذاً قد اختار وجهاً للإعجاز مجموعاً من ثلاثة أوجه من الأوجه العشرة التي ساقها ، وهذا الوجه الذي اختاره قد أطبق عليه أهل العلم إلا من شذّ كالنظّام وأمثالِه .

ثم إن الشيخ ختم الكتاب برد شبهات ومطاعن وجهت إلى القرآن ، لا علاقة لها بمباحث الإعجاز[1] .

هذا ماتيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب ((الطّراز)) ، والله أعلم .

١- انظر : ٣ / ٤٢٠ وما بعدها .

خلاصة هذا المبحث :

قد نظرت في أهم الكتب التي تحدثت عن الإعجاز - في تقديري - وكان بعضها رائداً ككتابي الرمانيّ والإمام الباقِلانيّ ، وهذه الكتب قد أتت على أغلب أوجه الإعجاز المعروفة ، ويمكن سرد ماجاءت به من أوجه على النحو الآتي :

١- الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنَّظم[1] .

٢- الإعجاز بأخبار الغيب[2] .

٣- الإعجاز بالأسلوب[3] .

٤- اشتماله على الحقائق والأسرار والدقائق[4] .

٥- خلوه من الاختلاف والتناقض[5] .

٦ - (الصَّرْفة) .

٧ - الإعجاز بمجموع أوجه منها (الصَّرفة)[6] .

فإذا قورنت هذه الأوجه بما جاء من أوجه في المبحث الأول - وهو الكلام على الإعجاز المبثوث في الكتب - يمكن إضافة مالم يُذكر هنا ، أوذُكر بعضه ، لتتبين جميع أوجه الإعجاز التي ذُكرت في هذا البابِ على وجه الاختصار ، فبالإضافة إلى الأوجه السبعة الماضية يُضاف :

١،٢ - وهذا الوجه مما اتفقت الكتب الأربعة على إيراده .

٣- اختُصّ بالذكر في كتابي ((نهاية الإيجاز)) : ٥٦ - ٥٧ و ((الطِّراز)) ٣/٣٩٥ - ٣٩٧ ، وعُرِّج عليه في الكتب الباقية دون جَعْله وجهاً مستقلاً .

٤- وهذا قد اختُصّ بالذكر في كتاب ((الطراز)) : ٣/ ٤٠٠ - ٤٠١ .

٥- اختصُّ بالذكر في كتاب ((نهاية الإيجاز)) : ٥٧ ، و ((الطراز)) : ٣/٣٩٧ - ٣٩٨ .

٦- كما جاء في ((الطراز)) : ٣/ ٤٠٣ .

٨ – التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك ما لايطاق ، وفيه وقع الإعجاز[١] .

٩ – أمرٌ لايستطاع التعبيرُ عنه[٢] .

١٠ – الإعجاز بالعلوم والمعارف[٣] .

ولعل هذا الوجهَ شبيه بالوجه الرابع لكنه أعم منه .

١١– الجَمْع في القرآن بين الدليل والمدلول[٤] .

فهذه وجوه إحدى عشرة وردت في هذا الباب قيل بأنها من أوجه الإعجاز ، وهذا عدا الأوجه التي ليس لها مدخل في الإعجاز ، والأوجهِ التي تدخل ضمن هذه الأوجهِ المذكورة ، كما بُين كل ذلك في مكانه .

وبهذا ينتهي الحديث عن الإعجاز المبثوث في الكتب المختارة[٥] ، وعن الكتب المختارة التي استقلت بالإعجاز ، حتى إذا ما جاء وقت الكلام على أوجه الإعجاز التي جاء بها الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في الباب الثالث ، إن شاء الله تعالى ، سهلت المقارنة بينها وبين ما ساقه الأئمة من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

١– انظر ص ١٢٩ ومابعدها .

٢– انظر ص ١٤٢ .

٣– انظر ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

٤– انظر ص ١٦٤ .

٥– لقد عدتُ – بفضل الله – إلى أكثر الكتب التي بين أيدينا الموضوعة في الإعجاز أو الدارسة لمذاهب العلماء فيه ، فلم أجد – فيما وقعت عليه منها – أن أحداً خرج عن هذه الأوجه المذكورة فأتى بشيءٍ يستحق أن يُدرج مع هذه الأوجه الإحدى عشرة ، وهذا كله إلى عصر الإمام السيوطي ، أما بعده فهناك الجديد كما سيأتي في الباب الرابع إن شاء الله تعالى ، وإذا يسر الله تعالى فسأجمع في الفهرس جميع أوجه الإعجاز الأصيلة – أي التي لاتندرج تحت غيرها – والتي ذكرها الأئمة والعلماء والمشايخ في كتبهم قديماً وحديثاً ، والله الموفق .

الباب الثاني

الإمام السيوطيّ ودراسة كتابه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإمام السيوطيّ : حياته وآثاره .

الفصل الثاني : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))
ونسبته ونسخه .

الفصل الثالث : محتويات الكتاب ومنزلته العلمية

الفصل الأول : الإمام السيوطيّ : حياته وآثاره :

وفيه مباحث :

تمهيـــــد

عصر الإمام السيوطيّ

عاش الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في مصرَ التي كانت عاصمةً لسلطنة المماليك ، الذين بسطوا نفوذهم كذلك على الشام والحجاز ، وكانت الدولة آنذاك للمماليك الجراكسة ، الذين كانوا يعرفون بالمماليك البُرْجية[1] .

وقد كان عصر السيوطيّ يغلب عليه الاستقرار والهدوء ، إلا ما تخلله من اضطرابات متفرقة في الجانبين السياسيّ والاقتصادي ، ويمكن إجمال حالة العصر الذي عاشه السيوطي في الآتي :

أولاً : الجانب السياسيّ :

كان في مصر خلفاء عباسيّون تولوا مقاليد الخلافة بعد دخول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ ، ولكن لم يكن لهؤلاء الخلفاء سلطة فعلية ؛ إذ كان الأمر بيد سلاطين المماليك[2] .

وقد تولى الحكمَ في حياة الإمام السيوطي ثلاثة عشر سلطاناً مملوكياً[3]،

١- هم طائفة من المماليك الذين كانوا يجلبون من بلاد الكُرْج [جورجيا الآن] وعنى السلطان المنصور قلاوون بالإكثار منهم وتربيتهم في أبراج القلعة ، فعُرفوا مِن ثَمّ بـ (البُرجية) ، وازداد نفوذهم بعد ذلك لتصبح لهم الدولة في مصر بعد انتهاء عهد المماليك البحرية وتولي السلطان برقوق الذي كان من المماليك البُرجية ، وكان ذلك سنة ٧٨٤ ، وانتهت دولتهم سنة ٩٢٢هـ بدخول السلطان سليم العثماني إلى مصر .

انظر ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : د . سعيد عاشور ص ٢٤٣ - ٢٤٧ .

٢- ((حسن المحاضرة)) : ٢ / ٥٢ وما بعدها ، وانظر ٢ / ٩٥ وما بعدها .

٣- انظر ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ .

كان السلطان الأشرف قايتباي[1] أطولَهم عهدا واستقراراً إذ حكم قرابة تسع وعشرين سنة ، منذ سنة ثنتين وسبعين وثمانمائة إلى سنة إحدى وتسعمائة ، وكانت سنوات الاستقرار تلك من أحسن السنوات التي عاشها الإمام السيوطيّ ؛ إذ كان عمره عند تولي الأشرف ثلاثاً وعشرين سنة ، وعمره عند وفاة الأشرف ثنتين وخمسين سنة تقريباً ، وهذه السنون هي من أفضل سنوات العمر عند معظم الناس ، وكذلك كانت عند الإمام السيوطي الذي صنف عدداً كبيراً من كتبه في تلك المدة[2] .

ثانياً : الجانب الاجتماعيّ والاقتصادي :

كان المجتمع أيام المماليك مقسماً إلى طبقات أعلاها طبقة السلاطين والأمراء ، وأدناها طبقة الفلاحين ، وبينهما طبقات مثل طبقة العلماء وطبقة التجار[3] .

وكان لتلك الطبقات عاداتُها الاجتماعية في التزاور ، والتنزه ، والتردد على الأسواق والحمامات ، وكان للناس عموماً احتفالاتٌ بالأعياد ، ووقتِ تولية السلاطين والخلفاء[4] .

ولقد ازدهرت الزراعة والصناعة في عهد المماليك ، وكانت الدولة تعيش في رخاء إلا ما يكدر صفوَها من حين لآخر من نقص مياه النيل ،

١- الملك الأشرف الجركسيّ ، الحادي والأربعون من ملوك الترك والسادس عشرمن ملوك الجراكسة . ولد سنة ست وعشرين وثمانمائة ، ثم اتصل بالملك الظاهر جُقمق فأعتقه ، ولم يزل يترقى حتى بويع بالسلطنة سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وسار السيرة الحميدة ، وأنشأ المشاعر العظيمة في الحرمين وغيرها ، وكان صاحب تعبد وتهجد وأوراد وأذكار وبكاء من خشية الله . توفي سنة إحدى وتسعمائة ، رحمه الله تعالى .
انظر ((شذرات الذهب)) : ٧ / ٦ - ٩ .

٢- انظر ((حسن المحاضرة)) : ٣٣٩/١ ومابعدها ؛ فقد ذكر فيه معظم مصنفاته ، و ((حسن المحاضرة)) إنما فرغ السيوطيّ من تصنيفه في آخر مدة الأشرف ، وذكر فيه وفاته سنة ٩٠١ ، وذكر تولي ولد الأشرف السلطنة ولم يذكر السلطان بعده ، ولم يتول ولده أكثر من ستة أشهر : انظر ((حسن المحاضرة)) : ١٢٢/٢ ، و ((شذرات الذهب)) : ٩/٨ .

٣- ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٨٨ .

٤- المصدر السابق : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

وحدوثٍ بعض المجاعات التي كانت قليلة في عهد الإمام السيوطيّ ، ولقد تأثرت التجارة كثيراً باكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح في نهاية القرن التاسع الهجري ، مما أوجد للأوربيين طريقاً إلى جنوب شرق آسيا حيث كسروا احتكار المماليك لتجارة التوابل والبخور ، فأضروهم اقتصادياً ضرراً شديداً ، انعكس على حياة الناس ومعاشهم . [1]

ثالثاً : الجانب العلمي :

قد ازدهر العلم ازدهاراً كبيراً في دولة المماليك خاصة في القرن التاسع ، وكان لذلك أسباب منها :

١ – تفرد القاهرة – وهي عاصمتهم – بمركز علمي رائد بين العواصم الإسلامية مما جعلها محطّ العلماء والفضلاء[2] .

٢ – حرص عدد كبير من سلاطين المماليك على إنشاء المدارس والمساجد التي كانت بمثابة معاهدَ علمية[3] .

٣ – كان كثير من السلاطين والخلفاء والأمراء يعقدون مجالس علمية في قصورهم ، ويتنافسون في اقتناء الكتب وتخصيص دور كبيرة لها ، حتى أن عدداً كبيراً من مخطوطات الكتب التي بأيدينا اليوم يعود زمن تصنيفها أو نَسْخها إلى عصر المماليك[4] .

١– المصدر السابق : ٢٨٧ .

٢– ((حسن المحاضرة)) :٢ /٩٤ .

٣– ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٩٨ ، و ((حسن المحاضرة)) : ٢ / ٢٥٥ .

٤– ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٩٣ .

٤ – بروز عدد من العلماء الكبار الذين ألفوا مؤلفات كبيرة في شتى نواحي العلوم والفنون[١] .

تلك كانت نبذة يسيرة عن عصر الإمام السيوطي – رحمه الله تعالى – وأدلف منها إلى بيان حياة الإمام السيوطي الشخصية ، والعلمية ، وبيان آثاره التي تصور كثيراً من حالة عصره .

حياة الإمام السيوطي :

الإمام السيوطيُّ ممن رزقه الله – تعالى – شهرةً ذائعة في حياته وبعد مماته لكثرة مصنفاته في فنون العلم المختلفة ، ولابتكاره في جوانبَ عديدةٍ منها ، ولجمعه ما تفرق وفقد مِن كتبِ كثيرٍ ممن سبقه ، ولذلك كله كتب عنه العلماء قديماً وحديثاً ، ودُرست حياته ومصنفاته في شتى الجامعات من زوايا متعددة تعددَ مواضيع مصنفاته ، فمن كتب في التفسير فإنه لايستغني عن كتب السيوطيّ المهمة في التفسير مثل ((الدر المنثور)) و ((طبقات المفسرين)) ، ومن كتب في علوم القرآن فـ ((الإتقان)) عمدتُه ، ومن تحدث عن الحديث وعلومه فالجامع – صغيرُه وكبيره – بُغيتُه ، و ((تدريب الراوي)) عُدّته ، ومن أراد الأدب فعليه بالمقامات الكثيرة التي أنشأها ، وهكذا ...

وكل من يحقق شيئاً من كتبه ، أو يؤلف في موضوع علميّ دارساً بعضَ كنوز آثاره فإنه يكتب عنه ترجمة ضافية ، والأمثلة أكثر من أن تُذكر .

ولذلك فإني سأختصر – ماوسعني الاختصار – في الكتابة عن حياة الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – محاولاً التركيزَ على جوانبَ مهمةٍ من حياته أعتقد أن لذكرها فائدةً ، وسأتوسع في الكلام على كتابه ((معترك الأقران)) – إن شاء الله تعالى – وذلك لأنه لم يُدرس دراسة وافية من قبل ، والله الموفق .

١– من العلماء الكبار في القرن التاسع الحافظ العراقي (ت ٨٠٦) ، والحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢) ، والإمام البُلقينيّ (ت ٨٦٨) ، والحافظ السخاويّ (ت ٩٠٢) وغيرهم كثير .

المبحث الأول : مولده واسمه وكنيته ولقبه .

مولـده : ولد مستهلَّ رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة[1] بالقاهرة[2] ، وقد قيل إنه ولد بين الكتب ؛ إذ أن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ففاجأها المخاض فولدته وهي بين الكتب فصار يلقب بـ (ابن الكتب)[3] .

اسمـه : عبد الرحمن بن الكمال[4] أبي بكر بنِ محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمانَ بنِ ناظر الدين محمدِ بن سيف الدين خضرِ بن نجم الدين أبي الصلاح أيوبَ بنِ ناصر الدين محمدِ بن الشيخ همامِ الدين[5] .

كنيته : أبو الفضل[6] .

لقبـه : جلال الدين الخُضَيريّ الأسيوطيّ[7] .

أما السيوطيّ فنسبة إلى (أسيوط) وهي مدينة كبيرة معروفة بصعيد مصر .

١- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

٢- ((التحدث بنعمة الله)) : ١٦ .

٣- ذكر ذلك عبدالقادر العيدروسيُّ في ((النور السافر)) : ٥٤ .

ولم يذكر ذلك السيوطيّ ، فيما علمت ، ومن عادته ذكرُ دقائق حياته المهمة ولم يشتهر هذا القول ، فالله أعلم بصحته .

٤- جرت عادة المصنفين المتأخرين أن يقتصروا على الجزء الأول من الألقاب المضافة إلى (الدين) فيقولون (الكمال) مثلاً ويريدون : كمال الدين ، و (الصلاح) ويريدون (صلاح الدين) وهكذا ...

وممن صنع هذا بكثرة الإمام السخاوي في ((الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)) ، ويمكن الجمع بين الحذف وذكر الجزئين كما فعل السيوطيّ – رحمه الله – في ذكره لنسبه هاهنا .

٥- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

٦- قد لقبه شيخه عز الدين الكنانيّ الحنبليّ بهذا اللقب كما في ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥١ .

٧- قال السيوطيّ في ضبط هذه اللفظة : الأسيوطيّ : ((فيها خمسة أوجه : ضم الهمزة وكسرها ، وإسقاطها وتثليث السين)) : ((لب اللباب)) : ١ / ٦١ .

وأما الخُضَيريّ فإن السيوطيّ قال عنها :

((لاأعلم ما تكون إليه هذه النسبة إلا (الخُضَيريّة)[1] مَحَلَّة ببغداد ، وقد حدثني من أثق به أنه سمع والدي – رحمه الله تعالى – يذكر أن جدَّه الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق ؛ فالظاهر أن النسبة إلى المَحَلَّة المذكورة))[2] .

وقد جاء عن السيوطيّ ما يُفهم منه أنه ربّما يكون من سلالة البيت النبويّ الشريف ؛ إذ قال :

((ووالدي من خير العرب لأنه من سلالة الصحابة ، **وربما قيل أكثرُ من ذلك** ، والصمت عنه أقرب إلى الإصابة))[3] .

لكن هذه النسبة لم تشتهر عنه .

١- ذكر السيوطيّ أن ((الخُضَيريّ – مصغراً – إلى الخُضَيريّة مَحَلَّةٍ ببغداد)) : ((لب اللباب)) : ١/ ٢٩٠ .

٢- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

٣- ((طَرْز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة)) المطبوع ضمن كتاب ((شرح مقامات جلال الدين السيوطيّ)) : ٢ / ٧٣٧ .

وقد علّق مصنف كتاب ((مكتبة الجلال السيوطي)) ص ١٢ على ذلك قائلاً :

((وعساه أن يكون بحث في نسبه فحقق ما خالف الروايةَ عن أبيه في كونه ينحدر من أصل عجميّ)) .

قلت : لاتعارضَ في هذا ، إذ لا يمتنع أن يكون العجميُّ من أصل عربيّ سكن أجداده في بلاد العجم فاستعجموا ، وفي عصرنا كثير من العجم ذوي الأصول العربية ، والله أعلم .

المبحث الثاني : نشأته وطلبه للعلم ، ومشايخه ، وتلاميذه .

نشـأتــــه : وجّههُ أبوه لطلب العلم منذ نشأته ، فنبغ وحفظ القرآن قبل أن يتمّ ثماني سنوات ، وحفظ عدة متون في فنون متنوعة مثل : ألفية ابن مالك ، و ((المنهاج)) في الفقه[1] ، وارتحل طلباً للعلم إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ، وأفتى وعمره اثنتان وعشرون سنة ، وأملى الحديث وعمره ثلاث وعشرون سنة[2] .

مشايخـــه : أكثر السيوطيّ رحمه الله تعالى من القراءة على المشايخ ؛ إذ بلغت عدتهم قرابة مائتي شيخ وشيخة[3] ، وها أنذا أذكر أشهر مشايخه مكتفياً بالبعض عن الكل :

١ - الشيخ تقي الدين أحمد بن محمد بن محمد الشُّمّنّيّ ، ولد بالإسكندرية سنة إحدى وثمانمائة ، ثم قدم القاهرة وقرأ على مشايخها في أصول الدين والعربيّة والمنطق والحساب والطب والهندسة والحديث ، واشتهر وتصدى لتعليم الناس .

وكان علامة سُنّياً متين الديانة ، زاهداً عفيفاً متواضعاً ، وكان جلُّ الفضلاء من أهل المذاهب من تلامذته . توفي بالقاهرة سنة ٨٧٢ ، رحمه الله تعالى[4] .

١- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

و ((المنهاج)) كتاب في الفقه الشافعيّ ، من تصنيف الإمام النووي ، رحمه الله تعالى .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٣٦ - ٣٣٩ .

٣- انظر ((المنجم في المعجم)) فقد سرد فيه السيوطي أسماء شيوخه فبلغوا ١٩٥ شيخاً وشيخة ، وقد ذكر الشيخ الشعرانيّ أن عدد شيوخ السيوطيّ بلغ ستمائة شيخ وهو رقم كبير لم يذكره - فيما علمت - غير الشعرانيّ ، وانظر ((الطبقات الصغرى)) : ١٩ . ولعل الشعراني يعني كل من استفاد منه السيوطي شيئاً ولو يسيراً ، وهذا هو مابينه السيوطي بقوله :

((وأجاز لي خلق من الديار المصرية ، والحجاز ، وحلب ، وقد جمعت معجماً كبيراً في أسماء من سمعت عليه ، أو أجازني ، أو أنشدني شعراً فبلغوا نحو ستمائة نفس)) : ((التحدث بنعمة الله)) : ٤٣ .

٤- ((الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)) : ٢ / ١٧٤ - ١٧٨ .

٢ - الشيخ الإمام علم الدين صالحُ بنُ عمرَ بن رسلان البُلقينيّ الشافعيّ . ولد بالقاهرة سنة ٧٩١ ونشأ بها فحفظ القرآن وعدداً من المتون الشرعيّة .

كان متقللاً من الدنيا ، غايةً في الذكاء وسرعة الحفظ ، وله مشايخ عدّة . أخذ عن الفضلاء من كل ناحية ، وله بعض المصنفات . توفي بالقاهرة سنة ٨٦٨ هـ ، رحمه الله تعالى[١] .

٣ - الشيخ الإمام محي الدين محمد بن سليمان بن سعيد الرّومي الحنفي الكافِيَجي[٢] :

ولد ببلاد صاروخان من ديار الدولة العثمانية قبل سنة ٧٩٠ هـ . قدم الشام ، وأدّى الحج ، ثم قدم القاهرة بُعيد سنة ٨٣٠ ، كان متقللاً من الدنيا جداً ، وأقبل عليه الفقهاء وتصدّى للتدريس والإفتاء والتأليف وزادت تصانيفه على المائة ، ولم يزل على جلالته حتى وافته المنية بالقاهرة سنة ٨٧٩ هـ ، رحمه الله[٣] .

وكثيراً مايثني السيوطيّ على شيخه هذا ويعدّه أستاذ الوجود ، وأستاذ الأستاذين[٤] .

٤ - الشيخ يحي بن محمد الآقصرائيّ - نسبة إلى (آقصرا) إحدى مدن الروم[٥] - القاهريّ الحنفيّ .

١- ((المصدر السابق)) : ٣ / ٣١٢ - ٣١٤ .

٢- هذا اللقب نسبة لكافية ابن الحاجب لكثرة تدريسه لها ، انظر ((الضوء اللامع)) : ٧ / ٢٦٠ .
وقد ذكر السخاويّ رحمه الله تعالى - أنه ((نُسب إليها بزيادة جيم ، كما هي عادة الترك في النَّسب)) .

٣- ((المصدر السابق)) : ٧ / ٢٥٩ - ٢٦١ .

٤- انظر ((المنجم في المعجم)) : ١٨٣ ، و ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٨ ، و ((التحدث بنعمة الله)) : ٢٤٣ .

٥- أي الدولة العثمانية ، وقد ذكر الزركليّ - رحمه الله - أن اسم المدينة (آق سَراي) و النسبة إليها (آقسرائيّ) ، انظر ((الأعلام)) : ٨ / ١٦٨ .

ولد بالقاهرة سنة ٧٩٧ ونشأ بها ، وحفظ القرآن وعدداً من المتون الشرعية ، وتتلمذ على عدد من مشايخ عصره ، وشمّر واجتهد حتى فاق في فنون العلوم ، وتصدى للتدريس ، فاستفادت الطلبة منه . وكان حسنَ الخلق كثير التعبد والذكر . توفي بالقاهرة سنة ٨٨٠ ، رحمه الله[١] .

تلامذته :

تتلمذ على السيوطي كثيرون برع منهم أئمة لهم شأن ، منهم :

١ - الشيخ زين الدين عمر بن أحمد بن عليّ الشمّاع الحلبيّ الشافعيّ ، ولد سنة ٨٨٠ هـ ، وجدّ واجتهد واستكثر من المشايخ حتى زادت شيوخه على مائتين .

كان إماماً عالماً ، أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر ، لم يتولّ شيئاً من المناصب بل قنع بربح كان يأتيه من المضاربة بالمال ، وله مؤلفات كثيرة . توفي بحلب سنة ٩٣٦ ، رحمه الله[٢] .

٢ - الشيخ الإمام محمد بن علي الداوديّ المالكيّ ، كان إماماً علامة حافظاً ، شيخَ الحديث في عصره ، وضع لشيخه السيوطيّ ترجمة حافلة في مجلّد ضخم[٣] ، وله مؤلفات عِدّة ، أشهرها ((طبقات المفسرين)) .

توفي بالقاهرة سنة ٩٤٥ هـ ، رحمه الله[٤] .

١- ((الضوء اللامع)) : ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤٣ .

ومن مشايخه أيضاً : شرف الدين يحيى بن محمد المناويّ ، وجلال الدين محمد بن أحمد المَحَلّيّ ، وعز الدين أحمد بن إبراهيم الكنانيّ وغيرهم ، انظر ((الكواكب السائرة)) : ١ / ٢٢٦ - ٢٢٨ ، و ((المنجم في المعجم)) بتمامه .

٢- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٢١٨ .

٣- لم أعثر على هذه الترجمة .

٤- ((شذرات الذّهب)) : ٨ / ٢٦٤ .

٣ – الشيخ الإمام محمد بن يوسف الشاميّ الصالحيّ ثم المصريّ . كان عالماً صالحاً ، كثير الصيام والقيام ، متعففاً عن أموال الولاة والسلاطين ، حسنَ السيرة والخلق ، ألّف عدداً من الكتب منها سيرة جامعة مشهورة للرسول ، صلى الله عليه وسلم[١] ، توفي سنة ٩٤٢ هـ ، رحمه الله تعالى[٢] .

١– وهي مطبوعة متداولة باسم : ((سُبل الهدى والرشاد في هَدي خير العباد ، صلى الله عليه وسلم)) .

٢– ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٢٥٠ – ٢٥١ .

للسيوطيّ - رحمه الله تعالى - مؤلفات كثيرة اختُلف في عددها ؛ فقد قال قوم إنها خمسمائة[1] ، وأوصلها بعضهم إلى أكثرَ من هذا[2] أو أقلّ .

وهناك دراسة وافية عن مصنفاته في كتاب ((مكتبة الجلال السيوطي)) ، فقد ذكر صاحب هذه الدراسة أن الذي انتهى إليه في إحصائها ((بعد الفحص المستقصي والتفتيش المستتبع كان ٧٢٥ مؤلَّفاً سِوى المكرور والمنحول ، أخرجت المطابع منها ٢٠٤ - حسبما وقفت عليه - وما تزال المكتبات العامّة والخاصّة تختزن منها قرابة المائتين ، فأمّا الباقي فهو مفقود أو في حكم المفقود))[3] .

ودراسته هذه دراسة علمية وافية ذكر فيها أسماء تلك الكتب جميعاً وبيّن المطبوع منها والمخطوط ، وسكت عما يظنه مفقوداً .

وذكر أن مؤلفاتِه تنقسم إلى مؤلفات جامعة ضخمة ، ومؤلفاتٍ ذات حجم متوسّط ، ومؤلفاتٍ وجيزةٍ مختصرة ، بل إن بعض مؤلفاته في ورقة وفي ورقتين[4] .

وهناك عمل علميّ آخر بذل فيه مؤلّفاه الجهد ، وذكرا فيه أن مصنفات السيوطي بلغت ٩٨١ مصنفاً ، وقاما بذكرها مع ذكر أماكن وجود مالم يُفقد

١- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥٣ ، و ((الكواكب السائرة)) : ١ /٢٢٨ .

٢- كابن إياس الحنفيّ الذي ذكر أنها بلغت قرابة ستمائة مصنف ، انظر ((بدائع الزهور)) : ٤ / ٨٣ .

٣- ((مكتبة الجلال السيوطيّ)) : ٣٨ .

٤- المصدر السابق : ٣٩ ، و انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٨ ، و ((النور السافر)) : ٥٦ .

منها ، وبيانِ المطبوع من كل ذلك[١] .

ولا يتعارض هذا العدد ولا الذي قبله مع ماعدّه الداوديُّ - رحمه اللـــه تعـالى - من مصنفات شيخه إذ أنه استقصى ((مؤلفاته الحافلة الكثيرة ، الجامعة النافعــة ، المتقنة المحررة ، الـمعتمدة المعتبرة فنافت عِدّتها على خمســمائة مصنّـف ، وشـهرتها تُغني عن ذكرها))[٢] .

وإنما قلت لايتعارض هذا مع عدّ من بلغ بمصنفات السيوطي قرابـةَ ألـفٍ ، أي ضعف العدد تقريباً ، للأسباب الآتية :

١ - لعل من عدّها ألفاً أضاف كتباً لم يرتضها السيوطيّ ورجع عنهـا كمـا ذكـر في ((حسن المحاضرة))[٣] .

والتلميذ أعرف بكتب شيخه من غيره .

٢ - في الكتب التي ذُكرت للسيوطيّ كتبٌ لم تصح نسبتها إليه[٤] .

٣ - بعض كتب السيوطي سميت بأكثر من اسم[٥] .

١- اسم الكتاب((دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها)) للأستاذين محمد الشيبانيّ وأحمد الخازندار .

٢- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥٢ - ٥٣ نقلاً عن ترجمة الداوديّ لشيخه السيوطي التي أشرتُ آنفاً إلى أني لم أعثر عليها .

٣- ١ / ٣٣٨ .

٤- نحو كتاب ((أنيس الجليس)) و ((الإيضـاح في أسرار النكـاح)) ، و ((الكنز المدفـون والفلك المشحـون)) ، وانظـر (دليـل مخطوطـات السيوطيّ)) : ٢٦٢ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥ على التوالي ، وانظـر فهـرس الكتب المنحولـة في كتاب ((مكتبة الجلال السيوطيّ)) : ٤١٣ .

٥- نحو كتاب ((قطـف الأزهـار في كشـف الأسـرار)) إذ هـو الكتـاب المسمى أيضـاً بـ ((أسـرار التنزيـل)) كما في ((دليل مخطوطات السيوطي)) : ٣٠ ، ونحو كتـاب ((تناسق الدرر في تناسـب الآيـات والسـور)) إذ هـو الكتـاب المسمى ((أسرار ترتيب القرآن)) كما في مقدمة ((تناسق الدرر)) المطبوع .

٤ - بعض كتب السيوطيّ مجاميعُ تحوي رسائل عدة[١] فلعلّ الداوديّ عدّ المجموعَ كتاباً واحداً وعدّه غيره باعتبار رسائله الكثيرة التي يحويها .

أسباب كثرة مصنفات السيوطيّ :

لكثرة مصنفات السيوطيّ - رحمه الله تعالى - أسباب أوجزها فيما يلي[٢] :

١ - توفيق الله - تعالى - له ، وتوجيهه ، وعنايته به سبحانه .

٢ - اكتمال العلوم في عصره ونضجها :

إذ أن عصره يعدّ الغاية فيما وصلت إليه علوم المسلمين في فروعٍ متنوعة ، ثم أخذت تلك المعارف بالاضمحلال والتدهور فيما بعد القرن العاشر .

فلاكتمال العلوم ونضجها توفرت مادة قوية غزيرة يتخير منها المصنف كما يشاء ، ومصنفات السيوطيّ مليئة بالنقول الكثيرة عمن سبقه ، في فروع متنوعة من العلوم ، حتى أنه اتُّهم أنه ناقل محضٌ ، وجامعٌ لما تفرق في كتب الأولين وحَسْبُ[٣] ، وهي تهمة باطلة ؛ إذ للسيوطي شخصية علمية مستقلة تتضح في الكثير من مصنفاته .

٣ - طبيعة التصنيف في عصره :

إذ أن التصنيف في عصر السيوطيّ وما قبله كالقرن الثامن طبع بطابَع الجمع والاختصار للمصنفات السابقة مع الإضافة إليها أو شرحها ، وما كان كذلك فإن

١- نحو ((الحاوي للفتاوي)) ، إذ يبلغ مايحويه من رسائل ثمانياً وسبعين رسالة .

٢- استفدت في الفقرات من الثانية إلى الخامسة من كتاب ((السيوطيّ وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ١٣٥ - ١٣٦ .

٣- انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٦ ، ٦٨ .

التصنيف فيه يتسع ويكثر لغزارة المادة المتاحة وسهولة إعادة تصنيفها .

٤ – جمع السيوطي للرواية والدراية :

فهم السيوطيّ القوي للعلوم الشرعية واللغوية وغيرها وهضمه لها – وهذه هي الدراية – مع سعة روايته للحديث والآثار هذان الأمران أتاحا له حيازة علم غزير مكنه من التصنيف في شتى فروع العلوم والفنون .

٥ – همته وصبره :

عكف السيوطيّ على مصنفاته بهمة وصبر وجَلَد قلّ مثيله كل ذلك مكنه من الإكثار من التصنيف ؛ خاصة حين اعتزل الفُتيا والتدريس منذ سن الأربعين[١] فمكث قرابة ثلاث وعشرين سنة يصنف ويحرر مصنفاته حتى بلغ عددها مالا يُتصور أن يكون لغيره في عصره أو بعده إلى يومنا هذا ، فتوفر له في اعتزاله التفرغ الذي ينشده كل طالب علم .

٦ – ذكاؤه واتقاد ذهنه :

وهذا واضح من آثاره لايحتاج إلى إقامة برهان عليه .

٧ – الحالة العلمية والثقافية :

مما ساعد السيوطيَّ على غزارة التصنيف كونه في بيئة علمية ثقافية لا مثيل لها في عصره ؛ إذِ القاهرة في ذلك الزمان مثابة العلماء في كل العلوم والمعارف ، وفيها من المكتبات الكبيرة والمدارس والكتب الكثيرة ما ليس متوفراً في أي مدينة إسلامية في ذلك الزمان[٢] ، ولما كانت بيئته الثقافية والعلمية كذلك حُقّ له أن يستفيد منها الفائدة القصوى في التصنيف .

١– سيأتي – إن شاء الله تعالى – تفصيلُ ذلك ، انظر ص ٢٦٣ ومابعدها .

٢– انظر التمهيد لهذا الباب ص ٢١٧ .

٨ – الاستقرار والأمن والرخاء في مجتمعه :

إذ كانت دولة المماليك في عصره في قوة وسلطان مبسوط على مصر والشام والحجاز وغيرها ، والمجتمع يرفل في أمان ورخاء واستقرار لا بأس به ، وكل هذه عناصر لاغنى للعالم عنها إن أراد الانصراف إلى علمه والتصنيف فيه[١] .

٩ – التنافس بينه وبين أقرانه :

وهذا عامل مهم دعاه لأن يكثر من التصنيف ؛ فهو قد اتخذ التصنيفَ – مراراً – وسيلةً للرد على منافسيه وأقرانه ، وفي الوقت نفسه أدت تلك المنافسة إلى ارتفاع اسمه وشهرة حاله بين الناس فأقبلوا على مصنفاته .

١٠ – الإعداد المبكر :

قد حفظ الإمام السيوطيّ القرآن في سن مبكرة ، وحفظ عدداً من المتون وبرع في العلوم بحيث إنه أفتى ودرّس في سن مبكرة ، كما بينت سابقاً[٢] ، وهذا الأمر أدى إلى أن يصنف في سن مبكرة أيضاً[٣] مما ساعده على الإكثار من التصنيف .

١١ – كفايته المالية :

حيث كانت مناصبه التي سأذكرها قريباً[٤] – إن شاء الله تعالى – تدر عليه دخلاً كافياً لمتطلبات حياته ، فلم ينقل عنه أنه احتاج يوماً أو استجدى أحداً ، وهذا عامل مهم جداً في استقرار العالم وحضور ذهنه .

١– انظر التمهيد لهذا الباب ص ٢١٥ ، ومابعدها .

٢– انظر ص ٢٢١ .

٣– ذكر السيوطي أن أول كتاب صنفه وهو في سن السابعة عشرة : انظر ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٧ .

٤– انظر ص ٢٦٣ ومابعدها .

لكل هذه الأسباب مجتمعةً استطاع السيوطي - رحمه الله تعالى - أن يصنف هذا العددَ الكبير من المصنفات ، تُوِّج ذلك كله بأن الله - تعالى - رزقها القَبول فسارت في البلاد مسير الشمس ، وتهافت الناس عليها ، وأصبحت عمدة كثير من العلماء والمحققين .

مصنفات السيوطيّ في الإعجاز

قد أوردت نبذة عن مصنفات السيوطيّ ، أما تآليفه في الإعجاز القرآني خاصة فتنقسم إلى قسمين :

القسم الأول :

الكتب المستقلة المفردة في الكلام على الإعجاز القرآنيّ ، ولا أعلم أن له – في هذا القسم – غيرَ كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) موضوعِ الدراسة .

القسم الآخر :

المباحث المبثوثة في كتبه التي تكلم فيها عن الإعجاز القرآنيّ مثل ((الإتقان)) و ((الخصائص النبوية الكبرى)) .

وسأتحدث هنا عن كل كتاب تضمن مباحث عن إعجاز القرآن على الترتيب الهجائيّ لأسماء الكتب مقارناً بين ماورد فيها وما جاء في ((معترك الأقران)) من الحديث عن الإعجاز :

أولا : ((الإتقان في علوم القرآن)) :

هذا الكتاب هو أجلُّ مصنف في علوم القرآن في تقديري ؛ لكبر حجمه وغزارة مباحثه وجودتها ، وقد تحدث فيه السيوطيّ عن الإعجاز باعتبارين :

الأول : إفراده نوعاً من أنواع علوم القرآن للحديث عن الإعجاز وهو النوع الرابع والستون[1] .

الآخر : باعتبار ما عدّه في ((معترك الأقران)) من وجوه الإعجاز ، وذلك نحو الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه ، والعام والخاص ، والتشبيه والاستعارة ، والكناية والتعريض[2] إلى آخر ماعدّه في ((معترك الأقران)) من وجوه الإعجاز مما سأناقشه فيه في مكان آخر ، إن شاء الله تعالى [3] .

فبهذا الاعتبارِ فإن ((الإتقان)) يكاد يكون بكامله حديثاً عن الإعجاز ، ولفهم هذه القضية فإني عقدت مقارنةً مفصلة بين ما جاء في ((معترك الأقران)) من أوجه الإعجاز وما جاء في ((الإتقان)) من أنواع علوم القرآن فوجدت – بالاستقراء والفحص – أن السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، قد أورد غالب أوجه الإعجاز التي في كتابه ((معترك الأقران)) من كتابه ((الإتقان))[4] ؛ فقد أورد في ((معترك الأقران)) خمسةً وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز وكل هذه الأوجه قد جاءت في كتابه ((الإتقان)) عدا الوجهين : الثاني والعشرين وهو : ((تيسيره –

١- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١١٦ – ١٢٥ .

٢- قد أرجأت تعريف بعض المصطلحات الواردة في هذا الموضوع ومابعده إلى الباب الثالث عند الكلام على وجوه الإعجاز التي أتى بها الإمام السيوطي ؛ إذ تعريفها هناك أنسب ، وسأعقد – إن شاء الله تعالى – فهرساً خاصاً بالمصطلحات البلاغية آخر الكتاب ليسهل الرجوع إليها .

٣- انظر ص ٣٣٧ و ما بعدها من هذه الرسالة .

٤- وإنما لم أقل بعكس هذا – أي استفادته في ((الإتقان)) من ((المعترك)) – لأني أظن أن ((المعترك)) مصنف على مرحلتين ، وقد فرغ منه بعد ((الإتقان)) ، وانظر ص ٢٧٢ من هذا البحث وما بعدها .

تعالى – حفظَه وتقريبه)) والوجه الخامس والثلاثين وهو ((ألفاظه المشتركة)) ، وهذا الوجه الأخير قد وردت نِتَفٌ منه في ((الإتقان)) لكنه توسع فيه في ((معترك الأقران)) توسعاً كبيراً استغرق ثلثي الكتاب تقريباً ، وهذا الوجه هو المبحث الجديد نسبياً ، كما سأبين ذلك بعدُ – إن شاء الله تعالى – أثناء دراسة كتاب ((معترك الأقران)) الذي هو موضوع الرسالة .

المقارنة بين الكتابين :

إذا قورنت بعض أوجه الإعجاز المذكورة في ((المعترك)) بما في ((الإتقان)) يتضح أن الإمام السيوطيّ يسلك في نقله عن ((الإتقان)) عدة مسالك ، هي :

أولاً : النقل المجرد :

حيث ينقل السيوطيّ المبحث بكامله من ((الإتقان)) إلى ((المعترك)) دون أن يتصرف فيه ، وذلك في الوجوه التالية :

١ – الوجه الثاني عشر من وجوه الإعجاز في ((المعترك)) وهو : إفادة حصره واختصاصه[١] .

٢ – والوجه الرابع عشر ، وهو : عموم بعض آياته وخصوص بعضها[٢] .

٣ – والوجه السادس عشر ، وهو : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه[٣] .

٤ – والوجه الرابع والعشرون ، وهو : تشبيهه واستعاراته[٤] .

٥ – والوجه الخامس والعشرون ، وهو : وقوع الكناية والتعريض[٥] .

١– انظر ((معترك الأقران)) : ١/ ١٨١ – ١٩٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٤٩ – ٥٣ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ – ٢١٧ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٦ – ١٨ .

٣– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٤ – ٢٢٨ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٣١ – ٣٢ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ – ٢٨٦ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٤٢ – ٤٧ .

٥– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ – ٢٩٣ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٤٧ – ٤٩ .

٦ – والوجه السادس والعشرون ، وهو : إيجازه في آية وإطنابه في أخرى[١] .

٧ – والوجه الحادي والثلاثون ، وهو : ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة[٢] .

٨ – والوجه الثالث والثلاثون ، وهو : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها[٣] .

ثانياً : النقل مع التصرف اليسير :

قد ينقل السيوطيّ – رحمه الله تعالى – المبحث كاملا من ((الإتقان)) لكنه يتصرف فيه تصرفاً يسيراً في أول المبحث أو أثنائه ، وذلك نحو :

١– الوجه الأول من وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران)) وهو ((العلوم المستنبطة منه))[٤] ، فقد أتى السيوطي – رحمه الله تعالى – بهذا المبحث في ((الإتقان)) في النوع الخامس والستين بعنوان : ((في العلوم المستنبطة من القرآن)) .

وقد تصرف في النقل من ((الإتقان)) على النحو الآتي :

١– أضاف كلماتٍ يسيرةً في أول البحث المنقول من ((الإتقان)) فقال :

((كيف لا وقد احتوى على علوم ومعارفَ لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحدٌ في كلمات قليلة وأحرف معدودة))[٥].

ثم استمر الكلام نقلا حرفياً لا يختلف إلا في آية كاملة هنا وناقصة هناك ، أو في تحريف في ((الإتقان)) مستدركٍ في ((المعترك)) – وهو في كلمة واحدة فقط – أو في تقديم كلمة وتأخير أخرى .

١– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٣ – ٣٧٣ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٥٣ – ٧٥ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٤ – ٤٧١ ، و ((الإتقان)) : ٢/ ١٣١ – ١٣٣ .

٣– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ – ٥١١ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٤٥ – ١٥١ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ١٤/١–٢٧ ، و ((الإتقان)) : ١٢٥/٢–١٣١ .

٥– ((المعترك)) : ١ / ١٤ .

٢ – ثم إن السيوطي – رحمه الله تعالى – في نهاية هذا النوعِ المنقول من ((الإتقان)) نقل أربعة أقوال لأربعة من الأئمة أثبت أطولها في ((المعترك)) وحذف الباقي منها[١] .

كان ذلك مثالاً على تصرفه اليسير في نقله من ((الإتقان)) إلى ((المعترك)) ويقاس عليه باقي المواضع ، وهي :

١ – الوجه الثاني ، وهو : حسن تأليفه والتئام كَلِمه[٢] .

٢ – والوجه الرابع ، وهو : مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض[٣] .

٣ – والوجه السابع ، وهو : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات[٤] .

٤ – والوجه الخامس عشر ، وهو : ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة[٥] .

٥ – الوجه السابع والعشرون ، وهو : وقوع البدائع البليغة فيه[٦] .

٦ – والوجه الثامن والعشرون ، وهو : احتواؤه على الخبر والإنشاء[٧] .

٧ – والوجه التاسع والعشرون ، وهو : إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتوكيدها[٨] .

٨ – والوجه الثلاثون ، وهو : اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلّة[٩] .

١– انظر ((المعترك)) : ١ / ٢٤ – ٢٥ ، و قارنه بما في ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٩ أول الصفحة – السطر الرابع – حيث قال : وقال ابن جرير ، ثم : وقال علي بن عيسى – السطر السادس – ثم قال : شيذلة – السطر العاشر – ثم عاد في منتصف صفحة ١٣٠ للنقل إلى ((المعترك)) إلى آخر النوع .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢٧–٥٤ ، و ((الإتقان)) : ٢/١١٨–١١٩ ، ٩٦–١٠٥ .

٣– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٥٤–٧٤ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٠٨–١١٤ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٩٤–١٠٨ ، و ((الإتقان)) : ٢٧–٣١ .

٥– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢١٧–٢٢٤ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٨–٢٠ .

٦– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٣٧٣–٤٢٠ ، و ((الإتقان)) : ٢/٨٣–٩٦ .

٧– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٢٠–٤٤٩ ، و ((الإتقان)) : ٢/٧٥–٨٣ .

٨– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٤٩–٤٥٥ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٣٣–١٣٥ .

٩– انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٥٦–٤٦٣ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٣٥–١٣٧ .

٩ – والوجه الثاني والثلاثون ، وهو : ما فيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف[١] .

ثالثاً : النقل مع التصرف الكثير :

قد يورد السيوطيّ المبحث من ((الإتقان)) لكنه يتصرف فيه بتقديم بعض فصوله وتأخيرِ بعضها ، وقد يزيد بعض العبارات في ((المعترك)) فتبلغ صفحة أو أكثر ، وقد يبسط المبحث في ((الإتقان)) ، لكن تبقى عبارات ((المعترك)) منقولة بنصها تقريباً من ((الإتقان)) ، إذا استثنيت الزيادة الواردة في ((المعترك)) ، وذلك نحو :

١ – الوجه الخامس من وجوه الإعجاز في ((المعترك)) ، وهو :

((افتتاح السور وخواتيمها))[٢]

فقد نقله من ((الإتقان)) حيث جاء فيه هذا المبحثُ مفرقاً على نوعين : ((النوع الستون : في فواتح السور)) ، و ((النوع الحادي والستون : في خواتم السور)) ، ثم قدّم في المباحث المنقولة وأخر فيها وزاد بعض العبارات في ((المعترك)) ليستقيم المنقول ، وتفصيل ذلك على الوجه الآتي :

أولاً : بدأ هذا الوجه في ((المعترك)) بقوله :

((وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين ، وهو أن يتأنقّ في أول الكلام ...)) ، ثم أخذ في الكلام على هذا الوجه في نحو صفحة متفقاً مع ما في ((الإتقان))[٣] مع تصرف يسير في العبارات ، ثم افترق مافي ((المعترك)) عما في ((الإتقان)) حيث

١– انظر ((معترك الأقران)) : ٤٧٢/١–٤٨٣ ، و ((الإتقان)) : ١٦٠/٢–١٦٣ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٤ – ٨٥ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٥ – ١٠٨ .

٣– ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٦ منتصفَ الصفحة تقريباً .

نقل من ((الإتقان)) النوع الحادي والستين وهو ((خواتم السور)) مع زيادة عليها في ((المعترك))[1] .

ثانيـاً : عاد بعد ذلك إلى النقل مـن النـوع السـتين مـن ((الإتقـان)) حيـث نقـل حديثاً من ((شعب الإيمان)) للبيهقيّ – رحمه اللـه تعالى[2] – واستمر هذا النقل إلى آخر النوع الستين .

ثالثـاً : أخذ بعد ذلك في الكلام على ((فواتح السور)) فنقل مافي النوع السـتين مـن بدايتـه إلى أن أتـى علـى بيتـين مـن الشـعر[3] ، ثـم أضـاف – علـى مـافي ((الإتقان)) – قرابة صفحتين خاتماً بها الكـلامَ علـى هـذا الوجـه الـذي عـدّه مـن الإعجاز في ((المعترك)) .

وهكذا فإن الإمام السيوطيّ – رحمه اللـه تعالى – قدّم وأخر في بعض مباحث ((الإتقان)) جامعـاً بـين نوعـين مـن أنـواع علـوم القـرآن ، وأضـاف إليهـا إضافـة متوسطة بين الطول والقِصَر ، وأودع كل ذلك في ((المعـترك)) وجهـاً مـن أوجـه الإعجاز .

والأمثلة الباقية على هذا الصنيع المذكور هي :

١ – الوجه السادس وهو : مشتبهات آياته[4] .

١– وهذه الزيادة هي في : ١ / ٧٧ تحت عنوان المحقق : ختم القرآن بالمعوذتين .

٢– انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٦ (ثلث الصفحة الأخير) – ١٠٧ ، و ((المعترك)) : ١ / ٧٨ – ٧٩ .

٣– انظر ((المعترك)) : ١ / ٧٩ : تحت عنوان المحقق : (في فواتح السور) – ٨٢ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٥ – ١٠٦ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٨٥ – ٩٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٥ – ١٠٨ .

٢ – والوجه الثامن ، وهو : وقوع ناسخه ومنسوخه[١] .

٣ – والوجه العاشر ، وهو : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما[٢] .

٤ – والوجه الحادي عشر ، وهو : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع[٣] .

٥ – والوجه الثالث عشر ، وهو : احتواؤه على جميع لغة العرب[٤] .

٦ – والوجه السابع عشر ، وهو : وجوه مخاطباته[٥] .

٧ – والوجه الثالث والعشرون ، وهو : وقوع الحقائق والمجاز فيه[٦] .

رابعاً : النقل مع البسط النسبيّ :

قد يجيء الوجه من وجوه الإعجاز مختصراً في ((الإتقان)) فيورده السيوطيّ في ((المعترك)) مبسوطاً بالنسبة إلى ما في ((الإتقان)) نحو **الوجه الثامن عشر وهو : ((ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات))**[٧] حيث جاء الكلام على المُغيّبات في ((الإتقان)) ضمن النوع الرابع والستين وهو ((في إعجاز القرآن)) حيث قال ناقلاً عن غيره :

((وقال قوم : وجه إعجازه ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة ولم يكن ذلك من شأن العرب ...)) في أربعة أسطر .

١– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ – ١٣٦ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٢٠ – ٢٧ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٦١ – ١٧٠ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٧٥ – ٨٢ .

٣– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٧١ – ١٨٠ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٣ – ١٦ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ – ٢٠٧ ، و ((الإتقان)) : ١ / ١٣٣ – ١٣٧ .

٥– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٩ – ٢٣٩ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٣٢ – ٣٥ .

٦– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ – ٢٦٨ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٣٦ – ٤٢ .

٧– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٠ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١١٨ .

لكن الكلام على المُغيّبات في ((المعترك)) جاء وجهاً من وجوه الإعجاز ، وهو ((ما انطوى عليه من الإخبار بالمُغيّبات)) ، حيث مثل لبعض أخبار الغيب الواردة في القرآن فكانت كما أخبر الله تعالى ، وذلك كالغيب الحاضر أو المستقبل .

وهذا الوجه الذي عدّه السيوطيّ من الإعجاز هو مختصر في ((المعترك)) لكنه مبسوط إذا قُورن بما في ((الإتقان)) .

وأوجه الإعجاز في ((المعترك)) المنقولة من ((الإتقان)) على هذا النحو هي :

١ - الوجه الثاني من وجوه الإعجاز في ((المعترك)) وهو : ((كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان))[١] .

٢ - والوجه التاسع عشر ، وهو : ((إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة))[٢] .

٣ - والوجه العشرون ، وهو : ((روعته وهيبته))[٣] .

٤ - والوجه الحادي والعشرون ، وهو : ((أن سامعه لا يمجه وقارئه لا يمله))[٤] .

خامساً : النقل مع الاختصار :

قد يجيء الوجه من وجوه الإعجاز مطوّلاً في ((الإتقان)) فيورده السيوطيّ في ((المعترك)) مختصراً ملخصاً ، وقد يزيد عليه ألفاظاً ؛ وذلك نحو :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ /٢٤٠ - ٢٤٢ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٢ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٢ - ٢٤٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢١، ١٢٣ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٣ .

١ – **الوجه التاسع ، وهو : انقسامه إلى محكم ومتشابه**[1] ، حيث اختصر ما في ((الإتقان)) على النحو الآتي :

أولاً : اختصر الكلام على تعريف المحكم والمتشابه ، وكلام الأئمة في أنواعه[2] .

ثانيـاً : اختصر الكلام على قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[3]

حيث قال :

((وقد أكثر [بعض][4] الناس في جواب هذه الآية حتى أنهاه إلى عشرين ، حذفناها للإطالة))[5] .

وقد حكى بعض هذه الأقوال في ((الإتقان))[6] .

ثالثـاً : اختصر الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور بينما توسع في الكلام عليها في ((الإتقان))[7] .

ومثال هذا الصنيع أيضاً – وهو النقل مع الاختصار – كلامه على الوجه الرابع والثلاثين من الأوجه التي عدَّها معجزةً في ((المعترك)) و هو : ((احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب)) الذي لخصه من ((الإتقان))[8] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ – ١٦١ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٢-١٣ .

٢- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ٢ – ٦ ، و ((المعترك)) : ١ / ١٣٦ – ١٤٦ مع ملاحظة أن في ((المعترك)) صفحاتٍ مدرجة خارجة عن موضوع المحكم والمتشابه وهي الصفحات من بعد ص ١٣٨ إلى صفحة ١٤٣ .

٣- سورة طه : آية ٥ .

٤- زيادةٌ متعينة ليستقيم المعنى .

٥- ((المعترك)) : ١ / ١٤٨ .

٦- ((الإتقان)) : ٢ / ٦ – ٧ .

٧- انظر ((المعترك)) : ١ / ١٥٥ – ١٥٨ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٨ – ١٢ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٢ – ٥١٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٧ – ١٤٥ .

وبهذا ينتهي الكلام على الأوجه الأربعة والثلاثين التي في ((المعترك)) وهي منقولة من الإتقان – على ما بينته من أوجه النقل – عدا الوجه الثاني والعشرين كما بينت سابقاً[1] .

أما الوجه الخامس والثلاثون من أوجه الإعجاز في ((معترك الأقران)) – أكبر الأوجه في الكتاب – فهو لم يأت بتمامه في ((الإتقان)) ولكن ورد فيه بعض النصوص التي نقلها إلى ((المعترك)) ، وطريقة النقل كالتالي :

أولاً : نصوص نقلها حرفيّاً ، منها :

أ – في فصل الهمزة من الوجه الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز في ((المعترك)) نقل أسماء الأنبياء من ((الإتقان)) نقلاً حرفياً[2] .

ب – نقل أسماء القرآن تحت قوله تعالى : ﴿ مَاكَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [3] في ((المعترك)) من ((الإتقان)) نصاً[4] .

ج – وأورد آخر الكتاب فصلاً كاملاً كبيراً من ((الإتقان)) نقله بنصه وهو ((قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها))[5] .

ثانياً : نصوصٌ تصرف في نقلها :

أورد السيوطيّ في ((المعترك)) نقولاً من ((الإتقان)) في هذا الوجه – الوجهِ الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز – أوردها بتصرف يسير وزيادات يسيرة ، فمنها :

ما جاء تحت قوله تعالى ﴿لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ فقد أورد فصل (نزول القرآن) من

١– انظر ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٩ – ٥٢٣ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٧ – ١٤٠ .

٣– سورة يوسف : آية ١١١ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٩٤ – ٣٠٣ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٥٠ – ٥٢ .

٥– انظر ((معترك الأقران)) : ٣/ ٥٧٤ – ٦٢٢ ، و ((الإتقان)) : ١ / ١٨٦ – ٢٠٠ .

((الإتقان))[١] .

ثالثاً : نصوص اختصرها :

وقد يأتي مافي ((الإتقان)) مطوّلاً فيختصره في ((المعترك)) ، فمن ذلك :

(أ) تحت قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ لخص آداب قراءة القرآن من ((الإتقان))[٢] .

(ب) تحت قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ لخص ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة[٣] .

(ج) تحت قوله تعالى : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ لخص أسماء السور مع زيادة يسيرة[٤] .

هذا عدا أَخْذِه مما جاء في ثنايا ((الإتقان)) – مما لايندرج تحت طرق النقل المذكورة آنفاً – ففرّقه في ((معترك الأقران)) في الوجه الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز .

وهذا الوجه هو أعظم أوجه الكتاب وأكبرها على الإطلاق وسيأتي وصفه – إن شاء الله تعالى – عند دراسة الكتاب[٥] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٠٢ – ٢١٨ ، و((الإتقان)) : ١ / ٣٩ – ٤٥ ، والآية من سورة الدخان : ٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٢٣ – ١٣١ ، و ((الإتقان)) : ١ / ١٠٤ – ١١١ ، والآية من سورة المزمل : ٤ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٤٣ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٣٤ – ٣٥ ، والآية من سورة التحريم : ٤ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٣٦ – ٢٤٦ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٥٢ – ٥٤ ، والآية من سورة الحجر : ٨٧ .

٥- انظر ص ٣٩٨ ومابعدها من هذه الرسالة .

والوجه الذي لم يأت في ((الإتقان)) هو الوجه الثاني والعشرون وهو ((تيسيره – تعالى – حفظه وتقريبه)) ، وهو وجه قصير لا يتعدّى صفحتين من المطبوع[١] .

وهناك ملاحظتان أُخريان في نقل الإمام السيوطيّ من ((الإتقان)) ، وهما :

أولاً : قد أفرد السيوطيّ في ((الإتقان)) مبحثاً خاصاً في إعجاز القرآن – كما ذكرت سابقاً[٢] – وهو النوع الرابع والستون[٣] ، ذكر فيه من ألف في الإعجاز ، ثمّ عرف الإعجاز تعريفاً موجزاً ، ثمّ أورد أوجه الإعجاز عند الأئمة الذين سبقوه دون أن يرجح واحداً من تلك الأقوال ، ثم أورد تنبيهاتٍ متفرقةً ذكر فيها قدر المعجز من القرآن ، وتفاوتَ القرآن في الفصاحة ، والحكمةَ في تنزيه القرآن عن الشعر ، إلى غير ذلك من التنبيهات والمباحثِ .

والعجب أن الإمام لم يورد هذا النوعَ من علوم القرآن – وهو النوع الرابع والستون – لم يورده في ((معترك الأقران)) إلا على وجه الإشارة والإيجاز مع أنه عظيم التعلقِ بموضوع الكتاب ، خاصة أنه قد أورد في ((المعترك)) أنواعاً كثيرة لا تعلّقَ لها بموضوع الكتاب أصلاً كما سأبين ، إن شاء الله تعالى ، بالتفصيل عند دراستي للكتاب موضوعِ البحث[٤] .

الملاحظة الأخرى :

قد أورد السيوطيُّ رحمه الله تعالى – في ((الإتقان)) نوعاً من أنواع علوم القرآن ، وهو النوع الخامس والسبعون : ((في خواصّ القرآن))[٥] كان حرياً أن يورده في

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٥ – ٢٤٦ .

٢- انظر ص ٢٣٢ .

٣- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١١٦ – ١٢٥ .

٤- انظر ص ٣٣٩-٣٤٠ من هذه الرسالة .

٥- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١٦٣ – ١٦٦ .

((معترك الأقران)) لما له من عظيم التعلق بموضوع الإعجاز لأنه ذكر فيه خاصية آيات القرآن في شفاء الأمراض وقضاء الديون وإذهاب الهم والحزن إلخ ...

وكل ذلك له تعلق بإعجاز القرآن وهو من البراهين الدالّة على صحته .

وأقول : كان حرياً به أن يورد هذا النوع في ((المعترك)) لأنه أورد فيه أوجهاً لا تعلق لها بموضوع الإعجاز ، وهذا النوع المتروك ألصقُ بالإعجاز من غيره ، والله أعلم .

وبعد المقارنة بين ما جاء ((المعترك)) بما جاء في ((الإتقان)) من مباحث يتبين جلياً أمران :

الأول منهما : أن الباحث لا يستطيع الحكم الشافي على مذهب السيوطيّ في الإعجاز إلا بضميمة ((المعترك)) مع ((الإتقان)) بحيث يتكاملان وتظهر من ذلك النظرة الكلية للسيوطيّ - رحمه الله تعالى - في إعجاز القرآن العظيم .

الآخر : أن مادة كتاب ((معترك الأقران)) مستقاة - في أكثرها - من كتاب ((الإتقان)) .

قد أطنبت في المقارنة بين ((الإتقان)) و ((المعترك)) لأن ذلك مطلوب في هذا المبحث ، ولأن هذا الإطناب مفيد في بعض المباحث القادمة كمبحث تحقيق عنوان الكتاب[1] .

١- انظر ص ٢٧٠ ومابعدها .

ثانياً : كتاب ((أسرار ترتيب القرآن)) أو ((تناسق الدرر في تناسب السور))[1] :

قد ذكر السيوطيّ في ((معترك الأقران)) في الوجه الرابع من وجوه الإعجاز - وهو : ((مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض)) - ذكر أنه قد أفرد فيه تأليفاً باسم ((تناسق الدرر في تناسب السور))[2] لخصه من تأليف له آخر يسمّى ((أسرار التنزيل))[3] .

وقد جاء كتاب ((تناسق الدرر)) متوسطاً بين الإيجاز والإطناب ، وأورد فيه السيوطيّ المناسبات بين السور على ترتيبها في المصحف .

وإنما سُقت هذا الكتاب في مصنفات السيوطيّ في الإعجاز لأن السيوطيّ نفسَه - رحمه الله تعالى - اعتمد المناسبة بين السور وجهاً من وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران)) ، وسيأتي ذكر ذلك ومناقشته في الباب الثالث[4] ، إن شاء الله تعالى .

١- سمى السيوطيُّ - رحمه الله تعالى - كتابه بهذين الاسمين - كما جاء في مقدمة الكتاب ، وقد طُبع الكتاب مرتين بكلا الاسمين و المحقق واحد ؟ !! والعجيب أن ((تناسق الدرر)) قد طبع في دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٦ لأول مرة ، بينما طبع الكتاب نفسه باسم أسرار ترتيب القرآن سنة ١٣٩٨ للمرة الثانية في دار الاعتصام بالقاهرة ، ومقدمة المحقق متشابهة في كلا الطبعتين بل في طبعة دار الكتب العلمية صفحات منقولة من مقدمة طبعة الاعتصام ، والعجيب أنه في مقدمة طبعة دار الكتب العلمية ذكر المحقق الكتاب باسم ((تناسق الدرر)) حتى إذا جاءت صفحة ٥١ وهي بداية الكتاب المحقق كُتب فيها عنوان الكتاب : ((أسرار ترتيب القرآن)) ؟ ! ! فلا أدري من هو وراء هذا التلاعب ؟ !

٢- انظر ((المعترك)) : ١ / ٥٥ .

٣- وهذا الكتاب له اسم آخر وهو : ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) ، وقد طُبع هذا الكتاب في قطر ، انظر فهرس المصادر والمراجع .

٤- انظر ص ٣٥٢ ومابعدها .

ثالثاً : كتاب ((الإكليل في استنباط التنزيل))[1] :

هذا كتاب جمع فيه الإمام السيوطيّ استنباطاتِ الأئمة للمعاني الكثيرة من آيات القرآن الكريم ، وجمع فيه - أيضاً - استنباطاتِه واستخراجاتِه لهذه المعاني ، وهو ليس كتاباً في الإعجاز ولكنّ السيوطيّ ذكر في مقدمة الكتاب اشتمال القرآن الكريم على العلوم الدينيّة والأخرويّة ، وهو عند السيوطيّ نوعٌ من أنواع الإعجاز ، حيث إن مقدمة كتاب ((الإكليل)) تكاد تكون هي بنصها الوجهَ الأول من وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران))[2] .

وسوف أناقش - إن شاء الله تعالى - كونَ ذلك من الإعجاز أم لا في الفصل الأول من الباب الثالث [3] .

١- الكتاب مطبوع متداول بتحقيق الأستاذ سيف الدين الكاتب ، طبع دار الكتب العلميّة ، وهو الآن يحقق في رسالة ((دكتوراه)) للشيخ عامر العرابيّ في جامعة أم القرى .

٢- انظر ((الإكليل)) : ١١ - ٢٣ ، و ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ - ٢٧ .

٣- انظر ص ٣٤٥ ومابعدها من هذه الرسالة .

رابعاً : ((التحبير في علم التفسير)) :

هذا كتاب متوسّط الحجم - في علوم القرآن - ألّفه السيوطيّ قبل أن يؤلف كتابه ((الإتقان))[1] ثم توسع في ((الإتقان)) توسعاً عظيماً فكان كتاب ((التحبير)) كالأصل لكتاب ((الإتقان)) .

وقد سرد في ((التحبير)) أنواعاً من علوم القرآن أوردها في ((معترك الأقران)) أوجهاً من وجوه الإعجاز - ولهذا ذكرت هذا المؤلَّفَ - ((التحبيرَ)) - ضمن مؤلّفات السيوطيّ في الإعجاز وإلا فالحقُّ أن كثيراً مما أورده في ((المعترك)) لايعد من الإعجاز - كما سأبين ذلك إن شاء الله حال دراستي للكتاب[2] - وهاهي الأنواع التي ذكرها في ((التحبير)) مختصرةً وقد وردت في ((معترك الأقران)) أوجهاً من وجوه الإعجاز مفصّلةً مطوّلةً :

١ - النوع الأربعون : المُعرَّب[3] .

٢ - النوع الحادي والأربعون : المجاز[4] .

٣ ، ٤ - النوع الرابع والأربعون والخامس والأربعون : المحكم والمتشابه[5] .

٥- النوع السادس والأربعون : المشكل[6]

٦ ، ٧ - النوع السابع والأربعون والثامن والأربعون : المجمل والمبيّن[7] .

٨ - النوع التاسع والأربعون : الاستعارة[8] .

٩ - النوع الخمسون : التشبيه[9] .

١- انظر مقدمة محقق كتاب ((التحبير)) : ١٢ - ١٣ ، ومقدمة ((الإتقان)) : ١ / ٤ - ٥ فقد سرد فيها أنواع علوم القرآن التي أوردها في ((التحبير)) وذكر سنة تأليف كتاب التحبير وهي سنة ٨٧٢ .

٢- انظر ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ - ٢٠٦ ، و ((التحبير)) : ٢٠٠ - ٢٠٢ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ - ٢٦٨ ، و ((التحبير)) : ٢٠٣ - ٢١٣ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ - ١٦١ ، و ((التحبير)) : ٢١٨ - ٢٢٠ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٤ - ١٠٨ ، و ((التحبير)) : ٢٢١ - ٢٢٣ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢١٧ - ٢٢٤ ، و ((التحبير)) : ٢٢٤ - ٢٢٥ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ - ٢٨٦ ، و ((التحبير)) : ٢٢٦ - ٢٢٩ .

٩- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢٦٩-٢٨٦ ، و ((التحبير)) : ٢٣٠ - ٢٣١ .

١٠ ، ١١ – النوع الحادي والخمسون والثاني والخمسون : الكناية والتعريض[١] .

١٢ – النوع الثالث والخمسون : العام الباقي على عمومه[٢] .

١٣ – النوع الرابع والخمسون والخامس والخمسون : المخصوص والذي أريد به الخصوص[٣] .

١٥ ، ١٦ – النوع السادس والخمسون والسابع والخمسون : ماخصّ فيه الكتاب السُّنَّةَ وما خصت فيه السنة الكتاب[٤] .

١٧ – النوع الثامن والخمسون : المؤوّل[٥] .

١٨ – النوع التاسع والخمسون : المفهوم[٦] .

١٩ ، ٢٠ – النوع الثاني والستون والثالث والستّون : الناسخ والمنسوخ[٧] .

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ – النوع السادس والستون والسابع والستون والثامن والستون : الإيجاز والإطناب والمساواة[٨] .

٢٤ – النوع التاسع والستون : الأشباه[٩] .

٢٥ – النوع الثاني والسبعون : القَصْر[١٠] .

٢٦ – النوع الثالث والسبعون : الاحتباك[١١] .

٢٧ – النوع الرابع والسبعون : القول بالموجب[١٢] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ – ٢٩٣ ، و ((التحبير)) : ٢٣٢ – ٢٣٤ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ – ٢١٧ ، و ((التحبير)) : ٢٣٥ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٢٠٧/١–٢١٧ ، و ((التحبير)) : ٢٣٦ – ٢٣٩ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ – ٢١٧ ، و ((التحبير)) : ٢٤٠ – ٢٤٢ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٥٣ – ٢٥٤ ، و ((التحبير)) : ٢٤٣ – ٢٤٤ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٤ – ٢٢٨ ، و ((التحبير)) : ٢٤٥ – ٢٤٨ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ – ١٣٦ ، و ((التحبير)) : ٢٥١ – ٢٦٠ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٣ – ٣٧٣ ، و ((التحبير)) : ٢٦٤ – ٢٧٠ .

٩- أي الآيات المتشابهة ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٨٥ – ٩٤ ، و ((التحبير)) : ٢٧١ – ٢٧٣ .

١٠- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ – ١٩٤ ، ٣٠٤ ، و ((التحبير)) : ٢٧٨ – ٢٨١ .

١١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٢٣ ، وقد حُذِف أول هذا النوع بالخلط الطباعيّ الذي حصل في الصفحات وسأشير إلى ذلك في الدراسة إن شاء الله ، وانظر ((التحبير)) : ٢٨٢ – ٢٨٤ .

١٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦١ – ٤٦٢ ، و ((التحبير)) : ٢٨٥ – ٢٨٦ .

٢٨ – النوع الخامس والسبعون : المطابقة[١] .

٢٩ – النوع السادس والسبعون : المناسبة[٢] .

٣٠ – النوع السابع والسبعون : المجانسة[٣] .

٣١ ،٣٢ – النوع الثامن والسبعون والتاسع والسبعون : التورية والاستخدام[٤] .

٣٣ – النوع الثمانون : اللفّ والنشر[٥] .

٣٤ – النوع الحادي والثمانون : الالتفات[٦] .

٣٥ – النوع الثاني والثمانون : الفواصل والغايات[٧] .

٣٦ – النوع السادس والثمانون : مفردات القرآن[٨] .

٣٧ – النوع السابع والثمانون : الأمثال[٩] .

٣٨، ٣٩ – النوع الثامن والثمانون والتاسع والثمانون : آداب القارئ والمقرئ[١٠] .

٤٠ – النوع الخامس والتسعون : تسمية السور[١١] .

٤١ – النوع السابع والتسعون : الأسماء[١٢] .

٤٢ ، ٤٣ – النوع الثامن والتسعون والتاسع والتسعون : الكنى والألقاب[١٣] .

٤٤ – النوع المائة : المبهمات[١٤] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤١٤ – ٤١٥ ، و ((التحبير)) : ٢٨٧ – ٢٨٨ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤١١ – ٤١٢ ، و ((التحبير)) : ٢٨٩ – ٢٩١ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٩٩ – ٤٠٢ ، و ((التحبير)) : ٢٩٢ – ٢٩٥ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ ٣٧٤ – ٣٧٧ ، و ((التحبير)) : ٢٩٦ – ٢٩٧ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٠٨ – ٤١٠ ، و ((التحبير)) : ٢٩٨ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٧ – ٣٨٥ ، و ((التحبير)) : ٢٩٩ – ٣٠٢ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩ – ٤٨ ، و ((التحبير)) : ٣٠٣ – ٣٠٤ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٧٢ – ٤٨٣ ، و ((التحبير)) : ٣١٠ – ٣١٣ .

٩- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٤ – ٤٧١ ، و ((التحبير)) : ٣١٤ – ٣١٦ .

١٠- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٢٣ – ١٣١ ، و ((التحبير)) : ٣١٧ – ٣٢٢ .

١١- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٣٦ – ٢٤٦ ، و ((التحبير)) : ٣٦٨ – ٣٧٠ .

١٢، ١٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٢ – ٥١٤ ، وانظر ((التحبير)) ٣٧٨ – ٣٩٠ .

١٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٤٨٤/١ – ٥١١ ، و ((التحبير)) : ٣٩١ – ٤٣٦ .

خامساً : كتاب ((الخصائص الكبرى)) أو ((كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)) صلى الله عليه وسلم :

قد أورد السيوطيّ بعض مباحث الإعجاز في كتابه هذا في ثلاثة مواضع :

الموضع الأوّل : بـاب إعجـاز القرآن ، واعتراف مشركي قريش بإعجازه ، وأنّه لايشبه شيئاً من كلام البشر ، ومن أسلم لذلك .

أورد السيوطيّ في هذا البـابِ بعضَ الآثـار التي ذكرت اتِّهـام مشركي قريش الرسولَ العظيم – صلى اللـه عليه وسلم – بالسحـر ، وأورد أيضـاً بعض الآثار التي تبين عجزهم وانقطاعهم حال سماعهم القرآنَ .

ثـمّ أورد فصـلاً في إثبـات الإعجــاز للقـرآن ، ذكـر فيـه عـدداً مـن وجـوه الإعجاز : قد ذكرها في ((المعترك)) ، وهي :

١ – ((حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحتـه ، ووجوه إعجـازه ، وبلاغتـه الخارقـة عادةَ العربِ الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن))(١) .

٢ – ((ومنهـا صـورة نظمـه العجيب والأسلـوب الغريب المخالف لأساليب كـلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها))(٢) .

٣ – ((ومـنهـا ما انطـوى عليـه مـن الإخبـار بالمغيبـات وما لم يكـن فوجـد كمـا ورد))(٣) .

---

١ ، ٢ – انظر ((الخصائص)) : ١ / ٢٨٩ ، ((ومعترك الأقران)) : ١ / ٢٧ – ٥٤ .

٣– انظر ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ ، و ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٠ .

٤ – ((ومنها ما أنبأ به من أخبار القرون الماضية والشرائع السالفة))[١] .

٥ – ومنها ماتضمنه مِن الإخبار عن الضمائر كقوله تعالى :
﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾[٢] [٣] .

٦ – ((ومنها آيٌ وردتْ بتعجيز قوم في قضايا وإعلامِهم أنهم لايفعلونها ، فما فعلوا ولا قدروا : كقوله في اليهود ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[٤] [٥] .

٧ – ((ومنها ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة))[٦] .

٨ – ((ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبةُ التي تعتريهم عند سماع تلاوته))[٧] .

٩ – ((ومنها أن قارئه لا يملُّه ، وسامعه لايمجه))[٨] .

١٠ – ((ومنها كونه آية باقية لا يُعدم مابقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه))[٩] .

١– انظر ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ ، و ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ – ٢٤١ .

٢– سورة آل عمران : آية ١٢٢ .

٣– ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ .

٤– سورة البقرة : آية ٩٥ .

٥– ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ .

٦– المصدر السابق .

٧– المصدر السابق ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٢ – ٢٤٤ .

٨– المصدر السابق : ١ / ٢٩١ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٤ – ٢٤٥ .
والمجّ معناه اللفظ والترك ، انظر ((لسان العرب)) : مجج .

٩– ((الخصائص)) : ١ / ٢٩١ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .

١١ - ((ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة))[١] .

١٢ - ((ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة ، وهما كالمتضادين لايجتمعان في كلام البشر غالباً))[٢] .

١٣ - ((ومنها جعلُه آخرَ الكتب غنياً عن غيره ، وجعلُ غيرِه من الكتب المتقدمة قد تحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه ، كما قال تعالى :
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٣] [٤] .

وهذه الأوجه - كما أشرت في الهامش - مذكورٌ أكثرها بتوسع في كتاب ((معترك الأقران)) .

وقد نقل السيوطيّ - رحمه الله تعالى - الأوجه الأربعة الأولى ، والوجه السادس والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر ، نقل تلك الأوجه بالنص تقريباً من ((شفاء)) القاضي عياض[٥] ، وقد أشار لذلك إشارة مبهمة[٦] .

وأورد الوجه الخامس والثاني عشر والثالث عشر من ((برهان)) الزركشيّ ، نقلاً بالنص مع عدم الإشارة لنقله منه[٧] .

١- المصدر السابق : ١ / ٢٩١ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ - ٢٤ .

٢- ((الخصائص)) : ١ / ٢٩١ .

٣- سورة النمل : آية ٧٦ .

٤- ((الخصائص)) : ١/٢٩١ .

٥- انظر بالترتيب : ((الشفا)) : ١ / ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ .

٦- انظر ((الخصائص الكبرى)) : ١ / ٢٩١ .

٧- انظر ((البرهان)) بالترتيب : ٢ / ٩٦ ، ١٠٧ .

ثم إن السيوطيَّ – رحمه اللـه تعالى – فصّل ، في كتاب ((الخصائص)) ، في وجوه إعجاز القرآن بعملية حسابية فبلغت تلك الوجوهُ عشراتٍ من الألوف ، وبيان ذلك أنه قال :

((قال القاضي عياض : إذا عرفت ماذُكر من وجوه إعجاز القرآن عرفتَ أنه لايُحصى عددُ معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر ؛ لأنه – صلى الله عليه وسلم – قد تحدى بسورة منه فعجزوا عنها ، قال أهل العلم : وأقصر السور ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ، فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة ، ثم فيها نفسها معجزات على ماسبق .

قلت : وإذا عددت كلمات سورة الكوثر وجدتها بضعَ عشرة كلمة ، وقد عد قوم كلمات القرآن سبعاً وسبعين ألف كلمة وتسعمائة وأربعاً وثلاثين ، فالقدر المعجز منه يكون في العدد نحو سبعة آلاف تقريباً[1] تضرب في ثمانية أوجه : الأولان والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر[2] تبلغ ستاً وخمسين ألف معجزة ، ثم ينضم إلى ذلك في بعضه من الوجه الثالث والرابع والخامس والسادس جملة وافرة فتصل معجزات القرآن بذلك إلى ستين ألف معجزة أو أكثر))[3] .

الموضع الثاني[4] :

((باب اختصاصه – صلىّ الله عليه وسلم – بأن كتابه معجز ومحفوظ من التبديل والتحريف على مرّ الدهور ، وجامع لكل شيء ، ومستغنٍ عن غيره ، ومشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب وزيادة ، وميسر للحفظ ، ونزل

١- وذلك بقسمة عدد كلمات القرآن على عدد كلمات سورة الكوثر .

٢- وهي بعضٌ من الأوجه التي أوردها في كتابه ((الخصائص الكبرى)) وذكرتها آنفاً .

٣- ((الخصائص الكبرى)) : ١ / ٢٩٢ .

ولايخفى مافي ذلك من التكلف الذي ينزه عنه إعجاز القرآن ، والله أعلم .

٤- أي من المواضع التي ذكر فيها إعجاز القرآن في كتابه ((الخصائص الكبرى)) .

منجماً[1] ، ونزل على سبعة أحرف ، ومن سبعة أبواب[2] ، وبكل لغة))[3] .

ثم أتى بطائفة من الآيات والأحاديث والآثار التي تدل على عنوان الباب .

الموضع الثالث :

باب : ((واختصّ بأن معجزته مستمرة إلى يوم القيامة ، وهي القرآن ، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها ، وبأنه أكثر الأنبياء معجزاتٍ ...))[4] .

هذا ماوجدته من الكلام على الإعجاز في كتاب ((الخصائص)) ، والله أعلم .

١- أي مفرقاً ، انظر ((لسان العرب)) : ن ج م .

٢- يشير إلى الحديث : ((نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجراً ، وآمراً ، وحلالاً ، وحراماً ، ومحكماً ، ومتشابهاً ، وأمثالاً ...)) .

والحديث أخرجه الحاكم وغيره عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، انظر ((المستدرك)) : ١ / ٧٣٩ .

٣- ((الخصائص الكبرى)) : ٣ / ١٢٧ - ١٣١ .

٤- المصدر السابق : ٣ / ١٣١ .

سادساً : كتاب ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) [1] .

هذا كتاب صنّفه الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - لتوضيح أسرار المناسبات بين الآيات بعضها ببعض ، وأسرار المناسبات بين السور أيضاً .

وقد ذكر أن كتابه حوى جميع الأوجه التي قيلت في الإعجاز القرآنيّ ، فقال في ((معترك الأقران)) :
((الوجه الرابع : مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقةَ المعاني ، منتظمة المباني .

وقد ألف علماؤنا في أسرارها تواليف كثيرة ... **وكتابي الذي صنفته في أسرار التنزيل** كافل بذلك ، جامع لمناسبات السور والآيات مع ماتضمنه مرتباً من جميع وجوه الإعجاز ، وأساليب البلاغة ، وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته : ((تناسق الدرر في تناسب السور))[2]

لكني تصفحت هذا الكتاب - ((قطف الأزهار)) - فلم أجد فيه كلاماً عن وجوه الإعجاز ، إنما قال الإمام السيوطي في مقدمة الكتاب :
((وهذا كتاب ... أذكر فيه جميع ماوصل إلى علمي من كلام العلماء في النظم القرآنيّ : من أسرار التقديم والتأخير ، والتأكيد والحذف ... والنكت البيانية ... وسر ما اختلفت فيه الآيات المتشابهة من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقص أو

١- قد سماه بهذا الاسم في ((الإتقان)) : ٢/١١٥ لكن في ((معترك الأقران)) : ١/٥٥ لم يسمه وإنما ذكر موضوعه فقط ، وانظر نص كلامه عنه في متن هذه الصفحة .
واشتهر هذا الكتاب باسم ((أسرار التنزيل)) ، انظر ((دليل مخطوطات السيوطي)) : ٣٠ ، وانظر ((مكتبة الجلال السيوطي)) : ٢٧٦ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١/٥٤-٥٥ .

إبدال كلمة بأخرى ... وأنبه على القراآت المختلفة ... وأبين مناسبة ترتيب السور ، والخـفِيِّ من مناسبات الآيات إلى غير ذلك من النكت والأسرار))[1] .

هذا و لم أجـد في الكتـاب كلاماً علـى أوجـه الإعجـاز ، والكتـاب لم يتمـه مصنفه إنما وصل فيه إلى أثناء سورة التوبة فقط[2] ، فلعلـه أراد الكـلام علـى وجـوه الإعجاز في مظانها من سورة يونس وهود والإسراء .

١- ((قطف الأزهار)) : ١/٩٥-٩٨ .

٢- انظر مقدمة تحقيق ((قطف الأزهار)) : ١/٨٥ .

سابعـا : كتاب ((مُفحِمات الأقران في مبهمات القرآن)) :

قـد ذكـر السيـوطي ، رحمـه الله تعالى ، في ((معترك الأقران)) في الوجـه الثالث والثلاثين من وجوه إعجازه - وهـو : ورود آيـات مبهمـة يحار العقل فيها - ذكر أن لـه تأليفـاً لطيفـاً في هذا الموضوع[1] ، وتأليفه الـذي أشـار إليـه هـو كتـاب ((مُفحِمـات الأقـران)) أورد فيـه جميـع مبهمـات الأشخـاص والأمـاكـن والأزمنـة والحيوانات إلخ ... مرتبة على سور القرآن الكريم .

والسيـوطيّ - رحمـه الله تعـالى - قـد لخـص الكـلام على المبـهمـات فـي ((المعترك)) مـن كتابـه ((مُفْحِمـات الأقـران في مبهمـات القـرآن)) عـلى النحـو التالي :

أولاً : نـقـل أسـبـاب الإبهـام إلـى ((المعترك)) نقـــلاً حرفيـاً مـن ((مفحمــات الأقران))[2] .

ثانياً : أورد في ((المعترك)) بحثاً موضوعه : هل يُبحث عن المبهـم أم لا ؟ أورده بالنص من ((مفحمات الأقران))[3] .

ثالثاً : ثم إنه ذكـر بعـض ما أُبهـم فـي القـرآن ملخصاً مـن كتـــاب ((مفحمات الأقران))[4] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ - ٤٨٥ ، و ((مفحمات الأقران)) : ٩ - ١٠ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٥ - ٤٨٦ ، و ((مفحمات الأقران)) : ٨ (الفقرة الثالثة) - ٩ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٦ - ٥١٠ ، و ((مفحمات الأقران)) : ١٠ - ١٢٣ .

وأنا لاأوافقه على ماصنعه من إيراد المبهمات وجهاً من أوجه الإعجاز ، كما سأبين ذلك في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى[1] .

هذا ماوجدته من آثار السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في إعجاز القرآن العظيم مبثوثاً في كتبه ، وكثير منها لايعد من الإعجاز ، كما أسلفت ، والله أعلم .

١- انظر ص ٣٩٥ وما بعدها من هذه الرسالة .

المبحث الرابع : منزلته العلمية ، وأقوال العلماء فيه ، وتحقيق ذلك :

الإمام السيوطيّ إمام كبير من أئمة العلم - رحمه الله تعالى - ويكفي أنه صنّف في علوم شتى مبسوطاتٍ وكتباً استفاد منها العلماء قديماً وحديثاً غاية الاستفادة ، ويكفي - أيضاً - أن كثيراً منها هو من الأصول التي تقوم عليها الدراسات العليا في فروع متنوعة من العلوم الشرعية والعربية ، نحو ((الإتقان في علوم القرآن)) و ((الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور)) ، و ((تدريب الراوي شرح تقريب النواويّ)) في علوم الحديث ، و ((المزهر في علوم اللغة وآدابها)) إلخ ...

وهذه الكتب - ومثيلاتها من كتبه - مطبوعة متداولة مشهورة .

وقد حفظ الله سبحانه وتعالى بكتبه كثيراً من العلم ؛ فكم من كتاب قد فقد أو هو في حكم المفقود الآن قد ضمّنه السيوطيّ أحدَ كتبه الكثيرة .

وقد كان لتأخر زمن السيوطيِّ - رحمه الله تعالى - أثرٌ مهم في جمعه وتمحيصه لأقوال أئمة العلمِ واعتنائه بها ، وهي مِيزةٌ ظاهرةٌ في جميع كتب السيوطيِّ المتداولة تقريباً ، وإذا عُدّ السيوطيّ آخر الأئمة الحفاظ الكبار - وهذا هو الصحيح[1] - فإننا ندرك بهذا أهمية كتبه ورجاحتها في ميزان النقد العلميِّ .

ويبقى الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - بعد هذا كلِّه بشراً يصيب ويخطئ كما يصيب البشر ويخطئون ، وهو بهذا لم يخرج عن سَنن العلماء ، ولم يَحِد عن نهج الفضلاء الكبراء ، ولَعَمْر الحقِّ إنه لأحد فحول العلماء

١ - لأن من جاء بعده - ومن أبرزهم شيخ الإسلام المعمَّر زكريّا الأنصاري (ت ٩٢٦) - لم يبلغوا ، والله أعلم ، مبلغَه في العلم ، ولاأحاطوا به حِياطةَ السيوطي رحمهم الله تعالى .

المتأخرين ، وأين مثله اليوم في اتساع دائرته في العلم وإحاطته بجملة وافرة من علوم الشرع وعلوم عصره الأخرى ؟ رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وقد امتدحه كثير من العلماء والفضلاء وأثنوا عليه وأقروا له بالعلم والإمامة[١] .

لكنّ العالم لايسلم من النقد خاصة من أقرانه ((فإنّ السخاويّ[٢] في ((الضوء اللامع))[٣] – وهو من أقرانه – ترجمه ترجمة مُظلمة غالبها ثَلْبٌ فظيع ، وسبٌّ شنيع ، وانتقاصٌ وغَمْطٌ لمناقبه تصريحاً وتلويحاً))[٤] .

((وهو غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول الأقران[٥] في بعضهم بعضاً مع ظهور أدنى منافسة ، فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين))[٦] .

١- مثل تلميذه الشيخ محمد بن علي الداوديّ ، وعبد الوهّاب الشعراني في ((الطبقات الصغرى)) ، والشيخ محيي الدين العيدروسيّ في ((النور السافر)) ، وابن العماد الحنبليّ في ((شذرات الذهب)) ، ونجم الدين الغزيّ في ((الكواكب السائرة)) ، وغيرهم كثير قديماً وحديثاً .

٢- هو الشيخ الإمام العلامة الرُّحَلة الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاويّ القاهريّ الشافعيّ . ولد سنة ٨٣١ . حفظ القرآن وهو صغير ، وحفظ عدة متون ، وعرضها على مشايخ عصره ، وبلغ من أخذ عنه أكثر من ٤٠٠ شيخ ، واختصّ بشيخ الإسلام ابن حجر وكان يحبه ويُثني عليه . وله مصنفات كثيرة . توفي سنة ٩٠٢ بالمدينة الشريفة بعد مجاورة فيها زمناً .
انظر ((النور السافر)) : ١٦ – ٢١ .

٣- انظر أقوال الإمام السخاوي في الإمام السيوطي في ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٥ – ٧٠ ، وانظر تفنيد الشوكانيِّ بعضَ أقوال الإمام السخاويّ في ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٣٢ – ٣٣٤ .

٤- ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٢٩ .

٥-كذا في المطبوع ، ويتوجه بإضافة (قول) أو نحوه .

٦- ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٣٣ .
وممن تنقّص السيوطيّ أيضاً من علماء عصره : ابن الكَرَكيّ ، والجوْجريّ ، وأبو النجا بن خلف وغيرهم ، انظر ((الضوء اللامع)) : ٤/٦٩ – ٧٠ .

وقد أدت دعوى السيوطيِّ الاجتهادَ - بالإضافة إلى بعض أشياء أخرى ذكرها السخاويّ[١] - إلى تحامل بعض العلماء عليه وتنقيصِه حقَّه[٢] ، وقد ناقشهم السيوطيّ في مواضعَ عديدةٍ من كتبه[٣] ، وخصّ للرد عليهم كتابه : ((الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرضٌ))[٤] .

والتحقيق أن السيوطيَّ - رحمه الله تعالى - خليقٌ بالاجتهاد الذي ادّعاه[٥] ، ومن يجتهد إذا لم يجتهد مثل السيوطيّ ؟ لكن الرجل قويُّ الحجة ، سليط اللسان قد نال من خصومه في مواضعَ كثيرة[٦] كما نالوا منه ، ولو لاينهم لكان علمُه وقدره موضعَ إجماع من علماء عصره .

كما أن السيوطيّ - والحقُّ يقال - أوسعُ دائرة في العلم من كل من عاصره ، وأكثر تصنيفاً ، وأقوى إدلاءً بحجته ، كما تشهد بذلك آثاره .

وقد كان السخاويّ - رحمه الله تعالى - إماماً عالماً بل يكاد يجاري السيوطيَّ في كثير من فروع العلم والمعرفة ، وإن كان السيوطي - في تقديري - أعلى درجة منه في العلم وأوسعَ معرفة ماعدا علم الحديث فإن السخاويّ قد تفرد

١- تُنظر في ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٥ - ٧٠ .
٢- انظر ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٣٤ .
٣- انظر ((مسالك الحنفا)) ضمن ((الحاوي للفتاوى)) : ٤٣٨ - ٤٣٩ ، و ((المقامة اللؤلؤية)) ضمن ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢ / ٩٩٦ وما بعدها ، و ((طَرْز العمامة)) ضمن ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢ / ٦١٦ وما بعدها .
٤- الكتاب مطبوع متداول .
٥- التزم السيوطي - في اجتهاده - ألا يخرج عن أصول الإمام الشافعيّ - رحمه الله تعالى - فهو ليس اجتهاداً مستقلا ، انظر ((الرد على من أخلد إلى الأرض)) : ١١٦ .
٦- انظر ((الاستنصار بالواحد القهار)) و ((الدوران الفَلَكيّ على ابن الكَرَكيّ)) و ((الفارق بين المصنف والسارق)) و ((الكاوي في تاريخ السخاوي)) ، وغيرها من الردود على علماء عصره في كتاب ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢٢٥ ، ٣٧٠ ، ٨١٨ ، ٩٣٣ على التوالي .

بمعرفة عدد من أنواعه على وجه الكمال خاصّةً علل الحديث ، كما تفرد السيوطيّ بحفظ المتن(١) .

ولعل ذلك مرده أن السيوطيَّ عاش بعد السخاويّ قرابة عشر سنوات ، ولأن السيوطيَّ اعتزل الناس في وقت مبكر وتفرغ للعلم ، كما سيأتي في المبحث القادم ، إن شاء الله تعالى .

وعلى كل حال فإن ماجرى بين الإمام السيوطيّ والإمامِ السخاويِّ وغيرِه إنما مردّه إلى المعاصرة والمنافسة بين الأقران ، وهو مما لاينبغي أن يكون لكن هذه محنة تجري بين الأقران منذ زمن السلف إلى يومنا هذا ؛ وإن ظهرت حادة قاسية بين الإمام السيوطيِّ ومعاصريه .

وقد عادت هذه المنافسةُ على العلم بخير عميم ؛ إذ حرر كلٌّ إمام من المتنافسين المتعاصرين كثيراً من مسائله ، وأُلّفت مؤلفات وردود ، وقام كلٌّ منهم بالبحث والتنقير في بطون الكتب والدفاتر ، وانتصر كل فريق لرأيه بالأدلة ، فعاد كل ذلك على الحركة العلمية في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر بخير كبير ، ورُبّ ضارة نافعةٌ .

١ - انظر ((النور السافر)) : ١٩ - ٢١ ، ٥٧ و ((دليل مخطوطات السيوطيّ)) : ٢١ - ٢٢ .

المبحث الخامس : اعتزاله الفُتيا والتدريسَ ، ووفاته :

كانت حياة الحافظ السيوطي - رحمه الله تعالى - حافلةً بطلب العلم والشَّغَف به ، والتصنيف فيه ، وقد خالط الناس تعلماً وتعليماً وإفتاءً ، وتولى مناصبَ علميةً متوسطة الأهمية ، وهي :

١ - تدريس الحديث بالمدرسة الشيخونية(١) .

وقد قرّره في هذه الوظيفةِ شيخه محمد بن سليمان الكافِيَجي(٢) .

٢ - تولى مشيخة الخانْقاه البيبرسية(٣) .

---

١ - انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٧ .

و (الشيخونية) مدرسة في القاهرة : نسبة إلى الأمير سيف الدين شيخو الناصري ، أحد أمراء المماليك في مصر ، تنقل في الوظائف حتى صار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شر فعظم شأنه ، ثم جرت له أمور حُبس من أجلها وامتحن ، ثم أفرج عنه وعادت إليه مكانته وعظمته ، ثم ضرب بالسيف غِيلةً وتأثر من جراحه فمات سنة ٧٥٨ ، رحمه الله تعالى .

انظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٣١٣ - ٣١٤ .

أما المدرسة المنسوبة إليه فهي ضمن الخانْقاه الذي بناه في القاهرة سنة ٧٥٦ .

والخانْقاه ((كلمة فارسية ، وتعني محلاً للتعبد والتزهد والبعد عن الناس ، وبمعنى بيت أيضاً ، دخلت هذه الكلمة العربيةَ منذ انتشر التصوف فهي كالدير في النصرانية)) : ((معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي)): ٦٦. وقد ذكر المقريزي أن الخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة ، وهي تنطق بالقاف والكاف ، انظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٤١٤ .

وهذه الخانْقاه بنيت على مساحة كبيرة وبها حمامان وعدة حوانيت ((يعلوها بيوت لسكنى العامة ، ورتّب بها دروساً عدة منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة ... ودرساً للحديث النبوي ، ودرساً لإقراء القرآن بالروايات السبعة [كذا] وجعل لكل درس مدرساً وعنده جماعة من الطلبة ، وشرط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف ... ووقف عليها الأوقاف الجليلة فعظم قدرها ... وتخرج بها كثير من أهل العلم ...))

انظر ((المواعظ والاعتبار)) : ٢ / ٤٢١ .

٢ - ((التحدث بنعمة الله)) : ٢٤٤ .

٣- نسبة إلى بانيها الملك المظفر ركن الدين بِيْبَرْس بن عبد الله الجاشنكير المنصوريّ ، السلطان المملوكيّ . أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه . وتنقل في الخِدَم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية ، ثم تولى السلطنة بالديار المصرية سنة ٧٠٨ . وكان مَلِكاً ثابتاً ، كثير السكون والوقار ، جميل الصفات يرجع إلى خير ودين ومعروف . قتل في فتنة سنة ٧٠٩ ، رحمه الله تعالى .

٣ – مشيخة التصوف بتربة برقوق[١] .

٤ – قاضي القضاة في ممالك الإسلام كلها :

وهي وظيفة لم يهنأ بها الإمام السيوطيّ رحمه الله تعالى ، حيث عيّنه ((الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز[٢] بوظيفة لم يُسمع بها قطُّ ، وهو أنه جعله على سائر القضاة قاضياً كبيراً يولي منهم من شاء ويعزل من شاء مطلقاً في سائر ممالك الإسلام ، وهذه الوظيفة لم يَلِها[٣] قطُّ سوى

= انظر ((المنهل الصافي)) : ٣ / ٤٦٧ - ٤٧٣ .

وهذه الخانقاه هي ((أجلُّ خانقاه بالقاهرة بنياناً ... بناها الملك المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوريّ قبل أن يلي السلطنة وهو أمير ، فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ وبنى بجانبها رباطاً كبيراً ... ولما شرع في بنائها رفق بالناس ولاطفهم ، ولم يَعْسِف فيها أحداً في بنائها ، ولا أكره صانعاً ، ولاغصب من آلاتها شيئاً ... ولما كملت في سنة ٧٠٩ قرر بالخانقاه ٤٠٠ صوفيّ وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت ، وجعل بها مطبخاً ... ووقف عليها عدة ضياع ...)) ثم جرى عليها حوادث كثيرة بعد مقتل بانيها ، وانظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٤١٦ - ٤١٧ .

١- هو برقوق بن آنص ، سلطان المماليك بمصر . أُخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القَرْم ، وجُلب إلى القاهرة فاشتراه الأمير يَلْبُغا الخاصكيّ وأعتقه ، وتنقلت به الأحوال والوظائف حتى تسلطن سنة ٧٨٤ ، وجرت له حوادث في سلطنته ولكنه ثبت سلطاناً حتى توفي سنة ٨٠١ وقام من بعده ابنه ، انظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٢٤١ .

وقال ابن تَغري بَرْدي : ((هو أعظم ملوك الجراكسة بلا مدافعة بل المتعصب يقول : إنه هو أعظم ملوك الترك قاطبة)) : ((المنهل الصافي)) : ٣ / ٣٤٢ .

وكأن تربة برقوق هذه هي مدرسته التي أنشأها سنة ٧٨٨ ، وأمر ((بأن تنقل رِمم أولاده ووالده آنص من موضع دفنهم إلى الفسقية بها ... ونزل الملك الظاهر برقوق من القلعة بأمرائه وعسكره إلى المدرسة المذكورة ، وحضرت القضاة والأعيان ، ثم مُدت الحلاوات والفواكه ... ثم خلع على العلامة علاء الدين السيراميّ وجعله شيخ الصوفية بها ومدرسَ السادة الحنفية ...)) ((المنهل الصافي)) : ٣ / ٢٨٨ - ٢٨٩ .

فقوله : ((جعله شيخ الصوفية بها)) يدل على أن لهذه المدرسةِ مشيخةَ تصوف وهي التي تولاها السيوطيّ بعد ذلك ، وسميت ((تربةَ برقوق)) لأن بها قبرَ والده وأولاده ، ولعل برقوقاً نفسه دُفن فيها كما هي العادة .

٢- هو الخليفة عبد العزيز بن يعقوب بن محمد ، المتوكل على الله . من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر . كان محمود المناقب كفؤاً للخلافة ، وافر العقل ، سديد الرأي ، له اشتغال بالعلم ، متواضع ، كثير العشرة للناس . توفي سنة ثلاث وتسعمائة . انظر ((الأعلام)) : ٤ / ٢٩ .

٣- في الأصل : يليها وهو خطأ .

القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز[1] في دولة بني أيوب ، فلما بلغ القضاة ذلك شقّ عليهم ، واستخفّوا عقل الخليفة على ذلك ، وقالوا ليس للخليفة مع وجود السلطان حَلٌّ ولاربط ولا ولاية ولاعزل ، ولكن الخليفة استخفّ بالسلطان لكونه حديثَ السن ... فلما قامت الدائرة ... على الخليفة رجع عن ذلك وقال : إيش كنت أنا ؟ ! الشيخ جلال الدين هو الذي حسّن لي ذلك وقال : هذه كانت وظيفة قديمة وكانت الخلفاء يولونها لمن يختارونه من العلماء ، ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك . وبَعَث أَخَذ العهد الذي كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطيّ ، وكادت أن تكون فتنةٌ كبيرة بسبب ذلك ، ووقع أمور يطول شرحها حتى سكن الحال بعد مدة))[2] .

اعتزال السيوطي الناس :

قد ابتدأ السيوطيّ الإفتاء وعمره اثنتان وعشرون سنة ، وإملاءَ الحديث وعمره ثلاث وعشرون سنة[3] ، وظلّ كذلك مفتياً ومدرِّساً أمداً من الزمان حتى بدا له أن ينقطع عن الطلبة والمستفتين ، وألّف مقامة في هذا سماها :

((المقامة اللولؤية)) ، أو ((التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس)) فكان مما قاله فيها :

---

١ - عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلاميّ ، قاضي القضاة ، تاج الدين ، أبومحمد ابن بنت الأعزّ . ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، وتوفي سنة خمس وستين وستمائة . كان إماماً فاضلاً متبحراً ، ولي المناصب الجليلة في الديار المصرية كنظر الدواوين والوزارة والقضاء ، ودرّس ، وتقدم في الدولة ، وكانت له الحرمة الوافرة عند الظاهر بيبرس . كان ذا ذهن ثاقب وجِدّ وسَعْد وعزم مع النزاهة المفرطة والصلابة في الدين ، والتثبت في الأحكام : ((الوافي بالوفيات)) : ١٩ / ٣٠٠ - ٣٠٢ . وكان هذا القاضي آخر القضاة على هذه الشاكلة من التفرد في القضاء ؛ إذ صار القضاء في آخر عهده ومن بعده منقسماً إلى أربعة أقسام بحسَب المذاهب الأربعة ، وقد جرى هذا بسبب حادثة وقعت ، انظر ((الوافي)) : ١٩/ ٣٠١ .

٢ - ((بدائع الزهور في وقائع الدهور)) : ٣ / ٣٣٩ .

٣- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٨ .

((أليس هذا زمانَ الصبر ، الصابر فيه كقابض على الجمر ، رأينا فيه ما أنذر به الرسول ، وصحت به الأحاديث والنقول ، لكل سَئُول ، من آيات وعلامات ، ماكانت تقع فيما مضى مناماتٍ ... ومامن آية منها إلا وقد أمر النبي – عليه الصلاة والسلام – بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه ، ويجلسَ في بيته ، ويسكتَ ويدعَ العوام ، من ذلك : الشُحُّ المطاع ، ودنيا مُؤثَرة ... قَلّ الائتلاف ، وكُذّب الصادق ، وصُدق الكاذب ... وتكلم الرجلُ التافه في أمر العامة ... ووليَ الدينَ غيرُ أهله ... هذه إمارات وردت في أحاديثٌ صحاح ، وآياتٌ جاءت بها سنن أضوأُ من فَلَق الصباح ، وأرشدنا نبينا الهادي ، صلى الله عليه وسلم ماراح رائحٌ وغدا غادي ، إلى أنا إذا رأينا ذلك قد وقع ... فلنجلس في البيوت ولنلزم السكوت ... وكم من عالم قبلي قد قبل هذه الوصيةَ إذ رأى ماليس له به قِبَل ، وترك الإقراء والإفتاءَ وأقبل على خاصة نفسه والعملِ ، وقد اقتديت بهم ، ونعم القدوة ... طالما قطعت نهاري في التدريس والإفتاء ، واستغرقت أوقاتي في نفع الناس وقتا فوقتا ، ولم أسلم على ذلك ممن يُوليني أذى ومقتا ، ويرميني كذبا وبُهتا))[1] .

ثم ذكر بعد ذلك أنواع الطلبة الذين درسوا عليه وأحوالهم معه ، وبيّن كثرة فتاويه وشيوعها في أنحاء الأرض[2] .

ثم أطال في ذكر أحوال طلبة العلم في عصره وتعالمِ كثير منهم[3] .

ثم قال :

((فلما رأيت نظام العِلم قد فسد ، وسوق الفضل قد كسد ، ووقع التساوي ، ويا ليته بل التقديم للهرّ على الأسد ... رأيت أن أدعَ العامة وأمرَها ... فتركت

---

١ – ((المقامة اللؤلؤية)) ضمن ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢ / ٩٩٦ – ١٠٠١ .

٢ – المصدر السابق : ١٠٠١ – ١٠٠٦ .

٣ – المصدر السابق : ١٠٠٦ – ١٠٣٢ .

التدريس والإفادة ، والإبداءَ والإعادة ، ولم أُبلغ أحداً رام مني شيئاً من ذلك مراده))[1] .

وقال أيضاً معتذراً عن الإفتاء :

((وإن كانت واقعةُ حُكْمٍ أو عمل وأُجيبَ فيها بالخطأ والخَطَل، فإثم تخلفي عن الجواب ، وتركي لإبانة الصواب ، على من فتح هذا الباب))[2] .

وقد كان انقطاعه عن الإفتاء والتدريس وعمره أربعون سنة ، أي حين بلغ أشدَّه ، وكان في أعظم سنوات العمر التي يكون الفكر فيها قد اكتمل ، والذهن قد اشتد توقده .

ولعل اعتزاله الفتيا والتدريس قد عاد بفائدة عليه من جهة التأليف والتحرير ، حيث مكث زماناً طويلاً عاكفاً على التصنيف ومخاطبة الناس بالكتب والرسائل حتى صار أكثر علماء الإسلام المتأخرين جمعاً وتصنيفاً.

لكن اعتزاله الفتيا والتدريس لايعني انجماعه عن الناس وعدمَ الخلطة بهم إذ ظلّ شيخاً للمدرسة ((البيبَرْسيّة)) حتى أواخر حياته إذ صُرف عنها في رجب سنة ٩٠٦[3] .

١- المصدر السابق : ١٠٣٢ - ١٠٣٤ .

٢- المصدر السابق : ١٠٣٨ .

٣- ((بدائع الزهور)) : ٣ / ٣٨٨ .

وفاته

توفي الإمام السيوطيُّ – رحمه الله تعالى – بعد عمر حافل بالعطاء العلميّ الغزير – بالقاهرة سَحَرَ ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعِ مائة عن إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً[١] .

وطويت بذلك صفحة حياة عالم من أعظم علماء عصره إن لم يكن من أعظم علماء الإسلام المتأخرين ، رحمه الله تعالى وغفرله[٢] .

١- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥٥ .

٢- انظر ترجمة الإمام السيوطيّ إضافة لما تقدم – في :

((آداب اللغة)) : ٣ / ٢٢٨ ، و((خزائن الكتب)) : ٣٧ ، و ((معجم المطبوعات)) : ١٠٧٣ ، و ((الخزانة التيمورية)) : ٣ / ١٥١ ، و ((مخطوطات الظاهرية)) : ٣٥٥ ، وغير ذلك مما أورده صاحب ((الأعلام)) : ٣ / ٣٠٢ .

الفصل الثاني

((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ونسبته ونُسَخه

المبحث الأول

معنى العنوان ومأثير حوله

لابد قبل الحديث عن معنى العنوان من تحرير عنوان الكتاب ، إذِ اختُلف فيه بعض الاختلاف ، فالمتفق عليه أن للإمام السيوطيّ مؤلفاً بعنوان ((معترك الأقران)) ، ولكنّ معظم المصادر التي ذكرت الكتاب ذكرت عنوانه هكذا : ((معترك الأقران في مشترك القرآن))(١) .

والسيوطيّ نفسه قد سمّاه في بعض كتبه التسميةَ نفسها(٢) ، ولكنه ذكر في ((معترك الأقران)) مايرجح أن العنوان : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ، فقد قال :

((فاشدد بكلتا يديك على هذا الكتابِ المسمّى : ((إعجاز القرآن ومعترك الأقران))(٣) ، وهذا نصٌّ قريب من اسم الكتاب لكنه معكوس .

ويذكر محقق الكتاب الأستاذُ البجاويُّ أن العنوان على كلتا المخطوطتين : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))(٤) .

وذكر أيضاً أن اسم الكتاب جاء كذلك في بعض الكتب التي ترجمت للسيوطي لكنه لم يصرح باسمها(٥) .

١- انظر ((مفتاح السعادة)) : ٣٧٧/٢ ، و ((كشف الظنون)) : ١٧٣١/٢ ، و ((هدية العارفين)) : ٥٤٣/١ . و ((**المشترك** هو ((اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة)) وفي جواز وقوعه خلاف ، وانظر كل ذلك في ((المُزْهِر)) : ٣٦٩/١ ومابعدها .

٢- انظر ((الإتقان)) : ١٤١/١ ، و((حسن المحاضرة)) : ٣٤٠/١ ، و ((التحدث بنعمة الله)) : ١١١ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٥١٥/١ - ٥١٦ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ف ، حيث قال المحقق :
((لقد اعتمدنا الاسم الأول : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) لوروده في المخطوطتين من غير اختلاف أو زيادة أو نقص)) .

٥- المصدر السابق .

فعلى هذا إما أن يكون الكتاب له اسمان شُهر بهما وعرف فلا ترجيحَ لعنوان كتاب على آخر ، وإما أن يكون له اسم محدد هو الأولى به والأقرب لموضوعه .

أما من قال إن عنوان الكتاب هو ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) فقد استند إلى وروده هكذا في بعض كتب السيوطيّ ومَن ترجم له ، كما ذكرت ذلك آنفاً .

ولكني أميل إلى أن عنوان الكتاب هو : ((معترك الأقران في إعجازالقرآن)) وذلك للأسباب التالية :

أولاً : هذا العنوان ألصق بموضوعات الكتاب من العنوان الآخر : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وكلما كان العنوان موافقاً لمضمون الكتاب كان ذلك أولى وأحسن ، أما ((مشترك القرآن)) وهو العنوان الآخَر فهو لايدل على محتوى الكتاب ؛ إذ جاء بحث ((مشترك القرآن)) وجهاً من الأوجه الخمسة والثلاثين الواردة في ((المعترك))[1] وإن كان أطولَها .

ويمكن أن يتمسك من يختار العنوان : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) بأن بحث مشترك القرآن قد احتل ثلثي الكتاب تقريباً ، فالسيوطيّ قد أطلق على الكتاب اسمَ أكبر وأعظم مباحثه ، لكن باقي الأسباب المرجحةِ للعنوان المختار والجمعَ بين العنوانين الذي سأذكره - إن شاء الله تعالى - ينفي هذا الاستنتاج .

ثانياً : قد نصّ السيوطيّ - تقريباً[2] - على اسم كتابه في ((المعترك)) حيث قال :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٥١٤ إلى آخر الكتاب .

٢- إنما قلت تقريباً لأن الإمام السيوطيّ قلب عنوان كتابه عندما سمّاه ، كما مرّ قريباً .

((فاشدد بكلتا يديك على هذا الكتابِ المسمى إعجازَ القرآن ومعتركَ الأقران))[1] ، ونصُّ المصنف في كتابه على عنوانه لأيُعدل عنه إلى شيء آخر .

ثالثاً : ورود العنوان في المخطوطتين : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))[2] قرينةٌ قوية على أنه العنوان الصحيحُ خاصّة مع نصّ السيوطيّ عليه كما في السبب السالف .

لكن هناك مخطوطة ثالثة للكتاب لم يذكرها الأستاذ البجاويّ سيأتي – إن شاء الله تعالى – ذكرها[3] ، وعنوان الكتاب فيها : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) .

الجمع بين العنوانين

إذاً كيف يُجمع بين ورود العنوان : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) في بعض كتب السيوطيّ ، وروده : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) في الكتاب نفسه نصاًّ من السيوطي[4] .

أنا أرجح ترجيحاً قوياً – والعلم عند الله تعالى – أن السيوطيّ ألّف الكتابَ أولاً في مشترك القرآن ، ثم أضاف إليه مباحث سابقةً من ((الإتقان)) وغيره – على مابينته قبل ذلك[5] – فسّماه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) وترجيحي هذا قائم على الآتي :

١- ((معترك الأقران)) : ١/٥١٥ - ٥١٦ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١/ ف .

٣- انظر ص ٢٧٦ .

٤- لكنه جاء معكوساً : ((إعجاز القرآن ومعترك الأقران)) كما مرّ قريباً .

٥- انظر ص ٢٣٢ .

أولاً : ذكر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في كتابه ((التحدث بنعمة الله)) ، ذكر أسماء مصنفاته وقسمها إلى سبعة أقسام ، ثم بيّن أن ((القسم الثالث : هو ماتمّ من الكتب المعتبرة **الصغيرة الحجم** ، التي هي من كراسين إلى عشرة ، وذلك سبعون مؤلفاً)) ثم ذكر منها : ((معترك الأقران في مشترك القرآن))[1] .

بل ذكر الإمام السيوطي في كتاب آخر أن ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) يقع في كراسة واحدة فقال متحدثاً عن بعض مصنفاته :

((... ثم أفردت كراسة فيما وقع من الألفاظ المعرّبة ، تتبعت فيها واستوعبت ، **ثم كراسة سميتها ((معترك الأقران في مشترك القرآن))** فائقة في معناها))[2] .

والمعلوم أن السيوطي لايريد بهذا الكتابِ الذي ذكره : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) الكتابَ الذي بين أيدينا : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ؛ إذ هو ضخم ، أكبر بكثير مما ذَكر مِن أن حجمه بين كراسة أو كراستين ؛ فلا بد إذاً أنه يريد كتاباً آخر بعنوان ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) صغير الحجم ليس بين أيدينا اليوم ، ولانعرف عنه شيئاً ، أما ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) فلم يذكره في مصنفاته ، فيترجح – عندي – بهذا أنه قد صنفه فيما بعد ضامًّا إليه هذا الكتاب الذي ذكره في مشترك القرآن ، والله أعلم .

ثانياً : ذِكرُ السيوطيِّ رحمه الله تعالى – كتابَ ((المعترك)) في ((الإتقان)) ، وذِكرُ كتابِ ((الإتقان)) في ((المعترك)) :

أما ذكر ((المعترك)) في ((الإتقان)) فقد قال :

((فالوجوه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معانٍ كلفظ (الأُمّة) ، وقد أفردت في هذا الفنِّ كتاباً سميته : ((معترك الأقران في مشترك القرآن))...))[3] وأما ذكره لـ ((الإتقان)) في ((المعترك)) فقد قال :

١- ((التحدث بنعمة الله)) : ١٠٥ ، ١١١ .

٢- ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) : ١ / ٩٥ .

٣- ((الإتقان)) : ١ / ١٤١ .

((وقد طولنا الكلام هنا فلنرجع إلى المقصود ؛ لأن هذا الكتاب لايسع ذلك ، وقد أودعنا أكثره في كتابنا : ((الإتقان في علوم القرآن))[1] .

وفي النقلين السابقين ملاحظتان :

أ – لايتأتّى أن يصنّف المصنف كتابين من كتبه ويذكر في كلٍّ منهما اسم الآخر إلا أن يكون أحدهما مصنفاً على مرحلتين أو أكثر ، ولمّا لم يُعرف ذلك عن ((الإتقان)) فيترجح أن يكون ((معترك الأقران)) قد صُنف على مرحلتين أو أكثر .

ب – قوله في الإتقان ((وقد أفردت في هذا الفنِّ كتاباً سميته : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) قوله هذا يدل على أن كتاب ((المعترك)) قد أُلّف في الأصل لغرض حصر وبيان المشترك اللفظيّ في القرآن فقط ولا شيء غير ذلك كما يدل عليه قوله : ((أفردت في هذا الفن كتاباً)) .

ثالثاً : طريقة ورود اسم الكتاب في ((المعترك)) تشير إلى إمكان أنه مصنف على مرحلتين ، حيث قال السيوطيّ :

((فاشدد بكلتا يديك على هذا الكتاب المسميّ إعجازَ القرآن ومعتركَ الأقران)) ، فكأن كتابه المعروف هو : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، ثم أضاف إليه وجوهاً من الإعجاز القرآني فأشار إلى ذلك بقوله ((المسمى إعجاز القرآن ومعترك الأقران)) فأصبح الكتاب مجموعاً من وجوه الإعجاز ومشترك القرآن ليكون : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) كما هو عنوانه في المخطوطتين ، ويصبحَ المشترك وجهاً من وجوه الإعجاز في الكتاب .

وهذا استنتاج محضٌ لادليل عليه ، وإنما هي إشارة ، والله أعلم .

---

١ – ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٣١ .

رابعاً : طريقة إتيانه بالوجه الخامس والثلاثين – المشترك – تدل على أنه كان في الأصل كتاباً منفصلاً حيث قال في مقدمة هذا الوجه :

((وأنا أرغب ممن وقع بيده **هذا الكتاب** أن يدعو للساعي له فيه ، لأنه يجد فيه مالايجد في كثير من المطوَّلين الصعاب ، وكيف لايذكره عند ربه[1] وقد استخرجته له منهم سهلَ المرام فخف عليه حملُه وثمنه ، وقربت عليه الفهم باختصار الكلام ، وايْمُ الله لو أراد الاستغناء به عن النظر في غيره لكفاه ، **مع أني زدت مع اللفظ المشترك** تفسير مفردات لابدّ له منها ...))[2] .

وقوله : ((هذا الكتاب)) مع ما بعده هو في سياق الحديث عن المشترك .

ثم قال :

((وقد أفردها[3] بالتصنيف خلائق ...

وأنفعها هذا الكتابُ البديع المثال ، المنيع المقال))[4] .

ثم قال :

((اللهم إنك تعلم أنه ليس لي من ينقذني ... في ذلك الموقف العظيم غيرُ الاشتغال بخدمة كتابك واستخراج زُبَده ودرره ... **وخصوصاً هذا الكتاب** ...))[5] .

فكأن كلامه هو على كتاب مستقل عما قبله ، وهذا الكتاب هو ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) .

---

١ – أي يذكر مؤلفه بالدعاء له .

٢– ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

وقوله : ((زدت مع اللفظ المشترك تفسير مفردات ...)) يفسر سبب زيادة حجم فصل المشترك من كتاب ((معترك الأقران)) ؛ لأن الإمام السيوطيّ سبق أن وصف الكتاب أنه يقع في كراسة واحدة فقط أو كراستين على الأكثر ، بينما جاء في ((معترك الأقران)) كبير الحجم .

٣– أي معاني الحروف كما في السياق السابق .

٤– ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٧ .

٥– المصدر السابق : ١ / ٥١٨ .

خامساً : إن هذا القولَ – وهو أن الكتـاب مصنّـف علـى مرحلتـين أو أكـثر – هـو التفسير الوحيد الذي استطعته لمسألة ورود عنوان الكتاب مختلفـاً في كتـب السيوطيّ نفسها ، ولمسألةِ ذكر اسم كتابه ((المعترك)) في ((الإتقان)) ، وذكرِ ((الإتقان)) في ((المعترك)) ، والله أعلم .

وقد حام حولَ هذا المعنى أحدُ الباحثين – وهو الأستاذ محمد الراضي – حيث سرد الكتبَ المصنفةَ في علم (الوجوه والنظائر) فقال :

((وكتـاب جـلال الديـن عبـد الرحمـن السـيوطيّ (ت ٩١١) ذكـره السـيوطيُّ في ((الإتقان)) وقال :

وقد أفردت في هذا الفنِّ كتاباً سميته : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ووصـل إلينا الكثيرُ منه في كتاب السيوطي : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))))[١] .

فكأن الأستاذ يعتقد أن كتاب ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) جزء من كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ؛ وذلك لأن كلامه يُفهم منـه هـذا ، وإن لم يذكر دليلاً على ماذهب إليه .

أما الذي لم أتحققْه من كلامه فهو قوله : ((وصل إلينا الكثير منه)) ، أفيزعم الأستاذ أنه قد فُقـد شـيء مـن كتـاب : ((معـترك الأقـران في مشـترك القـرآن)) ، وعلامَ بنى زعمه هذا ؟

شبهة في موضوع اسم الكتاب وتفنيدها

ذكر الأستاذ محمد بن يعقوب تركستاني[٢] أن هناك مخطوطة للكتاب بالمغرب الأقصى مـحفـوظـة بالخزانـة الملكيـة بالربـاط تحت رقم ٤٢٣١ ، وهي باسـم :

١ – مقدمة تحقيق كتاب ((نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)) للإمام ابن الجوزي ، ص : ٥٥ – ٥٦ .

٢ – قد ألّف رسالة بعنوان ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) وتقدم بها لنيل رسالة (الماجستير) من جامعة الملك عبدالعزيز – شطر مكة ، سنة ١٣٩٧ .

((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وقد جاء هذا في سياق ذكره لورود الكتاب بهذا العنوان المذكور في عدد من كتب السيوطي ، وفي ((كشف الظنون)) و ((هدية العارفين)) كما بينت سابقاً[1] .

ثم بعد فراغه من ذكر هذه المخطوطة قال :

((فأصبح من المقطوع به أن اسم الكتاب هو ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وكان حقيقاً بالأستاذ علي محمد البجاويّ حين تصدى لتحقيق الكتاب أن يترك اسمه على أصله صيانة لحرمته فلا يغيره إلى ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) لمجرد أنه وجده مسمى بهذا الاسم في المخطوطتين الوحيدتين اللتين اعتمد عليهما في نشر الكتاب))[2] .

وفي هذا الكلام ملحظان :

الأول :

إن الكلام الذي جاء به الباحث وظن أنه دليل على أن اسم الكتاب هو : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) هذا الكلام لايُعد دليلاً على ماذهب إليه فضلاً عن أن يكون أمراً قاطعاً حسَب تعبيره .

الآخر :

قد نسب الباحث إلى الأستاذ علي البجاوي مالايليق حيث ادّعى دعوى مجردة عن الدليل بأن الأستاذ البجاويّ قد تعمد تغيير اسم الكتاب ، والأستاذ البجاويّ لم يصنع هذا وحاشاه ، فقد قال :

((سُمّي هذا الكتابُ في المخطوطتين : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، وكذلك ورد اسمه في بعض الكتب التي ترجمت للسيوطيّ .

وقد جاء في صفحة ١٧٠ من المخطوطة الثانية : إعجاز القرآن ومعترك الأقران[3] .

١- انظر ص ٢٧٠ .

٢- ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .

٣- في المطبوع : (القرآن) والصحيح ، الأقران ، وهذا النص قد ذكرت - سابقاً - أنه موجود في الجزء =

أما في ((الإتقان)) فقد أشار إلى هـذا الكتـاب وسمـاه ((معـترك الأقـران في مشترك القرآن)) .

وقد اعتمدنا الاسم الأول لوروده في المخطوطتين من غير اختلاف أو زيادة أو نقص))[1] .

وهذا الكلام للأستاذ البجاويّ يُتبين منه أمران هما :

١ – لم يتعمد الأستاذ البجاوي تغيير العنوان فهو قد ذكر العنوانين واعتمـد أحدهمـا لسبب ارتآه ، وصنيعه هذا هو صنيع الباحث المعتمد على الأصول العلمية للتحقيق .

٢ – لم يطلع الأستاذ البجاويّ – فيما يظهر من كلامه – على المخطوطة الثالثة الـتي اطّلع عليها الأستاذ التركستانيّ ، فكيف يلام على مالم يطّلع عليه .

هذا ردٌّ على الأستاذ الباحث الذي جاء بما لايقوم في وجه ماذكرتـه آنفـاً مـن ترجيح عنوان الكتاب ليكون ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ؛ إذ غاية ماجاء به هو اطّلاعه على المخطوطة الثالثة السابقة الذكر ، ولم يقرأ الكتاب قراءة فاحصـة ويدرسْه دراسة ناقدة ليخرج برأي راجح في هذا الباب .

ثم مايدريه لعل العنوان في المخطوطـة الـتي اطلـع عليهـا هـو مـن صنيـع أحـد التلاميذ أو النساخ ، أو يكون تصرفاً من غيرهما ؟ ! !

ولِما سبق أن ذكرته يكون العنوان الذي اخترته واستقرّ عليه البحث هو :

((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

الأول صفحة : ٥١٥ – ٥١٦ .

١- ((معترك الأقرن)) : ١ / ف .

تحرير معنى العنوان

العنوان مكون من جزأين :

الأول : معترك الأقران . **والآخر** : إعجاز القرآن .

ومعنى الجزء الثاني قد بينته قبل هذا[1] .

وأما معنى ((معترك الأقران)) :

فالمعترك مأخوذ من (عَرَك) ، وقد جاء في ((لسان العرب)) : مادة عرك :

((المعترك : موضع الحرب)) .

وجاء فيه في مادة (ق ر ن) :

((القَرْن : مثلك في السن ، تقول : هو على قَرْني أي على سني ...

وهو قَرْنه في السنّ - بالفتح - وهو قِرنه ، بالكسر ، إذا كان مثله في الشجاعة والشدة ... ويجمع على أَقْران)) .

فكأن المعنى أن هذا الكتاب هو موضع تبادل الأفكار وتلاحم العقول والأنظار بين العلماء في وجوه إعجاز القرآن .

والملاحظ أن هذا الكتاب لم تَدُر فيه أيُّ معاركَ فكريةٍ بين السيوطيّ وعلماء عصره ، أو بين العلماء السابقين عليه كما يوحي بذلك عنوان الكتاب ، إنما أكثر السيوطيّ - رحمه الله تعالى - من نقل آراء العلماء وعلق على مايحتاج إلى التعليق بهدوء ورويّة وحسن مناقشة للآراء المعروضة . وكأنه لما أكثر من نقل آراء العلماء المختلفة وأقوالهم جعل ذلك بمثابة معركة فكرية بين تلك الآراءِ والأقوال ، والله - تعالى - أعلم .

---

١ - انظر ص ٢٥ وما بعدها من هذه الرسالة .

المبحث الثاني

تحقيق نسبة الكتاب إلى الإمام السيوطيّ

من المقطوع به أن مؤلف الكتاب هوالإمام السيوطيّ ، فقد ذكر هو نفسُه كتابَه هذا في مؤلفات عدة ، وذكر عددٌ ممن ترجم له كتابَه هذا في ترجمته ، كما بينت ذلك سابقاً[1] .

بقي أن يُعرف : هل الكتاب الذي بين أيدينا هو نفسه كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) الذي صنفه السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ؟

لاريب أن الكتاب الموجود بأيدينا هو ((معترك الأقران)) وذلك للأسباب الآتية :

١ - جاء ذكر عدد من كتب السيوطيّ في ثنايا كتابه ، مثل ((تناسق الدرر في تناسب السور))[2]و ((أسرار التنزيل))[3]وكتابه في مبهمات القرآن[4] ، وكتاب ((لباب النقول في أسباب النزول))[5] إلخ ... وكل هذه الكتب قد صرّح السيوطيّ بنسبتها إليه ، فورودها في الكتاب دال على أن هذا الكتاب هو نفسه ((معترك الأقران)) الذي صنفه السيوطيّ ، والله أعلم .

---

١ - انظر ص ٢٧٠ من هذا البحث .

٣ - انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥ .

٤ - المصدر السابق .

٥ - المصدر السابق : ١ / ٤٨٤ .

٦ - المصدر السابق : ٣ / ٢٨٣ .

٢ – بالمقارنة بين نصوص كثيرة من ((المعترك)) ونصوص بعض كتب السيوطي الأخرى التي نقل منها إلى ((المعترك)) أو نقل من ((المعترك)) إليها ظهر التطابق بينها أو التقارب إلى حد كبير ، وقد بينت ذلك سابقاً [١].

٣ – أسلوب السيوطيّ ظاهر في الكتاب ، فحشْد الأدلة والأقوال الكثيرة ، ومناقشتها ، والترجيح بينها هو الأسلوب الذي جرى عليه السيوطيّ في كثير من كتبه .

٤ – والكتاب المطبوع قد حقق ونشر منذ سنة ١٣٩٢ هـ أي ما يقارب ثلاثاً وعشرين سنة ، وتداولته أيدي العلماء والمحققين وطلبة العلم ، ولم يطعن أحدٌ – فيما أعلم – في نسبة هذا الكتاب إلى السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، وهذا قرينة واضحة على صحة النسبة ، وصحة محتويات الكتاب وأنه هو نفسه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ، والحمد لله .

١ – انظر الصفحات ٢٣٢ – ٢٤٩ من هذا البحث .

المبحث الثالث :

مخطوطات الكتاب ومطبوعته ، والجهود التي بذلت لخدمته

للكتاب ثلاث مخطوطات ، فيما أعلم :

إحداها : صورت عن الأصل المحفوظ بخزانة الشيخ أحمد الصديق المغربي[1] ، وهي محفوظة في دار الكتب المصرية برقم ٢٠٣٤٧ - تفسير .

الثانية : مخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية - أيضاً - برقم ٤٧٦ - تفسير[2] .

الثالثة : مخطوطة محفوظة في الخزانة الملكية بالرباط برقم ٤٢٣١ وباسم : ((معترك الأقران في مشترك الأقران)) كما ذكرت سابقاً[3] .

وقد حقق الكتابَ الأستاذ علي البجاويّ معتمداً على المخطوطتين الأُوليين .

وقد حققه - أيضاً - الأستاذ أحمد شمس الدين معتمداً علىأولى المخطوطتين المذكورتين اللتين اعتمد عليهما الأستاذ البجاويّ .

أما تحقيق الأستاذ علي البجاوي فهو تحقيق جيد ، استوفى عدداً من شروط التحقيق العلمي ؛ فقد قارن بين المخطوطتين وأثبت الفروق في الهامش ، وترجم لكثير من الأعلام ، وعزا بعض النصوص إلى مصادرها ، ووضع فهرسة جيدة لمواضيع الكتاب .

إلاّ أن هذا العملَ - كغيره من أعمال البشر - قد خالطه بعض النقص ، نحو :

١- لم أجد له ترجمة .

٢- وصف المخطوطتين محقق الكتاب الأستاذ علي البجاويّ ، انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ف - ص ، ولم يذكر اسم ناسخ المخطوطة الأخرى .

٣- انظر ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

١ – **السقط** ، وهو في مواضعَ متعددةٍ من الكتاب[1] ، وإنما عرفتُ هـذا بالمقارنـة بما في ((الإتقان)) ، أو من السياق .

٢ – خَلْطٌ في بعض الصفحات ، وقد أدى ذلك إلى سقوط بعض الصفحات أيضاً[2] .

٣ – بعض التحريف والتصحيف[3] ، ولعل ذلك من الناسخ .

٤ – الخطأ في بعض الآيات[4] .

٥ – عدم تحقيق وتخريج غالب الأحاديث والآثار .

٦ – لم يصنع فهرساً للأعلام ، ولا للأدلة والأحاديث والآثار.

على أن عمله هذا يستحق الشكر منا ، والجزاءَ من الله تعالى ، إن شاء الله ؛ إذ أخرج هذا الكتابَ الضخم إلى النور حتى يستفيد منه طلبة العلم ويتداولوه .

أمّا عمل الأستاذ أحمد شمس الدين فهو قد خرّج الآيات فقط ، ولم يعمل أي عمل آخر من تعليق على المتن أو ترجمة لعَلَم أو تعريف بكتاب على نحو ماتقتضيه أساليب التحقيق الحديثة . وقد اعتمد في تحقيقه للكتاب على نسخة وحيدة كانت إحدى المخطوطتين اللتين اعتمدهما البجاويّ في تحقيقه .

---

١ – انظر – مثالاً – : من المطبوعة بتحقيق الأستاذ البجاويّ : ١ / ١٣٠ – ١٤٣ ، ٣ / ٢٨١ (آخر الصفحة) .

٢ – انظر – مثالاً – : ١ / ٣٢١ – ٣٢٣ ، ٣٢٧ – ٣٣١ ، ٣ / ٤٦٨ – ٤٧٤ .

٣ – انظر – مثالاً – : ٢ / ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٨٣ ، ٦١٩ ، ٦٣٥ .

٤ – انظر – مثالاً – : ٢ / ٤٣٩ ، ٤٧٢ .

وقد تكرر في تحقيق الأستاذ أحمد شمس الدين كثيرٌ مما وقع في تحقيق الأستاذ البجاويّ من سقط وتحريف وتصحيف مما يدلّ على أن الأستاذ شمس الدين إمّا أن يكون قد حقق الكتاب معتمداً على تحقيق الأستاذ البجاويّ ، أو أن نسخة الشيخ أحمد بن المستغانمي قد ورد فيها السقطُ والتحريف والتصحيف نفسه الذي وقع في كلا التحقيقين ، حيث إني لم أطّلع على أيٍّ من مخطوطتي الكتاب ، والله أعلم[1] .

وفي الجملة فتحقيق الأستاذ البجاويّ أجود بكثير من تحقيق الأستاذ أحمد شمس الدين ، بل ليس بينهما أفعل تفضيل ، وقد اعتمدت في دراستي للكتاب وإحالاتي عليه على الطبعة المحققة بقلم الأستاذ البجاويّ ، مع مراجعاتي لبعض الكتب التي نقل منها السيوطيّ[2] رحمه الله تعالى .

١- قد نشر تحقيقَ الأستاذ البجاويّ دارُ الفكر العربي في ثلاثة مجلدات ، ونشر تحقيقَ الأستاذ شمس الدين دار الكتب العلمية في ثلاثة مجلدات كذلك إلا أنها أصغر حجماً من طبعة دار الفكر .

٢- قد اطلعت بعد كتابة هذا على ماجاء في (ملحق التراث) : العدد العشرين : السنة الثامنة عشرة ، الملحق بجريدة المدينة العدد : ١١٤٤٨ بتاريخ ٢٧ / ٢ / ١٤١٥ هـ ؛ حيث أكد الأستاذ غازي العَمْري في مقال له بالملحق المذكور أن هذا الكتاب – طبعة دار الكتب العلمية – مسروق من طبعة دار الفكر العربي ، وأن الاسم : أحمد شمس الدين مزيّف غير حقيقيّ ، على الأرجح عنده ، وأن دار الكتب العلمية التي نشرت الكتاب قد تصرّفت في تحقيق الأستاذ البجاويّ فأسقطت عملا كثيراً من أعمال التحقيق وقدمت وأخرت فيه فدفعت الكتاب إلى المطابع مشوهاً مبتوراً ، هذا خلاصة رأي الأستاذ ؛ إلاّ أنه لم يقدم دليلاً ملموساً على ماقاله ، بمعنى أنه لم يذكر أنه قارن بين الطبعتين ، ولم يذكر أرقام الصفحات التي تدعم ماذهب إليه من رأي .

والحقيقة أن أمر الطبعة الأخرى عجيب ؛ فقد استدرك ناشروها بعض الأخطاء ومواضع السقط التي وقعت في تحقيق الأستاذ البجاويّ ، وفي الوقت نفسِه قد كرروا كثيراً من السقط ومواضع التحريف مما يقوي الظن بأنهم أخذوا جهد الأستاذ البجاويّ كلّه ، أو القسمَ الأكبر منه .

أما مواضع السقط التي استُدركت في طبعة دار الكتب العلمية فمنها :

١- ما جاء في أول صفحة ٤٢٢ من الجزء الأول من تحقيق الأستاذ البجاوي فقد حصل سقط لم يتكرر في طبعة الدار العلمية : ١ / ٣٢٠ .

٢- ومنها ماجاء في الصفحة : ١٠٨ من الجزءالثالث من تحقيق الأستاذ البجاويّ في السطر السابع من فوق ، فقد حصل سقط لم يتكرر في طبعة الدار العلمية : ٣ / ٨٦ .

وقد تفادت دار الكتب العلمية كثيراً من مواضع الاضطراب والخلط الطباعيّ في الصفحات التي وقَعَت في طبعة دار الفكر العربيّ ، أما باقي مواضع السقط والتحريف والتصحيف – التي ذكرت بعضاً منها في صفحة ٢٨٣ من هذا البحث – فتكاد تتفق تماماً في الطبعتين مما يرجح عندي أن ناشري دار الكتب العلمية قد استفادوا من طبعة دار الفكر العربيّ في ضبط النص ، وعملوا بعض التحسينات في بعض المواضع التي اختلت فيها طبعة دار الفكر من خلط وسقط واضطراب ، والله أعلم بالصواب .

الفصل الثالث

محتويات الكتاب ومنزلته العلمية

المبحث الأوّل : مضمون الكتاب وأبحاثه

كتاب ((معترك الأقران)) ضخم كبير قد بلغ ألفي صفحة تقريباً في ثلاثة أجزاء مطبوعة ، ويحوي علوماً متعددة أهمها علوم القرآن ومباحث الإعجاز ، وفيه مباحث كثيرة في فنون متنوعة من فقه وعقيدة وتفسير وأصول إلخ ...

وقد قدّم السيوطيّ لكتابه بمقدمة بيّن فيها أن المعجزة العظمى لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - هي القرآن ، وأنه قد تحدى به العرب فعجزوا و لم يستطيعوا الإتيان بمثله ولا بمايقاربه في الفصاحة والبلاغة ، ثم ذكر بعض من صنف في وجوه إعجاز القرآن ، ثمّ ناقش بعض المباحث المتعلقة بإعجاز القرآن نحو : إعجاز نظمه ، وطريق معرفة إعجاز القرآن ، واختلاف القرآن عن الشعر ، وهل باقي الكتب السماوية معجز ؟ إلى آخر ماذكره في مقدمته[1] .

ثم بعد فراغه من المقدمة ذكر خمسةً وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز ، وهي الآتي :

أولاً : العلوم المستنبطة منه .

ثانياً : كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان .

ثالثاً : حسن تأليفه والتئام كَلِمه .

رابعاً : مناسبة آيه وسوره وارتباط بعضها ببعض .

خامساً: افتتاح السور وخواتيمها .

سادساً: مشتبهات آياته .

سابعاً : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات .

ثامناً : وقوع ناسخه ومنسوخه .

تاسعاً : انقسامه إلى محكم ومتشابه .

عاشراً : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها .

١- انظر : ١/ ١ - ١١ .

الحادي عشر : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع .

الثاني عشر : إفادة حصره واختصاصه .

الثالث عشر : احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم .

الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها .

الخامس عشر : ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة .

السادس عشر : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه .

السابع عشر : وجوه مخاطباته .

الثامن عشر : ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيبات .

التاسع عشر : إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة .

العشرون : روعته وهيبته .

الحادي والعشرون : سامعه لايَمَجُّه[1] ، وقارئه لايملّه .

الثاني والعشرون : تيسيره – تعالى – حفظَه ، وتقريبه على متحفظيه .

الثالث والعشرون : وقوع الحقائق والمجاز فيه .

الرابع والعشرون : تشبيهه واستعاراته .

الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض .

السادس والعشرون : إعجازه في آية وإطنابه في أخرى .

السابع والعشرون : وقوع البدائع البليغة فيه .

الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء .

التاسع والعشرون : إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها .

الثلاثون : اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلّة .

الحادي والثلاثون : ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة .

الثاني والثلاثون : مافيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف .

الثالث والثلاثون : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها .

---

١ – جاء في ((لسان العرب)) : (م ج ج) : ((مَجَّ الشراب والشيء من فيه يَمُجُه مجّاً ، ومجّ به : رماه ... ومَجّ بريقه يَمُجُّه إذا لفظه)) .

الرابع والثلاثون : احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب وأسماء القبائل والبلاد والجبال والكواكب .

الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة[1] .

ثم ختم الكتاب بأبحاث مهمّة منها :

١- أقوال كلية محتوية على ألفاظ قرآنية[2] .

٢- قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها[3] .

٣- أحاديث نبوية مجردة من الأسانيد تفسِّر آيات قرآنية[4] .

وهذا الوصف المذكور إنما هو لفصول الكتاب ومباحثه الأساسية ، أما مكونات هذه الفصول والمباحث فتنقسم إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول : كلام للعلماء نقله السيوطيّ - رحمه الله تعالى - إما نصاً أو بعد تصرف ، على سبيل الاستشهاد أو الاستدلال أو الرد أو غير ذلك .

القسم الآخر : كلام من إنشائه مبتكر أو منقول من كتبه الأخرى .

أما القسم الأول فسيأتي بيان مفصّل له في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى [5] .

وأما القسم الآخر فقد سبق بيانه بالتفصيل[6] .

١- ذكر الإمام السيوطي هذه الأوجه متتابعة في كتابه ، وسيأتي تحديد صفحاتها والكلام عليها بالتفصيل في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٣٣٧ ومابعدها .

٢- وذلك نحو ماعزاه لابن فارس من قوله : ((كل مافي القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلاّ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف : ٥٥] فمعناه أغضبونا ، وكل مافيه من ذكر البروج فهي الكواكب إلاّ :﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] فهي القصور الطوال الحصينة ....)) : انظر ((معترك الأقران)) : ٣/٥٦٢ - ٥٧٤ .

٣- وذلك نحو قاعدة في الضمائر ، وقاعدة في التذكير والتأنيث ، وقاعدة في التعريف والتنكير ، وقاعدة في الإفراد والجمع ... انظر : ٣ / ٥٧٤ - ٦٢٢ .

٤- انظر : ٣ / ٦٢٢ - ٦٤٦ .

٥- انظر صفحة ٤٦٠ وما بعدها .

٥- انظر الصفحات : ٢٣١ - ٢٤٦ ، ٢٥٧ .

وقد مزج كلامه بكثير من الأدلة والآثار ، والقصص والمواعظ [1] .

وقد أوجزت في وصف محتويات الكتاب اعتماداً على أن رسالتي كلها هي إجمال أو تفصيل لهذا المحتوى ، وإنما ورد في هذا المبحث وصف عام إجمالي لِما فُصِّل في الكتاب .

١- سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في الباب القادم ، انظر ص ٤٦٥ وما بعدها ، وصفحة ٥٢٣ وما بعدها .

المبحث الثاني :

منزلة الكتاب العلمية وأثره .

المطلب الأول : منزلة الكتاب العلمية :

تقاس منزلة أيّ كتاب بما جاء فيه من مباحثَ جديدةٍ ، أو أفكارٍ مركّزة مرتبة ، أو حسنِ عرض لمادّة مشوَّشة إلى غير ذلك من وجوه تقويم منزلة الكتاب العلمية ، وكذلك للسلبيات أثرها في الحكم على منزلة الكتاب وجودته .

وكتاب الإمام السيوطيّ كتاب ضخم حافل مليء بالمعلومات والآراء ، ويمكن إجمال مافيه من ميزات علمية بما يأتي :

ميزات الكتاب

أولاً : غزارة المادة العلمية في الكتاب :

إذ هو مليء بآراء العلماء وأفكارهم واستنتاجهم مع حسن عرض وترتيب .

ثانياً : الموازنة بين الأقوال ونقدها وتمحيصها :

وهو معلمٌ بارز من معالم الكتاب ؛ فالسيوطي لايكاد يترك قولاً يورده إلا وينقده ويبين مافيه من حسن وقوة أو يذكر مافيه من خطأ أو نقص[1] ، وكل ذلك بهدوء وحسن أدب .

ثالثاً : الإكثار من إيراد الأمثلة والشواهد بما يوضح المعنى ويبينه أحسن تبيين .

---

١ - انظر - مثالاً - الصفحات : ١ / ٣٧٨ ، ٤٨٦ ، ٥٤٤ ، ٥٥٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦٣١ .

رابعاً : الإكثار من إيراد الأدلة التي تساند ماذهب إليه هو أو غيره ، ويكاد الكتاب يكون كتاب أحاديث وآثار من كثرة مافيه منها[1] .

خامساً : التجديد في عرض الإعجاز :

دلّل السيوطيّ على إعجاز القرآن بأمور لم تطرق من قبل[2] ، أو أنها طرقت لكن بإيجاز واقتضاب فتوسع فيها وأبرزها جليّةً واضحة[3] ، أو كانت موزعةً مفرقة في كتب شتى فجمعها[4] ... إلخ

سادساً : كثرة المصادر والمراجع :

قد استعان السيوطي في تأليفه كتابَه بمصادرَ ومراجعَ كثيرةٍ كثرةً ظاهرة ملحوظة ، وقد أحسن التعامل معها فتارة ينقل منها من غير تصرف ، وتارة يتصرف فيها بالتلخيص أو بالزيادة ، أو أنه ينقل بالمعنى نقلاً مناسباً لما يريد إيراده .

سابعاً : التنوع في إيراد المادة العلمية :

فالكتاب متخصص في إعجاز القرآن ولكن المصنف يأتي فيه بمباحثَ فقهيةٍ وحديثية وعقدية ولغويّة وأصولية تغني الكتاب وتنفي عنه الجمود ، وفي الوقت نفسه هي ليست استطراداً بل لها اتصال بموضوع الكتاب في الغالب .

ثامناً : حسن عرض مادة الكتاب :

ممّا يزيد الكتابَ قوّةً في منهجه العلميّ أن السيوطيّ أكثر من إيراد الأسئلة لما يراه قد ينبهم على القارئ أو يفوته ، وهذه طريقة علمية جيدة ترسخ العلم في ذهن الطالب وتقوم مقام مناظرة الأقران ونقاشهم .

---

١ – سيأتي في الباب الثالث الحديث مفصلاً على الآيات والأحاديث التي أوردها السيوطي في كتابه ، انظر ص ٤٦٥ وما بعدها .

٢ – وذلك كغالب الأوجه التي أتى بها في كتابه ، وسوف يناقشه الباحث في وجه إعجازها في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى .

٣ – وذلك كالوجه الأول من وجوه الإعجاز التي ذكرها وهو : العلوم المستنبطة منه ، انظر : ١ / ١٤ – ٢٧ .

٤ – وذلك نحو الوجوه البلاغية التي أوردها وفي الوجه الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين . انظر : ١ / ٢٤٦ – ٤٤٨ .

تاسعاً : عدم الجمود والتعصب :

للسيوطي شخصيته العلمية البارزة ، وآراؤه التي يدافع عنها ويتخيرها تخيراً ويحسن عرضها ، فهو يورد آراء العلماء وينقد مايحتاج إلى نقد منها غالباً ، ويُبرز ماذهب إليه واضحاً مدعماً بالأدلة العقلية والنقلية ، لايجمد على قول ولايتعصب له ، ومن الأمثلة الواضحة على استقلال شخصيته العلمية وعدم جموده وتعصبه مايأتي:

١ - فسّر قوله تعالى ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾[١] فقال :

((خطابٌ للملكين:السائق والشهيد . وقيل إنه خطاب للواحد على أن يكون بالنون المؤكدة الخفيفة[٢] ، ثم أبدل منها ألفاً على أن يكون معناه : أَلْقِ أَلْقِ ؛ فثنىّ مبالغة وتأكيداً ، وعلى أن يكون على عادة العرب من مخاطبة الاثنين كقولهم : خليليّ وصاحبيّ ، وهذا كله تكلف بعيد)) [٣] .

٢ - وعند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [٤] قال :

﴿أَثْقَالَهَا﴾ جمع ثِقْل ، وإذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثِقْل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها .

وقيل : هي الكنوز ، وهذا ضعيف ؛ لأن إخراجها للكنوز وقت الدجّال . والمراد إخراج الموتى الذين في جوفها عند النفخة الثانية في الصور))[٥] .

عاشراً : ذكر القصص والمواعظ :

ليّن السيوطيّ جفافَ بعض جوانب كتابه بذكر بعض المواعظ والرقائق والقصص والسلوكيات والإيمانيات مما جعل كتابه مشوّقاً إلى القارئ .

---

١ - سورة ق : آية ٢٤ .

٢ - أي أَلْقِيَنْ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤٤ .

٤- سورة الزلزلة : آية ٢ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥٢ ، وانظر للمزيد من الأمثلة : ١ / ٣٨٧ عند قوله : والأولى أن يقال ، وانظر - أيضاً - ١ / ٥٨٣ عند قوله : وقول بعضهم ... تعسف ، وانظر - أيضاً - ١ / ٦٣١ .

وهذا أمر تختلف فيه أنظار محققي عصرنا ؛ إذ يميل كثير منهم إلى أن إيراد مثلِ هذا يُقلل من قوة الكتاب العلمية ويضعف مباحثه ، ويذهب آخرون إلى أنه أمر مفيد مهم تلين به المادّة العلميّة وتُشوِّق إلى القارئ ، ولعلّ الرأي الآخر هو الراجح ؛ إذ هذه هي طريقة الكتاب والسنة وتآليف كثير من علمائنا ومشايخنا ، وهذا كله بشرط ألاّ تُخرِج القَصصُ والمواعظ والرقائق وغيرها الكتابَ المؤلَّف عن موضوعه الأساسيّ بالإكثار منها وحشرها حشراً في ثناياه .

هذا عرضٌ لمزايا الكتاب على وجه متوسط بين الإطالة والاختصار[١] .

سلبيات الكتاب

أما السَّلبيات التي قد تؤثر في درجة الكتاب فهي الآتي[٢] :

١ – خَلْط بعض وجوه إعجاز القرآن بغيرها :

فقد ذَكر الإمام السيوطيّ بعضَ أنواع من علوم القرآن وعدَّها وجوهاً من وجوه الإعجاز ، وكذلك صنع بمباحثَ أصوليّةٍ ولغويّة حيث عدّها من وجوه الإعجاز وهي ليست كذلك ، وقد ذكر رحمه الله تعالى أنه ((وإن كانت بعض الأوجه لاتعد من إعجازه فإنما ذكرتها للاطِّلاع على بعض معانيه فيثلج له صدرك وتبتهج نفسك))[٣] .

هذا وقد كان يلزمه – في تقديري – إن أراد إيرادها ألايكثرَ منها ، كما صنع ، وألا يعدها وجوهاً للإعجاز ، وأن يبين ماهو معجز من غيره ، إلا إن ظنّ أن وضوح عدم كونها من الإعجاز مُغْنٍ عن ذكره وتعيينه ، والله أعلم .

١ – سيأتي – إن شاء الله تعالى – تفصيل واسع مع ذكر الأمثلة لغالب هذه الميزات التي ذكرتها آنفاً ، وذلك في الباب القادم ، وهو مخصص لعرض ومناقشة منهجه في الوجوه التي ساقها في إعجاز القرآن .

٢ – هذه السلبيات هي المتكررة في ثنايا الكتاب ، وهناك سلبيات ومؤاخذات تختص بفصل أو مبحث سأبحثها في مكانها ، إن شاء الله تعالى .

٣ – ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢ .

وسأبين – إن شاء الله تعالى – في الباب القادم بالتفصيل أوجه الإعجاز من غيرها في الوجوه الخمسة والثلاثين التي أوردها في كتابه[1] .

٢ – عدم عزو كثير من الأقوال التي أوردها في كتابه :

قد أورد الإمام السيوطي مئاتٍ من أقوال الأئمة ، عزا بعضها ولم يَعْزُ كثيراً منها إلى مصادرها ، وهذا يسبب إرباكاً للقارئ ، فهو عندما يذكر أقوالاً لابن الجوزيّ[2] – مثلاً – ثم لايذكر مصدرها فإن القارئ سيصعب عليه تحديد ذلك المصدرِ بسبب كثرة كتب هذا الإمامِ .

نعم قد ينقل السيوطيّ قولاً عن أحد العلماء المقلين في التصنيف أو عن أحد العلماء الذين يسهل معرفة مظانِّ كلامهم فيعرف القارئ مِن اسم العَلَم والمادةِ المنقولة الكتابَ المنقول منه[3] .

وأيضاً قد ذكر السيوطيّ عشراتٍ بل مئات من الأقوال وأهمل قائليها فاكتفى بقوله: قال بعضهم ، أو : قيل ، أو : قال بعض المتأخرين ، أو : قال غيره إلخ ...

وهذا يحرم القارئَ من معرفة قائل ذلك ، ويصعب عليه جداً البحث عنه في مظانّه ، وقد يُضعف ذلك الثقة ببعض ماينقله السيوطيّ – رحمه الله تعالى – لإمكانية ورود السهوِ والغلط البشريّ عليه ، وعدمِ القدرة – في الغالب – على التأكد من صحة تلك الأقوال المرسلة ودقتها ، والله أعلم .

---

١ – انظر لتفصيل هذا البابَ الثالث القادم ، ص ٣٣٧ وما بعدها .

٢– هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ابن الجوزيّ . ينتهي نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة ببغداد ، وسمع من مشايخ كثيرين ، وكان رأساً في التذكير بلا مدافعة . وصنف مصنفات كثيرة ، في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة ، وله حِكم كثيرة وأقوال شهيرة . توفي سنة ٥٩٧ ببغداد . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢١ / ٣٦٥ – ٣٨٤ .

٣ – وذلك كنقل السيوطي عن الزركشي في ((المعترك)) مراراً ، والمعروف أن ذلك من كتابه ((البرهان في علوم القرآن)) .

٣ –كثرة النقل من كتبه الأخرى :

فقد صنّف جُلَّ مادةِ كتابه من كتب له أخرى نقلها بالنص أو بالمعنى ، وقد يضيف عليها أو يختصرها قبل إثباتها في ((المعترك)) كما بينته قبلُ بالتفصيل[١] ، وهذا النقل الطويل مأخذٌ على المصنَّف إن أكثر منه المصنِّف – وهو ماصنعه الإمام السيوطيّ – لأن ذلك الصنيعَ يصعب معه الحكم على المصنِّف أو كتابه حكماً علمياً يظهر معه مزايا الكتاب وما جاء به من جديد في الأفكار أو الاستنباطات ؛ إذِ الكتاب – على الحقيقة – مؤلَّف ، في أكثره ، من كتب له أخرى ، ومافيه من جديد إنما مردّه إلى حسن التبويب والتصنيف والجِدّة في عرض بعض وجوه الإعجاز ، كما سأبين ذلك في الفصل القادم بالتفصيل ، إن شاء الله تعالى[٢] ، ومابينته في ذكر مزايا الكتاب يوضح مافي الكتاب من جِدّة وجهد ، أيضاً[٣] .

ولا يقال إن هذه – أي السلبيةَ المذكورة – تخالف ماجاء قبلُ من ذكر مزايا الكتاب وإيجابياته ؛ إذ كان الكلام هنالك على ميزة المادة المقروءة التي يطالعها القارئ ، ومافيها من جهد وجِدّة في الجمع والتقسيم ، والكلام هنا منصبٌّ على طريقة تأليف المادة نفسِها وجمعها من كتب أخرى ، فلا منافاةَ بينهما .

ولايُنسى أيضاً أن جُلَّ المادة المنقولة إنما هي من كتب السيوطيّ نفسِه وهو جهده وعلمه ، ولكني أقصد أن الكتاب لما فيه من كثرة النقول وطولها لم يتميز تميزاً واضحاً بحيث يستطيع الباحث الحكمَ عليه بمعزل عن غيره من كتب السيوطيّ ، والله أعلم .

---

١ – انظر الصفحات : ٢٣١ – ٢٤٦ ، ٢٥٧ من هذا البحث .

٢ – انظر الصفحة ٤١٤ وما بعدها ، وصفحة ٤٢٠ وما بعدها .

٣ – انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

٤ – النقل من الكتب دون الإشارة لذلك :

قد تكرر كثيراً في كتاب السيوطيّ نقله من كتب المصنفين ثم لايشير إلى هذا النقل ولايبينه ، فيبدو ذلك النصّ المنقول كأنه كلامه .

ومن الأمثلة على هذا :

١ – قوله في مبحث تنزلات القرآن :

((اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله – تعالى – منزل ، واختلفوا في معنى الإنزال ، فمنهم من قال : إظهارُ القراءة ، ومنهم من قال ...))(١) .

وبالرجوع إلى ((الإتقان)) : ١ / ٤٣ يتبين أن السيوطي ينقل ذلك من تفسير الأصبهاني(٢) .

٢ – في الوجه الثالث من وجوه الإعجاز التي ساقها ذكر أنه هو ((حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادةَ العرب الذين هم فرسان الكلام ، وأرباب هذا الشان ، فجاء نطقه العجيب ، وأسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه ، ووقفت عليه مقاطع آياته ، وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولابعده نظير له))(٣) .

وهذا النصُّ هو ، تقريباً ، الوجهان الأول والثاني – مِن أوجه الإعجاز – اللذان ساقهما القاضي عياض ، رحمه الله تعالى ، ولم يُشِر السيوطي إلى ذلك(٤) .

١– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢١٠ .

٢– قد بينت في فهرس مصادر ومراجع السيوطي أن الأصبهاني هذا هو الراغب كما جزم بذلك أحد الباحثين ، انظر ص .

٣– ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .

٤– انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٥٨ ، ٣٦٩ .

٣ – في الوجه التاسع عشر من وجوه الإعجاز التي ساقها ذكر أنه هو ((إخباره بأحوال القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الداثرة ، مما كان لايعلم منه القصةَ الواحدة إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، فيورده النبي – صلى الله عليه وسلم – على وجهه ، ويأتي به على نصه ، فيعترف العالِم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم . وقد علموا أنه – صلى الله عليه وسلم – أميّ لايقرأ ولايكتب ولا اشتغل بمدارسة ...)) في كلام طويل(١) .

وهذا النص وبقيته منقول بحروفه من كتاب ((الشفا)) للقاضي عياض ، وهو الوجه الرابع من أوجه الإعجاز التي ساقها القاضي(٢) ولم يُشِر السيوطيّ إلى هذا النقل الطويل .

٤ – وكذلك فعل السيوطيّ في الوجه العشرين من وجوه الإعجاز – وهو روعته وهيبته – إذ نقله بنصه تقريباً من ((الشفا))(٣) ، ولم يبين ذلك .

٥ – وكذلك نقل الإمام السيوطي الوجه الحادي والعشرين من وجوه الإعجاز – وهو أن سامعه لايمجه ، وقارئه لايمله – نقله بنصه تقريباً من ((الشفا)) ولم يبين ذلك(٤) .

وللسيوطيِّ – رحمه الله تعالى – كلام في الحثّ على عَزْوِ العلم إلى قائله لم يلتزم به في كتابه هذا ، لكنه ادّعى دعوى لاتسلّم له أبداً بإطلاقها حيث يقول :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ – ٢٤٢ .

٢- انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٧٩ – ٣٨٢ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ ٢٤٢ – ٢٤٤ ، و ((الشفا)) : ١/ ٣٨٤ – ٣٨٨ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٤ – ٢٤٥ ، و ((الشفا)) ١ / ٣٨٩ – ٣٩٠ .

((ومن بركة العلم وشكره عَزْوُه إلى قائله ... ولهذا لاتراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء مبيناً كتابَه الذي ذُكر فيه !!))[1] .

وقال في كتاب آخر :

((وقد عَلِم الله والناسُ من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله ونسبته إلى ناقله أداءً لشكر نعمته وبراءةً من دَرَكه وعهدته))[2] .

ولكن لعله يقال دفاعاً عن بعض مايهمل عزوَه – في هذه السلبية الرابعة وفي السلبية الثانية المذكورة آنفاً – مايأتي :

١ – قد تكون المعلومات قد استقرت في ذهنه لكنه لم يعد يعرف مصدرها ، وذلك لأنه إما أن يكون قد استقاها من شيوخه ، أو أن تلك المعلومات مما حفظه قديماً ونسي مصدره[3] .

٢ – وقد يكون المنقول مما شاع وذاع بين طلاب العلم بحيث يكتفي بشيوعه عن نسبته إلى مرجعه .

٣ – لم يكن المرجع موجوداً لديه ساعة التصنيف .

هذا بعض ماقد يعتذر به للسيوطي ، لكن لما أكثر من ترك عزو الأقوال عددتُ ذلك من السلبيات في هذا الكتاب .

---

١ – ((المزهر)) : ٢ / ٣١٩ .

٢ – ((شرح مقامات السيوطي)) : مقامة ((الكاوي في تاريخ السخاويّ)) : ٢ / ٩٤٩ – ٩٥٠ .

٣ – ((السيوطي وجهوده في الدرسات اللغوية)) : ٢١٩ .

ولايخالف هذا أن السيوطيّ تغلب عليه الأمانة العلمية في نقل الكلام حتى بالإشارة كقال بعضهم ونحوه ، لكن الكلام هنا على ذكر المصادر والتصريح بها ، وذكر الأشخاص والتصريح بأسمائهم .

٥ – إيراده لعدد من الأحاديث الموضوعة :

مع أن السيوطيّ – رحمه الله تعالى – إمامٌ من أئمة الحديث وحافظ من حفاظه ، إلا إنه أورد بعض الأحاديث الموضوعة الظاهرةِ البطلانِ في كتابه دون أن ينبه على وضعها أو ينقضَها ، ومما أورده من هذا النوع :

أ – حديث مكذوب – ولاشك – عن عبد الله بن سَلاَم[١] رضي الله عنه.

والحديث طويل ولكن ممّا جاء فيه :

((... قال يامحمد : فقرار الأرض من أي شيء ؟ قال : بالجبال . قال : وقرار الجبال بأي شيء ؟ قال : بجبل قاف . قال : وجبل قاف من أي شيء ؟ قال : من زمرّدة خضراء ، وخضرة السموات منه)) .

((... فهذه الأَرَضون على أي شيء ؟ قال : على الثور . قال : وكيف صفة الثور ؟ قال : له أربعة آلاف رأس مابين الرأسين مسيرة خمسمائة عام . قال : صدقت ...)) .

والخبر على هذا النَّسَق ، طويل ، مكذوب ، ولاشك .

ولم يكتف السيوطيّ بإيراده ، بل جَعل تصديقَ عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دليلاً على وجود ذلك المسئول عنه في التوراة ، والخبر في جملته كذبٌ ووضع محض ، قال السيوطي :

---

١ – الإمام الحَبْر عبد الله بن سَلاَم بن الحارث الإسرائيليّ ، حليف الأنصار . من خواص أصحاب النبي ، صلى الله عليه وسلم . أسلم وقت هجرة النبي – صلى الله عليه – وقدومه . وكان من أحبار اليهود . توفي سنة ٤٣ رضي الله عنه . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢ / ٤١٣ – ٤٢٦ .

((فانظر تصديق عبد الله - حَبْرِ بني إسرائيل والمسلمين - لسيدنا ومولانا محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - لوجود ذلك كلّه في التوراة التي جعل الله فيها بيان كل شيء وتفصيله))[١] .

ومعنى كلامه هذا أن الحديث ثابت أو على الأقل غير موضوع مع أن علائم الوضع عليه ظاهرة .

قال ابن كثير[٢] رحمه الله تعالى :

((وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) : جبل محيط بجميع الأرض ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لِما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لايُصدق ولا يُكذب . وعندي أن هذا وأمثالَه وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يُلبسون به على الناس أمرَ دينهم ، كما افتُري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديثُ عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومابالعهد من قِدَم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلةِ الحفاظ النقاد فيهم ، وشربِهم الخمور ، وتحريفِ علمائهم الكلمَ عن مواضعه ، وتبديلِ كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : ((وحدثوا عن بَني إسرائيل ولاحرج))[٣] فيما قد يجوزه العقل ، أمّا فيما تُحيله العقول ويُحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القَبيل ، والله أعلم))[٤] .

---

١ - انظر نص الحديث وكلام السيوطيّ في ((المعترك)) : ٣ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٢ - هو الشيخ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير البُصرويّ ، عماد الدين ، ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير ، ونشأ بدمشق ، وسمع من طائفة ، واشتغل بالحديث ، وجمع التفسير ، والتاريخ الذي سماه ((البداية والنهاية)) ، وله عدة مصنفات سارت في البلاد . كان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة .

مات سنة ٧٧٤ وكان قد أضرَّ في أواخر عمره . انظر ((الدرر الكامنة)) : ١ / ٣٩٩ - ٤٠٠ .

٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء : باب ما ذكر عن بني إسرائيل : ٤ / ٢٠٧ .

٤- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٣٧٢ - ٣٧٣ .

ثم أورد أثراً يشابه الأثر الذي أورده السيوطي ، رحمهما الله تعالى ، وحكم عليه بالبطلان .

وقال الآلوسي[1] رحمه الله تعالى :

((وذهب القرافي[2] إلى أن جبل قاف لاوجود له ، وبرهن عليه بما برهن ثم قال : ولايجوز اعتقاد مالا دليل عليه)) .

ثم ذكر أن الذي يذهب إليه هو نفسه الذي ذهب إليه القرافيّ - رحمهما الله - مِن أنه ((لاوجود لهذا الجبل بشهادة الحس فقد قطعوا هذه الأرضَ برَّها وبحرها على مدار السرطان مراتٍ فلم يشاهدوا ذلك ، والطعن في صحة هذه الأخبار[3] أهون من تكذيب الحس ، وليس ذاك من باب نفي الوجودِ لعدم الوجدان[4] ، كما لايخفى على ذوي العرفان))[5] .

وقد قال ابن القيم[6] - رحمه الله تعالى - منبهاً على ((أمور كلية يُعرف بها كون الحديث موضوعاً))[7] :

١- هو الشيخ شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسيّ . جده الأعلى من (آلوس) جزيرةٍ في الفرات . ينتهي نسبه إلى سيد الخلق ، صلى الله عليه وسلم . ولد سنة ١٢١٧ .
كان صدرَ المدرسين ، مشغولاً بالإفتاء والتدريس بهمة عالية . أخذ عنه خلق كثير وقصدته الطلبة . له مصنفات عديدة ورسائل كثيرة . توفي سنة ١٢٧٠ ببغداد ، رحمه الله تعالى . انظر ((المسك الأذفر)) : ٦٤ - ٨٥ .

٢- هو الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصِّنْهاجيّ البهنسيّ المصريّ ، الإمام العلامة . انتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب مالك ، وجدّ في طلب العلوم فبلغ الغاية القصوى . كان إماماً بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية ، وله معرفة بالتفسير . تخرج به جماعة من الفضلاء . وله مصنفات سارت في الناس مسير الشمس . توفي سنة ٦٨٤ ، ودفن بالقرافة بمصر . انظر ((الديباج المُذْهب)) : ١ / ٢٣٦ - ٢٣٩ .

٣- أي الأخبار الواردة بذكر جبل قاف .

٤- أي إنه لم ينف وجود جبل قاف لعدم العثور عليه ، وإنما نفاه لاستحالة وجوده عقلاً .

٥- ((روح المعاني)) : ٩ / ١٧١ - ١٧٢ .

٦- هو الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعيّ الدمشقيّ ، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبليّ . ولد سنة ٦٩١ . وكان جريءَ الجَنان ، واسعَ العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف . غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك . وكان كثير الصلاة والتلاوة ، حسنَ الخُلق ، كثير التودد . توفي سنة ٧٥١ بدمشق ، وكانت جنازته حافلة . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٤ / ٢١ - ٢٣ .

٧- ((المنار المنيف)) : ٥٠ .

((منها أن يكون الحديث مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه ... ومن هذا حديث :

((إن قاف جبل من زَبَرْجَدَة خضراء تحيط بالدنيا كإحاطة الحائط بالبستان ، والسماء واضعة أكنافها عليه فزُرْقتها منه)) .

وهذا وأمثاله مما يزيد الفلاسفةَ وأمثالَهم كفراً))[1] .

وإنما سُقت هذه النصوصَ عن الأئمة الثلاثة المتقدمين ابن كثير والآلوسيّ وابن القيم لبيان وضع هذا الحديث وبطلانه ، ولأني لم أجد لـه ذكراً في المصنفات التي هي مظانّه بعد البحث الطويل والتفتيش الكثير ، خاصة في مصنفات السيوطيّ نفسه مثل ((الموضوعات)) ، و ((الدر المنثور)) ، و ((كنز العمال)) الذي أُلِّف من مادة ((الجامع الكبير)) .

ب – وأورد أيضاً حديثاً موضوعاً في فضل سورة الإخلاص قارن بينه وبين حديث آخرَ في فضل علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وكلا الحديثين من الموضوع الظاهرِ الوضع ، فاسمع إليه حيث قال :

((... وشَبَّهه بسورة الإخلاص[2] في قوله :

(من قرأ سورة الإخلاص مرّة واحدة فله ثواب ثلثِ هذه الأمّة ، ومن قرأها مرتين فله ثلثا ثوابِ هذه الأمة ، ومن قرأها ثلاث مرات فله ثواب هذه الأمة) .

وقال : (من أحب علياً بقلبه فله ثلث ثواب هذه الأمة ، ومن أحبه بقلبه ولسانه

١– المصدر السابق : ٧٨ ، وإنما يزيد هذا الخبرُ الفلاسفة كفراً لأنهم قوم يستندون إلى الحس والعقل كثيراً ، ويحيلون أموراً ثبتت بالحديث الصحيح ، فكيف بهذا الحديث الموضوع وبطلانِ مافيه فإنه يزيد من شكهم في الأحاديث المنقولة بجملتها ؛ وذلك لعدم علمهم بطرق نقل الحديث والحكم عليه .

٢– أي شبّه الرسول – صلى الله عليه وسلم – علياً ، رضي الله عنه ، بسورة الإخلاص .

فله ثلثا ثوابِ هذه الأمّة ، ومن أحبه بلسانه وقلبه وجوارحه فله ثواب جميعِ هذه الأمة)))[1] .

وهذان الحديثان لم أجدهما بعد طول بحث وتنقيب ، لكنهما من الأحاديث التي عليها علائم الوضع .

وأحاديث فضائل علي - رضي الله عنه - كثيرة جداً ، وكثير منها موضوع ، فقد ذُكر أن الرافضة وضعت في فضائل علي - رضي الله عنه - وأهلِ البيت نحوَ ثلاثِ مائة ألف حديث[2] .

وإنما قلت : هذان الحديثان عليهما علائم الوضع ؛ لما فيهما من ثواب عظيم مترتب على عمل يسير ؛ وقد ذكر ابن عَرّاق[3] أن من علائم الوضع في الحديث ((ركة لفظه ومعناه ... قال شيخ شيوخنا البرهان البِقاعيّ[4] :
ومما يرجع إلى ركة المعنى الإفراطُ بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو بالوعد العظيم على الفعل اليسير ، وهذا كثير في أحاديث القُصّاص .

١- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٥٥ .

٢- المنار المنيف : ١١٦ .

٣- هو الشيخ سعد الدين علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عَرّاق ، الفقيه المقرئ ، الشاميّ الحجازيّ ، الشافعيّ . ولد سنة ٩٠٧ ببيروت ، وحفظ القرآن العظيم وكتباً عديدة في فنون شتى . وكان ذا قدم راسخة في الفقه والحديث والقراءات ومشاركةٍ جيدة في غيرها ، وله قوة في نظم الأشعار الفائقة ، واقتدار على نظم الشعر . وكان أصمّ ، وولي خطابة المسجد النبويّ وإمامته . توفي بالمدينة سنة ٩٦٣ .
انظر ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٣٣٧ - ٣٣٨ .

٤- هو الشيخ الإمام إبراهيم بن عمر بن حسن البِقاعيّ ، برهان الدين . نزيل القاهرة ثم دمشق . ولد سنة ٨٠٩ بقريةٍ من أعمال البِقاع ونشأ بها ، ثم تحول إلى دمشق ثم فارقها ودخل بيت المقدس ثم القاهرة ، وبرع وفاق الأقران . مرّت عليه محن بالديار المصرية فانتقل منها إلى دمشق .
وقد حجّ ثم اعتزل الناس فأخذ عنه الطلبة في فنون ، وصنف التصانيف . توفي سنة ٨٨٥ بدمشق ، رحمه الله.
انظر ((البدر الطالع)) : ١ / ١٩ - ٢٢ .

قال ابن الجوزي :

وإني لأستحيي من وضع أقوام وضعوا : (من صلى كذا فله سبعون داراً ، في كل دار سبعون ألف بيت ، في كل بيت سبعون ألف سرير ، على كل سرير سبعون ألف جارية) وإن كانت القدرة لاتعجز ولكن هذا تخليط قبيح ... وهذا يفسد مقادير موازين الأعمال))[١] .

فالعجب من الحافظ السيوطيّ - رحمه الله تعالى - كيف يورد مثل هذا الذي أورده ولايتحرج منه ، وهوالإمام الحافظ الحجة[٢] .

وإيراد مثل هذه الأحاديثِ في هذا الكتابِ ثُلمةٌ كبيرة وثغرة واضحة فيه ، خاصة أن السيوطيّ أوردها و لم يتكلم عليها ، بل أوردها موافقاً عليها مستدلاً بها .

ولايقال إن السيوطيّ تسامح في نقل هذه الأحاديثِ وأمثالها لضعفها عنده ؛ إذ هي ظاهرة الوضع والبطلان .

ولا يقال إنه رواها وهي موضوعة لأنه قال في حكم رواية الموضوع :
((وتحرم روايته مع العلم به - أي بوضعه - في أي معنى كان ، سواء الأحكام والقصص والترغيب وغيرها ، إلا مبيناً - أي مقروناً ببيان وضعه ...))[٣] .

فلا أدري وجه روايته لأمثال هذه الأحاديث ، خاصة أنه قرنها بما يؤكد صحتها عنده حيث ذكر أن ((تصديق عبدِ الله حبرِ بني إسرائيل لسيدنا ومولانا

---

١ - ((تنزيه الشريعة المرفوعة)) : ٧ .

٢ - انظر كذلك الأثر الذي أورده في الجزء ٣ آخر صفحة ٢٨٠ وصفحة ٢٨١ .

٣- ((تدريب الراوي)) : ١ / ٢٣٢ .

محمدٍ – صلى اللـه عليه وسلم – لوجودْ ذلك كله في التوراة ...))[1] .

وقال في الحديث الآخر : ((وشبهه بسورة الإخلاص في قوله : ((من قرأ ...))[2].
فاللـه أعلم بالحامل له على ذكر هذه الموضوعات .

٦ – أخطاء علمية منهجية :

قد وقع السيوطيّ في أخطاء عجيبٌ أن يقع فيها إمام مثله ، فمن ذلك :

أ – خطأ عقديّ :

أورد أبياتاً منسوبة لعليٍّ – رضي اللـه عنه – جاء في آخرها :

وهذا العلم لايحويه إلا نبيٌّ أو وصيُّ الأنبياء[3] .

ثم إنه لم يردّ هذا اللفظ و لم يُفَنِّدْه .

وكلة (وصيّ) ابتدعها غلاة الشيعة ليثبتوا بها أن النبي – صلى اللــه عليـه وسـلم – وصّى بالخلافة لعلي – رضي اللـه عنه – نصًّا وكتمتها الأمة وغصبته حقَّه ، قــاتلهم اللـه ماأجهلهم ، وماأجرأهم على خير القرون رضي اللـه عنهم[4] .

ب – تبني الآراء الضعيفة أو التي ليس عليها دليل :

ذكر الإمـام السيوطيّ – رحمه اللـه تعالى – في كتابـه قضيتين أغـرب فيهمـا ،

١- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٦٦ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٥٥ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٢٠ .

٤- انظر للتفصيل في أمر رد هذه الوصية المزعومة : ((الفِصَل في الملـل والأهواء والنحل)) : ٤ / ١٥٧-١٧٥، وقد أفـاض شيـخ الإسلام ابن تيميّـة في الرد على من زعم بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصى بالخلافـة لعـلي رضي الله عنـه ، انظر ((منهاج السنة النبويّة)) : ٦ / ٤٨٩ – إلى آخر الجـزء ، والجـزء السابع بتمامه ، والجـزء الثامن من أوله إلى صفحة ٢٦٠ .

وكان ذلك الإغراب بسبب استناده إلى حديث ضعيف ، أو إلى رأي ضعيف ليس عليه نص صحيح صريح ، أو أنه لم يذكر نصاً في المسألة .

والقضية الأولى كانت تتناول عذاب الموحدين في النار ، والقضية الأخرى تتناول قصة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بأم المؤمنين زينب بنت جحش[1] ، رضي الله عنها .

أما القضية الأولى فلم يستند فيها إلى نص بل أرسلها إرسالاً فناقشته فيها وبينت مالعله يكون مستنداً له .

وأما القضية الأخرى فقد استند فيها إلى حديث ضعيف ، وإلى رأي ليس عليه دليل صريح .

وتفصيل القضيتين على النحو التالي :

أولاً : قضية تعذيب بعض الموحدين في النار :

قد ثبت في نصوص كثيرة أن بعض الموحّدين يدخل النار فيعذب فيها لذنوب ارتكبها ، ثم يخرج منها بعد ذلك برحمة الله وفضله ، فمن تلك النصوص قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] .

وقوله تعالى ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3] .

ومن النصوص النبوية قوله ، صلى الله عليه وسلم :

((حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لاإله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود ؛ تأكل النار ابنَ آدمَ إلا أثر السجود ...))[4] .

١- هي زينب بنت جحش بن رَباب الأسديّة ، أم المؤمنين . أمها أُميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماتت سنة عشرين في خلافة عمر رضي الله عنها ، أخرج لها الجماعة . انظر ((التقريب)) : ٧٤٧ .

٢- سورة التوبة : آية ١٠٦ .

٣- سورة التوبة : آية ٣٩ .

٤- هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق : باب الصراط جسر جهنم : ٩ / ١٤٦ - ١٤٧ .

وقد بيّن النبي – صلى الله عليه وسلم – في آخر هذا الحديث حال آخر الموحدين دخولاً الجنةَ وكلامه مع الله تعالى فقال :

((ويبقى رجل مُقبل بوجهه على النار – وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة – فيقول : **أيْ ربّ : اصرف وجهي عن النار فقد قَشَبَني ريحُها** وأحرقني ذَكاؤها ...))[1] .

فهذا الحديث صريح في تعرض ذلك الرجل الموحِّد للعذاب .

ومن تلك النصوص التي تدل على وجود عذاب في النار وأنه يتفاوت ، من تلك النصوص قول النبي صلى الله عليه وسلم :

((إن أشدّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون))[2] .

فهذه النصوص – وأمثالها كثير – ثابتة قاطعة بأن بعض الموحدين ينالهم عذاب محدد مقدر في النار ثم يخرجون منها ولايخلدون فيها ، والمسألة أوضح من أن يُتكلم عليها ، لكن ذكر الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في كتابه أمراً يدل على أن العذاب الواقع على الموحدين في النار عذابٌ صوريٌّ وليس حقيقياً ، وقد ذكر هذا عند تفسيرقوله تعالى : ﴿ مُلِيم ﴾[3] فقال :

((﴿ مُلِيم ﴾ من اللوم ، وهو التعيير ، وذلك أنه فعل مايلام عليه في خروجه من قومه بغير إذن ربه ، فحبسه في بطن الحوت حتى طهره ، وأخرجه بتسبيحة واحدة .

١- المصدر السابق .

ومعنى ((قَشَبَني)) : آذاني وأهلكني وسمّني ، انظر ((فتح الباري)) : ٢٤ / ٢٨١ .و((ذَكاؤها)) : كثرة لهبها ، وشدة اشتعالها ووهجها . المصدر السابق ، و ((لسان العرب)) : ذكي .

٢- أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب اللباس : باب عذاب المصورين يوم القيامة : ٧ / ٢١٥ .

٣- سورة الصافات : آية ١٤٢ .

وكذلك المؤمن يحبسه في النار حتى يطهرَه من غير ألم يناله فيها ؛ لأن له عَقْدَ الوصلة[1] ، كأيوبَ حلف أن يضرب زوجته مائةَ سوط ، فأمره الله أن يأخذ بيده ضِغْثاً – وهو مِلْءُ كفٍّ من الحشيش – كي لاتتأذى امرأته بالضرب))[2] .

وقول السيوطي : ((وكذلك المؤمن يحبسه في النار حتى يطهره من غير ألم يناله فيها)) قولٌ ليس عليه دليل ، بل هو مخالف لكثير من النصوص التي تدلّ على أن بعض الموحدين يناله في النار عذابٌ محددٌ مؤقتٌ ، خاصة ما أوردته آنفاً من إخبار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن حال بعض أهل النار ، وعذابهم فيها ، وتضررهم من ذلك العذاب وتألمهم منه .

وتلك النصوص لاتخفى على الإمام السيوطيّ ، فلا أدري من أين أتى بذلك الرأي الغريب ، خاصة أن اللغة لاتسمح به ؛ إذ معنى العذاب فيها هو النكال والعقوبة[3] .

ولعل مستند الإمام السيوطيّ فيما ذهب إليه في هذه المسألة الحديثُ الذي ذكره في كتابه : ((البدور السافرة في أمور الآخرة)) –حيث قال :

((باب من دخل النار من الموحدين يموت فيها :

أخرج مسلم[4] عن أبي سعيد[5] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١– كأنه يعني الوصلة بين العبد وربه في الدار الآخرة ، ورؤيته ربَّه سبحانه وتعالى فيها .

٢– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥١٩ .

٣– انظر ((لسان العرب)) : ع ذ ب ، و ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب : ع ذ ب .

٤– هو الإمام الكبير ، الحافظ المجوّد ، الحجة ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشيريّ النيسابوريّ . ولد سنة أربع ومائتين – فيما قيل – وارتحل قبل سنة ثلاثين ، وسمع على مشايخَ كثيرين ، وسمع منه خلق كثير . وقد صنف صحيحه المشهور من ثلاث مائة ألف حديث ، وكان يُقدم في معرفة الحديث على أكثر المشايخ في عصره . توفي سنة إحدى وستين ومائتين في نيسابور ، رحمه الله تعالى .انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٢ / ٥٥٧ – ٥٨٠ .

٥– هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري ، أبو سعيد الخدريّ . له ولأبيه صحبة ، استصغر بأحد فشهد مابعدها ، وروى الكثير . مات بالمدينة سنة ثلاث وستين ، رضي الله عنه . انظر ((التقريب)) : ٢٣٢ .

أمّا أهل النار – الذين هم أهلها – فإنهم لايموتون فيها ولايحيون ، ولكنّ ناساً أصابتهم النار بذنوبهم – أو قال بخطاياهم – فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم في الشفاعة فيجيء بهم ضبائرَ[1] فبُثّوا على أنهار الجنة))[2] .

ثم ذكر الإمام السيوطي كلاماً للإمام القرطبي في هذه المسألة ، فقال :

((قال القرطبيّ :

هذه الموتة للعصاة موتة حقيقية ، لأنه أكدها بالمصدر ؛ **وذلك تكريماً لهم حتى لايحسوا ألم العذاب .**

قال : فإن قيل : فأيّ فائدة في إدخالهم النارَ وهم لايحسون بالعذاب ؟

قلنا : يجوز أن يدخلهم النار تأديباً وإن لم يذوقوا فيها العذاب ، ويكون صرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبةً لهم ؛ كالمحبوسين في السجون ؛ فإن الحبس عقوبة لهم وإن لم يكن معه غِلٌّ ولاقيد .

قال : ويحتمل أنهم يعذبون أولا وبعد ذلك يموتون ، ويختلف حالهم في طول التعذيب بحسَب جرائمهم وآثامهم[3] . ويجوز أن يكونوا معذبين حالة موتهم غير أن آلامهم تكون أخفّ من آلام الكفار ...))[4] .

ولكن هذا الحديث الذي ذكره الإمام السيوطي لايدلّ على ماذهب إليه من أن الموحّد يحبس في النار مدةً من غير ألم يناله ؛ وذلك لأن هذا الفهمَ لايثبت مع نصوص الأحاديث الأخرى الكثيرة المنبئة عن تألم الموحدين في النار وأنهم يخرجون بعد عقوبة تنالهم ، وليت شِعْري مالذي يردع عصاةَ الموحدين عن الذنوب إذا علموا أنهم لن تقع عليهم عقوبة أخروية ، إنما كل عقابهم أنهم يؤخرون ويحبسون

١- الضبائر : جماعات الناس ، وكل مجتمع : ضِبارة . انظر ((لسان العرب)) : ض ب ر .

٢- أخرجه الإمام مسلم في كتاب ((الإيمان)): باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار : ٣ / ٤٠٨ .

٣- هذا هو الرأي الذي ارتضاه القرطبي فيما بعد جمعاً بين هذا الحديث والآثار الكثيرة المخبرة بعذاب أهل النار من الموحدين ، وسأورد كلامه آخرَ الكلام على هذه المسألة إن شاء الله .

٤- ((البدور السافرة في أمور الآخرة)) : ٣٥١ - ٣٥٢ وكلام القرطبي هذا في كتاب ((التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة)) : ٢ / ٤٥٦ .

فلا يدخلون الجنةَ إلا بعد حبس طال أو قَصُر ؟ وهل خوف الطائعين ، وتورع المتقين ، ودعاء العابدين إلا رغبةً في الجنة ونعيمها وخوفاً من النار وعذابها .

قال الإمام النووي[1] – رحمه الله تعالى – في معنى ((أماتهم إماتة)) وما بعدها :

((معناها أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله – تعالى – إماتةً بعد أن يعذَّبوا المدة التي أرادها الله – تعالى – وهذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساسٍ المدةَ التي قدرها الله – تعالى – ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحماً ... هذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه .

وحكى القاضي عياض – رحمه الله تعالى – فيها وجهين : أحدهما أنها إماتة حقيقية ، والثاني ليس بموت حقيقيّ ولكن تغيّب عنهم إحساسهم بالآلام ، قال : ويجوز أن تكون آلامهم أخفّ ، فهذا كلام القاضي،والمختار ماقدمناه))[2] .

وقال الإمام ابن حجر[3] – رحمه الله تعالى – في سرد فوائد أحاديث باب الصراط جسر جهنم :

١- يحيى بن شرف بن مُرِّي ، مفتي الأمة ، شيخ الإسلام ، محيي الدين ، أبوزكريا النوويّ ، الحافظ الفقيه الشافعيّ الزاهد ، أحد الأعلام . ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة بـ (نوى) ، إحدى قرى حوران شمالَ الشام . قدم إلى دمشق فاجتهد في الاشتغال بالعلم ، وألف مصنفات نفع الله بها المسلمين ، واشتهرت ، وحُلبت إلى الأمصار . توفي بـ (نوى) سنة ست وسبعين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((فوات الوفيات)) : ٤ / ٢٦٤ – ٢٦٨ ، و ((الأعلام)) : ٨ / ١٤٩ – ١٥٠ .

٢- شرح صحيح مسلم للنووي : ٣ / ٤٠٨ .

٣- أحمد بن علي بن محمد ، الأستاذ إمام الأئمة ، أبوالفضل الكنانيّ العسقلاني المصري ثم القاهريّ الشافعيّ ، ويُعرف بـ (ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه . ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمصر العتيقة ، ونشأ بها يتيماً ، وحفظ بعض المنظومات ، وأخذ على كثير من المشايخ ، وجدّ في الفنون حتى بلغ الغاية ، وأقبل على الحديث بكلّيته ، وارتحل في طلبه ، وتصدى لنشره وإقرائه . وَلِيَ عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء ، وله المصنفات النافعة المشهورة . توفي في القاهرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((الضوء اللامع)) : ٢ / ٣٦ – ٤٠ .

((وفيه أن جماعة من مذنبي هذه الأمةِ يعذبون بالنار ثم يخرجون بالشفاعة والرحمة ... وأن تعذيب الموحدين بخلاف تعذيب الكفار لاختلاف مراتبهم من أخذ النارِ بعضَهم إلى ساقه ، وأنها لاتأكل أثر السجود ، وأنهم يموتون فيكون عذابهم إحراقهم وحبسهم عن دخول الجنة سريعاً كالمسجونين ، بخلاف الكفار الذين لا يموتون أصلاً ليذوقوا العذاب ولايحيون حياةً يستريحون بها .

على أن بعض أهل العلم أوّل ماوقع في حديث أبي سعيد من قوله : ((يموتون فيها إماتةً)) بأنه ليس المراد أنه يحصل لهم الموت حقيقة وإنما هو كناية عن غيبة إحساسهم وذلك للرفق بهم ، أو كنى عن النوم بالموت ، وقد سمّى الله النوم وفاة .

وقد وقع في حديث أبي هريرة أنهم إذا دخلوا النار ماتوا فإذا أراد الله إخراجهم أمسّهم ألمَ العذاب تلك الساعة))[1] .

فالجمع الحسن في هذه المسألة – والله أعلم – أن المسلم إذا دخل النار فإنه يعذب بقدر ذنوبه ، ويموت موتة بقدر ماقدّر الله له من الحبس في النار تخفيفاً عنه ، وهذا الجمع هو مختار الإمامين النووي وابن حجر ، وهو أولى من رأي السيوطيّ أن الموحدين يحبسون في النار لكن لاينالهم ألم فيها ، وإنما كان أولى لجمعه بين النصوص المختلفة على وجه حسن ، وعدمِ مناقضته للثابت من نصوص الوعيد الدالّة على عذاب بعض الموحدين في النار عذاباً حقيقياً ، عافانا الله .

وهذا الجمع هو الذي انتهى إليه القرطبي – أيضاً – بعد تأويله الذي ذكرته آنفاً ، إذ قال :

((قلت : إن قال قائل :

١- ((فتح الباري)) : ٢٤ / ٢٨٦ ، ولم أجد الحديث المذكور عن أبي هريرة .

قد تقدم مِن حديث أبي سعيد الخدريّ أن مَن ليس من أهل النار[1] إذا دخلوها أُحرقوا فيها وماتوا ، على ماذكرتموه في أصح القولين ، وهذه الأحاديث التي جاءت في العصاة بخلاف ، فكيف الجمع بينهما ؟

قيل له : الجمع ممكن ، وذلك – والله أعلم – أن أهل النار الذين هم أهلها كما قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[2] ... والعصاة بخلاف هؤلاء فيعذبون وبعد ذلك يموتون ...

وقد قيل إنه يجوز أن يكونوا متألمين حال موتهم ، غير أن آلام المؤمنين تكون أخفَّ من آلام الكفار ...))[3] .

وهذا الذي انتهى إليه القرطبي – أولا – هو الذي ذهب إليه الإمامان ابن حجر والنووي ، رحمهم الله جميعاً .

وبهذا يتبين ضعف رأي الإمام السيوطيّ الذي ذهب إليه في أن عذاب الموحِّد في النار عذابٌ صوريّ ، والله أعلم .

ثانياً : مسألة زواج النبي – صلى الله عليه وسلم – بزينب بنت جحش ، رضي الله عنها :

ذكر الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، في مسألة زواج النبي – صلى الله عليه وسلم – بزينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، كلاماً غير مقبول من إمام مثله ، فقد قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾[4] :

١- أي مخلد فيها .

٢- سورة النساء : آية ٥٦ .

٣- ((التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة)) : ٢ / ٥٥٦ – ٥٥٧ .

٤- سورة الأحزاب : آية ٣٧ .

وسوف أذكر في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى ، أن الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – قد ينتزع الشاهد من الآية انتزاعاً مُخلاً ليستقيم له وضعها تحت الحرف الذي ساقها فيه ، انظر ص ٤١٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

وتمام الآية وكمال سياقها الدالّ على الموضوع المراد منها : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ .

((رُوي أنه – صلى الله عليه وسلم – ذهب يوماً لزيارة زيد ، فخرجت زينب كالشمس الضاحية ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فلما جاء زيد أخبرته بقوله – صلى الله عليه وسلم – ففهم أنها أعجبته ، ومن خصائصه – صلى الله عليه وسلم – إذا وقع بصره على امرأة وأعجبته وجب على زوجها طلاقُها رِضاً له صلى الله عليه وسلم .

فأتى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال له : قد طلقتُ زينبَ يارسول الله .

فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ...))[1] .

والأمر العجيب من الإمام السيوطيّ ذِكرُه قضيتين في هذه المسألة ، وهما :

١ – سبب زواجه من زينب ، رضي الله عنها ، أنه وقوع بصره عليها وإعجابه بها .

٢ – قوله إن من خصائص النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه إذا وقع بصره على امرأة وأعجبته وجب على زوجها طلاقُها رِضاً له ، صلى الله عليه وسلم .

أما القضية الأولى – وهي سبب زواجه – صلى الله عليه وسلم – من زينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، فإن السيوطيّ قد صدّرها بلفظ رُوي المشعر بالضعف ، ثم إنه اعتقد صحة ماذكره لأنه قال بعد ذلك :

((فإن قلت : قد حرّم الله عليه خائنة الأعين ، فكيف أخفى في نفسه حُبَّه طلاقَها من زيد ؟[2] فالجواب أن الذي أخفى إنما هو أمرٌ مباح لاإثم فيه ولاعَيْب ؛ أشفق على أمته من التسلط عليه بألسنتهم فيكون فيه هلاكُهم ...))[3] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٩٨ .

٢-لايظهر لي تناسقٌ بين شطري السؤال لكنه كذا ورد ، والمعنى المراد واضح والله أعلم .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٩٨ - ٣٩٩ .

وهذه القصة كلها باطلة ؛ فقد أخرجها ابن سعد[1] وغيره من طريق محمد بن عمر الواقديّ[2] عن عبد الله بن عامر الأسلميّ[3] عن محمد بن يحيى بن حَبّان[4] قال :

جاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيت زيد بن حارثة يطلبه – وكان زيد إنما يقال له : زيد بن محمد ، فربما فقده رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الساعةَ فيقول : ((أين زيد)) ؟ – فجاء منزله يطلبه فلم يجده ، وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجتُه فُضُلاً[5] ، فأعرض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عنها فقالت : ليس هو هاهنا يارسول الله ، فادخل بأبي أنت وأمي ، فأبى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يدخل .

وإنما عجلت زينب أن تلبس لما قيل لها : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الباب ، فوثبت عَجْلى ، فأعجبت رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – فولى وهو يُهمهم[6] بشيء لايكاد يُفهم منه إلا ربما أعلن : ((سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب ...)) والحديث طويل[7] .

١– محمد بن سعد بن مَنيع ، الهاشمي بالولاء ، البصريّ ، نزيل بغداد . كاتب الواقديّ . صدوق فاضل ، مات سنة ثلاثين ومائتين ، وهو ابن اثنتين وستين سنة . انظر ((التقريب)) : ٤٨٠ .

٢– محمد بن عمر بن واقد الأسلميّ الواقديّ ، المدنيّ ، القاضي . نزيل بغداد . متروك مع سعة علمه . مات سنة سبع ومائتين ، وله ثمان وسبعون سنة . انظر ((التقريب)) : ٤٩٨ .

٣– عبد الله بن عامر الأسلميّ ، أبوعامر المدنيّ . ضعيف . مات سنة مائة وخمسين أو إحدى وخمسين ، انظر ((التقريب)) : ٣٠٩ .

٤– محمد بن يحيى بن حَبّان الأنصاريّ المدنيّ . ثقة فقيه ، مات سنة إحدى وعشرين ومائة ، وهو ابن أربع وسبعين سنة . أخرج له الجماعة . انظر ((التقريب)) : ٥١٢ .

٥– رَجل فُضُل وامرأة فُضُل : أي في لباس واحد ، والفَضْلة : الثياب التي تُبتذل للنوم ؛ لأنها فضلت عن ثياب التصرف ، انظر ((لسان العرب)) : ف ض ل .

٦– الهَمْهمة : ترديد الصوت في الصدر . ((لسان العرب)) : همم .

٧– انظر ((المستدرك)) : ٤ / ٢٥ ، و ((طبقات ابن سعد)) : ٨ / ١٠١ – ١٠٢ .

وهذا الأثر ضعيف جداً ، وذلك لأن الواقدي متروك ، وعبد الله بن عامر الأسلمي ضعيف ، ومحمد بن يحيى بن حَبّان ثقة لكنه تابعيّ وقد أرسل هنا ، فمثل هذا الحديث لايثبت بوجه من الوجوه ، والله أعلم .

قال الإمام ابن العربي[1] :

((وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد ... فأما قولهم إن النبي – صلى الله عليه وسلم – رآها فوقعت في قلبه فباطلٌ فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذ حجابٌ ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولاتقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ؟ ... حاشا لهذا القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال الله له : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[2] ، والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ...

وإنما كان الحديث أنها لما استقرت عند زيد جاءه جبريل : إن زينب زوجُك ، ولم يكن بأسرعَ أن جاءه زيد يتبرأ منها ، فقال له : اتق الله ، وأَمسِك عليك زوجَك ، فأبى زيد إلا فراقها ، وطلقها ، وانقضت عدّتها ، وخطبها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ... وأنزل الله القرآن المذكورَ فيه خبرُهما ... فقال : واذكر يامحمد إذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه : أَمسِك عليك زوجك ، واتّق الله في فراقها ، وتخفي في نفسك ماالله مبديه ، يعني من نكاحك لها ، وهو الذي أبداه لاسواه ...))[3] .

وإنما قال الله – تعالى – لنبيه ، صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾[4] لأن زيداً كان يسمّى زيدَ بن محمد ، فيخشى أن يقول الناس : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تزوج زوجَ ابنه[5] .

١- أبوبكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافريّ الإشبيليّ . إمام ، علامة ، حافظ ، متبحر . ولد سنة ٤٦٨ بإشبيلية ، ونشأبها ، ثم ارتحل إلى مصر والحجاز والعراق .كان حسن المعاشرة ، وقد تولّى القضاء في إشبيلية وكان صارماً فيه . له تآليف عديدة . توفي سنة ٥٤٣ ، ودفن في فاس . انظر ((الديباج المذهّب)) : ٢ / ٢٥٢ – ٢٥٦ .

٢- سورة طه : آية ١٣١

٣- ((أحكام القرآن)) لابن العربي : ٣ / ٥٧٧ – ٥٧٨ .

٤- سورة الأحزاب : آية ٣٧ .

٥- انظر ((روح المعاني)) : ٢٢ / ٢٤ .

((وما كان محمد- صلى الله عليه و سلم - في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمه وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها مايدلّ على شَغَفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد يُعلل شهوته ، ويرفّه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذي نهاه أن يمد عينيه إلى مامتع به الناسَ من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علوّاً كبيراً .

أما والله لولا ماأدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ماخطر ببال مطّلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه ؛ فإن نص الآية ظاهر جليّ لايحتمل معناه التأويل ، ولايذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهّل في الأمر والتريّث به ، وأن الذي كان يخفيه من نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب ، وأن يتناول المِعْول ليهدمها بنفسه ... ولم يكن يمنعه عن إبداء ماأبدى الله إلا حياءُ الكريم ، وتُؤَدة الحكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لامحالة لكن مع معاونة الزمان))[1] .

مما نقلته آنفاً يتبين خطأ ما نقله الإمام السيوطي وأثبتَه في كلامه على تفسير هذه الآية .

أما القضية الأخرى فهي قوله : ((ومن خصائصه - صلى الله عليه وسلم - إذا وقع بصره على امرأة وأعجبته وجب على زوجها طلاقها - رضاً له - صلى الله عليه وسلم)) .

وقول السيوطيِّ هذا قد بيّنه أكثر في كتاب آخر له ، حيث قال :

((قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[2] ...

١- ((محاسن التأويل)) للقاسمي : ١٣ / ٤٨٧٥ ، نقلاً عمن أبهمه فقال : ((للإمام مفتي مصر - رحمه الله تعالى - مقالة على هذه الآية ، رأيت نقلها هنا تعزيزاً لما سلف ، وإيقافاً من أسرار الآية على نُخَب ما وصف)) : ١٣ / ٤٨٧٠ ، فلعلّ هذا المفتي هو الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى .

٢- سورة الأحزاب : آية ٦ .

ولو رغب في نكاح امرأة فإن كانت خليّةً وجب عليها الإجابة وحرم على غيره خطبتها ، وإن كانت ذاتَ زوج وجب على زوجها طلاقُها لينكحها للآية السابقة ولقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية[1] ، . . . واستدلّ الغزاليّ[2] لوجوب التطليق بقصة زيد ...))[3] .

وقال الخفاجي رحمه الله تعالى :

((الأئمة الشافعية قالوا إنه من خصائصه – صلى الله عليه وسلم – أنه يجوز له النكاح بغير الرضى ، وأنه إذا رغب في نكاح امرأة لزم إجابته ، وحرم على غيره[4] خطبتها ، فإن كانت تحت زوج وجب عليه طلاقها لأنه يجب على كل أحد أن يكون رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم – أحبَّ إليه من نفسه وأهلِه وولده))[5] .

وقال الزُّرْقانيّ[6] ، رحمه الله تعالى ، مبيناً ضعفَ الاستدلال بتلك القصة – قصة زيد – على هذه المسألة :

((وفي هذا الدليلِ نظرٌ لابتنائه على أنه – صلى الله عليه وسلم – رغب في نكاحها لما رآها ، وقال : سبحان الله مقلب القلوب ، ففهمت زينب ذلك منه وأخبرت

١- سورة الأنفال : آية ٢٤ .

٢- الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام ، زين الدين أبوحامد محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسيّ الشافعيّ الغزاليّ ، صاحب التصانيف والذكاء المفْرط . تفقه ببلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل ، وشرع في التصنيف ، وعظم جاه الرجل ، ثم رفض الرئاسة وتزهّد وحج ، وانعزل عن الناس مدةً ، وكان خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله . توفي سنة خمس وخمسمائة بطوس ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٩ / ٣٢٢ – ٣٤٦ .

٣- ((الخصائص الكبرى)) : ٣ / ٢٩٧ .

٤- في المطبوع : غيرها .

٥- ((نسيم الرياض)) : ٤ / ٢٧٢ .

٦- محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزُّرقانيّ الأزهري المالكيّ . الإمام ، المحدث ، الناسك ، الفقيه ، العلامة . ولد سنة ١٠٥٥ بالقاهرة ، ونسبته إلى (زُرْقان) إحدى قرى مصر ، وله عدة مؤلفات نافعة . توفي بالقاهرة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف ، رحمه الله تعالى .

انظر ((سلك الدرر)) : ٤ / ٣٢ – ٣٣ ، و ((الأعلام)) : ٦ / ١٨٤ .

زيداً ففارقها ، وهذا منكر ، وعلى تقدير تسليمه لايدل على الوجوب ، إذ قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ ﴾ صورة واقعة حال ، والصواب أن تطليق زيد لها لتعظمها عليه ، ولذا قال ابن الرِّفعة[1]: قصة زيد لاتدل على ذلك بل تدل على عكسه ، وبسط القول فيه بما يطول ذكره ، وكذا فعل ابن الصلاح[2] في كلامه على ((بسيط)) الغزاليّ))[3] .

وهذه مسألة فَرَضية لم تقع ، ولايحسن الكلام عليها وعرضها بهذه الصورة ؛ لأنها لم تحدث أصلاً ، والكلام فيها ضربٌ من التكلف ، ورحم الله الإمام السبكيّ[4] حيث قال :

((ولم يكن – صلى الله عليه وسلم – تعجبه امرأة أحد من الناس ، وقصة زينب إنما جعلها الله تعالى – كما في سورة الأحزاب – قطعاً لقول الناس : إن زيداً ابنُ محمد ، وإبطالاً للتبني .

قال : وبالجملة فهذا الموضع من منكرات كلامهم في الخصائص ، وقد بالغوا في هذا البابِ في مواضعَ ، واقتحموا فيها عظائمَ لقد كانوا في غنية عنها))[5] .

١- أحمد بن محمد بن علي المصريّ الشافعيّ ، نجم الدين ابن الرفعة . ولد سنة ٦٤٥ . اشتهر بالفقه إلى أن صار يضرب به المثل ، وإذا أُطلق الفقيه انصرف إليه من غير مشارك ، مع مشاركته في العربية والأصول . له مصنفات نافعة ، ووَلي حِسبة مصرَ مدةً ، وناب في الحكم ، ثم عزل نفسه ، ومحاسنه كثيرة . توفي سنة ٧١٠ ، رحمه الله تعالى . انظر ((الدرر الكامنة)) : ١ / ٣٠٣ - ٣٠٦ .

٢- الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام ، تقي الدين أبوعمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الكُرديّ الشَّهرَ زُوريّ الموصليّ الشافعيّ . ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، واشتغل على والده وغيره ، وجمع وألّف وأفتى ، وكان من كبار الأئمة ، ذا جلالة عجيبة وهيبة ووقار ، وفصاحة ، وعلم نافع . كان متبحراً في الفقه واللغة والحديث . توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة بدمشق ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٣ / ١٤٠ - ١٤٤ .

٣- ((شرح الزرقاني على المواهب اللدنية)) : ٥ / ٢٣٢ .

٤- أبو الحسن علي بن عبدالكافي بن عليّ السُّبكيّ ، الشيخ الإمام المحدث . ولد سنة ٦٨٣ ، وتفقه على والده وغيره ، وارتحل في طلب العلم . كان خيراً ، ديّناً ، متواضعاً ، من أوعية العلم ، وصنف التصانيف المتقنة . توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦ . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ١٠/ ١٣٩-٣٣٨ .

٥- ((شرح الزرقاني على المواهب اللدنية)) : ٥ / ٢٣٥ .

جـ – أخطاء في قضايا في الرسم العثماني[1] :

ذكر الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – عدداً من مسائل الرسم العثمانيّ التي كثر النقاش فيها واختلفت فيها الأنظار ، وحامت حولها شبهاتٌ مريضة ، ذكرها السيوطيّ دون تفنيد ولامناقشة ، ولعل ذلك لشهرتها واستفاضة أجوبتها في زمانه .

لكن ذكرها في هذا الكتاب وأمثاله من الكتب فيه خطر على أذهان ناشئة زماننا حيث يتوهمون بسببها الخطأ في كتاب الله المصون ، وهي أيضاً مصدر سرور للمستشرقين وأذنابهم ليكيدوا بها المسلمين .

ومن هذه المسائل التي أوردها الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى :

أولاً : قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾[2] :

في قراءة من شدد النون من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ﴾ وأبقى ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ على الرفع فلم ينصبها[3] .

ومما قاله السيوطي في هذه المسألة :

((... وقالت عائشة : ((هذا مما لحن فيه كاتب المصحف)) ، وقد أكثروا في الكلام في هذه الآية وألفوا فيها تأليفاً))[4] .

وإيراده قولَ عائشة هذا دون تفنيد أو مناقشة زلة علمية من إمام كبير مثل السيوطيّ ، رحمه الله تعالى .

١- قد مر (أ) و (ب) ، انظر ص ٣٠٥ .

٢- سورة طه : آية ٦٣ .

٣- قرأ ابن كثير وحفص بإسكان النون ، وقرأ الباقون بتشديدها ، وقرأ أبو عمرو بالياء في ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ جرياً على أصل الإعمال . انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢ / ٣٢٠ – ٣٢١ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٠٤– ٢٠٥ .

ثانياً : مسألة لفظ ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾[1] وماورد فيها :

وهذه مسألة أخرى مشابهة في خطورتها للمسألة السابقة ، حيث قال :

((... وقرأ علي بن أبي طالب : (وطَلْع منضود) - بالعين - فقيل له :

إنها بالحاء .

فقال : ماللطلح والجنة ؟

فقيل له : أنصلحها في المصحف ؟

فقال : المصحف اليومَ لايغيرّ))[2] .

والكلام على هاتين القضيتين بالتفصيل سيأتي في مكان آخر إن شاء الله تعالى[3] ، وإنما الغرض - هنا - بيان السَّلبية الكبيرة الحاصلة في نقل هذا الكلام دون تفنيد ولامناقشة .

٧ - **وهناك بعض السلبيات والمآخذ التي تتعلق** ببعض وجوه الإعجاز التي أوردها - رحمه الله تعالى - في كتابه ، وسأذكرها ، إن شاء الله تعالى ، بالتفصيل حال مناقشتي لتلك الأوجه في الباب القادم[4] .

٨ - **وهناك بعض المآخذ الخفيفة** التي سببها السرعة ، أوالوهم ، أو سبق القلم - ولايخلو من هذا بشر - غضضت الطَّرْفَ عنها جملةً إلا مثالاً واحد أذكره للبيان ؛ إذ يقول الإمام السيوطيّ عند قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا ﴾[5] .

قال :

((يعني : محمداً عبدنا ، فما أشرفها من إضافة ؛ لأنه قرنه بنون العظمة))[6] .

١- سورة الواقعة : آية ٢٩ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٥٢ .

٣- انظر الفصل الثالث من الباب الثالث القادم ، إن شاء الله تعالى ، ص ٥٤٣ وما بعدها .

٤- انظر ص ٣٣٧ ومابعدها .

٥- سورة القمر : آية ٩ .

٦- ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٣٥ .

والكلام ليس عن رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – إنما هو عن رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام .

وبعرض الميزات والسَّلبيات يتضح الآتي في منزلة الكتاب العلمية :

أولاً : الكتاب مصنّف من أنواع شتّى من علوم القرآن سيقت للدلالة على الإعجاز ، وقد جمع فيه المصنف عدداً ضخماً من الأدلة والآثار وأقوال سلف الأمة وخلَفها مما جعل الكتابَ مبسوطاً غاية البسط ، وصار أشبهَ شيء بما يسمى ((الموسوعة)) أو ((دائرة المعارف)) .

ثانياً : غلبت على الكتاب صفة الجمع والحشد للأدلة والأقوال ، ولم يظهر فيه جهد نقديّ واضح لما يَرِد فيه من آراء حتى ماكان منها في أمَس الحاجة لهذا النقد[1] ، ولا يخالف هذا ما ذكرته في موضع سابق من بيان لبعض ما ارتآه السيوطيّ خطأً فناقش قائله فيه[2] ؛ لأن تلك المناقشةَ كانت في جوانبَ جزئية من الكتاب لكن ماأعنيه هو :

(١) – غياب النقد الكلي لوجوه الإعجاز الواردة في الكتاب وتفنيد مايصلح أن يُلحق منها بالإعجاز وما يُمنع منه[3] .

(٢) – وأعني أيضاً غياب النقد للأخطاء العلميّة الواردة في الكتاب التي أشرت إليها قبلُ[4] .

١– مثل الفقرة الخامسة والسادسة من السَّلبيات المذكورة آنفاً ، انظر ص ٢٩٩ ، ٣٠٥ .

٢– انظر ص ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

٣– انظر ص ٢٩٣ .

٤– انظر ص ٢٩٩ ، ٣٠٥ وما بعدها .

ثالثاً : مع أن عنوان الكتاب دالٌّ على الإعجاز إلا أن أكثره لم يَخْلُص لهذا المعنى ، إنما جاء الحديث عن الإعجاز في جوانبَ محدودةٍ منه ، وتُعُسِّف - في تقديري ، وكما سأسوق في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى ، عند عرض وجوه الإعجاز - في إلحاق كثير من مادة الكتاب بالإعجاز .

فالمصنف يملك قدرة فائقة على تسخير العلوم المتنوعة لعرض قضية الإعجاز ولو كان المشار إليه بأنه من الإعجاز ليس منه قطعاً ، وقد تخلص من هذه التّبِعَةِ بقوله :

((وإن كانت بعض الأوجه لاتعد من إعجازه فإنما ذكرتها للاطلاع على بعض معانيه فيثلج له صدرك وتبتهج نفسك ...))[1] .

ويبقى سؤال هو :

لماذا جيء بقضية منزلة الكتاب العلمية قبل تمام عرض الكتاب ؛ وهو لايتم إلا بالبابين : الثالث والرابع ، وبهما يتضح بجلاء جهد المصنِّف ومنزلةُ ماصنفه ؟

والجواب : أنني قدمت هذا لأسباب هي :

١ - أردت أن أجعل ذلك مقدمةً وتمهيداً للدخول إلى الباب الثالث - منهج المؤلف في كتابه - حتى يُفهم مأتى به الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - على الوجه الأتم ، حيث إن كثيراً مماجاء في ثنايا الكتاب لايعد من الإعجاز بحال .

٢ - لما كان الكتاب المتناوَلُ بالبحث ليس موضوعَ تحقيق لكن موضوع دراسة نقدية فإنه يحسن بالقارئ الاطِّلاع على مافي الكتاب من ميزات وسلبيات على وجه الإشارة والاختصار قبل ذكر بعضها بالتفصيل في مواضعها .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢ .

٣ - كثير مما ذكرته في الميزات والسَّلبيات لاتعلق له بالبابين الثالث والرابع إنما هي قضايا منفردة تصح مناقشتها في أي مكان من الكتاب .

كان ذلك بياناً موجزاً لمنزلة الكتاب العلمية ، ويبقى أن يُنظر في هذه المسألة نظرة فاحصة بمقارنة منزلة الكتاب بين كتب الإعجاز السابقة عليه واللاحقة به ، وهو ماخصصت له الباب الرابع ، إن شاء الله تعالى[1] .

١- انظر ص ٦٠٤ وما بعدها .

المطلب الثاني : أثر الكتاب

الأثر في اللغة :

للأثر في اللغة معانٍ عدة ، والمعنى المناسب هنا هو ((بقية الشيء ... وما بقي من رسم الشيء ... وأثّر في الشيء ترك فيه أثراً))[1] .

والمقصود – هنا – هو ماتركه الكتاب في نفوس معاصري المصنِّف ومن جاء بعده من تقدير أو عكسه ، ورضىً عنه أو سخطٍ عليه .

ولابد قبل الحديث عن أثر الكتاب من بيان أمرين مهمين أثّرا في رواج الكتاب في الأوساط العلمية :

الأمر الأول : اختلاف اسم الكتاب :

أكثر المصادر ذكرت هذا الكتابَ بعنوان ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) كما بينت ذلك قبلُ[2] ، وكان لهذا أثرُه في ذكر هذا الكتابِ أو الاستفادةِ من مباحث الإعجاز فيه في العصور التي تلت عصر الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ؛ إذ أن من يسمع بهذا العنوانِ لايدور في خَلَده إلا أن الكتاب خاصٌّ بالمشترك اللفظيّ في القرآن ليس غير فينصرف عنه من ليس له حاجة في بحث المشترك .

الأمر الآخر : تأخر طبعه :

تأخرُ طبع الكتاب إلى مابعد سنة تسعين من القرن الماضي أثر كثيراً في رواجه وانتشاره بين طلبة العلم ، حتى أن كثيراً منهم لم يسمع بالكتاب قطُّ ، وإذا قارنّاه بكتاب السيوطي : ((الإتقان)) وهو أقرب كتبه – في مباحثه – إلى ((المعترك)) نجد أن ((الإتقان)) طُبع لأول مرّة سنة ١٢٧١ هـ[3] أي قبل ((المعترك)) بمائة

١- ((لسان العرب)) : أثر .

٢ – انظر ص ٢٧٠ وما بعدها .

٣- ((مكتبة الجلال السيوطيّ)) : ٥٣ .

وعشرين سنة تقريباً ، ثم توالت طبعاته وانتشر في العالم الإسلاميّ انتشاراً عظيماً خلافاً لـ ((المعترك)) .

هذان الأمران – خاصة الأول منهما – أدّيا إلى ندرة ذكره لدى من كتب في الإعجاز أو سرد المؤلفات فيه ، حتى أن الشيخ طاش كبري زاده[1] قد ذكر كتاب ((معترك الأقران)) في فصل ((علم معرفة الوجوه والنظائر))[2] – وهو المشترك اللفظيّ – و لم يذكره في فصل ((علم معرفة إعجاز القرآن))[3] مع أنه مَظِنَّة ذِكره ، ولعل هذا لأنه لم يطّلع على محتواه .

وللتمثيل أيضاً على خفاء موضوع الكتاب لاضطراب عنوانه وتأخر طباعته فإن الأستاذ نعيم الحمصي – وهو ممن حاول استيعاب كثيرٍ من كتب الإعجاز مطبوعةً كانت أو مخطوطة ، من القرن الثالث إلى الرابع عشر – لم يتعرّض لذكره في كتابه ، ولعله لم يطلع على هذا الكتاب لندرته وخفاء عنوانه ، وإنما قلت ذلك لأنه عندما ذكر المصنفين في الإعجاز من أهل القرن العاشر ذكر منهم الإمام السيوطيّ وأنه أفرد فصلاً من كتابه : ((الإتقان)) لموضوع الإعجاز[4] ، فلو أن الباحث اطّلع على الكتاب الذي أفرده السيوطي للإعجاز – وهو ((المعترك)) – لذكره بدون شك ، لأهميته في موضوع كتابه .

لكن ((المعترك)) منذ أن طبع أصبح موضع نظر الباحثين والدارسين للإعجاز وعلوم العربية ، وقد استفاد منه كثيرون سيأتي ذكرهم قريباً ، إن شاء الله تعالى .

١- هو الشيخ أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل . مؤرخ تركي الأصل ، مستعرب . ولد في بورصة ونشأ في أنقرة . تأدب وتفقه وتنقل في البلاد التركية مدرساً للفقه والحديث وعلوم العربية ، تولى القضاء في القسطنطينية . توفي سنة ٩٦٨ . انظر ((الأعلام)) : ١ / ٢٥٧ .

٢- ((مفتاح السعادة)) : ٢ / ٣٧٧ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٤٨٢ .

٤- ((فكرة إعجاز القرآن)) : ١٦١ – ١٦٣ .

بعد هذا البيانِ يُقسّم أثر الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أثره في المصنفات التي صنفها علماء جاؤوا بعد الإمام السيوطي – رحمه الله تعالى – فضمنوا كتبهم نقولاً من ((المعترك)) ، أو جرى ذكره في مصنفاتهم .

القسم الثاني : أثره في الدراسات الحديثة التي تعرضت لـ ((المعترك)) بالدراسة والنقد .

القسم الثالث : أثره في الدراسات التي استفادت من ((المعترك)) فكان مرجعاً من مراجعها .

أما القسم الأول – وهو أثر الكتاب في المصنفات التي صنفها علماء جاؤوا بعد السيوطيّ – فإني لم أجد ذكراً له إلا في الكتب الآتية :

١ – ذكره طاش كبرى زاده في كتابه ((مفتاح السعادة)) حيث قال في فصل : علم معرفة الوجوه والنظائر :

((فالوجوه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معانٍ – كلفظ (الأمر) – وكتاب ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) للسيوطيّ كافٍ في هذا الفنّ))[1] .

٢ – ذكره حاجي خليفة[2] حيث قال :
((((معترك الأقران في مشترك القرآن)) لجلال الدين السيوطيّ المتوفى سنة ٩١١))[3] .

---

١ – ((مفتاح السعادة)) : ٢ / ٣٧٧ .

٢ – الشيخ مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي ، المعروف بالحاج خليفة ، مؤرخ بحاثة ، تركيّ الأصل مستعرب . ولد سنة ١٠١٧ في القسطنطينية . تولىّ أعمالاً كتابية في الجيش العثمانيّ ، وانقطع في السنوات الأخيرة من حياته إلى تدريس العلوم ، وله عدة مصنفات بالعربية والتركية والفارسية . توفي – رحمه الله تعالى – في القسطنطينية سنة ١٠٦٧ . انظر ((الأعلام)) : ٧ / ٢٣٦ – ٢٣٧ .

٣ – ((كشف الظنون)) : ٢ / ١٧٣١ .

ولم أعثر على مايدل على أن حاجي خليفة اطلع على الكتاب ، والله أعلم .

٣ - ذكره إسماعيل باشا البغدادي[١] باسم ((معترك الأقران في مشترك القرآن))[٢] أيضاً ، ولم أعثر على مايدل أنه اطّلع عليه ، والله أعلم .
هذا ماوجدته من كلام المصنفين القدامى الذين أتوا بعد السيوطي - رحمهم الله تعالى - إلى بدايات العصر الحديث ، فيما يتعلق بذكر كتاب ((معترك الأقران)) .

وكلامهم على الكتاب يقتصر على ذكر عنوانه وموضوعه كما في ((مفتاح السعادة)) ، أو عنوانه فقط كما في الكتابين الآخرين .

هذا وليُعلم أني قد بحثت عن مظان استفادة العلماء والمشايخ من كتاب ((معترك الأقران)) في عدد من كتب العلوم الشرعية واللغوية من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر فلم أجد إلا ماقدمته ، والله أعلم .

أثر الكتاب في الدراسات الحديثة

أما القسم الثاني فهو : الدراسات الحديثة التي تعرضت لـ ((المعترك)) بالدراسة لبعض جوانبه والنقدِ الجزئيِّ لها ؛ فقد اعتنى بكتاب السيوطيِّ - رحمه الله تعالى - عددٌ من الباحثين المُحْدَثِين ، وضمنوه دراساتِهم اللغوية والقرآنيّة ، وتلك الدراسات التي اطّلعت عليها هي :

---

١ - هو إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي . عالم بالكتب ومؤلفيها . أقام زمناً قرب الآستانة مشتغلاً بإكمال كتابه ((إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون)) مجلدان . توفي سنة ١٣٣٩ ، رحمه الله تعالى . انظر ((الأعلام)) : ١ / ٣٢٦ .

٢ - ذكره في سياق تعداد مصنفات السيوطي في كتابه ((هدية العارفين)) : ١ / ٥٣٥ - ٥٤٤ ، وذكر ((المعترك)) في صفحة ٥٤٣ .

١- كتاب ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغويّة))
تأليف الدكتور : عبد العال مَكْرَم .

أفرد - حفظه الله- فصلاً في كتابه بعنوان : ((أثـر السـيوطيّ في الدراسـات اللغويّة من خلال القرآن الكريم))[١] ، وجعـل قسـماً منـه للحديـث عـن المشـترك اللفظيّ في القرآن الكريم ، وذكر أن ((من أعظم المؤلفات التي ألفّهـا السـيوطي في حقل الدراسات اللغويّة القرآنية كتابه : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))))[٢].

ثم بعد حديث مختصر عن الكتاب وجهد السيوطيّ في تصنيفه عرّج على أمثلة من المشترك اللفظيّ في كتاب ((المعـترك)) ، فذكـر خمس عشـرة كلمـة قرآنيـة - على سبيل المثال - من المشترك اللفظيّ الذي جـاء بـه السـيوطيّ في الوجـه الخـامس والثلاثين من وجوه الإعجاز التي ساقها في ((المعترك))[٣] .

ثـم إن البـاحث ذكـر في الفصـل الثـالث نفسِـه في قسـم : غريـب القـرآن الكريـم[٤] ، ذكـر نمـاذج مـن الألفـاظ الـتي عدّهـا السـيوطيّ مـن قسـم الغريـب في القرآن ، فأورد تسع عشرة كلمة قرآنية من هذا الباب مـن جملـة الكلمـات الكثـيرة التي ذكرها السيوطيّ في ((معترك الأقـران))[٥] مـع مناقشـة يسـيرة للسـيوطي فيمـا ذهب إليه في معنى الغريب[٦] .

١- انظر الفصل الثالث من الباب الثاني : ص ٤٨٥ .

٢- ص ٤٩٨ ، وهذا الذي أشار إليه : ((حقل الدراسات اللغوية القرآنية)) جاء على سبيل التغليب ، وإلافقي الكتاب دراساتٌ أصولية وفقهية وعقديّة وغيرها ، كما سأبين في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى .

٣- ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية)) : ٥٠٠ - ٥١٢ .

٤- ذكر الباحث أن الرافعيّ - رحمه الله تعالى - عرف الغريب بقوله : ((في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة فإن القرآن الكريم منزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لايتساوى في العلـم بها أهلها وسائـر الناس)) : انظر ص ٥٤٠ من كتاب ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغويّة)) .

٥- ١/١٩٩-٢٠٤ .

٦- ((جلال الدين السيوطيّ وأثره في الدراسات اللغوية)) : ٥٤٥ - ٥٤٧ .

ولكني أظن أن الباحث – حفظه الله تعالى – وهم في بعض صنيعه هذا ، حيث إنه ظنّ أن السيوطيّ ((يرجع في الغريب إلى الكلمات والألفاظ التي وردت بغير لغة الحجاز ، كأن الغريب عند السيوطيّ هو الكلمات القرآنية التي ليست حجازية ، فقد عقد فصلاً في هذا الكتاب بعنوان : ((مافي القرآن بغير لغة الحجاز)) ...))[1] .

وبنى على وهمه هذا أنه عقد فصلاً بعنوان : ((ماجاء بغير لغات أهل الحجاز فهو من الغريب))[2] ، فأنشأ قاعدة ليس لها أصل ، ومنشأ وهمه – والله أعلم – أنه أخطأ في قراءة كلام السيوطيّ حيث قال :
((وهذه الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة الحجاز ، **وأما ماوقع فيه بغير لغة العرب فنذكر تفسير الغريب على حروف المعجم**))[3] .

فالسيوطيّ إنما يريد – والله أعلم – تذكيرَ القارىء بأن ماوقع في القرآن **بغير لغة العرب** فسيذكر تفسير الغريب منه في الوجه الخامس والثلاثين من وجوه الإعجاز التي ساقها في كتابه ، وأشار إلى ذكره هنالك بقوله ((على حروف المعجم)) حيث إن ذلك الوجه مرتب على حروف المعجم[4] ، أما مافي القرآن بغير لغة الحجاز فقد ساقه كلّه و لم يذكر أنه من الغريب .
وللتدليل على صحة ماذهبتُ إليه فإني أذكر أمرين :

١- المصدر السابق : ٥٤٥ .

٢- المصدر السابق .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٩ .

٤- هناك خطأ كبير في ترتيب الوجه الخامس والثلاثين ، وسوف آتي عليه في موضعه ، إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

الأول : أن السيوطيّ – رحمه الله تعالى – بعد فراغه من إيراد مافي القرآن بغير لغة الحجاز نقل فائدة وهي أنه ((ليس في القرآن حرفٌ غريب من لغة قريش غير ثلاثة أحرف ...))[1] ثم ذكرها .

وهذا يدل على أن السيوطيَّ يذهب إلى أن في لغة الحجاز ألفاظاً غريبة ، خلافاً لما قعّده الباحث ، حفظه الله.

الآخر : بمراجعة بعض ماجاء في الوجه الخامس والثلاثين يتبين أنّ السيوطيّ قد أورد فيه بعض الألفاظ القرآنية التي يُظن أنها من غير لغة العرب[2] موفيا بما وعد به من قوله الذي سقته آنفاً :

((وأما ماوقع فيه بغير لغة العرب فنذكر تفسير الغريب على حروف المعجم))[3]. [4]

وبهذا يتبين وهم الباحث – حفظه الله– من نسبته إلى السيوطيّ – رحمه الله تعالى – القولَ بأن الغريب هو ماوقع في القرآن بغير لغة الحجاز ، والله أعلم .

وقد ذكر الباحث نصوصاً من كتاب ((المعترك)) في مواضعَ متعددةٍ من كتابه لغرض بيان إخلاص السيوطيّ – رحمه الله تعالى – وتجردِهِ في تصانيفه[5] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢٠٦/١ .

٢- سأناقش قضية وجود المعرّب في القرآن ومايُظن من كونه حاوياً لغةَ غير العرب في الباب القادم إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٣٦٨ ومابعدها .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢٠٦/١ .

٤- انظر – مثالاً – ألفاظ : آدم ، إدريس ، إبراهيم ، إسحاق ، اليسع ، إسرائيل في ((معترك الأقران)) : ٥١٩/١ – ٥٢٢ .

٥- انظر الصفحات ٣٠٣ ، ٤٩٨– ٥٠٠ من كتاب ((جلال الدين السيوطيّ وأثره في الدراسات اللغوية)) .

٢-كتاب ((قطف الأزهار في كشف الأسرار))
لجلال الدين السيوطيّ

قام محقق هذا الكتاب[١] بعمل مقارنة بين كتاب ((معترك الأقران)) وبين كتاب ((قطف الأزهار)) من حيث المنهج .

ولقد جاءت هذه المقارنة سطحية ، لم تزد على صفحتين ، وصف بهما كتاب ((معترك الأقران)) وصفاً سريعاً ، وقارن بينه وبين ((قطف الأزهار)) مقارنة عَجْلى ، وأدى ذلك بالمحقق إلى أن يردد بعض كلام السيوطيّ في ((معترك الأقران)) ، وإلى أن يُصدر أحكاماً ينقصها الدقة كقوله :
((هذا الكتاب يبحث في وجوه إعجاز القرآن ، وهو من الكتب التي تحيط بهذا الموضوع **وتجمع كل ماقيل فيه**))[٢] .

وكقوله عن الوجه الخامس والثلاثين – وهو ألفاظه المشتركة – :
((قد جمع فيه ألفاظاً من القرآن ، ورتبها على حسب حروف الهجاء ، وفسرها ، ورجع في كل ذلك إلى **كل كتب التفسير والحديث واللغة وغيرها**))[٣] .

وهذه الكليات مدّعاة تنقصها الدقة والدراسة العلمية الجادّة ؛ لكن لعلّ للمحقق عذراً في صنيعه هذا لم يظهر لي ، والله أعلم .

١- وهو الدكتور أحمد الحمّادي،قد نال بهذا التحقيق درجة ((الدكتوراه)) في التفسير ، انظر ((قطف الأزهار)) : ٨ .

٢- ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) :٨٣ .

٣- المصدر السابق .

٣- ((السيوطيّ وجهوده في الدراسات اللغويّة))
تأليف الأستاذ محمد يعقوب تركستاني

الكتاب رسالة ((ماجستير)) أعدها الباحث وتقدم بها لجامعة أم القرى[١].
وقد اجتهد الأستاذ الباحث في دراسة مصنفات السيوطيّ في اللغة ، وقام بدراسة عن آثاره اللغوية المطبوعة والمخطوطة والمفقودة[٢] ، وكان من هذه الكتب : كتاب ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) كما سماه[٣] .

وهذه الدراسة التي قام بها الأستاذ الباحث دراسة خفيفة غير فاحصة للكتاب ؛ ولهذا خرج بنتائجَ غيرِ دقيقة منها :

١- قطع بأن اسم الكتاب : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، ولام الأستاذَ البجاوي محقق الكتاب لأجل تغييره عنوانَ الكتاب في زعمه ، وقد ناقشته في هذا سابقاً[٤] .

٢- زعم بأن الإمام السيوطيّ أحاط بوجوه الإعجاز في القرآن الكريم إحاطة تامة ، وهذا زعم ليس وراءه دراسة وافية ، كما سيتضح عند مناقشة السيوطي في وجوهه التي أتى بها في كتابه - إن شاء الله تعالى - حيث سيظهر أن بعض أوجه الإعجاز المهمة طَرَقها السيوطيّ طَرْقاً خفيفاً غير واف[٥] ، أو لم يتناولها بالبحث أصلاً[٦] .

١- سيأتي وصفها في فهرس المراجع والمصادر ، إن شاء الله تعالى .
٢- في الفصل الأول من رسالته ص ٥٣ وما بعدها .
٣- وقد أتى على ترجيحه هذا بما لاينهض حجةً له ، كما ذكرت سابقاً ، انظر ص ٢٧٦ وما بعدها من هذا البحث .
٤- انظر ص ٢٧٦ وما بعدها من هذا البحث ، وانظر ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .
٥- انظر الباب الثالث : الفصل الأول ص ٣٧٦ - ٣٧٩ ، وانظر ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .
٦- انظر ص ٣٥٠ - ٣٥٢ من هذا البحث .

٣- زعم بأن الذي دعا السيوطيَّ لتأليف الكتاب هو الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم دون أن يأتي على زعمه هذا بدليل واضح[١] .

هذا عدا عن مبالغته الكبيرة في إطراء صنع السيوطيّ في كتابه كقوله :
((وقارىء الكتاب يحس أن السيوطي لم يترك كتاباً أُلف في موضوع المشترك اللفظيّ في القرآن الكريم ومايتصل به إلا قرأه واستعان به في كتابه ، ولذلك فهو يُعدّ بحق مرجعاً في موضوعه لايستهان به))[٢] .

هذا ولم يذكر الباحث – حفظه الله تعالى – أن أغلب ماجاء في المشترك اللفظيّ عند السيوطيّ ليس من المشترك بحال ، كما سأبين بعدُ ، إن شاء الله تعالى[٣] .

١- ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .

٢- المصدر السابق : ٦٣ .

٣- انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

٤- ((دراسات في الإعجاز العدديّ بين الماضي والحاضر في ضوء الكتاب والسنة)) للأستاذ مصطفى عمر الكَنَديّ ، رحمه اللـه تعالى[١]

وهي رسالة ((ماجستير)) أعدها الباحث فيما يسمّى بـ ((الإعجاز العدديّ)) في القرآن الكريم[٢] .

وقد ذكر الباحث - رحمه الله تعالى - في مبحث منها كلاماً موجزاً عن توسع بعض العلماء في وجوه الإعجاز [٣] ، وعدَّ بعضَ من ألّف في الإعجاز القرآنيّ من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر .

وكان ممن ذكرهم الإمامُ السيوطيّ وكتابُه : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) حيث بيّن أن الكتاب يحوي خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز ، ثم سردها ، وكان حاصل نقده لهذه الأوجه هو :

١- أن بعضها داخل في بعض حيث إن عدداً منها يرجع إلى أصل واحد .

٢- أن عدداً منها لايُعدّ من الإعجاز بل هو من خصائص القرآن[٤] .

وسيأتي بيانٌ لهذه الأوجه ونقدها بالتفصيل في الباب القادم ، إن شاء اللـه تعالى[٥] .

١- هو أحد المهتدين الكنديين ، وقد انتقل إلى رحمة اللـه تعالى - إن شاء اللـه - قبل سنوات قليلة .

٢- أُعدت في جامعة أم القرى ، ونوقشت سنة ١٤٠٩ .

٣- صفحة ٩٣ ومابعدها .

٤- ((دراسات في الإعجاز العدديّ)) : ٩٩-١٠٣ .

٥- انظر ص ٣٣٧ ومابعدها من هذه الرسالة .

هذا ماوقفت عليه من الكتب التي تناولت – في مبحث أو مباحثَ منها – كتابَ الإمام السيوطيّ بالدراسة والنقد الجزئي .

أمّا القسم الثالث وهم الباحثون الذين اعتمدوا كتاب ((المعترك)) مرجعاً من مراجع بحوثهم فهم جماعة كُثُرٌ معاصرون منهم :

١- الدكتور أحمد العمري في كتابه ((المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآنيّ : نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري[١])) .

٢- الأستاذ ناصر المطروديّ في تحقيقه لكتاب ((التيسير في قواعد علم التفسير))[٢] للإمام محمد بن سليمان الكافِيَجيّ .

٣- الشيخ خالد العك في كتابه : ((أصول التفسير وقواعده))[٣] .

٤- الدكتور فتحي عبد القادر فريد في تحقيقه لكتاب ((التحبير في علم التفسير)) للسيوطيّ[٤] .

٥- الأستاذ محمد شعباني في تحقيقه لكتاب ((البرهان في ترتيب سور القرآن))[٥] للإمام أبي جعفر الغرناطيّ[٦] .

١- نشر مكتبة الخانجي ، القاهرة : ١٤١٠ هـ .

٢- الكتاب رسالة ماجستير حُضرت في جامعة الإمام محمد بن سعود ، وهو من منشورات دار القلم بدمشق ودار الرفاعيّ بالرياض . الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ .

٣- نشر دار النفائس : بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .

٤- سبق بيان علاقة هذا الكتاب بـ ((المعترك)) ، انظر ص ٢٤٧ وما بعدها من هذه الرسالة .

٥- هذه رسالة لنيل دبلوم الدراسات الإسلامية من دار الحديث الحسنية بالمغرب ، نشر وزارة الأوقاف المغربية سنة ١٤١٠ هـ .

٦- هو الشيخ الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبو جعفر الأندلسيّ الغرناطي . ولد سنة ٦٢٧ ، وتلا بالقراءات السبع ، وجمع وصنّف ، وصار علامة عصره في الحديث والقراءة ، وتصدر للإقراء وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه عاكفاً على ذلك عامة نهاره ، وصارت الرحلة إليه . وقد حصلت له محنة تحوّل على إثرها عن وطنه ثم فرج الله عنه . توفي بغرناطة سنة ٧٠٨ ، رحمه الله تعالى . =

٦- الدكتور عبد الجواد خلف في تحقيقه كتاب ((غُرر التبيان في من لم يُسَمّ في القرآن))[١] تأليف الإمام بدرالدين ابن جماعة[٢] .

٧- الأستاذ محمد عبدالكريم الراضي في تحقيقه لكتاب ((نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر))[٣] للإمام ابن الجوزي ، رحمه الله تعالى .

٨- الأستاذة هند شلبي في تحقيقها لكتاب ((التصاريف))[٤] للإمام يحيى بن سَلاّم[٥] .

٩- الدكتور عبدالعظيم المطعني في كتابه : ((المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع : عرض وتحليل ونقد))[٦] .

هذا ما تيسر لي من الكلام على أثر كتاب الإمام السيوطيّ ، وبه ينتهي هذا الباب الذي يعدّ هو والباب الأول ممهديْن لمباحث البابين : الثالث والرابع ، والله الموفق .

= انظر ((الدرر الكامنة)) : ١/٨٩-٩٠ .

١- هي رسالة جامعية من قسم الدراسات الإسلامية بجامعة البنجاب بباكستان ومن نشر دار قتيبة ، دمشق ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ .

٢- هو الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكنانيّ الحمويّ الشافعيّ. ولد بحماة سنة ٦٣٩ ، وتفقه ومهر في الفنون ، ثم ولي قضاء القدس سنة ٦٨٧ ، ثم تولى قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٠ فأحسن السيرة ثم تنقل في المناصب المختلفة من قضاء في الشام وخطابة بها وغير ذلك .كان ورعاً حسن الهَدْي ، متين الديانة ، ذا تعبد وأوراد ، متقشفاً ، مقتصداً في مأكله وملبسه ومركبه ومسكنه ، حسن التربية من غير عنف ولا تخجيل . توفي سنة ٧٣٣ وقد جاز التسعين بأربع سنين وأشهر .

انظر ((الدرر الكامنة)) : ٣/٣٦٧ - ٣٦٩ .

٣- الكتاب رسالة جامعية مقدمة إلى كلية الآداب في الجامعة المستنصرية ببغداد ، وقد نشر الكتابَ مؤسسة الرسالة : الطبعة الثالثة : ١٤٠٧ .

٤- نشر الكتاب الشركة التونسية للتوزيع سنة ١٣٩٩ .

٥- هو الإمام يحي بن سَلاّم بن أبي ثعلبة ، أبو زكريا البصري ، نزيل المغرب . ولد سنة ١٢٤ . حدّث ، وأخذ القراءات عن أصحاب الحسن البصري وجمع وصنّف . قال الدانيّ : له تفسير ليس لأحد من المتقدمين مثلُه ، وقال : كان ثقة ثبتاً ، عالماً بالكتاب والسنة ، وله معرفة باللغة العربية . مات بمصر سنة مائتين ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٩/٣٩٦ - ٣٩٧ .

٦- نشر مكتبة دار وهبة ، القاهرة .

الباب الثالـث

منهج المؤلف في كتابه (دراسة تفصيلية)

وفيه تمهيد وثلاثة فصول :

الفصل الأول : وجوه الإعجاز التي ذكرها : عرض ومناقشة .

الفصل الثاني : منهجه في عرض هذه الوجوه

الفصل الثالث : دراسـة أهـم القضايا العلمية في
((معترك الأقران))

تمهيــــد

بهر الإعجاز القرآني العلماء ، وشدتهم طريقة القرآن وتفرده في هـذا البـاب فشرعوا يصنفون المصنفات المطولة والمختصرة في إعجاز القرآن ، فمنهـم مـن اقتصـر على بلاغته ، ومنهم من أبرز فصاحـة ألفاظـه ، ومنهـم مـن مـال إلى قـوة نظمهـا ، ومنهم من جمع ذلك كله وأضاف عليه وجوهاً أُخَر ، بـل قـد أوصلهـا بعضهـم إلى ألوف باعتبار عدد آيات القرآن وما انطوت عليه كل آية من بلاغة وفصاحة وحسن نظم ، هذا وقد قال القاضي عياض - رحمه الله تعالى - :

((واعلم أن المعجزاتِ التي ظهرت على يد نبينا ، صلـى اللـه عليـه وسـلم - دلائـلَ نبوتـه وبراهـينَ صدقـه - مـن هذيـن النوعـين معـاً[١] ، وهـو أكـثر الرسـل معجـزةً وأبهرُهم آية وأظهرهم برهاناً - كما سنبينه - وهي في كثرتها لايحيـط بهـا ضبـط ؛ فـإن واحـداً منهـا - وهـو القـرآن - لا يُحصـى عـدد معجزاتـه بـألف ولا ألفـين ولا أكثر ؛ لأن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، قد تحدى بسورة منه فعُجز عنها .

قال أهل العلم : وأقصر السـور :﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ ، فكـل آيـة أو آيات منه بعددها وقدْرها معجزة ، ثم فيها نفسـها معجـزات علـى ماسـنفصله فيمـا انطوى عليه[٢] من المعجزات))[٣] [٤] .

وقال السيوطي ، رحمه الله تعالى :

((وقال ابن سراقة[٥] :

اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمـة وصواب ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره ...))[٦] .

١- أي مما هو من قدرة البشر ومما هو خارج عن قُدَرِهم ، كما يفهم من سابق سياقه .

٢- أي القرآن .

٣- قد سبق بيان أنه بهذه الطريقة الحسابية يبلغ عدد المعجزات في القرآن ألوفاً ، وانظر صنيع السيوطي في هذا ص ٢٥٣ من هذه الرسالة .

٤- ((الشفا)) : ١ / ٣٥٠ - ٣٥١ .

٥- سبق أن بينت أن هناك من وَهِم في اسم الرجل والعصر الذي عاش فيه ، انظر ص : ٨٧ .

٦- ((الإتقان)) : ٢ / ١٢١ - ١٢٢ .

وقد ذُكر عنه أنه ألّف كتاباً في إعجاز القرآن ((من حيث الأعداد ، ذكر فيه من واحد إلى ألوف))[1] .

ولعل المقصود أنه ذكر أوجهاً كثيرة بلغت ألوفاً ؛ وذلك بالنظر إلى أعداد الآيات وماتضمنه كلٌّ منها من معجزات ، وما قاله القاضي عياض – آنفاً – يوضح هذا ، والله أعلم .

وجاء السيوطيّ – رحمه الله تعالى – فجمع ماورثه من هذه الأوجه ، وذكر غالبَ الأقوال في إعجاز القرآن ، وتوسع توسعاً ضافياً جعله يذكر وجوها ربما لاتمت للإعجاز بصِلة ، وإنما ذكرها ((للاطلاع على بعض معانيه ؛ فيثلج له صدرك وتبتهج نفسك))[2] ، وقد نص على أن بعض هذه الأوجه ليست من الإعجاز بقوله :
((وإن كانت بعض الأوجه لاتعد من إعجازه فإنما ذكرتها للاطلاع على بعض معانيه))[3] .

لكنه لم يبين الوجه المعجز من غيره وإنما ذكرها كلها على أنها أوجه إعجاز فيقول مثلاً : الوجه الأول من وجوه إعجازه كذا ، الوجه الثاني من وجوه إعجازه .... وهكذا .

تنبيه مهم :
قد أكثر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – من نسبة بعض أنواعٍ من علوم القرآن إلى الإعجاز ، وبعضها يمكن أن يُلحظ فيه الإعجاز بشيء من إعمال الذهن ، وبعضها لايُلحظ فيه الإعجاز أبداً .
ويمكن القول بأن أوجه الإعجاز على قسمين :

١– ((كشف الظنون)) : ١ / ١٢٠ .

٢– ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢ .

٣– المصدر السابق .

الأول : وجوه إعجاز ذاتية ثابتة للقرآن العظيم من حيث ذاته ، ومن حيث النظر إليه مجموعاً بعد تمام النزول ، ويدخل في هذا ماسيذكره الإمام السيوطيّ من الإعجاز بتناسب الآيات والسور ، والإعجاز بالآيات المتشابهات ونحو هذا مما يُعد أشبهَ بالخصائص منه بالإعجاز ، لكن إذا نُظر فيه نظرةٌ فاحصة يمكن أن يُلحظَ فيه شيء من معاني الإعجاز التي تلحق بوجوه من الإعجاز متفق عليها كالإعجاز النظمي والبلاغي ، وسيأتي بيان ذلك وتفصيله .

الآخر : الإعجاز الذي تقوم به الحجة عند سماعه ، وتثبت به الرسالة عند بلاغه ، وعند العجز أن يُؤتى بمثله ، وذلك نحو الإعجاز البلاغيّ الذي هو منتشر في القرآن العظيم في كل آية منه .

فبهذا يُفهم - إن شاء الله تعالى - كثير من الأوجه التي عدها الإمام السيوطيّ أوجهاً مستقلة بالإعجاز وهي مندرجة تحت أوجه أعمَّ منها .

هذا وقد بلغت عدة الأوجه التي أوردها خمسة وثلاثين وجهاً متفاوتةً قِصَراً وطولاً ، لكنه مهما أمكن له التطويل والاستقصاء فإنه يصنع ذلك في جميع الأوجه تقريباً .

طريقة السيوطي في إيراد أوجه الإعجاز

طريقته في إيراد هذه الأوجه كالتالي :

أولا : يُصدِّر الكلام - غالباً - بذكر من صنّف في هذا الذي عدّه وجهاً من أوجه الإعجاز ، ويبين - أيضاً - تأليفه إن كان له تأليف في هذا العلم ، وذلك نحو ماذكره في الوجه الرابع من وجوه الإعجاز حيث قال :

((الوجه الرابع من وجوه إعجازه : مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقةَ المعاني منتظمةَ المباني .

وقد ألّف علماؤنا في أسرارها تواليفَ كثيرةً منهم العلامة أبو جعفر بن الزبير[1] ، شيخ أبي حيّان[2] في كتاب سماه ((البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن))[3] ، ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البِقاعيّ في كتاب سماه ((نظم الدرر في تناسب الآي والسور))[4] ، وكتابي الذي صنفته في أسرار التنزيل[5] كافل بذلك ، جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه مرتباً من جميع وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة ، وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته :

((تناسق الدرر في تناسب السور))[6] ...))[7] .

ثانياً : ثم إنه – إذا اقتضى المقامُ – يورد فضلَ ذلك العلم الذي جعله وجهاً من أوجه الإعجاز وينوه به كقوله :

((وعلم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته))[8] .

١- هو الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفيّ الغرناطيّ ، وقد سبقت ترجمته .

٢- هو الشيخ محمد بن يوسف بن علي الغَرناطيّ ، أثير الدين أبوحيان الأندلسيّ الجيّانيّ . ولد سنة ٦٥٤ ، وقرأ القرآن إفراداً وجمعاً ، وسمع الكثير ببلاد الأندلس وإفريقية ، ثم قدم الإسكندرية . كان ثبتاً فيما ينقله ، عارفاً باللغة ، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما . وله اليد الطُولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ، وله التصانيف التي سارت في آفاق الأرض واشتهرت في حياته . أضر قبل موته بقليل ، وتوفي سنة ٧٤٥ بالقاهرة ، رحمه الله تعالى :
انظر ((الدرر الكامنة)) : ٥ / ٧٠ – ٠٧٦ .

٣- هذا الكتاب مطبوع بعناية وزارة الأوقاف المغربية بتحقيق الأستاذ محمد شعباني ، سنة ١٤١٠ .

٤- كتابه هذا مطبوع متداول .

٥- هذا الكتاب مطبوع باسم ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) ، وقد سبق الحديث عنه ، انظر ص ٢٥٥ .

٦- قد سبق الحديث عن كتابه هذا ، انظر ص ٢٤٥ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤ – ٥٥ .
ومن الأوجه التي صنع فيها هذا – أيضا – الوجهُ العاشر : ١ / ١٦١ ، والوجه الثالث عشر : ١ / ١٩٥ ، والوجه الرابع والعشرون : ١ / ٢٦٩ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥ .

وكقوله في الوجه الخامس من أوجه الإعجاز - وهو افتتاح السور وخواتمها - :

((وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين))[1] .

وكقوله في الوجه الخامس عشر من أوجه الإعجاز - ورود بعض آياته مجملةً وبعضها مبينة - :

((وفي ذلك من حسن البلاغة مايعجز عنه أولو الفصاحة))[2] .

ثالثاً : ثم إنه يورد - غالباً - معنى الوجه الذي جعله من الإعجاز وأنواعه وأقسامه مستقصياً ما أمكنه الاستقصاء ؛ وذلك كقوله في الوجه الرابع من وجوه الإعجاز - وهو مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقةَ المعاني منتظمةَ المباني - :

((المناسبة في اللغة : المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنىً رابطٍ بينهما عام أو خاصّ ، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ ، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهنيّ كالسبب والمسبّب ، والعلّة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه ...)) .

ثم أخذ في بيان ماذكره وضرب الأمثلة عليه باستفاضة[3] .

رابعاً : قد لايلتزم الترتيب السابق المذكور في الفقرتين : الأولى والثالثة فيقدم الكلام على معنى الوجه باختصار ثم يأتي بأسماء المصنفات فيه ، وذلك نحو قوله في الوجه السادس ، وهو مشتبهات آياته :

((وذلك أن القصة الواحدة ترد في سور شتّى وفواصلَ مختلفة ؛ بأن يأتي في موضع واحد مقدماً وفي آخرَ مؤخراً ... وفي موضع بزيادة وفي موضع بدونها ... وفي آخر منكّراً ...)) .

١- المصدر السابق : ١ / ٧٤ .

٢- المصدر السابق : ١ / ٢١٧ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٧ وما بعدها .

وانظر - أيضاً - الوجة التاسع : ١ / ١٣٦ ، والوجه الحادي عشر : ١ / ١٧١ .

ثم ذكر مَن صنّف في هذا النوع[١] .

خامساً : يلتزم الإطناب في كل مايورده تقريباً عدا الأوجه :
الثاني[٢] ، والثامن عشر إلى الثاني والعشرين[٣] ، والوجه الرابع والثلاثين[٤] ، فقد جاء بها على غاية الاختصار .

وهذا عدا الوجه الخامس والثلاثين الذي خصه بالقدر الأكبر من كتابه ، حيث شغل هذا الوجهُ ثلثي حجم الكتاب تقريباً .

سادساً : التزم السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أن يورد في الوجه الذي أتى به مُطْنَباً – وهو الغالب فيما أتى به – التزم أن يستقصي الكلام على أنواعه وأقسامه ، وأن يأتي بأمثلة عديدة كثيرة على ما يأتي به ، مازجاً ذلك كله بأقوال الأئمة واستشهاداتهم .

ومن أبرز مايوضح ذلك كلامُه على الوجه الثالث والعشرين : وقوع الحقائق والمجاز فيه[٥] ، والوجه السابع والعشرين : وقوع البدائع البليغة فيه[٦] .

وبعد هذا التمهيد الذي قدمته بين يدي الأوجه سأذكر الأوجه التي جاء بها الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أذكرها وجهاً وجهاً ، وأتكلم عليها مراعياً الآتي غالباً وحسَب الحاجة :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٨٥ – ٨٦ .
وانظر – أيضاً – الوجه الثامن : ١ / ١٠٨ ، والوجه الثالث والعشرين : ١ / ٢٤٦ ، والوجه الثلاثين : ١/٤٥٦ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .
٣- المصدر السابق : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٦ .
٤- المصدر السابق : ١ / ٥١٢ .
٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ – ٢٦٨ .
٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ – ٤٢٠ .

أولاً : تلخيص وجه الإعجاز المذكور بعبارات يُفهم منها المراد إن دعت إلى ذلك حاجةٌ ، وقد أستعمل بعضاً من عبارات الإمام نفسها .

ثانياً : شرح المصطلحات التي لابد من ذكرها لبيان معنى الوجه المذكور .

ثالثاً : تمييز الأوجه التي هي من الإعجاز من الأوجه التي لاتعلق لها به .

رابعاً : نقد ما يحتاج إلى نقد مما ذكره في هذه الأوجه .

خامساً : بيان الجديد الذي جاء به في الوجه المذكور – إن كان هناك جديد – أو بيان إضافته على ماسبقه به غيره ، إن كانت هناك إضافة .

وينبغي أن أُذكّر بأني قد بينت في موضع سابق أن غالب مادة الكتاب منقولة من كتب السيوطيّ الأخرى ، فلا أعيد – إذاً – بيان ما وضحته بالتفصيل آنفاً[1] .

هذا وقد سبق التنبيه[2] إلى أنني قد توسعت في ذكر أوجه الإعجاز عند المصنفين قبل السيوطيّ – رحمهم الله جميعاً – وأن ذلك التوسعَ سيكون مغنياً عن إعادة بعض الكلام على أوجه الإعجاز عند السيوطي بالتفصيل ، فسأكتفي إذاً عند الكلام على تلك الأوجهِ بأن أذكر ما لم يُذكر من قبل ومناقشتِه ، والإحالةِ على ماسبق الكلام عليه في الباب الأول .

١- انظر الصفحات : ٢٣١-٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- انظر ص ١٢٤ – ١٢٥ من هذه الرسالة .

الفصل الأول :

وجوه الإعجاز التي ذكرها :

عرض ومناقشة

الوجه الأول : ((العلوم المستنبطة منه))[1] :

هذا الوجه بأكمله منقول من مقدمة كتابه ((الإكليلِ)) بتصرف يسير ؛ كما بينت ذلك سابقاً[2] .

وهذا الوجه ظاهرٌ معناه من عنوانه ؛ فقد بحث فيه العلوم المستنبطة من كتاب الله – تعالى – وأورد الآثار وأقوال العلماء الذين ذهبوا إلى أن القرآن يحوي كل الأمور التي يحتاجها الفرد في دنياه وأخراه على سبيل الإجمال والإشارة ، أو التفصيل والبيان ، فمن تلك الآثار :

١ – عن ابن مسعود – رضي الله عنه[3] – أنه قال : ((من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه علمَ الأولين والآخرين))[4] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ – ٢٧ .

٢- انظر ص ٢٤٦ من هذه الرسالة .

وإنما قلت إنه منقول من ((الإكليل)) ولم أقل بالعكس لأني أعتقد أن ((المعترك)) أُلف بعد الإتقان كما ذكرت ذلك في ص ٢٧٢ وما بعدها ، و ((الإكليل)) مصنف قبل ((الإتقان)) حيث ورد ذكره في ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٠ ، وقد استفدت في هذا من مقدمة تحقيق كتاب ((الإكليل)) للأستاذ سيف الدين الكاتب ص : ٧ .

٣- هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذليّ ، أبو عبد الرحمن . من السابقين الأولين ، ومن كبار العلماء من الصحابة رضي الله عنهم . مناقبه جمة ، وأمّره عمر – رضي الله عنه – على الكوفة . توفي سنة ٣٢ بالمدينة . ((التقريب)) : ٣٢٣ .

٤- أورده السيوطي وعزاه إلى سنن سعيد بن منصور – رحمه الله تعالى – .

وأورده الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – ونسبه إلى مسند مُسدّد ، فقال :

((مُرَّةُ قال : قال عبد الله : من أراد العلم فلْيُثوِّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين (لمسدد)))

((المطالب العالية)) : ٣ / ١٣٣ .

((ثوّر القرآن : بحث عن معانيه وعن علمه ... وتثوير القرآن : قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه)) :

((لسان العرب)) : ث و ر .

وهذا الأثر أخرجه بنصه الإمام الطبراني عن عبد الله بن مسعود بأسانيد ، ورجال أحدها رجال الصحيح ؛ كما قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) : ٧ / ١٦٨ .

٢ – وعن الشافعي[١] – رحمه اللـه تعالى – أنه قال :
((سلوني عمّا شئتم أخبركم عنه من كتاب اللـه ...))[٢] .

ثم ساق العلوم الشرعية والدنيوية المستنبطة من القرآن الكريم على وجه الإجمال والتأصيل لاالتفصيل والتطويل .

والحق ماقاله الإمام السيوطيّ مِن أن هذا الوجهَ معجز ؛ وذلك لأن هذا الكتاب العظيم باقٍ في الناس إلى يوم القيامة ، ويُظهر اللـه – تبارك وتعالى – في كل عصر من العصور وجوهاً من وجوه الإعجاز تناسب أهل العصر ، ولما كان الزمانُ الذي أُصّلت فيه العلوم ودُونت انفتح لبصائر العلماء من أصول العلم الشرعي والدنيوي ماكان مغلقاً على مَن قبلهم ، كماأنه في هذا العصر دلّ اللـه – تبارك وتعالى – بعض خلقه على كثير من وجوه الإعجاز العلميّ التى بهرت كثيراً من الناس وأعجزتهم ، وتبينوا به عظمة المرسِل – سبحانه وتعالى – وصدقَ المرسَل به .

وقد يجادل بعض الناس في إعجاز هذا الوجه بدعوى أن أي كتاب من كتب الحكمة التي وضعها عظماء الحكماء قد يكون فيه الكثير من العلوم التي تخفى على أهل عصره فمن بعدهم .

وأقول : هاتوا لنا كتاباً يقارب مافي القرآن العظيم من العلوم المنثورة والحكم العظيمة المأثورة فتدللوا به على صحة دعواكم لنسلم لكم ، أما إن كان الأمر اعتراضا ذهنياً مجرداً فيبقى للقرآن تفوقه وإعجازه في هذا الباب ، واللـه أعلم .

١– هو الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ المطلبي ، أحد كبار الأئمة المجتهدين . توفي بمصرسنة ٢٠٤ ، انظر ((سيرأعلام النبلاء)) : ١٠ / ٥ – ٩٩ .

٢– أخرجه الإمام البيهقيّ في ((معرفة السنن والآثار)) في كتاب المناسك : باب : أصل مايحل قتله من الوحش ويحرم عليه : ٧ / ٤٧٦ – ٤٧٧ .
وأخرجه في سننه الكبرى أيضاً في كتاب الحج باب : ((ماللمحرم قتله من دواب البر)) : ٥ / ٢١٢ .

وهـذا الوجـه المذكـور يتضمـن الـذي يسـمى اليـوم : الإعجـاز العلمـيّ في القرآن .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور[1] رحمه اللـه تعالى :

((وأما الجهـة الثالثـة مـن جهـات الإعجـاز - وهـي ماأُودعَـه مـن المعـاني الحِكْميّـة والإشارات العلمية ، فاعلموا أن العرب لم يكن لهم علم سـوى الشـعر ومـا تضمنـه من الأخبار ...[2]

إن العلم نوعان : علم اصطلاحي وعلم حقيقيّ ، فأمـا الاصطلاحـي فهـو مـاتواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلمـاء ، وهـذا قـد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار ، وهذا النوع لاتخلو عنه أمة .

وأما العلم الحقيقيّ فهو معرفة مابمعرفته كمالُ الإنسان ، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلاً وآجلاً ...

وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحـاء العـرب ؛ لأن أغـراض شـعرهم كـانت لاتعدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلفة ، ولاتحوم حـول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التي هي أغراض القرآن ...

وقد اشتمل القرآن على النوعين ، فأما النوع الأول فتناوله قريب لايحتاج إلى كد فكر ولا يقتضي نظراً ؛ فـإن مبلـغ العلـم عندهـم يومئـذ علـوم أهـل الكتـاب ، ومعرفةُ الشرائع والأحكام ، وقصص الأنبياء والأمم ، وأخبار العالم ...

١- محمدالطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس . ولد سنة ١٢٩٦ بتونس ، وعين عام ١٩٣٢ شيخاً للإسلام مالكياً وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة . له مصنفات مطبوعة مشهورة ، ومقالات كثيرة في المجلات . توفي بتونس سنة ١٣٩٣ رحمه اللـه تعالى .

انظر ((الأعلام)) : ٦ / ١٧٤ .

٢- قد كان للعرب علوم أخرى غير الشعر مثل علم الإهتداء بالنجوم .

وأما النوع الثاني من إعجازه العلميّ فهو ينقسم إلى قسمين : قسم يكفي لإدراكه فهمُه وسمعه ، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فيتبلج للناس شيئاً فشيئاً انبلاج أضواء الفجر على حسَب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم ، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله ؛ لأنه جاء به أميٌّ في موضع لم يعالج أهله دقائقَ العلوم ، والجائي به ثاوٍ بينهم لم يفارقهم ...

وهذا النوع من الإعجاز هو الذي خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة ...

وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر ؛ إذ لاقبل لهم بتلك العلوم ...))[١] .

لكن قد يقال في هذا الوجهِ أن الإعجاز فيه إعجازٌ جزئيّ ، بمعنى أنه ليس في كل آية من كتاب الله - تبارك وتعالى - وذلك كالإعجاز بأخبار الغيب ؛ إذ هو إعجاز جزئيّ كما بينت في موضع سابق[٢] .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور في بيان الإعجاز العلميّ في القرآن :

((وهذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه أي بمجموعِ هذا الكتاب ؛ إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز ، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن[٣] ، وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله :

﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾[٤] ...))[٥] .

وهذا الوجه الذي جاء به الإمام السيوطيّ ليس جديداً ؛ إذ سبقه إلى القول

١- ((التحرير والتنوير)) : ١ / ١٢٥ - ١٢٩ بتصرف .

٢- انظر ص ١٣٤ ومابعدها من هذه الرسالة .

٣- أي بمجموعه .

٤- سورة النساء : آية ٨٢ .

٥- ((التحرير والتنوير)) : ١ / ١٢٩ .

به أئمة [1] ؛ لكن الإمام السيوطيّ جاء به مبسوطاً ، كثيرَ الأحاديث والآثار ، وأكثر فيه - كعادته - من إيراد كلام الأئمةوجمعه على وجه حسن .

وقد كان من المناسب أن أبسط الحديث عن الإعجاز العلمي في هذا الموضع ؛ وذلك لتوسع السيوطي في الكلام عليه .

الوجه الثاني :

((كونه محفوظاً عن الزيادة والنقصان ، محروساً عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان بخلاف سائر الكتب))[2] :

لم يضف السيوطي - رحمه اللـه تعالى - على عنوان هذا الوجه شيئاً إلا قولَه :

((قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [3] فلم يقدر أحد - بحمد اللـه - على التجاسر عليه)) .

فجاء هذا الوجه قصيراً في كلماته طويلاً في معانيه .

ورأيي أن هذا الوجه ليس من الإعجاز بل هو دليل واضح على أن هذا الكتاب العظيم هو من عند اللـه - تبارك وتعالى - وهو الذي تكفل بحفظه سبحانه ، فهذا الحفظ إذاً خصوصية خص اللـه بها هذا الكتاب العظيم .

والسبب في كون هذا الوجه ليس من الإعجاز هو أن المعجزة يجب أن يكون إعجازها واضحاً ماثلاً للأذهان من العصر الذي ظهرت فيه وما بعده من الأزمان ، فكيف يقال إن مشركي العرب قد أعجزهم القرآن بالحفظ عن الزيادةوالنقصان والتبديل والتغيير وهم الذين لم يُؤثر عنهم محاولة تغيير القرآن بالزيادة والنقصان أو بالتحريف والبهتان ؟ ! وإنما حُوول هذا الأمر في الأزمان المتأخرة ، ولم ولن تفلح كل المحاولات لتحريف هذا الكتاب المحفوظ .

١- انظر - مثالاً - ص ١٦٣ من هذه الرسالة .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .

٣- سورة الحجر : آية ٩ .

الوجه الثالث : حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقةُ عادةَ العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشان[1] :

قد جمع السيوطيّ في هذا الوجهِ ثلاثةَ أوجه من أوجه الإعجاز التي أتى بها مَن قبله ؛ إذ حسن التأليف والتئام الكلام هو الإعجاز النظميّ ، وذكر معه الإعجاز بفصاحة كلم القرآن ، ثم ثلّث بالإعجاز البلاغيّ .

وقد أتى بمقدمة توضح إعجاز القرآن من هذا الوجه ، ثم ذكر بعض مناحي المحسنات اللفظية في كتاب الله العزيز ، وهي فواصل الآيات[2] ، وقارن بينها وبين السَّجْع ذاكراً مذاهبَ العلماء في جواز مجيئه في كتاب الله العزيز[3] ، ثم توسع في إيراد أنواع الفواصل بين الآيات وأسباب مجيئها كذلك ، واستمر في إيرادها إلى آخر الوجه .

فهو إذاً لم يتكلم على أوجه البلاغة في القرآن - كما هو مثبت في عنوان هذا الوجه الثالث من وجوه الإعجاز - ولعله أرجأ الكلام عليها إلى الوجوه : الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين ، وهي على الترتيب : وقوع الحقائق والمجاز فيه ،

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ - ٥٤ .

وعنوان هذا الوجه منقول - مع تصرف يسير - من كتاب ((الشفا)) للقاضي عياض : ١ / ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ولم يُشرِ السيوطيّ إلى نقله هذا ، وقد بينت ذلك من قبل ، انظر ص ٢٩٦ .

وقولي في المتن : قد جمع السيوطيّ في هذا الوجهِ ثلاثة أوجه ... يتوجه باعتبار أنّ السيوطيّ ذكر هذا المنقولَ عن ((الشفا)) وصدّر به هذا الوجهَ الثالث من أوجه الإعجاز فبدا كأنه كلامه ، فصحَّ إذاً مانسبته إليه في المتن .

ويمكن أن يتوجه أيضاً بأن السيوطيَّ جاء بهذا المنقولِ وارتضاه وبنى عليه كلامه في هذا الوجه ، فصح إذاً عدُّه من جملة كلامه ، والله أعلم .

٢- وهي ((كلمة آخرِ الآية ، كقافية الشعر وقرينة السجع)) : ((البرهان)) : ١ / ٥٣ ، وسيأتي الكلام على مباحثَ مما ورد منها في هذا الوجه في الفصل الثالث من هذا الباب - إن شاء الله تعالى - انظر ص ٥٧٤ وما بعدها .

٣- سبق ذكر هذا المبحث ، انظر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

تشبيهه واستعاراته ، وقوع الكناية والتعريض ، والإيجاز والإطناب ، وقوع البدائع البليغة فيه ، احتواؤه على الخبر والإنشاء[1] .

وإنما قلت : لعله ؛ لأنه لم يصرح بذلك ، ولعله سها عن إيراد البلاغة في هذا الوجهِ الثالث .

وهذا الوجه الذي ذكره السيوطيّ ، وهو الإعجاز بنظمه وفصاحته وبلاغته ، هو من أعظم أوجه الإعجاز في الكتاب العزيز ، وهو الوجه الذي لم يكد يَشِذُّ عن عدِّه معجزاً أحدٌ ، فهو متفق عليه بين من تكلم على إعجاز القرآن العظيم – إلا من قال بـ (الصَّرفة) ممن ذكرتهم سابقاً[2] – حتى أن السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، نقل قولاً للإمام ابن عطيّة ، رحمه الله تعالى ، أنه يقرر أن :
((الصحيح والذي عليه الجمهور والحُذّاق في وجوه إعجازه أنه بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ...))[3] .

وفي هذا الوجهِ بعضُ المآخذ العلمية الواردة أثناء حديث الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – عن الفواصل ، وسيأتي الكلام عليها في الفصل الثالث من هذا البابِ ، إن شاء الله تعالى[4] .

والملاحظ في هذا الوجهِ أن الكلام على الفواصل وأنواعِها وأقسامها شغل القسم الأكبر من هذا الوجه البالغِ عددُ صفحاته سبعاً وعشرين صفحة ، حيث جاء الكلام على الفواصل في خمس وعشرين منها .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ – ٤٤٩ .

٢- انظر ص ٩٢ وما بعدها .

٣- انظر ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ وقد نقل السيوطي كلام ابن عطية – رحمهما الله تعالى – بالمعنى .

٤- انظر ص ٥٧٤ وما بعدها .

أما الكلام على الإعجاز بالنظم وبالفصاحة والبلاغة فقد كان نزراً يسيراً ، وقد قدمت أن الكلام على البلاغة قد أُخر إلى موضع آخر ، ولكن ماشأن الكلام على الإعجاز النظمي والإعجاز بالفصاحة حيث إنهما لم يَرِدا في مكان آخر ؟ !

وكان الأولى أن يتوسع في ذكرهما في هذا الموضعِ عِوضَ البسط الذي بسطه في حديثه عن الفواصل ، حيث إنهما من أركان الإعجاز القرآني ، وهما أجدر بالبسط في الذكر خاصة في هذا الموضع حيث وردا وجهاً من أوجه الإعجاز مع البلاغة .

الوجه الرابع :

((مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني))[1] :

قد توسع السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في ذكر المناسبات بين الآيات بعضها ببعض ، وبين السور كذلك ، وذكر أسباب ترتيب السور في المصحف ، وافتتاح السور بالحروف المقطّعة[2] ومناسبتها للسور ، وغير ذلك .

وقد اختلفت أنظار العلماء في هذا الوجه ، وقليل منهم عدّه وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز مثل ماصنع الإمام الرازي - رحمه الله تعالى - إذ قال في تفسيره في سورة البقرة فيما نقله عنه السيوطيّ :

((ومن تفكر في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو - أيضاً - بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غيرَ منتبهين لهذه الأسرار ...))[3] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤ - ٧٤ .

٢- هي الحروف الواردة في أوائل السور مثل : ﴿ ألم ﴾ و ﴿ حم ﴾ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٦ .
وقد حاولت العثور على كلام الرازي في مظانه من تفسيره المطبوع فلم أجده ، والله أعلم .

وأكثر المصنفين في الإعجاز لم يجعلوا علم المناسبة بين الآيات والسور وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز ، بل إن بعض العلماء يرى أنه لايُطلب للآيات الكريمة مناسبات لربطها لأنها نزلت حسَب الوقائع وفي مدة طويلة ، وما كان كذلك فلا يتأتّى فيه الربط[1] .

ولكن يمكن أن يقال لهم إن الأمر الذي رددتم به التوسع في ذكر المناسبات بين الآيات والسور هو نفسه المدخل إلى إظهار الإعجاز في المناسبات ، حيث إنه ليس في قدرة البشر أن يرتبوا كلاماً طويلاً ، قيل في مدة زمنية طويلة ، وهو في مناحٍ شتى من وجوه الخطاب ، ليس في مقدورهم ترتيبه على هذا الوجهِ المعجز في القرآن ، ولا على طريقة قريبة من الترتيب القرآني الذي جاء على غاية من الدقة واللطف والإحكام حيث صار القرآن كأنه نزل جملة واحدة .

ومن أحسن المحاولات في إيجاد المناسبة بين الآيات والسور ما صنعه الإمام برهان الدين البِقاعيّ في كتابه ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) ، وإن هاجمه لأجل صنيعه هذا بعضُ معاصريه[2] ، نعم قد ينكَر على المتكلف الآتي بالوجوه البعيدة في الربط بين المناسبات .

والذي أراه ، والله أعلم ، أن هذا العلمَ من دلائل الإعجاز ولكنه ليس وجهاً مستقلاً من أوجهه ؛ حيث إنه ملحق - في تقديري - بالإعجاز النظميّ المذكور في الوجه الثالث السابق ؛ فالإعجاز النظميّ بمعناه العام الشامل يتناول نظم الكلمات لتصبح جملا وآيات ، ويتناول - أيضاً - نظم الآيات ونظم السور ، والله أعلم .

فالجديد في هذا الوجه الذي جاء به السيوطي إذاً هو عدُّه المناسبة وجهاً مستقلاً من أوجه الإعجاز ، وإبرازُ ذلك بوضوح وإطناب ، وقد ساق لأجل ذلك

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥ - ٥٦ .

٢- انظر تفصيل هذا في ((البدر الطالع)) : ١ / ٢٠ - ٢١ .

عدداً من أقوال الأئمة وتقريراتهم في هذه المسألة ، وبسط الكلام على أنواع الروابط بين الآيات فجاء هذا الوجه كأنه جديد لم يقل به أحد قبل ذلك .

الوجه الخامس : افتتاح السور وخواتمها[1] :

ومقصد السيوطي أن الكلام إذا افتُتح بالتأنّق والجمال والتحرير أقبل عليه السامع وإلا أعرض عنه ودفعه ، وقد جاء القرآن بأعظم الفواتح وأحسنها ، وأدق الخواتم وأفضلها .

وقد شرح الإمام السيوطيّ مقصده فقال :

((وهو[2] من أحسن البلاغة عند البيانيين ، وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول مايقرع السمع فإن كان محرّراً قَبِل السامع الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه وإن كان في نهاية الحُسن ، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقه ، وأجزله وأسلسه ، وأحسنِه نظماً وسبكاً ، وأصحِه معنى وأوضحه ، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير المُلبِس أو الذي لايناسب .

قالوا : وقد أتت فواتح جميع السور على أحسن الوجوه وأكملها كالتحميدات وحروف النداء والهجاء وغير ذلك)) .

ثم قال : ((وخواتم السور مثل الفواتح في الحسن))[3] .

وأرى – والله أعلم – أنّ هذا الوجه لايستقل عن الإعجاز البلاغي والإعجاز بالفصاحة ؛ فهو يرجع إليهما لاينفك عنهما وإلا أخلّ بالنظم الكريم .

١- ((معترك الأقران)) : ١ : ٧٤ – ٨٥ .

٢- أي افتتاح الكلام بالفواتح الحسنة .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٤ – ٧٥ .

ولذلك لاأرى وجهاً لإفراد هذا المبحثِ وجهاً من وجوه الإعجاز ، والله أعلم ، إلا أن يكون السيوطي قد أراد التفصيل والبسط لما لعله يصلح أن يُبسط من جوانب الإعجاز البلاغي والإعجاز بالفصاحة ، فيستقل في مبحث منفصل كما فعل هنا .

الوجه السادس : مشتبهات آياته[1] :

ويقصد بالمشتبهات تشابه بعض الآيات في فواصلها ، أو في التقديم والتأخير ، أو بإضافة كلمة أو حرف في آية دون أخرى إلخ ...

ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

مع قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] ، فقد اجتمع في الآيتين أنواعٌ من التشابه كثيرة .

وهذا الوجه لايستقل عن وجه الإعجاز بالنظم إلا فيما يتعلق بذكر سبب ورود التشابه ؛ ومثال ذلك قول السيوطي رحمه الله :

((قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[4] .

وقال بعد ذلك : ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[5] ؛ لأن الأولى وردت بعد نواهٍ فناسب النهي

١- ((معترك الأقران)) ١ / ٨٥ - ٩٤ .

٢- سورة البقرة : آية ٥٨ .

٣- سورة الأعراف : آية ١٦١ .

٤- سورة البقرة : آية ١٨٧ .

٥- سورة البقرة : آية ٢٢٩ .

عن قربانها ، والثانيةَ بعد أوامر فناسب النهي عن تعديها وتجاوزها بأن يوقف عندها))[1] .

فإن لوحظ هذا المعنى – الذي أكثر السيوطي من إيراده وإيراد الأدلة الدالة عليه – كان هذا وجهاً معدوداً من وجوة الإعجاز ، أما إن ذكر متشابه القرآن من باب تنوع اللفظة وإيرادها في صيغ مختلفة بلاغةً وتفنناً فيلحق هذا بوجه الإعجاز البلاغي والإعجاز بالنظم ، والله أعلم .

وقولي : كان هذا وجهاً معدوداً من وجوه الإعجاز إنما هو مرتبط بما ذكرته في التمهيد لهذا البابِ من أن وجوه الإعجاز على قسمين ، وهذا مندرج في القسم الأول منه وهو الإعجاز الذاتي الذي يُلحظ فيه شيء من الإعجاز لكنه أشبه بالخصائص منه بالإعجاز المستقل ، والله أعلم .

الوجه السابع : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات[2] :

ذكر السيوطيّ في هذا الوجهِ بعض الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض ، والتعارض الموهوم في الآية إما في نفسها أو مقارنة بغيرها .

ومن أمثلة ما أتى به مما يوهم تعارض الآية مع بعض المسلّمات الثابتة ما جاء أن ابن عباس – رضي الله عنه – قال له يهوديّ :

((إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ فقال : إنه كان في

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٣ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٤ – ١٠٨ .

نفسه عزيزاً حكيماً))[1] .

ومن أمثلة ما أتى به مما يوهم التعارض بين آيتين أو أكثر ماجاء في قوله تعالى :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3] .

مع قوله :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[4] .

قال السيوطيّ :

((قال الحَلِيمي[5] : فتحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ،

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٩ .

وهذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم - كما ذكر السيوطيّ رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ من سورة النساء : آية ١٥٨ ، فقال : حدثني أبي ، ثنا حسين بن عيسى بن ميسرة ، ثنا أبوزهير عبد الرحمن بن مَغْراء ، أنبأ مجمع بن يحيى؛ عن عمه عن ابن عباس قال : قال يهودي : إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ قال ابن عباس : إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً)) : ((تفسير القرآن العظيم)) لابن أبي حاتم : الجزء الرابع : ١٧٠٦ ، من رسالة الدكتوراه لتحقيق سورتي آل عمران والنساء للدكتور حكمت بشير ياسين .

وقد ذكر المحقق أن إسناد هذا الأثر حسن ، وبالنظر إلى حال رجاله يتبين التالي :

- أبوحاتم الرازي = محمد بن إدريس بن المنذر : هو أحد الحفاظ ، وانظر ((التقريب)) : ٤٦٧ .

- حسين بن عيسى بن ميسرة : صدوق ، كما في ((الجرح التعديل)) : ٣ / ٦٠ .

- عبد الرحمن بن مَغْراء الدوسيّ : صدوق ، تُكلم في حديثه ، كما في ((التقريب)) :٣٥٠ .

- مَجْمع بن يحي بن يزيد بن حارية = صدوق كما في ((التقريب)) : ٥٢٠ ، وقد يقال : مجمع بن يحي بن زيد كما في ((التهذيب)) : ١٠ / ٤٣ .

عمه هو خالد بن يزيد كما ذكر الأستاذ المحقق ، وهو كما قال ، وانظر ((التهذيب)) : ١٠ / ٤٣ .

وحال عمه هذا أخبر عنه أبو حاتم الرازي بقوله : مابه بأس ، كما في ((الجرح والتعديل)) : ٣ / ٣٣١ .

فالإسناد - بالنظر إلى رجاله - حسنٌ ، إن شاء الله تعالى ، كما ذكر الأستاذ المحقق ، والله أعلم .

٢- سورة الصافات : آية ٢٤ .

٣- سورة الأعراف : آية ٦ .

٤- سورة الرحمن : آية ٣٩ .

٥- هو الشيخ أبوعبدالله الحسين بن الحسن بن محمد بن حَليم البخاريّ الشافعي أحد الأذكياء . كان متفنناً سيال الذهن مناظراً ، طويل الباع في الأدب والبيان . وله مصنفات نفيسة . وللحافظ البيهقي اعتناء بكلامه .

مات سنة ٤٠٣ ، رحمه الله تعالى .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٢٣١ - ٢٣٤ .

والثانية[١] على مايستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه[٢] ، وحمله غيره على اختلاف الأماكن ، لأن في القيامة مواقفَ كثيرة ، ففي موضع يُسألون وفي موضع آخر لايُسألون . وقيل إن السؤال المثبتَ سؤالُ تبكيت وتوبيخ ، والمنفيَّ سؤالُ المعذرة وبيانِ الحجة))[٣] .

وقد أتى السيوطيّ في هذا الوجه أيضاً بأسباب اختلاف الآيات وتوهُّم تعارضها ، وكيفية الجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض .

والحق أن هذا الوجهَ ليس من الإعجاز ، وإنما هو عائد إلى التنوع في أساليب القرآن ومجيءِ الآيات على أوجه متعددة في أحوال مختلفة ، وإنما يَفهم ذلك ويوجهه الراسخون في العلم ، أمّا عدُّه من الإعجاز ففيه تجوّز ، والله أعلم ؛ إذ غايته أن يُعد من خصائص القرآن .

الوجه الثامن : ((وقوع ناسخه ومنسوخه))[٤] :

عرف السيوطيّ النسخ فقال :

((يرد النسخ بمعنى الإزالة ، ومنه قوله :

﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ﴾[٥] .

وبمعنى التبديل ، ومنه : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾[٦]

١- أي قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾

٢- أورد الحَليميّ هذه الإجابةَ في كتاب ((المنهاج)) في موضعين : ١ / ٣٨٦ وما بعدها ، ١/ ٤١٧ وما بعدها ، وأُورد كلامه في ((البرهان)) : ١ / ٥٥ ، الذي نقل منه السيوطيّ ، أُورد مختصراً وبالمعنى .

٣-((معترك الأقران)) : ١ / ١٠١ ، وكلامه إلى قوله : ((لايُسألون)) نقله من ((البرهان)) للزركشي : ١ / ٥٥ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ - ١٣٦ .

٥- سورة الحج : آية ٥٢ .

٦- سورة النحل : آية ١٠١ .

وبمعنى التحويل : كتناسخ المواريث ، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد ، وبمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه : نسخت الكتاب : إذانقلت مافيه حاكياً للفظه وخطه))[1] .

وقد توسع السيوطيّ - رحمه الله تعالى - كثيراً في هذا المبحث وأتى فيه بأقسام النسخ وأحكام متفرقة فيه ، ثم استوعب ذكر الآيات المنسوخة في القرآن مستفيداً من تأليف له سابق في هذا الباب[2] .

وقد تتبعت كلام السيوطيّ في هذا الوجه لأرى كيف استخرج وجه الإعجاز من الناسخ والمنسوخ لكني لم أجد إلا مباحثَ أصولية فقهية أو مباحث تفسيرية محضة للناسخ والمنسوخ في القرآن ، مما لاتعلق له ألبتة بمبحث الإعجاز .

والناسخ والمنسوخ مما خُصت به هذه الأمة لحِكم كثيرة منها التيسير والتخفيف[3] ، وتحقيق حكمة التدرج في التشريع ، وغير ذلك من فوائد ورود الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى .

الوجه التاسع : ((انقسامه إلى محكم ومتشابه))[4] :

توسع السيوطي رحمه الله تعالى في هذا الوجه ، وأتى بمباحثَ كثيرة فيه حيث أتى ببعض تعاريف المحكم والمتشابه ، ثم ذكر أنواع المتشابه ، ثم عقد فصلاً كاملاً لبيان أن آيات الصفات من المتشابه ، وختم الوجه ببيان أن أوائل السور من المتشابه ، وذِكرِ فوائد المتشابه .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٩ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ١١٥ ، وكتابه هذا هو : ((الناسخ والمنسوخ في القرآن)) كما في ((دليل مخطوطات السيوطيّ)) : ٤٥ .

٣- قد ذكر ذلك السيوطيّ في بداية هذا الوجه : ١ / ١٠٨ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ - ١٦١ .

تعريف المحكم والمتشابه :

المحكم هو الأمر الذي لااختلاف فيه ولااضطراب[1] .

أما التعريف الاصطلاحيّ للمحكم والمتشابه في القرآن فهو بحسَب متعلّقه :

فإن تعلق بالمعاني فالمحكم هو ماعُرف المراد منه ، والمتشابه ماستأثر الله بعلمه كقيام الساعة والحروف المقطعة في فواتح بعض السور ، فالمحكم هنا يقابل المتشابه .

وإن تعلق بالألفاظ والمعاني معاً فالقرآن محكم كله لأنه لايتطرق النقص إليه والاختلاف ، وهو متشابه كله بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز[2] .

وقيل إن المحكم هو الذي لايحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل ، والمتشابه بخلافه ، وقيل فيهما غير ذلك[3] .

والذي أراه – والله أعلم – أن هذا الوجه لايعد من الإعجاز إنما جيء بالمحكم والمتشابه في القرآن لحكم منها :

١ – حث العلماء على النظر فيه والبحث عن دقائقه[4] .

٢ – اختبار العباد بالوقوف عند متشابهه والتسليم ، والتعبدُ بالاشتغال به من جهة التلاوة[5] .

١- ((لسان العرب)) : حكم .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ - ١٣٧ .

٣- المصدر السابق : ١ / ١٣٧ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٥٨ - ١٥٩ بتصرف .

٥- المصدر السابق .

٣ - ((إظهار التفاضل وتفاوت الدرجات ؛ إذ لو كان القرآن كله محكماً لايحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره))[١] .

تلك بعض الفوائد لمجيء المحكم والمتشابه في القرآن ، أما أن يُعدَّ هذا من وجوه الإعجاز ففيه بُعْد ، كما أنه لم يعدّه أحدٌ من وجوه الإعجاز ، فيما أعلم ، والله أعلم .

وقد أتى السيوطيّ في هذا الوجهِ بعدد من صفات الله تبارك وتعالى على أنها من المتشابه[٢] ، وسوف أبين الصواب في هذا - إن شاء الله تعالى - في مطلب : منهجه في العقيدة[٣] .

الوجه العاشر : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها من التخفيف والتشديد وغيرهما[٤] :

ذكر السيوطي في هذا الوجهِ مباحثَ في القراءات ، وفوائدَ اختلاف القراءة .

وهذا الوجه ليس من وجوه الإعجاز إلا ماكان من مبحث فوائد اختلاف القراءة ؛ إذ أن بعض الكلمات القرآنية تُرسم بوجه واحد وتنطق بأوجه مختلفة ، وهذا النطق ينبني عليه الاختلاف في المعنى[٥] أو في الحكم الفقهيّ[٦] ، أو غير ذلك .

١- المصدر السابق : ١ / ١٥٨ .

٢- المصدر السابق : ١ / ١٤٦ - ١٥٥ .

٣- انظر ص ٤٩٣ وما بعدها .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٦١ - ١٧٠ .

٥- وذلك نحو قوله تعالى ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ و﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ سورة الحجر : آية ٤١ . فقراءة يعقوب ﴿ عَلِيٌّ ﴾ وقراءة الجمهور : ﴿ عَلَيَّ ﴾ .
وانظر ((النشر)) : ٢ / ٣٠١ .

٦- وذلك نحو : ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ ، و ﴿ يَطَّهَّرْنَ ﴾ فالقراءة الأولى يُفهم منها جواز قُربان النساء بمجرد انقطاع الدم ، والثانية يُفهم منها وجوب الغُسْل بعد انقطاع الدم قبل الوِقاع ، انظر ((النشر)) : ٢ / ٢٢٧ ، و((المغني)) : =

وهذا الوجه لايستقل عن الإعجاز بالفصاحة الذي هو أصل له ؛ لأن القرآن نزل متلوّاً مقروءاً لامرسوماً ، ولما كانت الفصاحة مدارها على حسن اختيار الألفاظ فناسب أن تتعلق مباحث القراءات واختلاف الألفاظ بالإعجاز بالفصاحة ، والله أعلم .

وكذلك ماأورده السيوطيّ في فوائد القراءات على أنها من إعجاز الإيجاز ؛ ((إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات ، ولوجُعلت دلالة كل لفظ آيةً على حدة لم يَخْفَ ماكان من التطويل))[1] ؛ هذا الذي أورده هو من نوع الإعجاز البلاغيّ في القرآن ؛ لأن الإيجاز من أنواع علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة[2] .

فهذا الوجه إذاً غير مستقل بالإعجاز إنما هو مندرج تحت الإعجاز بالفصاحة والبلاغة ، لكن إبرازه على هذا النحو وعدُّه وجهاً مستقلاً بالإعجاز إنما هو من الجديد الذي جاء به الإمام السيوطيّ في كتابه هذا حيث إني لم أطّلع على من حاول هذا من قبل .

وعدُّه من الجديد إنما هو بالنسبة إلى الكتب التي تحدثت عن الإعجاز وأوجهه ، أما غيرها من الكتب فقد سبق إلى عدّ هذا من إعجاز القرآن الإمامُ ابن الجزري ، رحمه الله تعالى ، حيث قال :

((وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فإن في ذلك فوائدَ غيرما قدمنا من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة، ومنها[3] مافي ذلك من نهاية البلاغة ، وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار ، وجمال الإيجاز ؛ إذ كان تنوع اللفظ بكلمة

= ١ / ٤١٩ - ٤٢٠ حيث أجاز الإمام أبوحنيفة قربان المرأة إذا انقطع دمها لأكثر مدة الحيض ، وهي - عنده - عشرة أيام .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٦٩ .

٢- انظر ((جواهر البلاغة)) : ٤٦ - ٤٧ .

٣- كذا ورد بالعطف في المطبوع ، والأوجه حذفُ الواو ، والله أعلم .

تقوم مقام آيات ، ولو جُعلت دلالة كل لفظ آيـةً علـى حِدَتها لم يخف ماكـان في ذلك من التطويل))[1] .

الوجه الحادي عشر : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع[2] :

قد قسم السيوطيّ هذا المبحثَ إلى قسمين :

قسم أشكل معناه بحسَب الظاهر ، والقسم الآخر ماليس كذلك .

ومثال الأول عند السيوطيّ :

((ومنه : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [3] والأصل : (هواه إلـهه) ؛ لأن من اتخذ إلـهه هواه غيرُ مذموم ، فقدم المفعول الثاني للعناية به))[4] .

ولم يمثل السيوطي للقسم الآخر ، ومثاله قوله تعالى :

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[5] .

مع قوله سبحانه :

﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾[6] .

وقد ذكر السيوطيّ في هذا المبحثِ عشرة أسباب للتقديم والتأخير ، وبها ختم الكلام على هذا الوجه .

وهذا الوجه يصح أن يكون من الإعجاز إذا لُوحظت أسباب وأسرار التقديم والتأخير التي أوردها السيوطي - رحمه الله تعالى - ولكنه مندرج في الإعجاز

١- ((النشر في القراءات العشر)) : ١ / ٥٢ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١/ ١٧١ - ١٨١ .

٣- سورة الجاثية : آية ٢٣ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١٧٣/١ .

٥- سورة البقرة : آية ٥٨ .

٦- سورة الأعراف : آية ١٦١ .

النظميّ وليس وجها مستقلاً منفرداً ، والله أعلم .

ولبيان ذلك فإني أذكر سبباً من أسباب التقديم والتأخير العشرة التي أوردها السيوطي – رحمه الله تعالى – في هذا الوجه :

الرابع[1] : المناسبة :

((وهي إما مناسبة المتقدم لسياق الكلام كقوله :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[2] ، فإن الجَمال بالجِمال وإن كان ثابتاً حالتي السراح والإراحة إلا أنها حالة إراحتها – وهو مجيئها من المرعى آخر النهار – يكون الجمال بها أفخر ؛ إذ هي فيه بِطان[3] ، وحالة سراحها للرعي أول النهار يكون الجمال بها دون الأول ؛ إذ هي فيه خِماص[4] .

ونظيره قوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾[5] .

قدم نفي السرف لأن السرف في الإنفاق[6] .

وقوله :

﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[7] .

لأن الصواعق تقع مع أول برقة ، ولايحصل المطر إلا بعد توالي البرقات[8] .

وقوله :

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[9] .

١- أورد قبله ثلاثة أسباب وبعده ستة أسباب ، وإنما اخترت هذا لأنه أدلّ على المقصود من غيره .

٢- سورة النحل : آية ٦ .

٣- أي ممتلئة البطون ، ((لسان العرب)) : ب ط ن .

٤- الخِماص : ضمور البطن لخلوها من الطعام ، انظر : ((لسان العرب)) : خ م ص .

٥- سورة الفرقان : آية ٦٧ .

٦- لم يتجه لي المعنى ؛ إذ الإقتار يكون في الإنفاق أيضاً ، كما يفهم من سياق الآية الكريمة ، ولعل هناك سقطاً ، والله أعلم .

٧- سورة الرعد : آية ١٢ .

٨- فالخوف حاصلٌ بسبب الصواعق ، وقد قُدم لأنه يحصل مع أول صاعقة ، بينما المطر لايحصل إلا بتوالي الصواعق فأخر الطمع في نزوله لهذا ، والله أعلم .

٩- سورة الأنبياء : آية ٩١ .

قدمها على الابن لما كان السياق في ذكرها في قوله :

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾[1] .

ولذلك قدم الابن في قوله :

﴿ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ ﴾[2] .

وحسّنه تقديمُ موسى في الآية قبله[3] .

ومنه قوله :

﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾[4] .

قدم الحكم وإن كان العلم سابقاً عليه[5] لأن السياق فيه ؛ لقوله في أول الآية[6] :

﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾[7] ...))[8] .

والناظر لما ذكره السيوطيّ يعلم أن هذا لايستطيعه البشر ، وتعجز عنه عقولهم القاصرة ، وهذا مدخل الإعجاز الذي ذكره السيوطيّ ، رحمه الله تعالى .

وإنما قلت - في أول الوجه - إنه مندرج تحت الإعجاز النظمي لأن أسرار وأسباب التقديم والتأخير التي أوردها متعلقة كلها بتقديم وتأخير الألفاظ القرآنية وطريقة نظمها ، وهذا عين الإعجاز النظميّ .

لكنّ الجديد في هذا الوجهِ هو إبراز التقديم والتأخير وبيان أنه من الإعجاز على وجه لم يُسبق به الإمام السيوطيّ ، فيما أعلم ، والله أعلم .

١- سورة الأنبياء : آية ٩١ .

٢- سورة المؤمنون : آية ٥٠ .

٣- أي حسّن تقديم عيسى عليه الصلاة والسلام على أمه تقديمُ موسى عليه الصلاة والسلام في السياق السابق في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ ... ﴾ الآية : ٤٥ . وإني أظن أن التقديم - هنا - جرى على الأصل ؛ إذ عيسى ، عليه الصلاة والسلام ، نبي مقدم على غيره ، والله أعلم .

٤- سورة الأنبياء : آية ٧٩ .

٥- أي في التحصيل والاكتساب الذهني .

٦- قوله : ((في أول الآية)) سهوٌ ؛ إذ هي في الآية التي قبلها ، وليس هنالك اختلاف في عدِّ هذين الآيتين بين علماء عدِّ الآي .

٧- سورة الأنبياء : آية ٧٨ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١٧٦/١ - ١٧٧ .

الوجه الثاني عشر : ((إفادة حصره واختصاصه))[1] :

وقد عرّفه السيوطيُّ قائلاً :

((هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص .

ويقال أيضاً : إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه))[2] .

ثم ذكر أقسام الحصر – ويقال له أيضاً القَصْر – فمن ذلك :

١ – تقسيم القصر باعتبار طرفيه ، وهو نوعان :

أ – قصر الموصوف على الصفة ، وهو قسمان :

حقيقي ومجازيّ :

ومثل للحقيقي بقوله : ((ما زيدٌ إلا كاتب)) أي لاصفة له غيرها .

ومثل للمجازيّ بقول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[3] أي أنه مقصور على الرسالة لايتعداها إلى التبري من الموت الذي استعظموه ؛ إنه شأن الإله[4] .

ب – قصر الصفة على الموصوف ، وهو أيضاً قسمان : حقيقي ومجازيّ :

ومثّل للمجازيّ بقول الله تعالى :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ... ﴾[5]

وإنما كان هذا قصراً مجازياً لأن هناك محرمات غير هذه ثبتت في الشرع ، وقيل بأن ذلك قصر حقيقي ، والصواب الأول ، والله أعلم[6] .

ومثل للحقيقي بـ : لاإله إلا الله .

٢ – تقسيم القصر بحسَب حال المخاطب إلى :

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ – ١٩٤ .

٢- المصدر السابق : ١ / ١٨١ .

٣- سورة آل عمران : آية ١٤٤ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ .

٥- سورة الأنعام : آية ١٤٥ .

٦- انظر تفصيل هذه المسألة في ((الجامع لأحكام القرآن)) : ٧ / ١١٥ – ١٢٣ .

أ – قصر إفراد :

ويخاطب به من يعتقد الشَّرِكة ، ومثل له بقول اللـه تعالى :

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1] .

ب – قصر قلب :

ويخاطب به من يعتقد إثبات الحكم لغير من أثبته المتكلم له ، ومثّل له بـ ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[2] .

ج – قصر تعيين :

ويخاطب به من تساوى عنده الأمران فلم يحكم بإثبات الصفة لواحد بعينه ولا لواحد بإحدى الصفتين بعينها[3] .

أي إذا كان المخاطب متردداً في الحكم كأن يكون مثلاً متردداً في كون الأرض متحركة أو ثابتة فيقال له: الأرض متحركة لا ثابتة[4] .

ثم إن السيوطيّ سرد طرق الحصر وهي أربعَ عشرةَ طريقة ومثّل لها ، وختم هذا الوجهَ بذكر الخلاف في عدّ تقديم المعمول على العامل : هل هو من طرق الحصر ؟ وأتى بكلام أئمة اللغة والبيان في هذا .

والذي أراه – واللـه أعلم – أن هذا الوجهَ ليس من أوجه الإعجاز المستقلة بل هو راجع إلى الإعجاز البلاغي ؛ إذ أساليب الحصر من أنواع علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة .

١– سورة النساء : آية ١٧١ .

٢– سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

٣– ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨٢ .

٤– ((جواهر البلاغة)) : ١٨٦ .

وفائدة الحصر والاختصاص هي التفنن في إيراد الكلام على وجوه عدّة ، ولتثبيت المعاني في أذهان المخاطبين وجعلها من المسلّمات ، ولغير ذلك من الأغراض ، فكأن السيوطيّ جعله وجهاً مستقلاً لهذا ، ولكنّ الحقّ ماقدمته من اندراجه تحت الإعجاز البلاغيّ ، والله أعلم .

الوجه الثالث عشر : ((احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم من الفرس والروم والحبشة وغيرهم))[1] :

قد صنّف السيوطيّ كتاباً في المعرّب سماه : ((المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب))[2] ، وقد لخصه في هذا الوجهِ الثالثَ عشر .

والمعرّب هو ((ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لغتها))[3] .

وهو على أقسام :

١ - قسم غيرّته العرب وألحقته[4] بكلامها ، فحكم أبنيته في اعتبار الأصليّ والزائد والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع نحو (درهم)[5] .

٢ - قسم غيرّته العرب و لم تلحقه بأبنية كلامها نحو : آجُرّ[6] .

٣ - وقسم تركوه غيرَ مغيّر فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعدّ منها نحو خراسان ،

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ - ٢٠٦ .

٢- طبع هذا الكتاب أكثر من طبعة .

٣- ((المزهر)) : ١ / ٢٦٨ ، ولم يعرِّف السيوطيّ المعرّب في ((معترك الأقران)) .

٤- الإلحاق هو ((جعل مثال على مثال أَزْيدَ منه ليعاملَ معاملَته في التصريف)) :
((المغني في تصريف الأفعال)) : ٥٩ .

٥- الدِّرهَم والدِّرهِم : لغتان ، فارسي معرب ، ملحق ببناء كلام العرب ، فدرهَم كهِجْرَع - وهو الرجل الطويل أو الأحمق - ، ودِرْهِم - بكسر الهاء - كجِفْرِد - وهو نوع من النبات ، أو من الجوهر - وانظر ((لسان العرب)) : درهم ، جِفْرِد ، هِجْرَع .

٦- هو الطين المطبوخ ، وتضبط الكلمة على وجوه عدة ، وهو من الفارسيّ المعرب ، وانظر ((لسان العرب)) : أ ج ر .

وما ألحقوه بها عُدّ منها نحو (كُركُم) أُلحق بـ (قُمقم)[1] .

وقد ذكر السيوطيّ في هذا الوجهِ الخلافَ في وقوع المعرَّب في كتاب الله العزيز ، ثم استقصى مانزل من القرآن بلهجات قبائل العرب المختلفة مما هو ليس من لغة أهل الحجاز.

والسيوطيّ - رحمه الله تعالى - ممن يذهب إلى وقوع المعرّب في القرآن حيث قال : ((وأقوى ما رأيته للوقوع - وهو اختياري - ما أخرجه ابن جرير[2] بسند صحيح عن أبي ميسرة[3] التابعيّ الجليل قال : ((في القرآن من كل لسان))[4] ...

فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء ؛ فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شيء ، فاختير من كل لغة أعذبُها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب .

وأيضاً فإن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أُرسل إلى كل أمّة ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[5] فلابد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو ...))[6] .

١- ((المزهر)) : ١ / ٢٦٦ - ٢٧٠ بتصرف ، ونقل السيوطيّ هذا عن أبي حيان .

والكُرْكُم نوع من النبات ، والقُمقم : وعاء ضيق الرأس . انظر ((لسان العرب)) : كركم ، قمم .

٢- هو أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد ، الإمام العَلَم المجتهد . ولد سنة ٢٢٤ بآمُل طَبَرستان .

وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرةَ تصانيف . وكان من كبار أئمة الاجتهاد ، وأكثر الترحال في طلب العلم ثم استقر ببغداد وتوفي بها سنة ٣١٠ .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٢٦٧ - ٢٨٢ .

٣- هو عمرو بن شُرَحبيل الهَمْدانيّ ، أبو ميسرة الكوفيّ . ثقة عابد مخضرم ، وهو من رجال البخاري ومسلم . توفي بالطاعون سنة ٦٣ . انظر ((تهذيب التهذيب)) : ٨ / ٤٢ - ٤٣ ، و ((التقريب)) : ٤٢٢.

٤- انظر ((جامع البيان)) : ١/١٤ . ومعنى هذا الأثر محمول على أن في القرآن ألفاظاً أصلها غير عربي لكن العرب عرّبتها واستعملتها قبل نزول القرآن ، أما أن يكون في القرآن ألفاظ غير عربية فهذا مردود ، وانظر كلام ابن جرير على هذه المسألةِ في تفسيره : ١/ ١٣-٢٠ .

٥- سورة إبراهيم : آية ٤ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٦ - ١٩٧ .

ولعل هذا الملحظَ الذي لحظه السيوطيّ – رحمه الله تعالى – هو الذي دعاه لعدِّ هذا الوجهِ من الإعجاز ؛ حيث إن القرآن حوى – على رأيه – جميعَ لغات العرب ، وكثيراً من اللغات غير العربية بعد تعريبها واستعمال العرب لها ، ولعجز البشر عن هذه الإحاطةِ أورد السيوطيّ هذا المبحثَ وجهاً من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

وأرى – والله أعلم – أن عدَّ مثل هذا من الإعجاز فيه تسامح وتجوُّز ؛ إذ يمكن أن يعدّ من خصائص هذا الكتاب العظيم وتفرده وامتياز خطابه عن غيره ، أمّا أن يكون معجزاً فلم يقل بهذا أحد ولاأجد له تعلقاً معقولاً بالإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها[1] :

شرع السيوطيّ – رحمه الله تعالى – ابتداءً من هذا الوجهِ بذكر بعض المباحث الأصولية وعدِّها أوجهاً من أوجه الإعجاز .

وابتدأ السيوطيّ هذا الوجهَ بتعريف العامّ بقوله :
((هو لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر))[2] .

ثم شرع في ذكر صيغ العموم ، وأقسامِه ، وختم بمسائلَ منثورة تتعلق بهذا الباب ؛ باب العموم والخصوص .

ولا أدري الحاملَ للسيوطيّ على إيراد مثل هذا البحثِ وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ إذ لم يقل بذلك أحد ، وليس لِما أورده من أبحاث تعلقٌ معقول بالإعجاز ، ولعله من الأوجه التي لم يعدّها هو نفسه من الإعجاز وإنما أوردها للاطّلاع على بعض المعاني القرآنية كما ذكر من قبل [3] ، والله أعلم .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ - ٢١٧ .
٢- المصدر السابق : ٢٠٧/١ .
٣- المصدر السابق : ١٢/١ .

الوجه الخامسَ عشر :

((ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة))[1] :

والإجمال هو ((ماله دلالة على أحد أمرين لامزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه)) ، ويُمثل له بقوله تعالى :
﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[2] ، فإن صاحب العقدة متردد بين الزوج والوليّ[3] .

وقد تكلم السيوطيّ على هذا الوجهِ بشيء من التفصيل فذكر أسباب الإجمال وأحوال التبيين ، وختم هذا الوجهَ بذكر بعض الآيات التي اختُلف في كونها مجملة .

وقد عدّ السيوطيّ - رحمه الله تعالى - هذا الوجهَ من الإعجاز حيث صدّر الحديث عنه بقوله :
((وفي ذلك من حسن البلاغة مايعجز عنه أولوا الفصاحة))[4] .

وإذا لوحظت بعض أسباب الإجمال التي أوردها الإمام السيوطيّ فإنه يمكن عدُّ بعضها راجعاً إلى الإعجاز البلاغي ؛ إذ أنه ذكر من أسباب الإجمال الحذفَ ومثل له بقوله تعالى :
﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[5] فقال :
((يحتمل (في) و (عن)))[6] .

١- ((معترك الأقران)) : ١/٢١٧ - ٢٢٤ .
٢- سورة البقرة : آية ٢٣٧ .
٣- ((الإحكام في أصول الأحكام)) : ٣ / ١٣ ، بتصرف .
ولم يعرّف الإمام السيوطيّ المجمل في ((معترك الأقران)) .
٤- ((معترك الأقران)) : ١/ ٢١٧ .
٥- سورة النساء : آية ١٢٧ .
٦- ((معترك الأقران)) : ١/ ٢١٧ .

أي ترغبون في نكاحهن ، وترغبون عن نكاحهن فاحتُمل المعنيان لأجل حذف حرف الجر .

وهذا من أوجه الإيجاز في الكلام الذي اشتهرت به العرب واستعملته في كلامها ، والإيجاز من أنواع علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة[1] .

فعلى هذا يمكن إدراجُ بعض جوانب هذا الوجه - بملاحظة أسباب وروده - في الإعجاز البلاغيّ ، ولا أجد سبباً لإفراده وجهاً من أوجه الإعجاز هاهنا إلا لقصد الإبراز ومزيدِ الإظهار للمباحث التي أوردها فيه ، والله أعلم .

الوجه السادس عشر : ((الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه))[2] :

وقد عرّف السيوطيّ المنطوق ثم قسّمه بقوله :

((وهو مادلّ عليه اللفظ في محل النطق ، فإن أفاد معنى لايحتمل غيره **فالنصُّ** نحو : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾[3] ...

أو[4] مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً **فالظاهر** نحو :

﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ ﴾[5] فإن الباغي يطلق على الجاهل وعلى الظالم وهو فيه أظهر وأغلب ...

١- انظر ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٢ ومابعدها .

وقد ذكر سبعة أسباب أخرى للإجمال هي : الاشتراك ، واختلاف مرجع الضمير ، واحتمال العطف والاستئناف ، وغرابة اللفظ ، وعدم كثرة الاستعمال ، والتقديم والتأخير ، وقلب المنقول ، ولا أجد لكثير منها تعلقاً بالإعجاز ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٢١٧/١ - ٢١٨ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢٢٤/١ - ٢٢٨ .

٣- سورة البقرة : آية ١٩٦ .

٤- العطف على قوله : فإن أفاد معنى لايحتمل غيره .

٥- سورة البقرة : آية ١٧٣ .

وإن حُمل على المرجوح لدليل فهو **تأويل** ، ويسمى المرجوح المحمول عليه **مؤولا ...**))

ثم إن السيوطيّ - رحمه الله تعالى - أتم مباحث المنطوق ، وشرع في تعريف المفهوم وتقسيمه كصنيعه في المنطوق .

وهذا الوجه لايعد من أوجه الإعجاز حيث ليس له تعلقٌ معقول به ، بل هي مباحث أصولية محضة ، والله أعلم .

الوجه السابع عشر : ((وجوه مخاطباته))[١] :

وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام :
((قسم لايصلح إلا للنبي - صلى الله عليه وسلم - وقسم لايصلح إلا لغيره ، وقسم يصلح لهما))[٢] .

ثم إنه قسم تلك الأقسامَ كلها باعتبار مضمون الخطاب حيث قال :
((قال بعض الأقدمين : أنزل القرآن على ثلاثين نحواً ، كل نحوٍ منه غيرُ صاحبه ، فمن عرف وجوهها وتكلم في الدين أصاب ووفّق ، ومن لم يعرفها وتكلم في الدين كان الخطأ إليه أقرب))[٣] .

ثم إنه أورد تقسيم ابن الجوزي وغيره لها حيث وصلت إلى أربعة وثلاثين وجهاً ، وذكر السيوطيّ أمثلة لها .

١- ((معترك الأقران)) : ٢٢٩/١ - ٢٣٩ .

٢- المصدر السابق : ٢٢٩/١ .

٣- المصدر السابق .

وهذه الأوجه التي ذكرها يندرج بعضها تحت علوم القرآن كالمكي والمدنيّ ، ويندرج بعضها تحت مباحث أصول الفقه كالناسخ والمنسوخ ، والخاص والعام ، وبعضها مندرج تحت علوم اللغة كالتقديم والتأخير ، وبعضها متنوع في الخطاب بحسب أحوال المخاطبين كخطاب التهييج ، وخطاب التحنن والاستعطاف ، وخطاب التعجيز ، إلخ ...

ثم إنه أورد نصاً عن ابن القيم - رحمه الله تعالى - يبين فيه عظمة الخطاب الإلهيّ في القرآن وأنه شامل لأمور الدنيا وأحوال الآخرة ، وبه ختم الوجه السابع عشر .
وحكمه على هذا الوجهِ بأنه معجز لايستقيم - في تقديري - لسببين :

الأول : أن الحكم على الكلام بأنه معجز لايكون بتعدد وجوه خطابه ولكنه يكون بما فيها من معانٍ وألفاظ معجزة ، أليس خطاب عامة الناس يحوي وجوهاً عدة ؛ إذ فيه أمر ونهي ، وتخصيص وتعميم ، وتهييج واستعطاف وهو مع ذلك خطابٌ عاميٌّ ساقط لاوزن له ، فلا يصح إذاً جَعْلُ وجوه الخطاب القرآنيّ وتنوعها معجزةً في نفسها ، والله أعلم .

الآخر : أن كثيراً من أوجه الخطاب التي ساقها قد احتوت أنواعاً ليست من الإعجاز كالمكي والمدني ، والخاص والعام إلخ ...
فكيف يستقيم عدّ مثل هذا من وجوه الخطاب المعجز ، إذ هو مندرج تحت أنواع شتى من العلوم وليس له تعلق معقول بالإعجاز ؟ !
وهنا تنبيه على أن عدداً من أوجه الخطاب التي ساقها - نقلاً عن عدد من العلماء - قد فُرغ من بيان تعلقه بالإعجاز أو عدمه ، أو أنه سيأتي الكلام عليه في الأوجه القادمة ، وبعض الذي أورده متعلق بالإعجاز النظمي ، ولتمام بيان ذلك فإني سأورد بعض أوجه الخطاب التي ساقها وأبين مايمكن أن يندرج تحت أنواع معدودة من الإعجاز ، مما هو ليس منها :

١ – المكي والمدني .

٢ – الناسخ والمنسوخ .

٣ – المحكم والمتشابه ، وهذه الثلاثة ليست من الإعجاز ، وقد سبق الكلام على المحكم والمتشابه[١] .

٤ – التقديم والتأخير ، ومثل له بقوله تعالى :
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾[٢] .
التقدير: كتب عليكم الوصية إذا حضر أحدكم الموت .
وهذا يمكن إلحاقه بالإعجاز النظمي[٣] .

٥ – ((الأبـّهة : نحو ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا ﴾[٤] ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾[٥] ، عبر بالصيغة الموضوعة للجماعة للواحد تعالى تفخيماً وتعظيماً وأُبـّهةً))[٦] .
وهذا لايندرج تحت الإعجاز بحال ، والله أعلم .

٦ – ((الخطاب العام الذي لم يُقصد به مخاطب معين نحو :
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ﴾[٧] ... ولم يقصد بذلك خطاب معينٍ بل كل أحد))[٨] .

١– انظر ص ٣٥٩ ومابعدها .

٢– سورة البقرة : آية ١٨٠ .

٣– ينظر في الأوجه الأربعة السابقة ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٩ .

٤– سوة القمر : آية ١٩ .

٥– سورة الزخرف : آية ٣٢ .

٦– ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٠ .

٧– سورة الحج : آية ١٨ .

٨– ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٦ .

٧ - ((خطاب التحبُّب نحو :
﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ ﴾[1] ، ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ ﴾[2] ...))[3] .

وهذه الأوجه السبعة شاملة - من حيث التمثيل - للأوجه الأربعة والثلاثين التي ساقها ، وبالنظر إليها يتبين أنها ليست من الإعجاز إلا ماكان منها ملحقاً بالإعجاز النظميّ ، والله أعلم .

الوجه الثامنَ عشر : ((ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات))[4] :

والمقصود واضح ، جاء به السيوطيّ بإيجاز ذاكراً نوعي الغيب الحاضر والمستقبل بقوله :
((ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ، ومالم يكن ومالم يقع)) ، وهو الغيب المستقبل ، ومثل له بأمثلة ، ثم أشار إلى أخبار الغيب الحاضر بقوله :
((وما فيه مِن كشف أسرار المنافقين واليهود ، ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله :
﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾[5] ...)) .

وأخبار الغيب الماضية سيأتي الكلام عليها في الوجه التاسع عشر الآتي ، إن شاء الله تعالى .

والملاحظ أن الإمام السيوطيّ تناول هذا الوجهَ والأوجه الثلاثة بعده تناولاً خفيفاً ، والحال أنها من أهم الأوجه التي قيلت في إعجاز القرآن .

١- سورة مريم : آية ٤٢ .
٢- سورة لقمان : آية ١٦ .
٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٧ .
٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .
٥- سورة المجادلة : آية ٨ .

وقد تكلمت على أخبار الغيب قبل ذلك[1] ، وبينت أن أخبار الغيب هي من الإعجاز الجزئي وليس الكلي ؛ إذ ليس هو في كل آية كالإعجاز البلاغي مثلاً ، والله أعلم .

الوجه التاسع عشر : ((الإخبار بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة))[2] :

وهذا الوجه مكمِّل للوجه السابق ، أورده السيوطيّ باقتضاب ذاكراً كلامَ القرآن الدقيق عن الأمم السالفة ، وأن مثل هذا لايُنال عن تعليم .

وهذا الوجه حكمه كسابقه ؛ إذ أن أخبار الغيب على ثلاثة أقسام :
غيب ماضٍ ، وغيب حاضر ، وغيب مستقبل ، وقدسمّى الله - تعالى - أخبار القرون السالفة غيباً فقال جلّ من قائل :
﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[3] .

والكلام على الوجه السابق من حيث الإعجاز منسحبٌ على هذا الوجه أيضاً .

الوجه العشرون : ((روعته وهيبته))[4] :

ذكر السيوطي في هذا الوجهِ بعضَ الآيات والأحاديث التي تثبت روعة القرآن في القلوب وأسرَه للنفوس ، وذكر بعض المحاولات لمعارضته ، وأتى على كل هذا بإيجاز .

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ - ٢٤٢ .

٣- سورة هود : آية ٤٩ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٢ - ٢٤٤ .

وللقرآن روعةٌ وهيبة في النفوس لايلحق شأوَه فيها كلامٌ ، حتىأن أعظم الكلام وأفصحه بعد كلام الله – تعالى – وهو حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لايدرك سامعَه منه مايدركه من سماع القرآن ، وهذا أيضاً من أعظم الأدلّة على صدق المخبرِ به – صلى الله عليه وسلم – إذِ المخبر بالوحيين واحد ، صلى الله عليه وسلم ، والكلام متباين ، متميز أحدُه عن الآخر.

أما عن كون هذا الوجهِ من الإعجاز فقد سبق أن ذكرت أن هذه الروعةَ والهيبة هي من أثر الإعجاز وليست الإعجازَ نفسه ، وضربت على ذلك مثالاً فلينظر[1] .

الوجه الحادي والعشرون : أن سامعه لايَمَجُّه[2] وقارئه لايمله[3] :

قد أورد السيوطيّ هذا الوجهَ بإيجاز ، لم يزد فيه على أن ذكر بعض الأحاديث والآثار المنبئة عن هذا الأمر ، وصدّر هذا الوجهَ بكلام يسير عن حلاوة هذا القرآن العظيم في القلوب والصدور .

وهذا الوجه داخل تحت الوجه السابق ؛ إذ أن تلك الروعةَ والهيبة تحمل القارىء على ترداد مايقرؤه بلا ملل ، والله أعلم[4]

الوجه الثاني والعشرون : تيسيره – تعالى – حفظَه ، وتقريبُه على متحفظيه[5] :

١- انظر ص ١٤٤- ١٤٥ .

٢- المجّ هو اللفظ والترك ، انظر ((لسان العرب)) : مجج .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥ .

٤- سبق الكلام على هذا الوجه ، انظر ص ١٦٣ .

٥- ((معترك الأقران)) : ٢٤٥/١ - ٢٤٦ .

وقد بينت سابقاً أن الوجوه من التاسع عشر إلى الثاني والعشرين منقولة بنصها – تقريباً – من ((الشفا)) للقاضي عياض ، ولم يُشِرِ السيوطي إلى هذا ، انظر ص ٢٩٧ .

أوجز السيوطيّ - رحمه اللـه تعالى - الكلام على هـذا الوجـه ، وأوضح كيفية تيسيره - تعالى - هذا الحفظَ على الناس حتى أن الغلمان الصغار يحفظونـه في مدة قصيرة ، وهو أمر مشاهد إلى اليوم .

وهذا الوجه ليس من أوجه الإعجاز ، وإنما جبل اللـه العرب على الحفظ وسهله عليهم فهم أمة حافظة ، وأخبارهم في هذا الباب معروفة ، لكن قد يقال إن هذا من خصائص القرآن العظيم التي لانظير لها ، وقد بينت هذا سابقاً[١] .

وقد أورد السيوطيّ - رحمه الله تعالى - مبحثاً لاتعلق له بهذا الوجه ، وهو كثرة ختم بعض الناس لكتاب اللـه - تعالى - وأورد فيه حكاياتٍ مستغربةً تفتقر إلى برهان[٢] .

الوجه الثالث والعشرون : ((وقوع الحقائق والمجاز فيه))[٣] :

ذكر السيوطيّ - رحمه اللـه تعالى - في هذا الوجهِ الحقيقةَ والمجاز في القرآن الكريم ، وبيّن اختلاف العلماء في وقوع المجاز فيه ، وتكلم على أقسام المجاز وأنواعه فجاء هذا الوجه مبسوطاً متفرعاً .

والمجاز هو ((اللفظ المستعمل في غير ماوضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعيّ))[٤] .

فإذا قلتَ مثلاً : رأيت أسداً يخطب ، فقولك : ((أسداً)) : مجاز ؛ لأنك استخدمت هذا اللفظ في غير ماوضع له في اصطلاح التخاطب ، والعلاقة :

١- انظر ص ١٦٧ من هذه الرسالة .

٢- انظر ٢٤٦/١ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢٤٦/١ - ٢٦٨ .

٤- ((جواهر البلاغة)) : ٢٩٠ - ٢٩١ .

الشجاعة ، والقرينة : قولك : يخطب ، وهي المانعة من إرادة المعنى الوضعيّ .

وكلام العرب قبل نزول القرآن وبعده مشتمل على المجاز ولم يقل أحد بأنه معجز إلا إذا قيل إن استعمالات الحقيقة والمجاز قد جاءت على ضرب لم تألفه العرب في لغتها ، بل على وجه متفرد في الاستعمال العربيّ ، وهذا هو الذي يمكن أن يحصل به الإعجاز .

لكن إذا قيل بالإعجاز في هذا فلا ينبغي إفراده وجهاً مستقلاً بالإعجاز – كصنيع الإمام السيوطيّ – إلا لإرادة إظهاره وتمييزه ؛ إذ المجاز من أنواع علم البيان الذي هوأحد أقسام البلاغة الثلاثة[1] ، فهو مندرج تحت الإعجاز البلاغيّ ، وذِكره هنا من باب ذكر الخاص بعد العام إبرازاً وتأكيداً لأهميته ليس غير ، والله أعلم .

الوجه الرابع والعشرون من وجوه إعجازه :
((تشبيهه واستعاراته ، وهو من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها))[2] :

قد بسط السيوطي الكلام على هذا الوجهِ بسطَه للوجه السابق ، وذكر أقسام ومباحث التشبيه والاستعارة[3] .

وهذا الوجه ملحق بوجه الإعجاز البلاغي – كسابقه – لايصح إفراده وجهاً مستقلاً بالإعجاز ؛ لأن التشبيه من أبواب علم البيان ، والاستعارة من أقسام المجاز الذي هو من أبواب علم البيان أيضاً ، وعلم البيان أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، فالإعجاز في التشبيه والاستعارة مندرج تحت الإعجاز البلاغي .

١- المصدر السابق .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ – ٢٨٦ .

٣- قد سبق تعريف التشبيه والاستعارة ، انظر ص ١٧٨ .

لكن قد يقال إن الإمام السيوطيّ أراد زيادة بيانٍ لهذين المبحثين : التشبيه والاستعارة ، ومزيدَ إظهار لشرفهما وفضلهما – كما يدل على هذا قوله في عنوان هذا الوجه : ((وهو من أشرف البلاغة وأعلاها)) – فمن أجل ذلك أفردهما بالذكر لاعلى اعتبار أنهما مستقلان بالإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض[1] :

بسط السيوطي – رحمه الله تعالى – الحديث على هذا الوجهِ بسطَه لسابقَيْهِ ، وذكر أسباب الكناية والفرق بينها وبين التعريض .

أما الكناية فهي ((لفظٌ أُريدَ به غيرُ معناه الذي وضع له ، مع جواز إرادة المعنى الأصليّ لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته ؛ نحو : زيد طويل النِّجاد[2] ، تريد بهذا التركيب أنه شجاع عظيم ، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة إلى الإشارة إليها بشيء تترتب عليه وتلزمه ، لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه ، ويلزم من طول الجسم الشجاعةُ عادةً ، فإذاً المراد طول قامته وإن لم يكن له نِجاد ، ومع ذلك يصح أن يراد المعنى الحقيقيّ ، ومن هنا يعلم أن الفرق بين الكناية والمجاز صحة إرادة المعنى الأصليّ في الكناية دون المجاز ، فإنه ينافي ذلك))[3] .

والتعريض قسم من أقسام الكناية ، ويراد به ((أن يُطلَق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق نحو قولك للمؤذي : ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده))[4] تعريضاً بنفي صفة الإسلام[5] عن المؤذي))[6] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ – ٢٩٣ .

٢- سيبين الشارح أن معناها حمالة السيف .

٣- ((جواهر البلاغة)) : ٣٤٦ – ٣٤٧ .

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده بسنده إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ١ / ٩٠ .

٥- أي الإسلام الكامل .

٦- ((جواهر البلاغة)) : ٣٥٠ .

وهذا الوجه ملحق – كسابقَيْهِ – بالإعجاز البلاغي ؛ لأن التعريض من أقسام الكناية ، والكناية أحد أبواب علم البيان الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة .

الوجه السادس والعشرون :
((إيجازه في آية وإطنابه في أخرى ، وهما من أعظم أنواع البلاغة))[1] :

قد أطنب السيوطي في هذا الوجه فاستقصى فيه مباحث الإيجاز والإطناب وأقسامهما وقواعد تختص بهما .

والإطناب عكس الإيجاز ، ومعنى الإطناب : ((تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدة تقويته وتوكيده ... فإذا لم تكن في الزيادة فائدة يسمى (تطويلاً) إن كانت الزيادة في الكلام غير متعينة ، ويسمّى حشواً إن كان الزيادة في الكلام متعينة لايفسد بها المعنى))[2] .

ومعنى الزيادة المتعينة أي المعروفة بأنها زائدة لايضر إسقاطها ، بخلاف الزيادة غير المتعينة التي تكون في المترادفات غالباً فلا يتعين الزائد منهما[3] .

ومثال الإطناب – وهو التطويل في تأدية المعنى لفائدة – قوله تعالى :
﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[4] أي كبرتُ ، والفائدة فيه تقوية المعنى وتوكيده[5] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٣ – ٣٧٣ ، و هذا الوجه أطول الأوجه التي جاءت في الكتاب خلا الوجه الخامس والثلاثين .
٢- ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٦ – ٢٢٧ .
٣- المصدر السابق : ٢٢٧ .
٤- سورة مريم : آية ٤ .
٥- ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٦ .

ومثال التطويل :

.... وألفى قولها كذباً ومَيْناً[1].

فالمين والكذب بمعنى واحد ، ولم يتعين الزائد منهما ؛ لأن العطف بالواو لايفيد ترتيباً ولاتعقيباً ولامعية فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت .

ومثال الحشو :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ‏ ‏ ‏ ‏ ولكنني عن علم مافي غد عمي[2]

وقوله (قبله) حشو لأنه معلوم من قوله : (أمس)[3] .

والإيجاز والإطناب في القرآن العظيم جزء من الإعجاز البلاغيّ ، لأن الإيجاز والإطناب من أقسام علم المعاني الذي هو أحد أركان البلاغة الثلاثة .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور :

((فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانيَ من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم ، وهو لكونه كتابَ تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ماتحتمله الألفاظ في أقل مايمكن من المقدار ، بحسَب ماتسمح به اللغةُ الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات ... وقد تكثر المعاني بإنزال لفظ الآية على وجهين أو أكثر[4] تكثيراً للمعاني مع إيجاز اللفظ ، وهذا من وجوه الإعجاز ...))[5] .

وقال أيضاً :

١- البيت لعدي العبادي كما في ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٦ .

٢- البيت لزهير بن أبي سلمى كما في ((جواهرالبلاغة)) : ٢٢٧ .

٣- المصدر السابق .

٤- أي من وجوه القراءات .

٥- ((التحرير والتنوير)) : ٩٣ - ٩٤ بتصرف .

((ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز ، وهو متنافَسُهم وغايةٌ تتبارى إليها فصحاؤهم ، وقد جاء القرآن بأبدعه ؛ إذ كان مع مافيه من الإيجاز المبين في علم المعاني فيه إيجاز عظيم آخر وهو صُلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لاينافيها اللفظ ...))[١] .

وإنما ذكرت هذا ليتبين الناظر في وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيُّ السببَ الذي من أجله أفرد الإيجاز والإطناب وجهاً من وجوه الإعجاز ، وأن ذلك كان إبرازاً لأهميته وفضله وكثرته في كتاب الله تعالى .

وقد قال الإمام السيوطيّ بعد أن ذكر مثالاً على الإيجاز بالحذف :
((فتأمل ماأجملته فسوف يتضح لك به إذا استوفيته مايعنيك على فهم الإعجاز))[٢].

وكلامه هذا ربما يدلّ على أنه يرى أن هذا الوجه معجز بذاته ، مستقل عن غيره ، والحق ماقدمته من اندراجه تحت الإعجاز البلاغيّ ، والله أعلم .

الوجه السابع والعشرون : وقوع البدائع البليغة فيه[٣] :

بسط السيوطي - رحمه الله تعالى - الكلام على هذا الوجه ، وتوسع فيه ذاكراً أقسام البديع وممثلا لها .
أما البديع فهو ((علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة ، وتكسوه بهاءً ورونقاً بعد مطابقته لمقتضى الحال ، مع وضوح دلالته على المراد لفظاً ومعنى))[٤] .

١- المصدر السابق : ١٢١ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٢١ .
٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ - ٤٢٠ .
٤- ((جواهر البلاغة)) : ٣٦٠ - ٣٦١ .

وقد أورد السيوطي ستةوأربعين نوعاً من أنواع البديع ، وقد ذكر أن بعضهم أنهاها إلى مائتي نوع[1] .

وسأذكر هنا أول ثلاثة أنواع أوردها من البديع ، وهي :

١ – **الإيهام أو التورية** : وهي ((أن يُذكر لفظٌ له معنيان ... أحدهما قريب والآخر بعيد ، ويُقصد البعيد ويورّى عنه بالقريب فيتوهمه السامع في أول وهلة ...))[2] .

والتورية على أقسام فمنها ((المجردة))[3] وهي التي ((لم يذكر فيها شيء من لوازم المورّى به ولا المورّى عنه)) ، ومنها ماتسمى ((مرشحة))[4] وهي التي ذُكر فيها شيء من لوازم هذا أو هذا ... ومنها :
﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[5] .
فالضلال يحتمل الحب وضدَّ الهدى ، فاستعمله أولاد يعقوب ضد الهدى تورية عن الحب))[6] .

٢ – الاستخدام :
((وهو والتورية أشرف أنواع البديع ، وهما سِيّان ، بل فضّله بعضهم عليها ، وله فيه عبارتان :

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٤ .
٣- وسميت مجردة لتجريدها عن بعض المبالغة ؛ لبعد المشبه عن المشبه به بعض بُعد :
انظر ((جواهر البلاغة)) : ٣٣١ .
٤- وسميت مرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر الملائم للمستعار له . انظر ((جواهر البلاغة)) : ٣٣١ .
٥- سورة يوسف : آية ٩٥ .
٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ .

أحدهما : أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحدُ معانيه ، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر[1] .

والأخرى : أن يؤتى بلفظ مشترك ، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخَر الآخرُ ... ومثل له بقوله تعالى :
﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ... ﴾[2] الآية ، فلفظ ﴿ كِتَابٌ ﴾ يحتمل الأمد المحتوم والكتابَ المكتوب ، فلفظ ﴿ أَجَلٍ ﴾ يخدم المعنى الأول ، و ﴿ يَمْحُواْ ﴾ يخدم المعنى الثاني ...))[3] .

٣ – الالتفات :

((وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أعني من التكلم أو الخطاب أو الغَيبة إلى آخرَ منها بعد التعبير بالأول ، هذا هو المشهور))[4] .

ثم إنه ذكر فوائد الالتفات ومثل له بأمثلة منها :
((مثاله من التكلم إلى الخطاب – ووجهه حثُّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة – قوله تعالى :
﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾[5] الأصل : وإليه أرجع ، فالتفت من التكلم إلى الخطاب ...))[6] .

١– قد مثل له بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ (سورة النحل : آية ١) فأمر الله يراد به قيام الساعة والعذاب ، ويراد به بعثةُ النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد أريد بلفظه الأخيرُ ، ثم إنه ساق أثرا يدل على ذلك ، انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٧ .

٢– سورة الرعد : آية ٣٨ .

٣– ((معترك الأقران)) : ١/٣٧٦ – ٣٧٧ .

٤– المصدر السابق : ١/٣٧٧ .

٥– سورة يس : آية ٢٢ .

٦– ((معترك الأقران)) : ١/٣٧٨ .

وبعد فراغ الإمام السيوطيّ من ذكر شروط الالتفات ذكر أمثلة وافية لأنواعه .

وقد أشار إلى عدِّ هذا القسمِ من الإعجاز بقوله في أنواع البديع التي ذكرها :

((وقد قدمنا منها من نوع الفواصل والمناسبات والخواتم وفي الوجه الذي قبل هذا[١] مالامزيد لذكره ، ونذكر هنا بعضها لتطلع على أسرار هذا الكلام الذي أعجز عقول ذوي الأفهام عن إدراك عجائبه التي لاتنقضي ؛ لأنه في أحسن نظام ...))[٢].

وهذا الوجه ملحق بالإعجاز البلاغي لأن البديع أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، ولعل إفراده بالذكر هنا من باب إبرازه وإظهاره لا على أنه وجه مستقل بالإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء[٣] :

تكلم السيوطيّ في هذا الوجهِ على أقسام الخبر والإنشاء ، وقواعدِهما ، ومثّل لكل ماأتى به .

والخبر هو ((كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته)) أي إنما ينظر في احتمال الصدق والكذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله[٤] .

١- وهو الإيجاز والإطناب .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣٧٣/١ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٤٢٠/١ - ٤٤٩ .

٤- ((جواهر البلاغة)) : ٥٣ .

والإنشاء هو ((الكلام لايحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته نحـو : اغفـر وارحـم ، فلا يُنسب إلى قائله صدقٌ أو كذب))[1] .

وقد ذكر أن من أقسام الخبر التعجبَ[2] ، والوعد والوعيد[3] ، والنفي[4] .

وأن من أقسام الإنشاء :
الاستفهام[5] ، والتوبيـخ[6] ، والتقرير[7] ، والتعجـب[8] ، والعتـاب[9] ، ... في اثنين وثلاثين نوعاً ذكرها في هذا القسم[10] .

والخبر والإنشاء من أبواب علم المعاني الذي هو أحد أقسـام البلاغـة الثلاثـة ، فلا داعي لإفرادهما عن الإعجاز البلاغي إلا لغرض الإظهار والإبراز ، والتوسع في الكلام على أنواعهما وأقسامهما ، والله أعلم .

الوجه التاسع والعشرون :

((إقسامه – تعالى – في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها))[11] :

ذكر في هذا الوجهِ مباحث متعـددة عـن القَسَـم ، وختمـه بنقـل طويـل مـن كتاب ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم رحمه الله تعالى .

١- المصدر السابق : ٧٥ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٤٢٣/١ - ٤٢٤ .

٣- المصدر السابق : ٤٢٤/١ .

٤- المصدر السابق : ٤٢٤/١ - ٤٣١ .

٥- المصدر السابق : ٤٣١/١ - ٤٣٣ .

٦- المصدر السابق : ٤٣٣/١ .

٧- المصدر السابق : ٤٣٣/١ - ٤٣٥ .

٨- المصدر السابق : ٤٣٥/١ ، وقد سبق ذكر التعجب في أقسام الخبر لكنه قال هناك : إن التعجب من أقسام الخبر على الأصح فدل على أن هناك من قال بأنه من أقسام الاستفهام ، ولذا كرره هنا ، والله أعلم .

٩- المصدر السابق .

١٠- ((معترك الأقران)) : ٤٣١/١ - ٤٤٩ .

١١- ((معترك الأقران)) : ٤٤٩/١ - ٤٥٥ .

والقَسَم في كلام العرب كثير مكرور ، لكن قد يقال إن القَسَم في كتاب الله تعالى جاء على طريقة متفردة ، فالمقسِم سبحانه عظيمٌ ، والمقسَم به مخلوقات عظيمة تدل على عظمة خالقها ، والمقسم عليه أمر عظيم مهم ، فقد يكون هذا هو الملحظَ للقول بالإعجاز .

لكني لا أرى أن هذا الوجهَ يصلح للإعجاز سواء أكان بذاته أم باندراجه تحت وجه أعمّ ؛ إذِ القَسَم من باب التفنن في إيصال المعاني إلى أذهان السامعين وتثبيتها وتقويتها ، أما أن يُعدَّ من الإعجاز فلا أجد متعلقاً له به حتى باعتبار أن أقسام القرآن جاءت نسيجاً مختلفاً لايشبهه شيء ، والله أعلم .

الوجه الثلاثون :

((اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة))[1] :

ومقصوده هنا البراهينُ والأدلة المستعملة في المجادلات والمناظرات ، وبعضها يُبحث في باب القياس من علم أصول الفقه ، وبعضها يُبحث في علم المنطق والجدل والمناظرة .

وقد أورد في هذا الوجهِ عدّةَ مباحثَ تتلخص في الآتي :

١- ورود البراهين والأدلةِ في القرآن مغايرٌ لطرائق المتكلمين .

٢- الصحيح أن المذهب الكلامي الجدليّ موجود في القرآن بخلاف من نفاه ، وأورد الإمام السيوطيّ آياتٍ فيها براهين وأدلة عقلية كلامية ؛ وذلك نحو أول سورة الحج فقد نقل الإمام السيوطيّ عن الأستاذ ابن أبي الإصبع قوله إن من أول سورة الحج إلى

١- ((معترك الأقران)) : ١/٤٥٦ - ٤٦٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ خمسَ نتائجَ تستنتج من عشر مقدمات ، ثم أتى بها[1] .

وكذلك نقل السيوطي أن أحد العلماء ذكر أن الله – تعالى – استدلّ على المعاد الجسماني بقياس الإعادة على الابتداء ، وبقياس الإعادة على خلق السماوات والأرض بطريق الأولى ، وبقياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات ، وبقياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر ...[2]

٣- أورد أنواعاً للبراهين والأدلة القرآنية ، منها :

السَّبْر والتقسيم[3] :

ومثل له بقوله تعالى :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ ﴾ الآيتين[4] .

((فإن الكفار لّما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثَها أخرى رد تعالى ذلك عليهم بطريق السَّبْر والتقسيم ، فقال : إن الخلق لله ، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى فممّ جاء تحريم ماذكرتم ؟ وماعلته ؟ لايخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمالِ الرحم الشامل لهما ، أو لايُدرى له علةٌ ، وهو التعبدي ، بأَنْ أُخذ ذلك عن الله ، والأخذ عن الله إما بوحي ، أو إرسال رسول ، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه ، وهو في معنى قوله :

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ ﴾[5] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ /٤٥٦ -٤٥٧ ، والآيات من سورة الحج : ١ – ٧ .

٢- المصدر السابق : ١ /٤٥٨ – ٤٥٩ .

٣- ((معناه أن الباحث عن العلة يقسم الصفات التي يتوهم عِلّيتها بأن يقول :
علة هذا الحكم إما هذه الصفة وإما هذه ، ثم يَسْبِر كل واحدة منها – أي يختبره – ويلغي بعضها بطريقه ، أي يبطل باقي الأوصاف ، فيتعين الباقي للعِلّية ، فالسبر هو أن يختبر الوصف : هل يصلح للعِلّية أم لا .
والتقسيم هو قولنا : العلة إما كذا وإما كذا ، فكان الأولى أن يُقدَّم التقسيم في اللفظ فيقال : التقسيم والسَّبْر)) : ((نهاية السُّول في شرح منهاج الأصول)) : ٤/١٢٨ – ١٣٠ .

٤- سورة الأنعام : الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

٥- سورة الأنعام : آية ١٤٤ .

فهذه وجوه التحريم لاتخرج عن وجه منها :
والأول يلزم عليه أن تكون جميع الذكور حراماً .
والثاني يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً .
والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً .

فبطل مافعلوه من تحريم بعضٍ في حالة ؛ لأن العلة – على ماذكر – تقتضي إطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل و لم يدّعوه ، وبواسطة رسولٍ كذلك ؛ لأنه لم يأت إليهم رسولٌ قبل النبي – صلى الله عليه وسلم – .

وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدّعى وهو أن ماقالوه افتراء على الله وضلال))[1] .

وهذا النوع أوردته بطوله ليكون فيه غَنَاءٌ عن إيراد غيره مفصَّلاً ؛ إذ أنه أورد ستة أنواع أخرى لعلم الجدل هي :
القول بالموجِب ، والتسليم ، والإسجال ، والانتقال ، والمناقضة ، ومجاراة الخصم ، تنظر أمثلتها في ((المعترك))[2] .

وهذا الوجه الذي أورده له تعلق بالإعجاز لكنه ليس وجهاً كلياً ، أي ليس شاملاً لكل آيات القرآن بل هو في بعضها فقط .

أما وجه تعلقه بالإعجاز فلأن العرب زمنَ نزول القرآن وقبله لم يكونوا يعرفون هذا النوع من البراهين والأدلة و لم يضمنوه كلامهم ، فقد كان الخطباء والشعراء يرسلون الكلام إرسالاً بلا دليل ، بل ربما استخدموا أدلة ساقطة أشبه

---

١ – ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٠ – ٤٦١ .
٢ – ١ / ٤٦١ – ٤٦٣ .

بالدعاوى الفارغة ، فلما نزل القرآن جاءهم بما لاقِبَل لهم به ولاعهد من الطرائق الكلامية والبراهين والأدلة العقلية الجدليّة ، وذلك لأن القرآن يسوق كلَّ حكم بدليله وكلَّ قضية ببرهانها ، وكلَّ أصل أو فرع بما يثبته من أنواع الإثباتات والحجج إلخ ...

فإذاً يكون هذا الوجهُ الذي ساقه السيوطيّ نوعاً جليلاً من الإعجاز .

لكن إذا نُظر إلى هذا الوجهِ باعتبار مجموع القرآن وما ورد فيه من براهينَ وأدلةٍ جدلية ، إذا نُظر إليه بهذا الاعتبارِ كان وجهاً من أوجه الإعجاز الجزئيّ ليس الكليّ بمعنى أنه ليس في كل آية من كتاب الله تعالى كالإعجاز البلاغي – مثلاً – وهو مماثل بهذا الاعتبارِ الإعجازَ بأخبار الغيب الذي تكلمت عليه قبل هذا مراراً[1] .

وعلى كلٍّ حال فإن هذا الذي جاء به الإمام السيوطيّ يُعدّ جديداً في باب الإعجاز لم ينبه عليه أحدٌ قبله تنبيهَه عليه وبسطه له ، والله أعلم .

الوجه الحادي والثلاثون : ((ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة))[2] :

قدم السيوطيّ بمقدمة بين فيها أهمية علمِ أمثال القرآن وفهمِها ، وأتى ببعض أقوال العلماء في هذا .

ثم إنه قسم أمثال القرآن قسمين :

ظاهر ، وكامن أو مضمر ، وفسر ذلك بقوله :

((أمثال القرآن قسمان : ظاهر مصرح به ، وكامن لاذكر للمثل فيه ، فمن أمثلة الأول : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ... ﴾ الآيات[3] ، ضرب الله فيها للمنافقين مثلين مثلاً بالنار ومثلاً بالمطر))[4] .

---

١ – انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢ – ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٤ – ٤٧٢ .

٣ – سورة البقرة : الآيات ١٧ – ٢٠ .

٤ – ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٦ .

وقد فسر الأمثال الكامنة بقوله :

((وأما الكامنة فقال الماورديّ : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم[١] يقول : سمعت أبي[٢] يقول : سألت الحسين بن فضل[٣] فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله : (خير الأمور أوساطها) ؟

قال : نعم ، في أربعة مواضع : قوله :

﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[٤] .

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٥] .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[٦] .

وقوله :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[٧] .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : (من جهل شيئاً عاداه) ؟

قال : نعم ، في موضعين :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾[٨] .

---

١ - لم أعثر له على ترجمة .

٢- لم أعثر له على ترجمة .

٣- هو الشيخ العلامة المفسر اللغوي الحسين بن فضل بن عُمير البَجَليّ الكوفي ثم النيسابوريّ . ولد قبل الثمانين والمائة . وكان إمامَ عصره في معاني القرآن . قال مضارب بن إبراهيم : كان علم الحسين بن فضل بالمعاني إلهاماً من الله فإنه كان قد تجاوز حد التعليم . توفي بنيسابور سنة اثنتين وثمانين ومائتين وهو ابن مائة وأربع سنين .

انظر ((سير أعلام النبلاء)):١٣ / ٤١٤ - ٤١٦ .

٤- سورة البقرة : آية ٦٨ .

٥- سور الفرقان : آية ٦٧ .

٦- سورة الإسراء : آية ٢٩ .

٧- سورة الإسراء : آية ١١٠ .

٨- سورة يونس : آية ٣٩ .

﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾[1] ...))[2] .

ثم ختم هذا الوجه بذكر ألفاظ من القرآن تجري مجرى المثل ، وقد نقلها من كتاب ((الآداب)) لجعفر بن محمد شمس الخلافة[3] فمن تلك الألفاظ :

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[4] .

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[5] .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾[6] .

وهذا الوجه من أجلّ وأعظم وجوه الخطاب القرآنيّ ، وهو مندرج – في تقديري – في الوجه السابعَ عشر وهو : ((وجوه مخاطباته)) فحكم هذا الوجهِ حكم المندرَجِ تحته ، وقد بينت في الوجه السابع عشر أن ماكان من وجوه المخاطبات متعلقاً بالنظم القرآنيّ فهو معجز لإعجاز النظم ، وأمثال القرآن يصح إدراجها في الإعجاز النظميّ أيضاً ، والله أعلم .

١- سورة الأحقاف : آية ١١ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٨ - ٤٧٠ .

٣- هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة محمد بن مختار الأفضليّ الشاعر المشهور . ولد سنة ٥٤٣ ، كان فاضلاً حسن الخط ، وله تواليف وديوان شعر أجاد فيه . توفي بمصر سنة ٦٢٢ .
انظر ((وفيات الأعيان)) : ١ / ٣٦٢ - ٣٦٣ .

٤- سورة النجم : آية ٥٨ .

٥- سورة آل عمران : آية ٩٢ .

٦- سورة الحج : آية ١٠ .

الوجه الثاني والثلاثون :

((مافيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف فتارة يُرجِّي وتارة يُخوف))[1] :

جاء السيوطي في هذا الوجهِ بمجموعة من الآيات وُصفت كل آية منها بوصف :

فآية هي الأرجى ، وأخرى هي الأشد تخويفاً ، وثالثة تعدّ الأعدل ، وهكذا ...

وقد أَلحق بهذا مباحث مثل : أيُّ آية أفضل ؛ وأي آية أطول ؟ وأيّ آية أغرب ؟ وهكذا ...

والإعجاز هو الانقطاع عن المواجهة والضعف عن المعارضة - كما بينت قبل هذا[2] - فليس لهذا الوجهِ إذاً تعلقٌ معقول بالإعجاز بل هو ، والله أعلم ، من باب فضائل القرآن العظيم وخصائصه ، حيث إن القرآن جمع بين الترهيب والترغيب ، والوعد والوعيد ، والرجاء والقنوط وهكذا ، وهذا التنوع في الخطاب القرآنيّ أقرب للخصائص منه إلى الإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الثالث والثلاثون :

((ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها))[3] :

والمبهم هو الشيء الذي لايعرف معناه ، وإبهام الأمر : أن يشتبه فلا يُعرف وجهُه ، ويقال : أمر مبهم إذا كان لايعرف معناه ولا بابه[4] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٧٢ - ٤٨٣ .

٢- انظرص ٢٥ وما بعدها .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ - ٥١١ .

٤- انظر ((لسان العرب)) : ب هـ م .

والمبهمات في هذه الآيات هي المسميات التي لم تُبين أسماؤها سواء كانت من البشر أو الملائكة أو الجن أو الحيوانات بأنواعها ، أو الجمادات ، فكل ما لم يُسمّ فهو مبهم .

وقد ذكر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أسباب الإبهام في القرآن ، ثم إنه أورد جميع المبهمات التي في القرآن على ترتيب ورودها في السور ، وعرّف المبهماتِ على مافيها من اختلاف كثير ، ومرجع كثير منها إلى أخبار بني إسرائيل غير الدقيقة .

والحق أن الله – تبارك وتعالى – أبهم في القرآن لحِكَم قد يكون منها حثُّنا على الالتفات إلى العظة والعبرة في الخبر القرآني والتعلق بهما ، لاأن نستفرغ وسعنا في البحث عن أسماء الحيوانات والطيور وغير ذلك مما لو كان فيه فائدة لنا لبينه سبحانه و لم يُبهمه .

وقول السيوطيّ : ((آيات مبهمة **يحار العقل فيها**)) فيه إشارة إلى أن هذا الوجهَ معجز عنده أو له تعلق بالإعجاز ، وسبب إعجازه هو تلك الحَيرة التي تخالط العقل بسبب الإبهام .

لكني أرى – والله أعلم – أن مثل هذا الذي أورده السيوطي إنما هو مندرج تحت غيره من وجوه الإعجاز ، وذلك لأن الآيات المبهمة التي يحار العقل فيها نوعان :

١ – نوع تاريخيّ مثل ماورد في الآية الكريمة :

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[١] ونحوه ، وهذا داخل في الإعجاز بأخبار الغيب الماضي الذي بينته قبل هذا[٢] . .

١– سورة طه : آية ٩٦ .

٢– انظر ص ١٣٤ .

٢ - نوع إخباريّ كالآيات التي تتحدث عن العرش والكرسيّ والعوالم العلوية ونحوه مما لامجال للعقل فيه ، وهو من باب الإعجاز بأخبار الغيب الحاضر الذي ذكرته قبل هذا أيضاً[١] .

أما الآيات الأخرى التي تتحدث عن طير إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبقية الحيوانات المبهمة فليس الإعجاز في الإبهام ولكن الإعجاز فيها كائن من نواح ثلاث :

١ - الإخبار بالقصة إعجاز بعد أن اندثر أهلها فلم يكد يعرفها أحد حتى من خواص أهل الكتاب ، وهذا هو الإعجاز بأخبار الغيب الماضي.

٢ - الحدث نفسه معجز لرائيه .

٣ - الإعجاز بقص القصة نفسها ، وما فيها من فصاحة وبلاغة وحسنِ نظم .

فلعلّ السيوطيّ حين أشار إلى إعجاز هذا الوجهِ أراد المعنى الذي أوردته ، والله أعلم .

الوجه الرابع والثلاثون :

((احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة ، والكنى والألقاب ، وأسماءِ القبائل والبلاد ، والجبال والكواكب))[٢] :

أتى السيوطي - رحمه الله تعالى - في هذا الوجهِ بأسماء مذكورة في القرآن لأصناف وأنواع من المخلوقات ، فأتى بأسماء الكواكب في القرآن ، وأسماء القبائل ، وأسماء الطير والحيوانات إلخ ...

وأرجأ أسماء الأنبياء والألقاب إلى الوجه الخامس والثلاثين وهوالألفاظ المشتركة على أنه لاتعلق لهما به ، كما سأبين ، إن شاء الله تعالى[٣] .

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٢ - ٥١٤ .

٣- انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

وليس لمجرد سرد الأسماء في القرآن إعجازٌ ، لكن الإعجاز فيها يأتي لأسباب ، منها :

أولاً : ذكر أسماء لم يعد يعلمها كثير من الناس بل أكثرهم ، وهذا من باب الإعجاز بأخبار الغيب الماضية .

ثانيــاً : براعة الصياغة اللفظية لبعض هذه الأسماء التي هي أعلام غير عربية ، حيث صيغت في نطقها بأفصح صياغة بما يناسب اللغة العربية وطرائق الاستعمال فيها ، بحيث يُفهم لفظ العَلَم بعد نقله إلى اللغة العربية بأفصح عبارة ، ومثال ذلك ماجاء في القرآن من لفظ جالوت وداود وطالوت ، وهي ألفاظ تؤدي معنى الأعلام الأعجمية لكن بما يناسب الاستعمال العربي[١] .

ثالثــاً : براعة نظم وسبك الألفاظ بعضها بجوار بعض بحيث لاتبدو أنها مجرد سرد لأعلام وإنما هي تركيبة في الأسلوب تجعل الكلام على غاية الروعة والسهولة في التلاوة والحفظ[٢] .

فلعلّ السيوطيّ لحظ هذا المعنى الذي أوردته عندما حكم على هذا الوجه بأنه معجز ، والله أعلم .

الوجه الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة :

هذا الوجه هو أكبر أوجه الإعجاز التي أثبتها الحافظ السيوطيّ في كتابه حجماً ، إذ استغرق ثلثي الكتاب تقريباً[٣] .

وقد بيّن السيوطي – رحمه الله تعالى – المشترك بقوله :

((الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل ، ولايوجد ذلك في كلام البشر))[٤] .

فإذا أُضيف إلى ذلك ماقاله في ((المزهر)) كان الكلام أكثر دقةً وتقعيداً إذ يقول :

١– وهذه الألفاظ في اللغة العبرية هي على الترتيب : جوليات ، دِيفِيد ، شاؤول ، انظر ((معجم أعلام الشرق والغرب)) لفرديناند اليسُوعي : ١٢٤ ، ١٨٩ ، ٢٨٤ على التوالي .

٢– راجع الآيتين اللتين فيهما سرد لأسماء الأنبياء ، وذلك في سورة النساء : آية ١٦٣، وسورة الأنعام : آية ٨٣–٨٦ .

٣– ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٤ إلى نهاية المجلد الأول ص٦٤٠ ، والمجلد الثاني بتمامه ، والثالث إلى صفحة ٥٦١، في نحو ١٤٠٠ صفحة من أصل ألفي صفحة تقريباً .

٤– المصدر السابق : ١ / ٥١٤ .

((قد حدّه أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدالُّ على معنيين مختلفين فـأكثر ، دلالـةً على السواء عند أهل تلك اللغة))[1] .

وقـد اختلـف العلمـاء في وجـود المشـترك في اللغـة وفي القـرآن ، وأدلى كـلٌّ بحججه ، والأصح أنه موجود في اللغة وفي القرآن ، وقد ناقش الإمام السـيوطيُّ كـلَّ ذلك مناقشة مستفيضة في كتابه ((المزهر)) ، وأتـى بأمثلـة كثـيرة لبيـان وقوعـه في لسان العرب[2] .

وقد أتى بأمثلة كثيرة للمشترك اللفظي في ((المعترك)) منها قوله :

((﴿ هُدَى ﴾ بضم الهاء له سبعة وعشرون وجهاً

١ – الهدى بمعنى الثبات :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] .

٢ – والبيان :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[4] .

٣ – والدين :

﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾[5] .

٤ – والإيمان :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾[6] .

١– ((المزهر في علوم اللغة وآدابها)) : ١ / ٣٦٩ .

٢– المصدر السابق : ١ / ٣٦٩ – ٣٨٦ .

٣– سورة الفاتحة : آية ٦ .

٤– سورة البقرة : آية ٥ .

٥– سورة آل عمران : آية ٧٣ .

٦– سورة مريم : آية ٧٦ .

٥ - والدعاء :
﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[١] ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[٢] .

٦ - وبمعنى الرسل والكتاب :
﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[٣] .

٧ - والمعرفة :
﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[٤] .

٨ - والنبيّ ، صلّى الله عليه وسلم :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾[٥] .

٩ - وبمعنى القرآن :
﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾[٦] .

١٠ - والتوراة :
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾[٧] .

١- سورة الرعد : آية ٧ ، وهاد - هنا - بمعنى داعٍ كما قال السيوطيّ .

٢- سورة الأنبياء : آية ٧٣ .

٣- سورة البقرة : آية ٣٨ .

٤- سورة النحل : آية ١٦ .

٥- البقرة : آية ١٥٩

وقد يطلق الهدى في هذه الآية على صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكتب القديمة ، وقد يطلق على القرآن ، وقد يطلق على العلم ، وانظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ١ / ٢٨٨ ، و ((التصاريف)) ليحيى بن سلام : ٩٩ .

٦- سورة النجم : آية ٢٣ .

وقد يطلق الهدى هنا على الرسل ، وانظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٤٣٣ ، و ((التصاريف)) : ١٠٠ .

٧- سورة غافر : آية ٥٣ .

١١ - والاسترجاع :

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[١].

١٢ - والحجة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ثم قال بعده ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢]
أي لا يهديهم حجةً .

١٣ - والتوحيد :

﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[٣] .

١٤ - والسنّة :

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٤] ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٥] .

١٥ - والإصلاح :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٦] .

١٦ - والإلهام :

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٧] ، أي ألهم المعاش .

١- سورة البقرة : آية ١٥٧ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

٣- سورة القصص : آية ٥٧ .

٤- سورة الأنعام : آية ٩٠ .

٥- سورة الزخرف : آية ٢٢ .

٦- سورة يوسف : آية ٥٢ .

٧- سورة طه : آية ٥٠ .

١٧ - والتوبة :

﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[١] .

١٨ - والإرشاد :

﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[٢]))[٣] .

ولم يورد السيوطيّ - رحمه الله تعالى - سوى هذه الأوجه من الأوجه السبعة والعشرين التي ذكر أن (الهدى) يأتي بمعناها .

أما وجه الإعجاز في الألفاظ المشتركة - على مارآه الإمام السيوطيّ - فهو : ((أن الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل ، ولايوجد ذلك في كلام البشر)) فصار ((هذا الوجه من أعظم إعجازه))[٤] .

ولابد أن يُعلم أن للكلمة في لغة العرب دلالاتٍ محددةً موضوعةً بإزائها ، فقد توضع كلمة لتأدية معنى أصليّ واحد أو معنيين أو ثلاثة[٥] ، ثم إن الكلمة قد يكون لها معانٍ كثيرةٌ تفهم من السياق فهي معانٍ تفسيرية وليست معانيَ لغوية أصلية ، كحال لفظ (الهدى) المارِّ ذكرُه حيث إن السيوطيّ قال إن له سبعة وعشرين وجهاً بينما قال ابن فارس[٦] إن له أصلين اثنين ، وهذا كلامه :

(((هدى) : الهاء والدال والحرف المعتل : أصلان : أحدهما التقدم للإرشاد والآخر بَعثة لَطَف[٧] .

١- سورة الأعراف : آية ١٥٦ .

٢- سورة القصص : آية ٢٢ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٤ .

٥- وذلك يتضح بمراجعة ((معجم مقاييس اللغة)) حيث يقول ابن فارس عن كلمة معينة إن لها أصلين أو ثلاثة ، وعلى هذا بُني معجمه .

٦- الشيخ الإمام أحمد بن فارس بن زكريا القَزوينيّ . ولد سنة ٣٢٩ ، وكان مقيماً بهَمَذان والريّ ، وله تصانيف كثيرة في اللغة والأصول والفقه والقرآن ، وله شعرحسن . توفي بالريّ سنة ٣٩٥ .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٧ / ٢٧٨ ، و ((الأعلام)) : ١ / ١٩٣ .

٧- قال الأستاذ عبد السلام هارون - رحمه الله تعالى - محققُ الكتاب : اللطَف - بالتحريك - التحفة والهدية ، وكلمة بَعثة ... هي المدة من البعث .

فالأول[1] قولهم : هديته الطريق هدايةً أي تقدمته لأرشده ، وكل متقدم لذلـك هـادٍ ... وينشعب[2] هذا فيقال :
الهدى خلاف الضلالة ، تقول : هديته هدىً ...))[3] .

فلعله من هنا – إذاً – جاء القول بالإعجاز في الألفاظ المشتركة لكثرة تصريف اللفظ الواحد بين معانيه الأصلية اللغوية ومعانيه التفسيرية السياقية ، وهذا يمثل ظاهرة قرآنية واضحة في كثير من الألفاظ ، وقد يقع هذا في كلام العرب لكن ليس بهذه الكثرة ولا بهذا التنوع .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور :
((ومن أساليب القرآن المنفردِ بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يَرِد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسَب اللغة العربية لإرادة مايصلح منها ، واستعمالُ اللفظ في معناه الحقيقيّ والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما[4]، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز ، وهذا من آثار كونه معجزةً خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه))[5] .

والاشتراك في بعض ألفاظ القرآن العظيم – وإن انفرد القرآن بكيفية وكمية الألفاظ المشتركة – لايصح أن يُعد وجهاً مستقلاً بالإعجاز لكنه مندرج تحت الإعجاز بالفصاحة والبلاغة ، فلعل السيوطيّ أراد إبراز هذا الباب وإظهارَه فعده وجهاً مستقلاً بالإعجاز لكن الصحيح ما قدمته من اندراجه تحت وجه أعمَّ منه ، والله أعلم .

١- أي الأصل الأول لمادة : هـ د ى .
٢- أي يتفرع .
٣- ((معجم مقاييس اللغة)) : هـ د ى ، وانظر كذلك ((تحصيل نظائر القرآن)) للحكيم الترمذيّ : ١٩ – ٢٤ فقد ذكر مسألةً حاصلها أن النظائر القرآنية انشعبت من أصل واحد .
٤- أي استعمالهما معاً .
٥- ((التحرير والتنوير)) : ١ / ١٢٣ .

منهجه في إيراد الألفاظ المشتركة[1]

لأن هذا الوجه أعظم الأوجه طولاً وأكثرها تشعباً فإنه ينبغي ذكر بعض النقاط التي تعين على فهم طريقة ورود المادة العلمية ، ثم أعقب هذا بذكر الإيجابيات والسلبيات في هذا الوجه .

أما منهجه في إيراد الألفاظ المشتركة فيتلخص في الآتي :

أولاً : إيراد الألفاظ بدون إرجاعها إلى موادها اللغوية غالباً :

التزم الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، إيرادَ الألفاظ المشتركة وغيرها – مما سيأتي التنبيه عليه إن شاء الله تعالى – التزم إيرادها على حالها كما جاءت في المصحف الشريف من غير إرجاعها إلى موادها اللغوية ، وهذا هو الغالب فيما أتى به من ألفاظ ، لكن هناك بعض الاستثناءات ، هي كالآتي :

أ – الجمع بين اللفظ ومادته :

قد يجمع بين إيراد اللفظ كما هو وبين إرجاعه إلى مادته ، ومثال ذلك من الألفاظ المشتركة قوله تعالى : ﴿تَعْبُرُونَ﴾[2]؛ فقد جاء به في موضعٍ وجاء بمادته (عبر) في موضع آخر ، إلا أنه قرن مع معنى تعبير الرؤيا معنى آخر وهو الجواز على الموضع[3] .

ومثال ذلك من الألفاظ غير المشتركة قوله تعالى : ﴿ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[4] ؛ فقد جاء به في موضع وجاء بمادته (عضل) في موضع آخر[5] .

١– إنما قلت الألفاظ المشتركة لأنه سماها كذلك وإلا فأغلبها غير مشترك كما سيأتي قريباً إن شاء الله.

٢– سورة يوسف : آية ٤٣ .

٣– انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٣ و ٢ / ٦٤٢ .

٤– سورة البقرة : آية ٢٣٢ .

٥– انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥ و ٢ / ٦٣٤ .

وانظر مثالاً آخر – في : ١ / ٢٩٢ ، ٦٢٥ – وهو (عاذ) و ﴿ معاذ الله ﴾ : سورة يوسف : آية ٢٣ .

ب – الإتيان بالمادة فقط :

قد يأتي باللفظ على مادته فقط – وهو قليل – ومثال ذلك :

(دعا)[١] و (عمه)[٢] .

ثانيـاً : التوسع في التفسير :

يكثر السيوطيّ رحمه اللـه تعالى من تفسير الألفاظ التي يوردها ، بل قد يفسر معها مايقاربها من الألفاظ أو أنه يتوسـع في تفسـير الآيـة كلهـا ، ولعـل هـذا معنـى قوله :

((مع أني زدت مع اللفظ المشترك تفسير مفردات لابد له منها ليتم له معناه))[٣] .

ومثال ذلك في اللفظ المشترك قوله تعالى ﴿ ءَامَنَ ﴾[٤] فقد قال فيه :

((﴿ ءَامَنَ ﴾ إيـماناً : أي صـدّق ، والإيمـان في اللغـة : التصديـق مطلقـاً ، وفي الشـرع : التصديق باللـه وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليـوم الآخـر ، والمؤمـن في الشرع : المصدق بهذه الأمور ، والمؤمن اسم اللـه تعالى ؛ إذ هو المصـدق لنفسـه ، وقيل إنه من الأمن ، أي يؤمن أولياءه من عذابه .

وأمِن – بكسر الميم وقصر الألف – أمناً ، وأمنتُ : ضد الخوف .

وأمن – أيضاً – من الأمانة ، وأمّن غيره من التأمين))[٥] .

ومن غير المشترك قوله تعالى : ﴿ رُخَآءً ﴾[٦] ، فقد ذكر فيها ملـك سـليمان – عليه الصلاة والسلام – وما حباه اللـه به[٧] .

١– المصدر السابق : ٢ / ٩٩ .

٢– المصدر السابق : ٢ / ٦٢٥ .

٣– ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

٤– سورة البقرة : آية ٢٨٥ .

٥– ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٢٧ .

٦– سورة ص : آية ٣٦ .

٧– ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٣٥ – ١٣٦ ، وانظر كذلك كلامه على قوله تعالى : ﴿دَحَىٰهَآ﴾ : ٢ / ٩٨ .

ثالثـــاً : الاستطراد :

يستطرد الإمام السيوطي - كثـيراً - في إيـراده للألفـاظ القرآنيـة فيـورد معهـا مواضيع قد لاتتعلق بها ، كما صنع في قوله تعالى :﴿ لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾[١]؛ فإنه توسع في ذكر كيفية إنزال القرآن الكريم ، والحكمـة مـن نزولـه مُنجمـاً ، وكيفيـة نـزول التوراة ، وكيفية نزول الوحي ، وفوائد أخرى[٢] .

وكذلك صنع الشيء نفسه في قولـه تعـالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [٣] ، فإنه ذكر آداب قراءة القرآن وطرائق قراءته وختمه ، وماكان عليـه السـلف في كـل ذلك ، وذكر مباحث أخرى في هذا الباب[٤] .

رابعــاً : الاستقصاء في ذكر الحروف ومعانيها وذكر الأدوات والأفعـال الناسـخة وما شابه ذلك :

استقصى السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ذكر الحروف ومعانيها في كل ماأتى به منها ، تقريباً ، كحروف الجر والنصب والجـزم ، وكذلـك الأفعـال الناسـخة ، وأدوات الشرط ، وغير ذلك[٥] .

وكل ذلك ليس من المشترك ، كما هو ظاهر ، وقد بين السيوطي أنـه مـاصنع هذا إلا ((لأن معرفة ذلك من المهمات المطلوبات لاختلاف مواقعها ، ولهذا يختلـف الكلام والاستنباط بحسَبها ، كما في قوله تعالى :

١- سورة الدخان : آية ٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٠٢ - ٢١٨ .

٣- سورة المزمل : آية ٤ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ١٢٣ - ١٣١ ، والأمثلة كثيرة جداً مبثوثة في الكتاب .

٥- انظر ((معترك الأقران)) - مثالاً - : ٢ / ١٩١ - ١٩٤ ، ٢ / ٢٣٩ - ٢٥٩ .

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[1] فاستعملت ﴿ عَلَىٰ ﴾ في جانب الحق و ﴿ فِي ﴾ في جانب الضلال ، لأن جانب الحق كأنه مُستعلٍ يصرف نظره كيف شاء ، وصاحب الباطل كأنه في ظلام منخفض لايدري أين يتوجه))[2] .

ثم إنه أتى بأمثلة أخرى متعددة وقال بعدها :

((فقد علمت من هذا أنه لابد من ذكر معاني هذه الأدوات وتوجيهها))[3] .

وهذا الاستقصاء هنا ضرب من الاستطراد والزيادة التي لاتعلق لها بموضوع الوجه ولا بالإعجاز ، والله أعلم .

ملاحظات على منهجه في إيراد الألفاظ المشتركة

هناك مجموعة من الملاحظات على منهج السيوطيّ في إيراد الألفاظ المشتركة هي الآتي :

أولاً : بيان الألفاظ المشتركة وتحديدها :

قد عجبت من أمر السيوطي في إتيانه بالألفاظ الكثيرة التي دعاها مشتركة؛ فإنه قد أتى على غالب كلمات القرآن ؛ حتى صار الكتاب كأنه تفسير شامل للقرآن العظيم ، وخلط المشترك مع غيره خلطاً عظيماً حتى أن أغلب الكلمات التي أوردها ليست من الألفاظ المشتركة ؛ فقد أورد أسماء الأنبياء الأعجمية مثل : ﴿ إِدۡرِيسَ ﴾ ، و ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ ، و ﴿ إِسۡحَٰقَ ﴾ على أنها من المشترك ، وأورد ألفاظاً من أمثال : ﴿ أُفّٖ ﴾ ، و ﴿ أُجَاجٞ ﴾ ، و ﴿أَلِيمٌ﴾ ، و ﴿ أَبَىٰ ﴾ ، على

١- سورة سبأ : آية ٢٤ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

٣- المصدر السابق : ١ / ٥١٧ .

أنها من المشترك[1] .

ولا أدري وجه إتيانه بهذه الألفاظ ومثلها وهي تعدّ بالمئـات، ولكنـه إذا أورد اللفظ المشترك يبين أوجه الاشتراك كما فعل في لفظ : ﴿ هدى ﴾ الآنف الذكـر[2] ، فلعلّه أراد الإتيان بالمشترك ضمن غيره ، لكنه لما لم يبين ذلك عَمِي على قارئ كتابه مـراده وصنيعُـه ، والأهـم مـن ذلـك أن الواقـف علـى الكتـاب ليستخرج الألفـاظ المشتركة منه سيحتاج إلى جهد عظيم ووقت طويل لأن تلك الألفـاظَ مبثوثـة ضمـن مئات من الألفاظ غير المشتركة. والعجـب أنـه لم ينبـه إلى هـذا الأمـر و لم يذكـر أنـه سيخلط مع المشترك غيره وإنما كان غاية ماذكره قوله :

((مع أني زدت مع اللفظ المشترك تفسـير مفـردات لابـد لـه منهـا ليتـم لـه معنـاه ، وأعقبت كل حرف بحروف تشـاكلها منهـا مـن الأسمـاء والظـروف))[3] . لكنـه لم يكتف بتفسير ألفاظ واردة مع اللفظ المشترك أو إيراد الظروف وحروف الجر فقـط ، إنما أتى بمئات الألفاظ التي لاتعلق لها بالمشترك ولا ارتباط لها به ، وهذا الصنيع سَـلبية بارزة في هذا الوجهِ الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز التي ذكرها في كتابه .

ثانياً : ترتيب الألفاظ التي أتى بها :

لم يكن للسيوطيّ - في تقديري - منهجٌ واضح محدد في ترتيـب الألفـاظ الـتي جاء بها في هذا الوجه،فقد جاءت هذه الألفاظ مشوشة مبعثرة ، **وهذا التشويش ظاهر من أربعة جوانب :**

الجانب الأول : عدم ترتيب الألفاظ نفسها على نظام معروف :

لم تأت الألفـاظ مرتبـة ترتيبـاً دقيقـاً ؛ فقـد جـاء بالألفـاظ مرتبـة مـن حـرف (الهمزة) إلى حرف (الزاي) ترتيبـاً هجائيـاً ، ثـم انتقـل إلى حـرف (الطـاء) ثـم (الظاء) تاركاً (السينَ والشين) ، ثم بعد (الظاء) انتقل إلى (الكـاف) مرتِّبـا إلى

١- شأن الحافظ السيوطيّ أعظم من أن تلتبس عليه مثل هذه الألفاظ ، لكني إنما ذكرت ذلك لورود تلك الألفاظ في الوجه الخامس والثلاثين : ((ألفاظه المشتركة)) بدون تمييز المشترك من غيره .

٢- انظر ص ٣٩٩ .

وانظر - مثالاً أيضاً - ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٩ : (دعا) ، ٢ / ٦٤٢ : (عَبَر) .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

(النون) تاركاً (العينَ والغين والفاء والقاف) ، ثم أتى (بالصاد والضاد) ، ثم أتى (بالعين والغين) ، و (الفاء والقاف) مرتِّباً ، ثم عاد إلى السين ثم الشين ثم جاء بالهاء ثم الواو ثم حرف اللام ألف ، ثم حرف الياء .

وهكذا يُتبين أن هذا الترتيبَ لم يأت على نظام معين ، إذ لم يُراعَ فيه النَّسَق الهجائيُّ ، ولم يَرِد كذلك على النظام الأبجديّ المشرقيّ أو المغربيّ[1] ، ولم يُراعَ فيه ترتيبُ الحروف بحسَب المخارج[2] ، فجاء نسق الألفاظ المشتركة على ضرب من البعثرة والتشويش ، ولا أدري سبباً لذلك إلا أن يكون من عبث النساخ وهو احتمال بعيد ضعيف ، لاتفاق النسختين على الترتيب الذي ذكرته آنفاً .

الجانب الثاني : عدم ترتيب الألفاظ تحت الحروف في أحيان كثيرة :

ترتيب الألفاظ تحت الحروف لم يكن دقيقاً أيضاً ، وليس له علةٌ ظاهرة ، فتارة يلتزم الترتيب الهجائيَّ المعروف ، وتارة تختلط هذه الألفاظ ويتشوّش ترتيبها ، فمن أمثلة ذلك ماأورده تحت حرف (اللام) فقد أتى بآيات فيه على النسق التالي :
﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3] .
﴿ لَوَٰقِحَ ﴾[4] .

١- ذكر المحقق أن السيوطي اتبع في ترتيبه الألفاظَ القرآنية طريقة المغاربة ، انظر ((معترك الأقران)) : ١ / س ، ولا أعرف علام بنى الأستاذ المحقق حكمه هذا ؟ !

٢- ولها أكثر من ترتيب ، وكل يشابه الآخر ، وأحد هذه الترتيبات : أ ، هـ ، ع ، ح ، غ ،خ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ي ، ض ، ل ، ن ، ر ، ط ، د ، ت ، س ، ش ، ص ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، و ، ب ، م) ، وانظر ((شرح المقدمة الجزرية)) : ص ٣١ وما بعدها .

٣- سورة النساء : آية ٨٧ .

٤- سورة الحجر : آية ٢٢ .

﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾[1] .

﴿ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ ﴾[2] .

فهذه الألفاظ لم يُراعَ فيها ترتيبُ الكلمات حسب الحرف الثاني بعد (اللام) لذلك قدمّ فيها الياء على الواو ، والواوَ على الهاء .

وقد يقال إن الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – لم يلتزم في الألفاظ ترتيب الحروف التي بعد الحرف الأول إنما التزم إيراد الألفاظ على ترتيب الآيات في سورها بحسب الحرف الأول فقط وهذا مردود بالآيات الثلاثة الأخيرة من سورة الحجر إذ لم تترتب على حسَب ورودها في سورتها ، ويزيد هذا إيضاحاً مايلي :

الجانب الثالث : تشوش ترتيب الآيات في السورة الواحدة في أحيان كثيرة :

لم تترتب الآيات – في كثير من الأحيان – في السورة الواحـدة ، ومثال هـذا النَّسَقُ التالي :

﴿ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (سورة التوبـة : ٤٢)

﴿ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا ﴾ (سورة الأنفال : ٣٧)[3]

﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا ﴾ (سورة التوبـة : ٣٥)

﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا ﴾ (سورة التوبـة : ٣٧)

ثم أورد عدة آيات من هذه السورة – سورة التوبة – بالطريقة نفسها[4] .

الجانب الرابع : عدم التزام إيراد السور على ترتيب المصحف حين يذكر اللفـظ ، في أحيان كثيرة :

١– سورة الحجر : آية ٧ .

٢– سورة الحجر : آية ٤٤ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٩٨ – ١٩٩ .

٣– في هذا الموضع شاهد – أيضاً – على الجانب الرابع الآتي .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٤٧١ – ٤٧٣ .

وليس له سبب ظاهر من كونه مراعياً ترتيب الألفاظ على الحروف الهجائية أو الأبجدية ، أو غير ذلك ، ومثال هذا النَّسَق التالي :

﴿ دَيَّارًا ﴾	(سورة نـــوح : ٢٦)
﴿ أَدْبَرَ ﴾[١]	(سورة المدثـــر : ٣٣)
﴿ دَحَنٰهَآ ﴾	(سورة النازعات : ٣٠)
﴿ دَسَّنٰهَا ﴾	(سورة الشمـس : ١٠)
﴿ دَمْدَمَ ﴾	(سورة الشمس : ١٤)
﴿ دُلُوكِ ﴾	(سورة الإسراء : ٧٨)
﴿ دُرِّيٌّ ﴾	(سورة النور : ٣٥)[٢]

فالألفـاظ الخمسـة الأولى مرتبـة ، بينمـا لفـظ ﴿ دُلُوكِ ﴾ و ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ غـير مرتبين مع ماقبلهما .

ثالثاً : التكرار :

كرر السيوطيّ – رحمه اللـه تعالى – ذِكْرَ بعض الألفاظ القرآنية بـدون سـبب ظاهر ؛ فقد أورد قوله تعالى : ﴿ نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾[٣] تحت حرف النـون[٤] ، وأورد ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ في حرف الهاء[٥] ، صحيحٌ أنه قد أضاف هنـا ذكر الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ لكن كان يمكن الجمع بذكر الآية في حرف الهاء فقط .

وقد يُكرر المعنى في اللفظ المشترك نفسِه ؛ فقد جاء بقوله تعالى :

١– لعل مراده منها قراءة (دَبَر) ، وهي قـراءة ابن كثير وأبي عمرو وشعبـة والكسائيّ وأبي جعفر : انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢ / ٣٩٣ .

وإنما قلت ذلك لأن ﴿أَدْبَرَ﴾ ليست مبدوءة بحرف الدال فتستقيمَ مع سائر ماأورده ، وقد ذكر السيوطيّ نفسه أنها قرئت بالوجهين المذكورين وأن معناهما واحد ((حيث يقال دبر الليل النهار ؛ أي جاء في دبره ، وأدبر)) انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٨ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٧ – ٩٩ .

٣– سورة النجم : آية ٥٦ .

٤– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥٨٢ .

٥– المصدر السابق : ٣ / ٣٠٦ .

﴿ قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾[1] وذكر أن من معاني ﴿ قَضَىٰٓ ﴾ : الفراغ ، ومثل له بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾[2] ، ثم ذكر أوجهاً أُخر عاد بعدها إلى ذكر (الفراغ) ومثل له بقوله تعالى : ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾[3] .

ومعنى ﴿ قَضَىٰٓ ﴾ في الآيتين واحد[4] .

رابعاً : التكلف في إيراد بعض الألفاظ :

قد ينتزع السيوطيُّ - رحمه الله تعالى - اللفظ من الآية انتزاعاً فيثبته في مكانه على حسب الحرف الأول منه ، لكن إيراده لايكون مناسباً لاختلال السياق وعدم اكتمال ألفاظ الآية ، ومثال هذا :

١ - جاء بقوله تعالى : ﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾[5] ولم يذكر موصوفه وهو ﴿ كِتَٰبًا ﴾ والعجيب أنه أعرب كلمة ﴿ كِتَٰبًا ﴾ فقط حيث قال :

((﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾ نُصب على المصدر[6] ، لأن المعنى كتب الموت كتاباً ، وقال ابن عطية : نُصب على التمييز))[7] .

فليس لإيراد كلمة : ﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾ هنا سببٌ إلا إدراجها تحت حرف الميم ، أما كلامه فكان على لفظ ﴿ كِتَٰبًا ﴾ فقط ، ولاأدري لِم لم يورد ﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ في مكانها من حرف الكاف .

١- سورة البقرة : آية ١١٧ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٧٣ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٠٠ .

٣- سورة يوسف : آية ٤١ .

٤- فعل ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿فِتْنَةٌ﴾ ، فقد كرر من معانيها (الضلال) ، انظر ١٦٩/٣ .

٥- سورة آل عمران : آية ١٤٥ .

٦- قوله : ((نُصب على المصدر)) متوجه إلى إعراب كلمة ﴿كِتَٰبًا﴾ ، كما سيأتي .

٧- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٨٦ .

٢ – وكذلك صنع في قوله تعالى :
﴿ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ ﴾[١] حيث قال :
((نصب على الحال من الضمير في لكم))[٢] ، والكلام على لفظ ﴿ غَيْرَ ﴾ الواردة قبل ﴿ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ ﴾ .

٣ – قوله تعالى : ﴿ قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٣] حيث قال فيه السيوطيّ :
((أي لاتدرسوا[٤] منه إلا ما يُحتاج للأكل خاصة خوف ضياعه))[٥]، وسياق قوله تعالى ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ضروريّ لفهم المراد .
والمتأمل في الأمثلة الثلاثة الماضية يعلم أن إيراد السيوطيّ لها تكلف محضٌ ، والله أعلم[٦] .

كانت تلك بعض الملاحظات النقدية على منهج السيوطي في إيراده الألفاظ القرآنية المشتركة وغيرها ، وتلك الملاحظات المذكورة كلها لاتنافي أنه بذل جهداً علمياً ضخماً في تجميع تلك المادة الكبيرة ، وإنما كان الكلام منصباً على تنظيمها وترتيبها ووفاءِ العنوان بمضمونها حيث كان في ذلك خللٌ وضحته آنفاً ، والله أعلم .

١- سورة المائدة : آية ١ .
٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٤٩٠ .
٣- سورة يوسف : آية ٤٧ .
٤- الدَّرْس – هنا – معناه دَوْس السنابل حتى ينفصل عنها الحَبُّ ، وانظر ((لسان العرب)) : درس .
٥- ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٨٧ .
٦- انظر – للمزيد من الأمثلة – : ٢ / ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٩٨ ، ٣ / ٥٥٢ .

نظرة مجملة على وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيُّ

وبعد عرض وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيّ في كتابه يتضح الآتي :

أولاً : لم يختر الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - وجهاً محدداً أو أكثر من وجوه الإعجاز التي ساقها ، إنما ساق أكثرها على أنها وجوه إعجاز ، فصار كأنه يختار الإعجاز بمجموعها ؛ وذلك لأنه لم ينص نصًّا واضحاً على إرادته واحداً منها وتفضيله إياه على سواه .

أو أنه يرى أن الإعجاز ليس في مقدور الخلق الكشف عنه ، وذلك لأنه قال في أول كتابه قبل الحديث عن أوجه الإعجاز :

((فإذا علمت عجز الخلق عن تحصيل وجوه إعجازه فما فائدة ذكرها ؟ لكنا نذكر بعضها تطفلاً على من سبق ...))[1] .

ثانياً : كان همّ السيوطيّ منصبًّا على الجمع والإحاطة أكثر من اهتمامه بالتحليل والنقد ، ويتضح ذلك جليًّا من عدد النقول التي ساقها مِن كتب من تقدّمه من الأئمة ، وقلةِ نقده لها ، وكلامهِ عليها كلاماً موجزاً ، ويتضح ذلك - أيضاً - بذكره أوجهاً لاتعلق لها بالإعجاز ألبتّة وتوسعه فيها توسعاً كبيراً .

ثالثاً: لم تستو وجوه الإعجاز التي ساقها من حيث الكمّ ، فتارةً يكون الحديث عن أحدها في صفحة أو أقل ، وأخرى يكون الحديث عنها في قرابة خمسين صفحة .

والعجب أن أوجه الإعجاز التي أوجز الحديث عليها إلى الغاية هي الأوجه التي يمكن التفصيل فيها ، وتقريرُ الإعجاز تقريراً حسناً بمناقشتها ، فمن الوجه الثامن عشر إلى الوجه الثاني والعشرين - أي خمسة أوجه من أوجه الإعجاز - جرى الكلام على

١- ((معترك الأقران)) : ١/١١ .

الإعجاز فيها في قرابة ست صفحات فقط ، وكانت تلك الأوجه من أهم أوجه الإعجاز التي ساقها في كتابه .

رابعاً : لم تستو وجوه الإعجاز التي ساقها من حيث الكيف ، فبعضها تتضح فيه علائم الجدّة والتفكير العميق والابتكار ، وبعضها لاتعلق له ألبتة بالإعجاز ، وبينهما وجوه تتجاذبها الجدّة والتكرار .

هذا وقد انقسمت وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - من حيث الابتكار والتكرار إلى ستة أقسام هي :

أولاً : أوجه جديدة متفردة مستقلة بالإعجاز لم يذكرها أحد قبله على أنها من أوجه الإعجاز ، فيما أعلم ، وهي :

١ - الوجه السادس : مشتبهات آياته[١] .

٢ - الوجه الثلاثون : اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلّة .

ثانياً : أوجه جديدة لم يذكرها أحد من قبله لكنها ليست مستقلة بالإعجاز بل هي مندرجة تحت أوجه أعمَّ منها ، وهي :

١ - الوجه الخامس عشر : افتتاح السور وخواتمها .

٢ - الوجه الحادي عشر : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع .

٣ - الوجه الثاني عشر : إفادة حصره واختصاصه .

٤ - الوجه الخامس عشر : ورود بعض آياته مجملةً وبعضها مبينة .

٥ - الوجه السابع عشر : وجوه مخاطباته .

٦ - الوجه الثالث والعشرون : وقوع الحقائق والمجاز فيه .

٧ - الوجه الرابع والعشرون : تشبيهه واستعاراته .

٨ - الوجه الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض .

١- وذلك باعتبار جزئي معين يراجع في ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

٩ - الوجه السادس والعشرون : إيجازه في آية وإطنابه في أخرى .
١٠ - الوجه السابع والعشرون : وقوع البدائع البليغة فيه .
١١ - الوجه الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء .
١٢ - الوجه الحادي والثلاثون : ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة .
١٣ - الوجه الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة .

ثالثاً : أوجه ذكرها المصنفون قبله لكنه أبرزها جلية واضحة :

١ - الوجه الأول : العلوم المستنبطة منه .
٢ - الوجه الرابع : مناسبة آياته وسوره .
٣ - الوجه العاشر : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها من التخفيف والتشديد وغيرهما .

رابعاً : أوجه ذكرها عدد من الأئمة قبله :

١ - الوجه الثاني : كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان ، محروساً عن التبديل والتغيير .
٢ - الوجه الثالث : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب .
٣ - الوجه الثامن عشر : مانطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات .
٤ - الوجه التاسع عشر : إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة .
٥ - الوجه العشرون : سامعه لايمجه وقارئه لايمله .
٧ - الوجه الثاني والعشرون : تيسيره تعالى حفظَه وتقريبه .

خامساً : أوجه لاتعلق لها بالإعجاز إلا بشيء من التكلف :

١ - الوجه السابع : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات .

٢ - الوجه الثالث عشر : احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم.

٣ - الوجه التاسع والعشرون : إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها .

٤ - الوجه الثاني والثلاثون : مافيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف .

٥ - الوجه الثالث والثلاثون : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها .

٦ - الوجه الرابع والثلاثون : احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب ، وأسماءِ القبائل والبلاد ، والجبالِ والكواكب .

سادساً : أوجه لاتعلق لها بالإعجاز ألبتّة :

١ - الوجه الثامن : وقوع ناسخه ومنسوخه .

٢ - الوجه التاسع : انقسامه إلى محكم ومتشابه .

٣ - الوجه الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها .

٤ - الوجه السادس عشر : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه .

خلاصة أوجه الإعجاز التي سيقت في هذا البحث

قد سبق لي ذكر أحد عشر وجهاً للإعجاز في الباب الأول هي خلاصة ماقيل عن أوجه الإعجاز في الكتب التي ذكرتها ، وسأعيد ذكرها هاهنا مضيفاً إليها الجديدَ الذي ذكره الإمام السيوطي :

١ - الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم .

٢ - الإعجاز بالأسلوب .

٣ - الإعجاز بأخبار الغيب .

٤- الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٥ - اشتماله على الحقائق والأسرار والدقائق .

٦ - خلوه من الاختلاف والتناقض .

٧ - الإعجاز أمر لايستطاع التعبير عنه .

٨ - التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق،وفيه وقع الإعجاز .

٩ - الإعجاز بـ (الصَّرفة) .

١٠ - الإعجاز بمجموع أوجهٍ منها (الصَّرفة) .

١١ - الجمع في القرآن بين الدليل والمدلول[١] .

وأضيف إلى هذه الإحدى عشرة ما عدّه السيوطي من أوجه الإعجاز ، وهو جديد مستحق للتفرد :

١٢- اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة .

١٣- الإعجاز بالآيات المشتبهات (على اعتبار جزئي معين فيها)[٢].

هذا عدا ثلاثة عشر وجهاً عدّها السيوطي من أوجه الإعجاز وهي كذلك إلا أنها مندرجة تحت بعض الوجوه الثلاثة عشر المذكورةِ آنفاً ، كما بينت ذلك في موضعه ، والله أعلم .

١- انظر ص ٢١١ - ٢١٢ من هذه الرسالة .

٢- انظر ص ٣٥٥ - ٣٥٦ من هذه الرسالة .